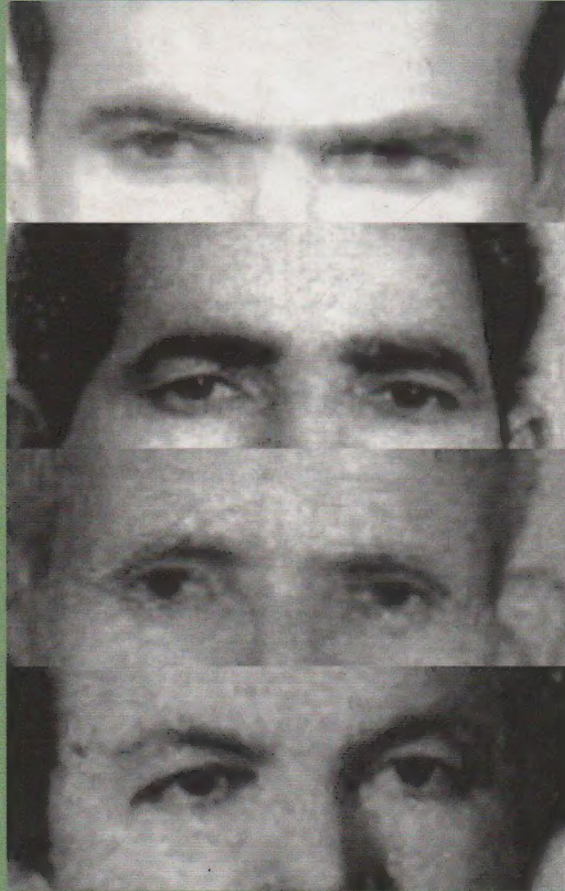


المهدي بنونة

أبطال بلا مجد

فشل ثورة

1973-1963



منشورات طارق



أبطال بلا مجد فشل ثورة 1963 - 1973

تأليف : المهدي بنونة

ترجمة : علي آيت احما

منشورات طارق

رقم الإيداع القانوني : 1179 / 2005
ردمك : 4 - 28 - 419 - 9954
مطبعة المعارف الجديدة - الرباط
يونيو 2005

توطئة

يوم الثلاثاء 6 مارس 1973، في مكان ما من الأطلس الكبير بالمغرب

يهوي التراب الرملي والرطب في صمت. وحدها ضربات مجرفة حفار القبور تنظم إيقاع سكون الفجر. رائحة التراب الرطب تفوح في الهواء، اللحد يحفر قبرا وعلى جانبه جثمانان يغطيهما كفن مدعوك، وعلى مقربة، يقف رجلان. من السهل معرفة أنهما من رجال الشرطة : العميد السيد م. وجانبه المفتش السيد أ.. يضرب أحدهما الأرض برجله، من الواضح أنه يريد من الحفار أن يسرع وأن ينهي عمله، وأما الآخر فقد بدا أكثر هدوءً، ويتظاهر بعدم الاكتراث أو الرغبة في أن ينتهي الأمر سريعا. عندما اكتملت الحفرة، ساعد الرجلان في وضع الجثمانين داخلها. ثم تناولا المحملين الفارغين وابتعدا في صمت، لقد كانا مترددين بين جلال اللحظة والإرتياح من عملٍ شاق قد انتهى.

وهاهو عمر جبهة، الذي كان في ذلك الوقت الطبيب الرئيس بمستشفى مدينة قصر السوق (والتي أصبحت الراشيدية فيما بعد)، هاهو يتذكر بأن "العميد م. حضر من أجل تسلم الجثمانين غداً وصولهما. فقد حطت ثلاث طائرات مروحية تابعة للجيش في منتصف عشية اليوم السابق. وهي عملية كان بالإمكان أن لا ينتبه إليها أحد في هذه المدينة التي توجد بها ثكنة والتي اعتادت على فرق الجيش. ولكن سرعان ما حوَّصر المستشفى حصارا تاما وأغلقت كل المنافذ المؤدية إليه. مُنع أخذ أي صورة. كان الضابط الذي يقود العملية فرنسيا. وكذا ربابنة الطائرات. سلمني جنتين لا حياة فيهما لأتعرَّف على هوينهما. وسلمني كذلك رجلا ثالثا مجروحا في ساقه ينزف نزيفا. فهمت في الحين. منذ أزيد من أسبوع والذبايع يتحدث عن مطاردة مجموعات مسلحة في الجبال. كان أمامي قائدهم إذن. وقد غطت ثقوب الرصاص صدره. بل إن رصاصة أصابت رأسه كذلك. وحسب ما يُحكى فإنه كان مهندسا تكون في ألمانيا. وإلى جانبه كان يرقد جثمان أحد رجاله القربين. ناولني العميد م. صورا فوتوغرافية لاستعمالها في التعرف على الجثمانين. إلا أن لختيهما الكثنتين جعلت من عملية التعرف أمرا مستحيلا. ولهذا لجأت إلى البصمات.

وحسب الإشاعات فإن الحسائر في صفوف القوات المساعدة كانت فادحة. ولكنهم ذهبوا بموتاهم وجرحاهم إلى مستشفى عسكري. وبعد أربع وعشرين ساعة، رجع العميد م. ليأخذ الجثتين ويدفنهما¹.

كان من المفروض أن يكون يوم الثلاثاء 6 مارس يوما عاديا. لكن بدأ ينتشر خبر سقوط قائد الثوار، محمد بنونة، المعروف بمحمود، خلال اشتباك قرب كلميمة. ولربما أصيب كذلك رجلان من رجاله المقربين، وتوفي على الأقل أحدهما. وقد بات الأطلس المتوسط يفور ويثور منذ أولى عمليات تبادل إطلاق النار بمولاي بوعزة، قرب مدينة خنيفرة.

ولهذا، وبحماس واضح صريح أو يكاد، أكدت وزارة الداخلية موت "قائد الإرهابيين". في بلاغ كله افتخار واعتزاز. ولكن بقي على السلطة أن تخرب ما تخشاه كما تخشى السلاح: إنها الذكرى التي حفظ الذكريات. والعميد م. الذي يغادر مقبرة قصر السوق تحت شمس لم تشتد بعد، يعرف هو كذلك هذا الأمر. لهذا فإنه اختار حفار قبور من رجاله. وهذا هو السبيل الوحيد لكتمان السر. إن تعليمات رؤسائه كانت واضحة: يجب أن يبقى مكان دفن قائد المتمردين مجهولا وذلك حتى يحو موته كل أثر له في الذاكرة.

وعند ظهيرة ذلك اليوم نفسه، عاد دوي البنادق من جديد قرب أسول، ثم تنغير في اليوم الموالي.

الجمعة 29 أكتوبر 1995، باريس

جمع أناس أمام الرقم 151 بشارع سان جيرمان في الدائرة السادسة بباريس. لقد كانوا مترصدين أمام المطعم ليب. كان هناك إبراهيم وعباس وخالد وإدر. كانوا في الخمسينات من عمرهم، يلبسون معاطف تقيهم شتاء فصل الخريف، جُمهر حولهم أناس حضروا إلى المكان نفسه الذي اختطف منه المهدي بن بركة قبل ثلاثين سنة، للتأمل والتفكير.

إنها جريمة دولة تعلن بداية حرب مفتوحة بين الحسن الثاني، ملك المغرب، وأشد معارضيه ثباتا وإصرارا. لقد خاضوا هذه الحرب عندما كانوا شبابا يوحدتهم كفاح واحد. ومنذ ذلك الحين تضاعلت أعدادهم. لقد اكتسى هذا الحج السنوي طابع تلاقى الرفاق القدماء ثانية، فيتبادل الحاضرون التحيات والأخبار. وبعد أن شددت على أيام وعانقت بحرارة [أعزاء]. بدأت النقاش وضربت مواعيد. هكذا بدأ هذا البحث.

ما الذي يحركني ويدفعني؟ أهى آثار فقداني لأبي؟ ربما. إن أخذنا بعين الاعتبار أن فقداني لأبي بقي لغزا حتى أجنب الانتقام المفترض وحتى يختفي

1 حوار مع المؤلف.

جرّح لا يريد أن يندمل بسبب غياب الأجوبة عن أسئلة بسيطة من قبيل لماذا؟ وكيف؟ ...

وأمام هذه الأسئلة التي لا جواب عنها، بقيت أحمل في أعماقي الحاجة إلى البحث عن هذه الأجوبة. حاجة يذكرها محظور فيه مفارقة: ذلك أنه خصّب من حيث الروايات المتناقضة والشهادات التي لا تصدق. كان هذا كافياً لإثارة فضول جامعي تخرج منذ زمن قريب من شعبة العلوم الإنسانية وتدريب على البحث الميداني. هذه الحكاية، التي أود تركيبها من جديد، واقعية. فهي تسرد سرداً وفيها أمينا قدر الإمكان أحداث مغامرة رجال حملوا أمل الثورة في المغرب؛ والقليلون هم الذين يعرفون هذه الأحداث معرفة حسنة كافية.

إبان حياة الحسن الثاني، كان تاريخ البلاد يُقرأ من خلال صمت خصومه الذين باتوا في وضع المتفرجين على سلطة تحتكر احتكاراً مطلقاً ذاكرة شعبيها. وبعد ثلاثة عقود، ومع اعتلاء محمد السادس العرش، أخذ المغاربة يَنَتَشُونَ ببداية حرية لم يسبق لهم أن شهدوها على تراب بلدهم. هذه الحرية هي التي دفع محمد بنونة حياته ثمناً لها. تروي هذه الحكاية مسار حياة. وتروي كذلك موت العديد من الأبطال المجهولين الذين يذكروننا بفضل كفاحهم ضد الاستبداد باسم كرامة الإنسان. يذكروننا بالمعنى الحقيقي لكلمة "مقاومة". وذلك لأنهم كانوا أوفياء لأفكارهم. فحاولوا بشجاعة وثبات العمل من أجل ميلاد اللحظة التي كم يخشاها ويهابها الحكام المستبدون. اللحظة التي يترأى فيها للشعب ما لم يكن يتصور إمكانية وجوده: إنها الحرية. عرفت هذه المغامرة نهايتها المأساوية فيما يُطلق عليه باحتشام "أحداث مارس 73". إنها صفحة غائبة عن التاريخ الرسمي. بيد أنها أحداث تاريخية لا غنى عنها لأنه لا بد للشعوب أن تعرف مِم هي مَكُونَة وما هو المعنى العميق لتضحياتها وآمالها.

لقد أخذت هذه الحكاية تظهر للوجود منذ زمن قريب وشيك. وهي في مستوى الصمت الذي لفها فيه منذ سنوات طوال واضعو التاريخ الرسمي. إنها حكاية فريدة ومأساوية في آن واحد.

أن تحكي ثابّة مسار ثورة أجهضت ليس بالأمر اليسير لاسيما إن كان المراد هو اجتناب شوائب وتنوعات الخطاب النضالي، وخطاب المغالطة أو الطوائف. منذ ذلك العهد كان للعديد من الأطراف المعتقدة الوقت الكافي لوضع اللمسات الأخيرة على رواياتهم الخاصة. وفي الآن نفسه، رَفَعَ هؤلاء الذين كانوا مرؤوسين يطبقون الأوامر أيام القمع فتميزوا بخضوعهم وخنوعهم، رفعوا رؤوسهم من جديد. وهم كذلك بدأوا يعيدون كتابة التاريخ متدثرين بلباس المدافع المنافع عن العدالة لأنهم قضوا، باسم النظام، على أساس مفاخر الشعوب، ألا وهي أمانته ونزاهته وشجاعته. بقي آخرون

صامتين متحصنين وراء سكوت يسكنه الخوف. سكوت مُذل مشين. أو. وفيما يخص العديدين منهم. وراء الصمت الأبدي للأسف.

لا يهم الأمر هاهنا سرد شهادات ولا إنجاز دراسة. بل الغرض هو محاولة للإحاطة. عبر مسار بعض الفاعلين في تاريخ المغرب الحديث. بنشوء حركة ثورية كادت تقلب مجرى التاريخ وإجهاضها. إن عدم وضوح هذه الحركة والحصار الذي ضربه التنظيم المنفصل عليها قد فرض عملا وبحثا دقيقين للعثور على مصادر متنوعة لجمع المعلومات واستثمارها. إن المقاربة النسقية بين هذه المعلومات كانت تخضع لمقاربة عملية تطبيقية. هدفها اجتناب الاختصارات التي تُرضي الآراء والأحكام المسبقة.

غرضي إذن هو إعادة الاعتبار لحلقة من التاريخ المعاصر والتفكر فيها. تاريخٌ ضلله صمتُ البعض وكذبُ البعض الآخر. إلى أي حد يمكن أن تذهب إعادة صياغة التاريخ؟ وأين يمكن أن يُعاد امتلاك تجربة غير معاشة؟ يرمي عملي إلى نفض الغبار عن الشهادات والتهريرات وبعض مواقف السكوت التي كانت أحيانا أبلغ من الخطابات الطويلة. والمقاربة بينها وتأويلها. بنضاف إلى هذا العائق إحساسٌ حاد بمشروعية الخطاب. فالهيئات المسيرة للحزب² (الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية حاليا) التي انبثق عنها الفاعلون في هذه الحكاية. يرى أعضاء هذه الهيئة في أنفسهم. كما هو شأن القصر. المؤمنين على الموروث التاريخي لهذا البلد. ولئن كان لكل شعب الحق في معرفة تاريخه. فإن الشغل الشاغل لرجال السياسة هو أن يضعوا فوق الأحداث أعلاما تتوافق وأهواءهم. وهكذا فهم يعتبرون أنفسهم وحدهم المؤهلين للإفصاح عن بعض جوانب الأحداث التي تشكل النسيج التاريخي لهذه البلاد أو. وهو الغالب الأعم. إقبار ودفن هذه الأحداث.

إن الانتفاضة التي تنجح تُسمى "ثورة". وتوضع عليها كل علامات التقدير والإجلال. كما توضع لها تماثيلها وشاهداتها. ومؤرخوها الذين يلاحقون مسار الأحداث بحثا عمن ساهم فيها. مَن تبنى ذلك أو مَن جادل فيه. وأما الانتفاضة التي تفشل فتسمى "عصيانا" دون أي علامة تقدير وإجلال. دلالة على الخزي الذي طالها. ومما دامت الحركة نتيمة فإن الصمت يلفها. بل إن الكلمة تُعطى للموتى الذين يواصلون الحياة. محتشمين. في شكل صور مقدسة من صور الاستشهاد من أجل الثورة. يقدرهم ويحترمهم البعض. ويضارب بهم البعض الآخر. بعد أن أصبحوا صورا جامدة يحملها من أراد أن يرفع من شأنه الخاص ليتباهى بأمجاده.

يبقى التناف الزمن والخوف من الحديث عن صفحة من التاريخ هددت الأوضاع القائمة. يمكن لمعالجة الأشياء من زاوية تاريخية أن تنير إنارة مثيرة أحداثا اعتبرت. في ذلك الحين. أحداثا لا أهمية لها. وعلى العكس من ذلك. فإن تجربة قوية مؤثرة يمكن

² ظهر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في شتنبر من سنة 1959 بعد انشقاق حزب الاستقلال. وهو الحزب الوطني الذي هيمن منذ الأربعينيات والذي قاد الكفاح من أجل الاستقلال. وسنة 1975، تحول إلى الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

أن تصبح. بعد مرور زمن على حدوثها. تجربةٌ محصورةٌ محدودةٌ يُنظر إليها على أنها حدث جزئي لا وقع له ولا تأثير.

وقد عملت. حرصاً على مجرى الأحداث. على إعادة تركيب بعض الأحداث والحوارات. رابطاً بين الوثائق والشهادات التي جمعتها.

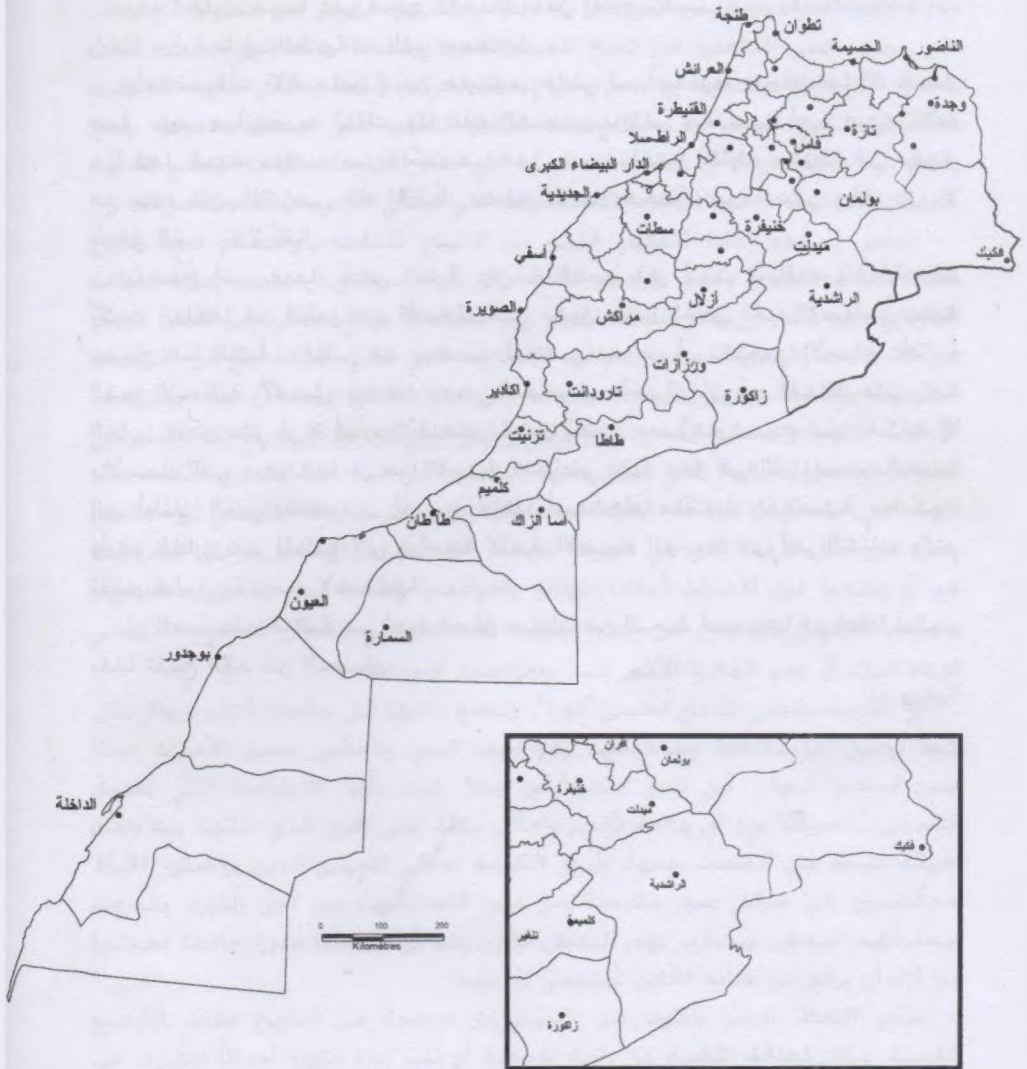
وأما تخوفات الأشخاص الذين حاورتهم. فإنني لم أجعلهم يتجاوزونها إلا بفضل عمل دؤوب هياتهم به لذلك. ولما علم العديدون بزيارتي وبسببها. أحيا فيهم الأمر ردود فعل قديمة: مواعيد سرية حدد ميقاتها وسيط. اختيار طاولة معزولة في مقهى مع وضع ظهر الكرسي تجاه الحائط. سطور تكتب بعجلة وسرعة على ورقة حتى لا ينطق الفرد بما لا يُقال...

توضيحٌ أخير فيما يخص اختيار طريقة السرد. فإن كانت المواقف والحوارات قد رُكبت انطلاقاً من الشهادات المجمعة. التي تُكون. فيما يخص الجزء الأساسي منها. نسيج هذا الكتاب. فإنني قد سمحت لنفسني. بغرض أن تكتسي الأحداث الحكمة القوة الإيحائية الأفضل. بإضافة بعض التفاصيل. وأخيراً. فإن هم الحفاظ على راحة القارئ. فرض علي أن لا أسرد الأشخاص الذين يُضيء مسارهم نسيج هذه الحكاية إلا بالأسماء التي عُرفوا بها. إن هذا الاختيار اعتباطي وغير عادل في الآن نفسه بالنسبة إلى أولئك الذين يستحقون أن يروا هاهنا أسماءهم مذكورة وإخلاصهم مشكوراً. وأدعو القارئ غير المطلع إلى مراجعة لائحة الأسماء الموجودة في آخر الكتاب والتي تضم سيرة مقتضبة لأصحابها.

إن الصفحات التالية هي ثمرة خمس سنوات من البحث أمضيتها في إعادة تركيب بقايا تاريخٍ أنقذ من النسيان.

المهدي بنونة

خريطة المغرب



فجر الأبطال وانطلاقة جيل (1953 – 1963)

لأن المهدي بن بركة جاب جميع نواحي البلاد، فإنه قد لاحظ الأمر البديهي: النظام الملكي في المغرب تمتدحه الأغلبية الساحقة من المغاربة لا على أنه مؤسسة سياسية (وكيف لهم بذلك ما داموا محاصرين حصاراً شديداً خارج دوائر هذا النظام وكواليسه؟) وإنما لأن هذا النظام رمز بصفته معطى أساسياً للهوية الوطنية وملجأً يحمي من التدخل الأجنبي الذي كان ما زال ممكناً. لهذه الأسباب ولأسباب أخرى كذلك، فإن النظام الملكي مقدس تقديساً يكاد يكون لا عقلانياً، إذ أسبغت عليه خصالٌ تتعدى الخصال البشرية وقدراً خارقة.

والمهدي بن بركة، إلى جانب الحسن الثاني، هو الوحيد بكل احتمال الذي عرف معرفة واضحة الدوافع الاجتماعية والإيديولوجية لهذا الاندفاع الشعبي وفهمها. ولئن اجتهد الحسن الثاني في جعل هذه الدوافع أداةً سخرها ليؤسس عليها استمرار الملكية العلوية، فإن المهدي بن بركة، من جانبه، قد عمل على إصلاح تلك الدوافع ليملك المغرب مشروعاً تنمياً.

إن طبيعة هذه المنافسة، والتي كانت نهايتها في غير صالح ابن بركة بل والتي أدت إلى تصفيته الجسدية، تفسر لماذا فضل العديد من المثقفين والمهندسين، كما هو شأن محمود، خيار حمل السلاح. ومنذ ذلك الحين، غدت نهاية الستينيات هي النهاية التي رُكبت فيها الطبقة المثقفة المغربية، مستوحية ذلك من شي غيفارا، طريق المقاومة انطلاقاً من الجبال.

ولكن كان بعض القدماء قد مهدوا لهم هذه الطريق من قبل. إنهم أولئك الذين ضحوا بشبابهم في صفوف جيش التحرير الوطني خلال الخمسينيات. هذا الجيش الذي يبقى هو كذلك مغامرة مجهولة، والذين خيب آمال رجاله استقلالاً نادوا به وتمنوه. وبالفعل فمنذ الشهور الأولى، كانوا يشهدون عملاء الاستعمار، الذين كافحوا ضدهم، يُعاد لهم الاعتبار ليصبحوا محط عناية وامتناز. شهدوا نظاماً عتيقاً يعود مرة أخرى وكله استعلاء، يلعب لعبة الاستعمار – الجديد، وربما على وجه الخصوص، لا يعبر

أدنى اعتبار للأمال والوعود التي كافحوا من أجلها: ليست حرية شعبهم فحسب، بل وكذلك العيش الأفضل وما يتحقق من أرباح ضرورية في مجالات التنمية والتعليم والصحة، والانعقاد من العصور الوسطى التي، وبعد أربعين سنة، لا تكاد تنجو منها جبال المغرب وسهولته. يوضح هذا الفصل الأول مسار هذين النمطين من الناس وتلاقيهما، النمري وسيدي حمو فيما يخص قدماء المقاومين، ومحمد بنونة، المعروف بمحمود، ودهكون فيما يخص النمط الثاني المتكون من الطلبة الثوريين الشباب.

النمري، المتمرد

قد يحدث أن يزعزع ويحرك رجالٌ مجرى التاريخ، خدوهم روح الكرامة وكذا الإحساس بالواجب الذي يجب القيام به فيجابهون قوى أكبر من قوتهم. والنمري، المعروف بإبراهيم التيزنيتي، كان من بين هؤلاء. كانت هيأته الجسمية تدل على أن الرجل قد حنكته سنوات من المتاعب والصعاب تجاوزها بفضل قوة قناعاته وحدها. كانت نظرته الوقورة توحى بأنه من الزهاد الناسكين. كان هادئاً هوداً داخلياً لا يعرفه إلا أولئك الذين عاهدوا على أن يهبوا حياتهم لتحقيق مثال أعلى. وحتى إن لم تسعفه الأحداث، فإنه كان يتابع دون هوادة الطريق التي سطرها له إيمانه بعدالة القضية التي يدافع عنها. لقد كان فعلاً يملك الصفات والخصال التي يصنع منها الأبطال. هؤلاء الأبطال الذين يعمل الجبناء والطغاة على أن يطويهم النسيان. ويُعبر رفيقه في السلاح، إدريس بوبكر، الذي سوف يصبح عقيداً (كولونيل) في الجيش المغربي، بعباراته الخاصة عن إعجابه بالنمري: "لن تلد امرأة أبداً رجلاً من هاته الطينة".

ودق الاستقلال سنة 1956 ناقوس السلم عند الأبطال. بدايةً من أولئك الذين سارعوا أن يستبدلوا وطنيتهم بامتازات مادية. كان النمري في ذلك الحين، ضمن أطر جيش التحرير الوطني، من بين أولئك الذين كانوا يضعون كامل ثقتهم في عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي، الرمزان القويان للمقاومة ضد الاستعمار. كان شعارهم هو الشعار الذي أطلقاه من منفاهما بالقاهرة: "طلما أن الجزائر ليست حرة، فإننا لن نستعرض في الرباط".

لم يكن النمري مكافحاً التحق مؤخراً بالمقاومة قد يرفض لهذا السبب سلماً يعتبره سابقاً لأوانه لأن حماسه واندفاعه ما زال في طور النشوء والابتداء. وإنما كان النمري من بين المقاومين الأوائل الذين التحقوا بالمنطقة التي تراقبها إسبانيا بشمال المغرب، ليلتحق بعد ذلك بمعسكرات التدريب التي سوف تتخرج منها الفرق العسكرية والتي سوف تصبح فيما بعد جيش التحرير الوطني. وهو نواة حركة مسلحة ولدت

في قلب الجبال بعد أن انتشرت الاعتقالات البوليسية في المدن. اعتقالات وضعت العديد من "الإرهابيين" وراء القضبان¹. لقد ولدت هذه الحركة لترفع ثانية مشعل كفاح شملت حركته عمليات اعتقال أهم القادة الوطنيين ونفبهم . وهذه الحركة إنما كانت تعمل على ملء فراغ سياسي خلفته فرنسا وراءها.

انضاف إلى النمري وأصحابه عدد من الطلبة الذين كانوا مستقرين بالخارج. وهم مثقفون شباب، تخرجوا حديثا من جامعات أوروبية. فغدت مهمتهم هي أن يصبخوا أطر المقاومة في الجبال. من بين هؤلاء المكافحين الأوائل. سوف يؤثر البعض على مجرى السنوات الموالية، وخاصة منهم عبد الرحمن اليوسفي. الذي سوف يصبح فيما بعد وزيرا أولا.

كان الفدائيون في ذلك الحين يعملون تحت قيادة عامة مغربية يتواجد بها جنبا إلى جنب جزائريون ومغاربة. وبالفعل فإن ما ينادي به قادة جيش التحرير الوطني هو التحرير الشامل للبلاد المغاربة. فقد كانوا، وانطلاقا من معسكراتهم المتخدقة يقودون عمليات عديدة لحرب العصابات ساهمت في تسريع انسحاب الوصاية الاستعمارية الفرنسية.

سوف يكون طريق تحقيق السيادة الوطنية طريقا أطول. وعلى وجه الخصوص طريقا عرف إهدار دماء كثيرة في صفوف رفاق الكفاح الجزائريين. فالحكومة الفرنسية تراجعت جزئيا في تونس والمغرب حتي تنفرغ أكثر للدفاع عن مصالحها في الجزائر. وسوف يفتح تحويل الانتباه هذا فجوة في صرح التضامن المغربي الذي كان ينادي به جيش التحرير الوطني. إن السلطة، في جوهرها، ثمرة صراعات قوية وليست إرثا يمنح عن طواعية. أيا كانت شرعية هذه السلطة. وهكذا خلق صنيع فرنسا التاريخي مفارقة لها دلالاتها. فلئن كانت أدغال جيش التحرير الوطني بؤرة تلاقي وتكوين أجيال مختلفة من القادة الجزائريين (من بوضياف إلى بوتفليقة مرورا ببومدين)، فإنها أنتجت كذلك أشد معارضي النظام الملكي المغربي عزما. وقد كان النمري من بينهم. إنه من أولئك الرجال الذين لا يعلنون انهزامهم قبل أن تنفذ آخر نبالهم. بقي الرجل إذن يؤمن بتحرير شامل للبلاد المغربية المتحدة. ألم يتعاهد قادة جيش التحرير الوطني، الجزائريون والمغاربة، المجتمعون بمدريد في شهر دجنبر من سنة 1956 ، على مواصلة الكفاح حتى تحرير آخر شبر من البلاد المغربية. مستجيبين في ذلك لتداء عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي؟

1 ظهرت هذه الحركة في الحقيقة، والأمر قد تبدو فيه مفارقة ولكن في الظاهر فقط. في شهر أكتوبر من سنة 1955 إبان مفاوضات إيكس ليبان، وتحتي إبن عرفة، وهو السلطان الذي فرضته فرنسا في شهر غشت من سنة 1953 . وعودة محمد الخامس المبرمجة (أنظر الترتيب الزمني للأحداث في آخر الكتاب). ترتبط هذه الحركة بكل تأكيد. وهو الأمر الذي بات اليوم معروفا واضحا بعد أن مر زمن على تلك الأحداث. بالكفاح الجزائري الذي سيصبح ضمنيا. وحتى استقلال البلد الجاور. وترتبط كذلك بالكفاح التقدمي من أجل اشتراكية المغرب للمستقل.

ولكن. وكما هو شأن النمري. سرعان ما خابت آمال أولئك الذين كانوا لا يزالون يؤمنون بالأمر. إذ إن ما كان يُراد له أن يكون كفاحاً من أجل التحرير الشامل تحول إلى صراع في المواقع الخلفية. وفي شهر يوليو من السنة نفسها. تراجع جيش التحرير الوطني. فقد هزم الجنود الفرنسيون الفرق التي كان يقودها إبراهيم المنوزي (مأو داخل صفوف الفدائيين) في عين الشعير بتافيلالت. ووضع بالحاج بوبو. وهو قائد آخر لجيش التحرير الوطني. السلاح بفيكيك وأرفود على تخوم الجنوب الشرقي المغربي.

وجد النمري إذن نفسه داخل آخر رقعة محاصرة من كل الجوانب. فتوجه نحو الجنوب واستقر بـكوليمين. ولأن النمري كان أصله من تيزنيت. وهي قرية توجد على تخوم الصحراء. فقد بات مرتاحاً في هذه البلدة الصحراوية. إن شساعة الصحراء اللامتناهية. والتي تعني عند البعض القفار والضياء. تعني عند النمري الأرض النافحة بالكفاح التحريري. ذلك الكفاح الذي سرعان ما تم التخلي عنه في المدن وجبال الشمال. ففي هذه البقاع لا مكان للأمور النافهة. وحدها الأمور الأساسية تهم. والدليل المرشد على الطريق هو السكنينة الداخلية والصرامة. إذ بهما يمكن التعرف على سر تلال الرمال والسرايات. لقد كان النمري ينتمي بروحه إلى البدو الرحل. ومن ثمة فهو لا يعرف من الحدود إلا تلك التي تتراءى في الأفق. ولا من الحدود [الذاتية] إلا تلك التي تحدد إرادته. فقد انتعشت فيه بسالة المحارب بفضل هذه الحرية التي استعادها من جديد. زاد تمرداً وبات يشعر أن بإمكانه أن يقف في وجه العواصف وجيوش الاستعمار على حد سواء. فأصبحت إذن كـوليمين آخر معقل لجأ إليه الرجال الذين لا يمكن قهرهم. من بينهم العديد من رموز جيش التحرير الوطني الذين يدين لهم البلد باستقلاله: بنحمو وادريس بوبكر والجبلي وبنسعيد.

لم يتنازل النمري ورفاقه في شيء عن الحرية التي دفعوا ثمنها غالباً. فنصبوا أنفسهم أمناء على كفاح لم يكتمل بعد. ولكنه كان كفاحاً وحيداً منعزلاً. ذلك أنه. وإبان الفوضى التي تلتو الهزيمة. استسلم العديد من المقاتلين لوعود السلطة الجديدة التي انبثقت عن استقلال ممنوح. كل قائد من قادة جيش التحرير الوطني الذي يؤدي البيعة ومعه على الأقل مائة من مناصريه يجازى برتبة ضابط وبراتب [شهري]. وهكذا ارتدى آلاف الرجال في ظرف بضعة شهور بذلة القوات المسلحة الملكية التي أوجدت على وجه السرعة غداة عودة الملك إلى العرش.

أوكلت رئاسة نواة هذه القوات المسلحة التي يؤطرها مكونون فرنسيون. إلى الأمير الحسن. وفي يوم 14 ماي من سنة 1956. استقرض أمام منصة الملك محمد الخامس والأمير مولاي الحسن. الذي عين رئيساً للأركان العامة. حوالي خمسة آلاف جندي من رجال الجبال سابقاً وهم يرتدون بذلتهم الجديدة. إلى جانب قناصين سابقين. يقود الجيش. وليس هذا أقل الأمور مفارقة. ضباط من الجيش الاستعماري على رأسهم

محمد أوفقي، الخادم الوفي والمتفاني لسلطة الحماية الفرنسية. ففرنسا ترى فيه الحارس الساهر على دوام مصالحها في مغرب ما بعد الاستقلال، والنظام الملكي كان يرى فيه خادمه منذ الوهلة الأولى.

سيؤثر هذا التحول تأثيراً عميقاً على فكر النمري. إذ بالنسبة إليه، فإن تراجع إخوانته في السلاح قد قادهم، بمكر ولكن دون رجعة، إلى التعاهد مع عدو الأمس: إنه تصالح بجري ضد طبيعة مجرى الأمور². وتدرجياً شهد النمري نداء الاستسلام إلى القصر يتحول إلى فخ، فرفاقه الذين تخلوا عن جيشهم ليلتحقوا بالقوات المسلحة الملكية مقابل أجر زهيد، قد أصبحوا هم أنفسهم الذين يحفرون قبر حلمهم بالحرية. فرفاقهم بالأمس، الذين بقوا على نهجهم، إن لم يكن لهم من الذكاء ما يدفعهم إلى ركوب طريق النسيان، فإنهم يصبحون مطاردين وتتم تصفيتهم بلا رحمة. وسرعان ما تضائل عدد الرجال الذين يودون التنديد بالمؤامرة الجارية وفضحها، لقد غطي حجاب الاتفاق المتواطئ الفجر الجديد الذي كافح من أجله النمري والذي لم ير منه سوى أولى بداياته.

لقد بات التراجع بالنسبة إليه مرادفاً وإلى الأبد للتخلي، للموت البطيء، إنه إحساس جعل منه وارث قضية يجب الدفاع عنها، قضية حرية غلظها استقلال زائف. هذا الوعي سوف يحيي في النمري تفاق من أجل الحرية لا ينضب، تحول بعد ذلك إلى تطلع إلى المطلق. في هذه البقاع الصحراوية، اكتشف النمري، رغماً عنه أو يكاد، في نفسه موهبة الخطيب الواعظ لساكنة غير متحمسة إيديولوجياً. ولئن كان سوف يبقى هناك مقاتل واحد سيرفض أن يُباع الوضع الجديد، فسيكون هو النمري، إذ بدأ بالنسبة إليه كفاً جديد.

سيدي حمو، متمرد الأطلس

وراء مظهر سيدي حمو الهادئ والمهذب يختفي رئيس قبيلة قوي صارم، أصله من تنغير، وهي قرية صغيرة على مضيق شلالات التودرا. وقد تميز سيدي حمو بعمليات مسلحة ضد المستعمر الفرنسي، وهي عمليات ساهمت في نشر إشعاع سلطته المعنوية في الأطلس الكبير بكامله.

وجهه النحيل ونظراته الحادة التي تتناقض مع كونه رجلاً قليل الكلام نسباً عليه معالم رجل ذي أصول نبيلة. ومع ذلك فإن لقب "سيدي" الذي يسبق اسمه، والمرادف لكلمة "سير" عند الأنجليز، لا يعبر سوى عن احترام فرضه الرجل على

2 إن إعادة ترتيب رجال جيش التحرير الوطني لم تتم داخل القوات المسلحة الملكية فحسب، أي داخل الجيش، بل وكذلك داخل القوات المساعدة للمخزن المتحرر، الذي وُضع تحت سلطة وزير الداخلية. وفي الأمن المقرب من الملك، للنبثق عن القصر. وفي فرق البوليس الخاصة.

محيطه. وليس عن بقايا مجد قد ولى. سيدي حمو ليس من الأعيان البارونات. إنه رجل عصري. وهاهو أحد رفاقه في الدرب يتذكر: "ابتداءً من سنة 1959، كَوّن سيدي حمو شبكة من الخلايا السرية. معظمها كانت نشيطة خلال أيام الاستعمار". ويمكن أن يُلخص سبب هذه التعبئة الجديدة في جملة واحدة: "إن القمع لم يعمل سوى على استبدال الشاشية بالطربوش العسكري³". إن هذه الاستعدادات الناجمة عن تسريح الجيوش وتقهرهم، تدل على حالة المعنويات في تلك الحقبة.

يتقاسم سيدي حمو والآلاف من المغاربة الإحساس بالمرارة. إنهم يجترونها آمالهم التي غدر بها استقلال كان الحصول عليه من السهولة بحيث لا يمكنه أن يكون استقلالا حقيقيا. كان سيدي حمو يشهد. من على جبال الأطلس التي وُلد بها. وحيث تُستقبل عموما قرارات الرباط استقبالا يلفه الشك والريبة. كان الرجل يشهد. وكله حسرة وألم. نزع الحقوق والممتلكات الذي صاحب رجوع محمد الخامس إلى العرش. وبالفعل فقد كان من العسير تعداد المتعاونين مع المستعمر المشنع بهم ومقاومي اللحظات الأخيرة الذين شرفوا وركّوا. بل إن عددهم كان يتزايد كلما تزايدت إزاحة، بل تصفية، الوطنيين الصادقين.

لقد زعزع هذا الواقع غير المنتظر الكثير من القناعات. وبالنسبة إلى سيدي حمو. بات للمقاومة السرية سبب آخر لكي تكون. فمن حركة التحرير، أصبحت، بالنسبة إليه. سبيلا من أجل الاستمرار في العيش والحياة. لقد دفعه تمسكه بالحرية. تلك الحرية التي جعلته يلتحق بصفوف المقاومة. إلى ملاقة رجلين توّحدتهما إرادة مشتركة لتشكيل جبهة تقف في وجه الأمير مولاي الحسن وأوفقير، والرجلان هما المهدي بن بركة والفقير البصري.

شارك المهدي بن بركة مع عبد الرحيم بوعبيد في مفاوضات إكس ليبان في شهر غشت من سنة 1955. ولهذا فهو من بين أهم الصانعين لعودة محمد الخامس إلى عرشه. ولكن. وحول طاولة المفاوضات. كان المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد على رأس الطليعة الشابة لحزب الاستقلال. وقد قادتهما هذه الميزة. تدرجيا ومع تزايد الصراعات والاختلافات. إلى أن يعبرا عن كونهما يختلفان عن الآخرين.

فلم تكد تمر أربع سنوات حتى أنشأ معا. يوم 6 شتنبر من سنة 1959. الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. التحق بهما محمد البصري. الملقب بالفقير البصري. ورغم أنه بصغر عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة بعشر سنوات. فإن ماضيه في المقاومة قد جعله من الكبار القديما. ولأن روحه كانت روح المعارض. فإنه رأى في معاهدة إيكس ليبان خيانة. إنها في رأيه معاهدة تمت بين السياسيين من وراء ظهر المقاومين لتنزع من أيديهم الأسلحة التي كان من المفروض أن تقودهم إلى النصر الشامل.

3 حوار للمؤلف مع توركبي عدي.

تستمد هذه الصرامة جذورها من كفاح ذي نَفْسٍ طويل لا يمكنه [بأي حال] أن يقنع بنصف انتصار.

الفقيه البصري مقاوم منذ اللحظة الأولى. درس بجامعة ابن يوسف مراكش. في تلك الفترة. كانت مراكش تخضع لسلطة الباشا الكلاوي. وهو إقطاعي متسلط لم يكن يعرف سوى سبيل واحد يجعل النظام الاستعماري يسود. إنه الطغيان. وهكذا. ولربما من بين كل المدن المغربية. كانت مراكش هي المدينة التي اختمرت فيها أكثر روح المقاومة. ومن ثمة فليس من قبيل الصدفة أن يتعارف فيها الشاب محمد البصري مع حلقة صغيرة من الشباب الرافض المعارض المتعطش إلى الحرية. الذين كان من بينهم مَنْ سيصبحون لاحقا قادة جيش التحرير: بوراس وابن سعيد والجبلي الذين سيتواجدون جميعهم غداة الاستقلال إلى جانب النمري في معسكر مَنْ لا يمكن قهرهم. وبعد أن أصبح الرجل معروفا بالفقيه البصري. زاد من تألقه. بعد سنوات من ذلك. في شهر شتنبر من سنة 1955. تزعمه هروبا جماعيا من السجن المركزي بالقيظرة. فاستطاع زهاء الثلاثين سجيناً من المقاومين. ومنهم عدد كبير كان يتهدهه الحكم بالإعدام. أن يستعيدوا حريتهم. فساهم هذا العمل الباهر في أن يجعل منه أحد رموز المقاومة المسلحة.

وأما بالنسبة إلى المهدي بن بركة. فإن الحل المسلح قد أخذ يفرض نفسه تدريجيا على أنه آخر الدواء.

وحتى ذلك الحين. كان الزعماء السياسيون. كما كان شأن القصر الملكي. قد استفادوا من توجيه الرغبة في الانتقام من الشبكات المسلحة الرافضة للنظام الجديد نحو مساندة لوجستيكية للثورة الجزائرية. ولكن ومنذ أن أخذ النظام الملكي في ترميم السلطة ترميما كاملا. وهو الترميم الذي يجري عكس أهدافهم. ضاعف رجال السياسة من النداءات الموجهة إلى جيش التحرير الوطني يدعونه إلى تسلم مهامه ثانية.

وتتكون نواة هذه المنظمة شبه العسكرية من مقاومين جمعهم. كما هو شأن سيدي حمو. كراهية النظام أكثر مما يجمعهم الإيمان بالمصادقية الاشتراكية لحزب ابن بركة. وأما مسألة أن يتفقد متعاونون سابقون مع الحماية الفرنسية مناصب حساسة في الإدارة الجديدة. وخاصة في العملات. فإنها زادت سيدي خمو قناعة بأن لا يتراخى في حذره: ذلك أنه شعر بالخيانة. ووجد استنكاره العنوي صدى ومساندة داخل محيط ابن بركة الذي كان يرغب في نسيان الماضي وتجاوزه. واقتنع المهدي بن بركة بأن السلطة باتت رهانا يمكن الفوز به ولو بالسلاح إن اقتضى الأمر. فقد كان يعتقد بأن وسيلة تحقيق هذا الهدف تكمن في عناصر جيش التحرير الوطني الذين يساندونه في قضيتهم. هل هذا هراء محض أم تغيير حقيقي في الاستراتيجية؟ ففي

بوارد الاستقلال المضطربة، لم يكن هذا التوافق محسوسا ملموسا في إطار عمل متفق عليه، فتعددت المقاربات قبل أن تظهر علامات تحقيقها. لن تُعَدَم الفرص: مخابئ السلاح ولقاءات سرية بين ضباط جيش التحرير الوطني وترحيل مناضلين مطاردين إلى الجزائر. وهاهو أحد الأطراف يُسر إلي بعد مرور عقود عن ذلك: “كنا قد أعدنا عدة مخازن سرية للسلاح في فيكيك وأرفود وكلميمة والريصانير وبوذيبي⁴.”

وبينما سيدي حمو ينتظر وصول نداء آخر، وهو على أهبة الاستعداد، أخذ ينظم صفوفه. إذ اكتسب مساندة عدد مهم من المقاومين السابقين، مساندة ضمنية أو صريحة؛ وأخذت سلطته، ولو أنها سلطة غير رسمية، تتقوى وتتعزيز في المنطقة. وهو الأمر الذي سيعلمه القائد الممتاز الفلكي (رجل سلطة) وعلى حسابه الخاص.

وخلال الانتخابات التشريعية لسنة 1963، انتزع من سيدي حمو نصر انتخابي محقق. إذ تم تزوير الاقتراع وسجن المناصرين. وسيدي حمو، مرشح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، الذي خدعه القائد الممتاز، هو كذلك شيخ لا ينصاع بسهولة لأوامر السلطة المركزية. فنصب كمينا للمحتال. ولكنه فشل. وسوف يحكم غيابيا على سيدي حمو. وهو في حالة فرار، بالسجن عشرين سنة. ورغم فشل هذه الواقعة المسلحة فإنها ساهمت، وهنا المفارقة، في تعزيز هالته وإشعاعه، ففي هذه المنطقة البعيدة المعزولة، الغيرة على خصائصها، كان كل خد للسلطة المركزية يُستقبل في الغالب على أنه شهادة وفاء للقيم القبلية. إنه حادث عادي في نظر العاصمة، ولكن، وفي أعالي الأطلس، غذى الحادث الذاكرة وأثر في الخيال. إن ما يتميز به سيدي حمو دون سواه، وهو الأمر الذي يعكس العمق العميق لقدّره، يمكن أن نقرأه في هذا العمل الذي كان يحده هو الحد من ضغط الحياة اليومية على الساكنة المحلية، وهي حياة يومية بقيت هي نفسها دون تغيير.

تسرباً إلى جهاز الدولة

إن كان صدى خدبات السلطة المركزية واسعا وأثار هذه التحديات وعواقبها غير كبيرة، فقد كان جنيد مقاومين سابقين أمرا خطيرا. ويحتفظ ساعة، واسمه الحقيقي محمد بن عبد الحق بن عمارة، والتحق بالمقاومة سنة 1953، بهذه اللحظات حية في ذاكرته: “لقد ساهمت في الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي حتى سنة 1956. كنت أسير خلية وأحمل اسما مستعارا: عبد الله الخضار. كان تنظيمنا يعتمد بنية هرمية، كل خلية تضم أربعة أعضاء، يترأس كل واحد من هؤلاء الأعضاء بدوره خلية من أربعة أعضاء. وهكذا دواليك. على رأس المنظمة كان يوجد بوراس، المعروف بالفقيه الفيكيكي، المعروف

4 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة، المعروف بساعة.

ب"الأعور". وكانت أجمل عملياتنا هي الهجوم على قطار في طريقه إلى كولومب بشار سنة 1954⁵. لقد شحذت هذه السنوات التي أمضاها ساعة في المقاومة فكره. فقد كان الشك والريبة لا يفارقانه أبدا. ومن ثمة فإنه يتكيف مع كل الأوضاع بمجرد ما يبقى له هامش يمكنه من المراوغة.

وبعد سنتين. كان ساعة قد مر كما هو شأن رفاق آخرين له في الكفاح. بتجربة هدنة غير مكتملة. تلك الهدنة التي تعرفها عادة الأيام المضطربة التي تنلو الاستقلال: "لقد ألح بالحاج بوبو. الذي كان يمثل القيادة العليا لجيش التحرير الوطني بفيكيك. كي ألحق بالقوات المسلحة الملكية". ويتذكر أحد المقاومين في الجبال. والذي كان عمره 17 سنة عندما ساهم إلى جانبه في عملية قطار كولومب بشار قائلا: "كنت كاتب القيادة العليا للحاج بوبو بفيكيك بعد أن اشتغلت تحت أوامره بالناضور سنة 1955. وبعد نداء ولي العهد. ذهبنا على رأس مفرزة من الجنود إلى القصر بالرباط لنؤدي البيعة"⁶. ولكن ساعة تردد: "لقد تشاورت مع الفقيه البصري. قائد التنظيم السري. ونصحني بأن أرضخ للأوامر". بيد أن هذه النصيحة. الصادرة عن رمز من رموز القيادة له مكانته وسلطته في نظر ساعة. كانت مرفقة بكلمة "لكن". ذلك أن ساعة. إن أصبح القائد المساعد (من رجال السلطة) في كلميمة (أي مثل وزارة الداخلية على مستوى المقاطعة). فإن تعيينه هذا داخل جهاز الدولة لم يغير في شيء من روحه المتمردة. فقد بقي ضابط جيش التحرير الوطني. المتخصص في العمليات الليلية. وهكذا استمرت العمليات السرية في المقاطعة التابعة له.

اختبار القوة

زاد من قوة الروابط بين المهدي بن بركة والفقيه البصري. من جهة. وجيش التحرير الوطني من جهة أخرى. بقاء جيش الاستعمار على التراب المغربي. وبمباركة ضمنية من القصر الملكي. الذي أخذ يؤجل ثم يؤجل الإصلاحات. وعند بداية خريف سنة 1957. تضاعفت اللقاءات بين المهدي بن بركة والفقيه البصري والقيادة العليا لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. ويتذكر ساعة أن "المهدي بن بركة كان يلتقي بقيادة جيش التحرير الوطني بكلميمة رفقة الفقيه البصري"⁷. "وبما أنني كنت مساعد القائد. فإن المهدي بن بركة كان يأتي إلى بيتي ليلا". وهكذا كان المهدي بن بركة والفقيه البصري يلتقيان في ذلك البيت

5 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة. المعروف بساعة.

6 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

7 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة. المعروف بساعة.

بصديقين من أصدقاء الدراسة بجامعة مولاي يوسف، وهما بنسعيد وبوراس. وكانوا جميعهم يعملون على لَمِّ شمل عناصر جيش التحرير الوطني المشتتين ليعتصروا في منطقة الجنوب. وهكذا تشكلت قاعدة عسكرية تتمحور حول جَمْعين منفصلين اثنين. يوجد التجمع الأول في الصحراء الشرقية تحت قيادة بوراس ومقر قيادته العليا بأرفود. والثاني. يوجد بـكوليمين. تحت قيادة عليا تتكون من بنحمو وأدريس بوبكر والجبلي وبنسعيد والنمري.

وبين شهري غشت من سنة 1956 ويناير من سنة 1957، زادت فرق جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب من ضغطها على المواقع العسكرية الفرنسية الموجودة في جنوب المغرب. لقد كان هذا التواجد حيويًا بالنسبة إلى فرنسا من حيث الجانب الاستراتيجي. ففرنسا كانت تعمل على أن تستمر مصالحها داخل التراب الجزائري. إلا أنه تواجّد لم يكن يروق لجيش التحرير الوطني في المغرب في هذه الفترة الانتقالية نحو الاستقلال. وقد نُجحت عناصر جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. رغم بعض الاصطدامات. في أن تستولي على قطار وأن تتحكم في منافذ العبور بين تندوف وفم الحسن.

وأخذ الالتحام الممكن بين جيشي التحرير المغربي والجزائري يهدد مباشرة الساقية الحمراء. فشعرت فرنسا بخاطر عمليات المناوشة التي كانت لا تلقى معارضة عسكرية أو سياسية حقيقية.

كان جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب لا يخضع لمراقبة القصر الملكي. ولا يقبل من الأوامر إلا تلك التي تصدر عن أعضاء مجلس المقاومة. حلفاء المهدي بن بركة. فوقع الاصطدام الأول عندما رفضت القيادة العليا لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب إطلاق سراح السجناء الأسبان. كما أمر بذلك الأمير مولاي الحسن. رغم أنه كان رئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية. وبهذه الصفة، فإنه كان القائد الأعلى لكل القوات المسلحة المغربية. إنها الضربة التي زاد من وقعها أن الأمير الشاب لم يدخر جهدًا لإخضاع جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. فقد كان هذا الجيش يفوق. وحتى سنة 1957، القوات المسلحة الملكية عدداً وعتاداً. ومن ثمة فإن هذا الجيش كان يُعتبر تهديداً محتملاً لاستقرار العرش وبقائه. ولأن الدسائس، التخفية بغطاء النزاعات القبلية، ولأن محاولات الإرشاء والتهديد لم تعط أي نتيجة. لجأ مولاي الحسن إلى وسيلة أخرى أكثر جذرية. ولأن النمري علم بالأمر في حينه. فقد استطاع إفشال محاولة لاغتيال بنسعيد وبنحمو. وتمت مفاجأة المتآمرين. وهم فرع من قبيلة زمور. بـكوليمين عشية تنفيذ العملية. وتواصل زحف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. ويوم 23 نونبر من سنة 1957، هاجمت قبيلة آيت باعمران مواقع إشبانية واستولت على إفني.

وفي اليوم نفسه، شن جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب هجوما واسعا على طانطان والسمارة ووادي الذهب والداخلة والعيون والساقية الحمراء. وسرعان ما امتد هجوم جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب من الصحراء الموجودة تحت الاستعمار الإسباني إلى موريتانيا حيث اصطدم رجال التمري وادريس بوبكر بالجنود "السينغاليين" التابعين للجيش الاستعماري الفرنسي⁸.

عملية المسح والتنحية

شكل هذا الهجوم الجديد الذريعة المواتية لفرنسا وإسبانيا، فوجدتا قواتهما من أجل سحق جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب وقطع الطريق أمام كل محاولة لتوسيع العمليات تجاه معقليهما الاستعماريين الأخيرين: الجزائر ووادي الذهب⁹. وأطلقت فرنسا على العملية اسم عملية "المسح والتنحية"، وسمتها إسبانيا "الإعصار".

وفي يناير من سنة 1958، بعث الأسبان 10000 رجل، وبعث الفرنسيون 6000 رجل إضافة إلى الطيران من أجل إرغام جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب على مغادرة معاقله. لم تدم هذه الحملة، التي اختصرت مدتها قسوة وحشية، سوى خمسة عشر يوما، قصفت الطائرات القرى وأبادت الماشية التي كانت مصدر عيش الساكنة. ذلك أن فقدان قطع من الماشية كان يقضي حتما على عائلة من البدو الرحل، وكان هذه العائلة تعرضت إلى قصف مباشر بالقنابل. ولأن مقاتلي جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب أصبحوا معزولين ومحرومين من الموارد، لم يعد لهم بُد من التراجع. استسلم بعضهم في حين لا بد البعض الآخر بالسرية. واستطاع التمري أن يفلت مع زمرة قليلة من رجاله، وزكى هذا الإحجاز صيته وسمعته الناشئين على أنه متمرّد.

لم يجد القصر، وهو المؤمن على استقلال البلاد بعد كفاح طويل، ما يجادل فيه؛ فقد أضعفت العملية جيش التحرير الوطني، وعززت صفوف القوات المسلحة الملكية وجهاز أمن النظام. وواصل وُصّات الاستعمار السابقون مهمتهم كـ "حماة" للعرش. ولأن العرش أصبح قويا بفضل هذه الضمانة، فإنه وافق على عملية الهدنة هذه وساندها وهي الهدنة التي تدخل في إطار التقليد الاستعماري الخاضع. وجزاءً للأمير مولاي الحسن على تعاونيه، تنازل فرانكو عن طرفاية، فدخلها الأمير مولاي الحسن في العاشر من أبريل من سنة 1958 على رأس فرقة من القوات المسلحة الملكية يقودها أوفقيّر.

8 انظر في هذا الصدد شهادة محمد بنسعيد المنشورة في جريدة أنوال، أنوال، نونبر 91-أبريل 92.

9 وادي الذهب يشكل مع الساقية الحمراء الصحراء المغربية

وفي الدار البيضاء أخذ الفقيه البصري ينظم عودة رجاله ويُعيد تعداد قواته المشتتة. ولكن القصر عمل على طمأننة المهدي بن بركة ومَن يحيط به بواسطة عربون على حسن النية. وكان القصر الملكي كان يريد أن يخفف من آثار عملية المسح والتنحية. فدعا المهدي بن بركة وأنصاره إلى تشكيل حكومة. فكانت حكومة عبد الله إبراهيم¹⁰. وأما الذين لم يكونوا يشكلون في ذلك الحين سوى يسار حزب الاستقلال¹¹. فسوف يحاولون أن يستفيدوا من العملية. ولكن كان الثمن هو تواطؤ سوف يقود إلى الهلاك لا محالة.

وعلى مدى لعبة التحالفات هاته، سوف يربط القصر مزيجا من التحالفات، إلا أنها خالفت لم تكن بغير المسبوقة. مع الإقطاعيين القرويين من جهة، الذين انتابهم الرعب من الأفكار الحداثية التي يدعو إليها المهدي بن بركة. ومع القوى الاستعمارية التي خدوها روح الانتقام¹².

ولأن محمد الخامس كان خبيرا بالتكتيك، فإنه عمل على أن يرضى عنه الإقطاعيون في البقاع النائية من البلد. ولأن هؤلاء الإقطاعيين تورطوا مع الحماية، فإنهم أصبحوا غداة الاستقلال، أنصاراً وخداماً الملك الجديد. الضامن الوحيد لثرواتهم التي حصلوا عليها في الغالب بالتهب والسلب. ومن ثمة باتت مشاريع الإصلاح الفلاحي التي تنادي بها الحكومة الجديدة تهددهم. لم يكن على القصر إذن أن يُشعل طويلاً نار الأحقاد بالتلويح بالشياطين الذين نادوا بنزعة جهوية متقادمة والذين كان المهدي بن بركة بالضبط يريد أن يستبدلهم بجيل جديد من "المواطنين-المناضلين" المعنيين لبناء دولة عصرية. وما أن طلب من "الإقطاعيين" ذلك حتى هبوا لتلبية النداء. اندفعوا وراء رغبتهم المناهضة للإصلاح. فأرادوا في شهر أكتوبر، إخراج جثمان عباس مسعدي، وهو رمز من رموز جيش التحرير الوطني دُفن في فاس، من قبره كي يُدفن في أجدير، التي كانت من قبل منطقة نفوذه.

لقد كان لهذا التصرف دلالات كثيرة وقوية. وبالفعل، فإن عباس مسعدي، أحد قادة جيش التحرير الوطني، مات مقتولاً لأنه حاول الالتحاق بالقوات المسلحة الملكية بدعوة من القصر. واتهم المهدي بن بركة بأنه هو من أمر باغتياله. سُنحت هذه الفرصة للفيوداليين القرويين بأن يتحدوا زعيم "الحداثيين"، مع التذكير بولائهم للعرش. فتحولت مراسيم التأبين إلى استعراض ضخم ضد حزب الاستقلال دشنت تأسيس

10 سوف تستمر هذه الحكومة من دجنبر 1958 إلى ماي 1960 رغم صراع صامت ومستمر مع قوات الحزن التي يسيرها ولي العهد مولاي الحسن. والذي سيصبح فيما بعد الحسن الثاني. ولأن هذه الحكومة دشنت إصلاحات اقتصادية واجتماعية لا تدخل في إطار الخيار الليبرالي للحسن الثاني، فإنها طُويت يوم 20 ماي 1960. عشية الانتخابات الجماعية والبلدية الأولى. وستعوض بحكومة يسيرها مباشرة الملك محمد الخامس. ونائب رئيسها هو ابنه.

11 لم يكن الاتحاد الوطني للقوات الشعبية قد أنشئ بعد.

12 جُذ نفس التلاحق في قضية الكلاوي خلال الحماية أو في قضية عدي أو بيهي بعد الاستقلال. وأُحيل الفراء الذين يبدون تعميق هذه السائلة إلى خليل ربي ليفو الذي يوضح هذه الأمور الفلاح المغربي، حامي العرش. صحافة المؤسسة الوطنية للعلوم الاجتماعية. 1985؛ وخليل العطى منجب، الملكية المغربية والصراع من أجل السلطة. منشورات لامارتان. 1992.

الحركة الشعبية، وهو الحزب الذي يدعو إلى الشرعية الملكية، الحزب الذي يميل بقوة إلى البادية والنزعة الجهوية والذي أصبح خصم حزب الاستقلال بمباركة من القصر. ولكن مراسيم التأبين تحولت إلى مظاهرة خرجت عن السيطرة. فأطلقت الشرطة الرصاص. وكانت هذه هي المناسبة التي استغلها ولي العهد ليقضي نهائيا على من تبقى من جيش التحرير الوطني المتمركزين في الريف والذين بقوا رافضين لسلطته. وأما فرنسا التي كانت تريد نفيهم عن مد يد المساعدة إلى إخوانهم الجزائريين. فقد وضعت رابطة طائراتها رهن إشارة الأمير الشاب. وبمساعدة ثلاثة من قدماء جيش الاستعمار. الملازم الأول الشلواطي والقبطان المذبوح والعقيد (الكولونيل) أوفقيين سحق الأمير مولاي الحسن التمرّد وسط الدماء وعلى رأس 20 000 جندي. الشهادات على وحشية هذه العملية فظيعة مروعة. يقول الجنود بأن المرور من جربة الرصاص والنار يخلق إحساسا قويا صادقا بالتضامن والتآزر. إحساس يدوم إلى الأبد. ولربما الأمر عكس هذا فيما يخص التجارب التي تبدأ بالدم: ذلك أن ضباط القوات المسلحة الثلاث الذين قادوا العمليات إلى جانب ذاك الذي أصبح ملك البلاد فيما بعد. قد اكتشفوا في أنفسهم. وعلى التوالي. موهبة الطامعين في قتل الملك.

اعتقال عبد الرحمن اليوسفي والفقيه البصري

كانت الضربة القاضية يوم 15 دجنبر من سنة 1959. إذ بعد ثلاثة أشهر بالكاد من إنشاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في شتنبر من سنة 1959. اعتُقل عبد الرحمن اليوسفي والفقيه البصري بتهمة جريّة صحافية. ففي جريدتهما. التحرير. جرّأ ولما إلى أن على الحكومة أن تكون مسؤولة أمام الشعب. إنها جريمة المس بالذات الملكية¹³. وانكشفت نوايا الملك عندما وجد بنسعيد. وهو أحد أهم قادة جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. نفسه هو كذلك وراء القضبان. وكاد الجبلي. رفيقه سابقا في جامعة ابن يوسف. ومن ثمة فقد كان مؤهلا سلفا ليصبح إطارا في جيش التحرير الوطني. كاد أن يُسجَن هو كذلك: “كنا عائدتين من دورة تفتيشية في الجنوب عندما أوقفنا فجأة حاجز أمني. وبما أنني كنت أقود السيارة. وأرتدي جلبابا بسيطا. فإنهم اعتقدوا بأنني السائق. وأما بنسعيد فقد اعتُقل فوراً ونُقل إلى ترزيت.”¹⁴

13 كان الهدف من هذا الاعتقال هو وضع حكومة عبد الله إبراهيم. التي لم تحرك ساكنا. في موقف حرج وبنبركة نفسه نصح بضبط النفس. فقد كان يريد أن يتجنب أي خلاف عميق قبل انتخابات ماي 1960. وكان البصري. مدير الجريدة. واليوسفي. رئيس التحرير. قد أدانا كذلك في العدد نفسه تصرفات قوات الأمن وجرمها. ويوم 25 دجنبر من سنة 1959. أدبنا بتهمة المس بالأمن الداخلي للدولة. والمس بشخص الملك وإثارة الشغب. ندد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالمؤامرة وحاول التفريق بين الملك وابنه. أطلق سراح اليوسفي يوم 30 دجنبر. وأحيل البصري في حالة اعتقال خفيف سنة 1960 على المحكمة الجهوية بالرباط بتهمة جريّة الصحافة والقتل. (لوموند. 25-5-1960).

14 حوار للمؤلف مع عبد السلام الجبلي.

لقد كانت النية المبيتة للقصر هي شل جيش التحرير الوطني. وذلك بمنع أهم قاداته من الحركة. وهكذا فإن أحدا لم يندهش عندما تحدثت التهمة عن "مؤامرة على حياة ولي العهد". وهي رواية صك الاتهام التي جاءت بعد صدور حكم المحكمة الجهورية بالرباط والتي لم تحتفظ. فيما يخصها. سوى بتهمة "جرمة السب والقذف". أحس المهدي بن بركة بأن مجرى الأحداث بدأ يتغير. فلجأ إلى الخارج. وباتت الطريق سالكة أمام القصر. فحل القصر جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب في شهر مارس من سنة 1960. وكذا. وفي إطار الحملة نفسها. طرد حكومة عبد الله إبراهيم يوم 20 ماي 1960. وكان عبد الله إبراهيم منذ توليه رئاسة تلك الحكومة ممنوعا من أن يزاول مهامه وسلطه بكاملها. وعين بدله الأمير مولاي الحسن رئيسا للحكومة. والعقيد (الكولونيل) أوفقيير مديرا للأمن الوطني. وبعد مرور تسعة أيام. أصبح بالإمكان إجراء الانتخابات البلدية والجماعية التي كانت قد تقرر من قبل في سياق آخر. ومع ذلك فسوف تحقق نجاحا نسبيا. على الأقل في المجال الحضري. للاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

قليلون هم أولئك الذين سيفلتون من عملية الإخضاع. فساعة. المقاوم السري الذي أصبح خليفة قائد كلميمة (رجل سلطة). استدعته وزارة الداخلية إلى الرباط في دجنبر من سنة 1960. واعتقل بدوره. ثم حُكِم عليه بالسجن أربع سنوات بتهمة حيازة أسلحة. وبعد مرور أشهر قليلة. عند بداية سنة 1961. اغتيل القبطان الحاج بوبو الذي كان قد أرغم ساعة على الالتحاق بالجندية. بالدار البيضاء صحبة عميد للشرطة. وفي الوقت نفسه. وقعت عدة عمليات إطلاق النار بين فصائل متنافسة من المقاومة. فكانت نهايةً دمويةً حلقةٍ من العنف ذهبت بالعديد من قدماء الكفاح من أجل الاستقلال.

ولم يصمد سنة 1960 أمام التفكيك التدريجي لجيش التحرير الوطني سوى شبكة من الخلايا بقيت مشتتة في البلد. شبكة كان قاداتها إما في السجن أو في المنفى أو لجؤوا إلى السرية.

الناجون من تصفية جيش التحرير الوطني

بعد تصفية جيش التحرير الوطني. غادر الفرشي بيته في الدار البيضاء وأوقف نشاطه الذي لم ينقطع منذ سنة 1953. وهو تزويد جيش التحرير الوطني بالسلاح. وفي سنة 1959. كان سن الفرشي ثلاثين سنة باتت غنية بالتجارب. ولد بمراكش. واسمه عمر الناصر. ثم أصبح اسمه. في عهد الحماية وبعد أن رحل إلى الدار البيضاء. الفرشي. كان هذا هو اسمه داخل المنظمة السرية. وهي مجموعة

كبيرة من الخلايا السرية داخل المدن. وكانت العمليات المسلحة التي تنفذها تزعم تفوق المستعمر. كان الفرشي يعمل بناءً في النهار ومقاوما في الليل. كان شعاره الذي أقسم عليه على المصحف هو: "الحرية أو الموت"؛ وكان هذا الشعار يربطه بعضوين آخرين من أعضاء خليته وهما: عمرو الكمدي، المعروف بـ "الفيلسوف" في إشارة إلى تدرس كان لا يزال حينها قليلا، وعبد الرحمن الصحراوي. سوف ينفذ الصحراوي ما أقسم عليه، فابتلع سُمّا حينما اعتُقل وذلك حتى لا يُبلّغ عن رفاهه حتّى التعذيب.

ساهم الفرشي في بناء وتوسع مدينة الدار البيضاء التي كانت تعرف انطلاقاً اقتصادية قوية، ولهذا فهو يعرف قصة الأماكن لبنّة لبنة. كان خبيراً بالتحاكي، ولذلك فإنه أصبح، إلى جانب رفيقته، نشيطاً خطيراً خلق متاعب كثيرة لقوات الاحتلال الفرنسية، ما ألجّاه الفرشي في مجال مخابئ الأسلحة وعمليات الهروب من السجن والعمليات المسلحة يكفي لصنع صك اتهام شبيه بذلك الذي حُكِمَ بموجبه على رفاهه بالإعدام. كان شباب الفرشي غنياً بالتجارب، فعدت له شخصية من فولاذ. عندما التقيته أول مرة سنة 1996، اكتشفت فيه رجلاً ما زال لغزه مكتملاً؛ اقتصاد في الحركة ووجه ثابت لا يظهر عليه انفعال. جسمه الشبيه بأجسام المصارعين يوحي بقوة مطمّنة. يداه القويتان شاهدتان في صمت على حياة ملؤها الإنجازات والآلام. نظرته فيها وقاراً أولئك الذين كانت حياتهم كفاحاً طويلاً، كفاحاً عادلاً بكل تأكيد، ولكنه كذلك كفاحٌ يترك إحساساً بالمرارة لضياح الأقارب والتضحيات، وكذا بسبب الخيانات.

جرت لقاءنا بحي درب السلطان بالدار البيضاء، في بيت بناه بيديه هو شخصياً. كان حديثه يتوقف بين الفينة والأخرى، لتتخلله لحظات تأمل. كان الفرشي حينها يتأمل في الفضاء أجزاءً من حياته، كانت لحظات يحث فيها فضولي ذاكرته على أن تعود إلى الماضي. وهكذا كانت تتراءى له أمام عينيه حلقاتٌ من حياة وهبها إلى كمال لم يتحقق أبداً. فبالنسبة إلى هذا الرجل، المحتشم في التعبير عن عواطفه والمتعود على سرية العمل السري، لم يكن بمقدور أسئلتي إلا أن تكون في غير محلها. ولكن، وبعد تأمل طويل، وكأنه يريد به أن يتجنب الصمت والسكوت، عزم الفرشي أخيراً على أن يخرج من صمته ويبوح بماضيه. كان يأخذ الوقت الكافي ويختار كلماته ويضبط إيقاع جملته وذلك لأنه كان يرغب بكل وضوح في أن يفهم كلامه الفهم الحسن: "في بداية سنة 1960، استطاع خائن يُدعى عبد السلام قويدر أن يساعد على تفكيك عدة خلايا سرية بالدار البيضاء، اعتُقل اثنان من رفاهي، عبد الله زناغي وبلحمو الفخري، وحُكِمَ عليهما بالإعدام ونُفذ فيهما الحكم. كنت الوحيد الذي لجأ من بين أعضاء خليتي، كما كان شأن شيخ العرب الذي شهد العديد من أصدقائه يسقطون في شباك الاعتقال¹⁵". كانت خلية الفرشي تنتمي إلى شبكة مكلفة بنقل مخزون من السلاح إلى الدار البيضاء.

مخزونٌ من أسلحة جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب ثم إنقاذه من الضياع؛ وكان النمري هو الذي زود بهذه الترسانة.

لما لجأ النمري إلى السرية بعد أن تمَّ حل قيادته، كان آخر عمل قام به هو جميع هذا السلاح في انتظار أيام أفضل. ولكن العملية انتهت قبل أن تكتمل. فقد سبق الجميع أحد أولئك الذين كانوا سوف يتسلمون السلاح، وهو عامل بني ملال، البشير بن التهامي. كان الرجل قد التحق بالجبال في مارس من سنة 1960 صحبة زهاء المائة رجل. وذلك بعد أن اغتال عميدا للشرطة وهاجم ثلاثة مواقع. وأعلن ولاءه لحزب المهدي بن بركة. فأمضت القوات المسلحة الملكية شهرا كاملا من أجل دفعه إلى مغادرة مكانه¹⁶. لقد كان عملا لم يبلغ هدفه، ألزم آخر قادة جيش التحرير الوطني السريين، ومنهم على وجه الخصوص الجبلي وابن سعيد والنمري، على الفرار دون أن يتركوا وراءهم أثرا.

وخلال مواجهة قاتلة لتبادل النار مع الشرطة بالدار البيضاء، جرح الفرشي في ساقه. فانتقل من مخبأ إلى آخر حتى وصل إلى شمال البلاد. ومن ثمة إلى إسبانيا. ففرنسا، فلبنان، ليصل في آخر المطاف، يوم 14 غشت من سنة 1961، إلى دمشق. التي غدت المرتع الجديد للناجين من بين أفراد جيش التحرير الوطني. التقى الفرشي هناك بالنمري أولا، والتقى كذلك بأخرين من لا تنكسر شوكتهم¹⁷. ومن منفى هؤلاء الرجال في سوريا، كانوا يتأملون من بعيد واقع الملكية المطلقة التي رُمت من جديد في مغربٍ انعتق جزئيا من وصاية المستعمر. أكيد أن المظاهر كانت خادعة بما فيه الكفاية على أي حال لتمنع عمن تبقى من جيش التحرير الوطني مساندة لامشروطة من قبل ساكنة كان بإمكانه، قبل أربع سنوات مضت، أن يفتخر بها.

وابتداءً من سنة 1962، أحييت الجزائر المستقلة الأمل من جديد في أن تتناغم كلمة استقلال مع كلمة حرية. لقد أصبح بالإمكان الحلم ثانية. فرحل المنفيون في دمشق إلى الجزائر العاصمة زرافات زرافات، أثم يقسم هؤلاء على أن يكافحوا أجمعين حتى تحرر البلاد المغاربية بأكملها؟

لقد استقبلت الجزائر في الستينيات العديد من الحركات الثورية الأفريقية والآسيوية والأمريكية اللاتينية، فأصبحت بذلك وفي الوقت نفسه مرتع الطموحات التحررية التي كانت تزعزع العالم الثالث ونموذجها. فقد مر بها أهم رموز الشعوب

16 اعتُقل في 15 أبريل من سنة 1960، وحُكِمَ في ماي مع 81 منهما آخر، وحُكِمَ عليه بالإعدام. وسوف يُعفى عنه ويُطلق سراحه سنة 1981. وقد حدا حدوه قياد (من رجال الخزن) آخرون كما هو شأن ابن موسى سنة 1962 (انظر الجرد التاريخي).
17 عمرو العطاوي (الذي وصل في الوقت نفسه الذي وصل فيه الفرشي)، وحسين خضار وبوراس، وسعيد بونعيلات (واسمه الحقيقي محمد أجار)، وعباس سباطة (الذي سيصبح فيما بعد رئيس المجلس البلدي لمدينة الرباط). وقد كان هؤلاء الثلاثة الآخرين قد حُكِمَ عليهم غيابيا بالإعدام لتورطهم في "المؤامرة المفترضة ضد ولي العهد".

التوافق إلى الحرية: الغاني أميلكار كبرال. والأرجنتيني تشي غيفارل وآخرون كثيرون أقل شهرة.

ورحب قادة الجزائر التي استقلت حديثا بإخوة السلاح السابقين الذين جاؤوها يبحثون عما يبعث فيهم الأمل من جديد. كانت هذه هي طريقتهم في التعبير عن وفائهم للقناعات ذات النزعة "المغربية". تلك القناعات التي تولدت عن روابط التحمت أشد ما يكون الالتحام في أوج أيام المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي.

ولكن تعقد العلاقات الجزائرية-المغربية كان يتجاوز التضامن الثوري وحده. وبالفعل فإن الحسن الثاني، الذي كان حينها ولي العهد ورئيس القيادة العليا للقوات المسلحة الملكية، أبان منذ سنة 1958 عن أنه يناصر القضية الجزائرية.

وعندما تقلد أحمد بنبلا زمام البلاد، وجد في الحسن الثاني حليفا موضوعيا منذ الساعة الأولى يَسْنِدُه في بحثه عن المشروعية والاستقرار. وبعد ثلاثة أسابيع من الإعلان عن الاستقلال، زار الحسن الثاني، الذي كان قد اعتلى العرش منذ زمن قليل، في أول زيارة رسمية له بصفته رئيس دولة، زار الجزائر المستقلة. وذلك دون أن توجه له الدعوة بذلك. لقد مكثه هذا التحول الدبلوماسي المفاجئ من استباق جمال عبد الناصر الذي كان رمز النداء إلى تنحية الاستعمار. ففرض الحسن الثاني نفسه على الجزائريين على أنه حليف الأمر الواقع. وحتى يزيد من أثر زيارته، أحضر معه ضمن أمتعته هدية كان الغرض منها إثارة إعجاب مضيفيه: عشر مدرعات خفيفة. سوف يوظف هذا السلاح في تجهيز النواة الأولى من الجيش الوطني الجزائري، الذي كان حينها منقسما إلى عدة أحلاف متنافسة. ولأن الحسن الثاني كان على دراية جيدة بالأمور فإنه قد أصاب الهدف وبلغ المراد. لم يكن من بد لبنبلا إلا أن يصبح ممنونا شاكرا للملك. ذلك أن السلطة الجديدة بالجزائر العاصمة، كان عليها، وحتى تعزز نفوذها، أن تضع حدا لعمل المجموعات المسلحة المنافسة. كما فعلت الملكية المغربية عندما قضت على جيش التحرير الوطني. كانت الصفقة ميثاقا ضمينا بين النظامين الجارين فيما يخص أهدافهما الحالية الفورية. فابنبلا، من جهته، سوف يعزز ويحمي ركائز سلطته، والحسن الثاني سيضمن استمرار ودوام مكتسباته ما دام قد فاز بِحَيَاةٍ جَارِهِ.

محمود، المثقف المناضل

انتهى المهدي بن بركة باكرا إلى الشلل الذي يأتي من الصراعات الشخصية والعلاقات الجهوية النزعة التي تنسف صفوف المقاومة وكذا التشكيلات السياسية. فدفعته هذه الملاحظة إلى تبني خيار إنشاء حركة جماهيرية موحدة. استفاد من الأعمال الضرورية لإعادة بناء الوطن، فنظم خلال صيف سنة 1957 ورشة طريق

- طريق الوحدة - تربط الحسيمة بفاس. لقد كان هذا المسار غنيا بدلالاته الرمزية: فهو يوحد مناطق كانت بالأمس تخضع للإدارة الأسبانية بمناطق كانت تحت الحماية الفرنسية. دامت الورشة ثلاثة شهور عمل بالتناوب خلالها 12 000 شاب متطوع جاءوا من كل جهات البلد. طيلة شهرٍ على بناء مختلف أجزاء الطريق. ولكن الهدف الحقيقي لابن بركة كان هدفاً آخر. فقد كانت تحذوه التجربة الصينية. ومن ثمة وزع فرق العمل إلى مجموعات خلط فيها عن قصد بين العمال الذين ينحدرون من أصول مختلفة. وبعد أن يقضي الشباب المتطوعون ساعات من العمل اليومي المضني. كانوا يتلقون تكويناً سياسياً و ... عسكرياً. إنه برنامجٌ لا يخفي طموحاته: تشكيل جيل جديد من المواطنين الواعين سياسياً والمستعدين للدفاع عن القيم التي تلقوها: الوطن والشعب والتقدم. وهكذا شهد هؤلاء الشباب المتطوعون. وهم يشعرون بمزيج من الفخر والاندهاش القوي. وصول محمد الخامس إلى فاس. إذ تم تنبيهه إلى التوجه الذي أخذته ورشة طريق الوحدة هاته. فجاء إلى عين المكان ووزع وبسقاء شهادات الاستحقاق. لقد كانت طريقةً لبقّة لتسريح الجميع [وإيقاف مشروع الطريق] : التنمية نعم. ولكن ليس لخدمة الشعب...

ورغم أن هذه التجربة كانت تجربة عابرة. فإنها كانت كافية لتؤثر في العقول إلى درجة أنها شكلت مرتع جيل جديد تواق إلى التقدم والحرية. من بين هؤلاء كان محمود. واسمه الحقيقي محمد بنونة. والذي سيشكل مصيره الأساوي نهاية العديد من الآمال: أبوه هو المعطي بنونة. مهنته بقال. وأمه الباتول بنت محمد ملين. وُلد بالرباط سنة 1938. نشأ متأثراً بالنضال الوطني لأخيه الأكبر الذي عمل في ورشة طريق الوحدة. كان تعطش الشاب محمود واضحاً وهو يتغذى بحكايات أخيه الأكبر عند عودته من الورشة. لقد اختلط شبابه وامتزج بظهور المقاومة المسلحة في أهم المدن بالبلد وبإحازات المقاومين في الجبال. لم يكن عمره سوى تسع سنوات عندما كان أخوه الأكبر. وهو يتحدى في ذلك قوات الاحتلال زمن الحماية. يأوي ببيت العائلة الاجتماعات السرية ليلية من خلايا حزب الاستقلال ويأوي الفارين المبحوث عنهم بسبب قيامهم بأعمال وطنية.

أمضى محمود إذن السنوات الأولى من حياته وسط علاقات صداقات وطنية أبرمت منذ الطفولة. فاجترّف محمود مع التيار التحريري وأخذ يتغيب عن المدرسة. كما هو شأن آخرين غيره. ليلعب اللعبة المحرمة. لعبة الثورة: الجرائد السرية مخبأة تحت الأسيرة. والمنشورات تُلقي ليلاً في الأزقة. والملصقات على الحيطان. وإهانات المتعاونين المفترضين مع المستعمر. لقد تسلق مع رفاقه الحائط مراراً ليساهم في مظاهرات ممنوعة. وفي اجتماعات سرية أو للتشويش على خطبة صلاة الجمعة التي كانت تُلقي باسم "السلطان الدمية" (وهو شيخٌ مهادٌ نصبه الفرنسيون بعد أن نفوا السلطان

تذي سيصبح فيما بعد محمد الخامس). لم يكن محمود يعني تمام الوعي عواقب هذه الأعمال الثورية. وعند فجر مراهقته، اجتذبتة لعبة الكبار، فاجرف الشاب محمود مع الحماس العارم.

ولما بلغ السابعة عشر من عمره، شهد رجوع محمد الخامس منتصرا إلى الرباط، وهو الرجوع الذي يدل على انتصار ذويه من كافحوا ضد الاستعمار الفرنسي وانتصروا عيه. ولكن وفي تلك الأيام التي تلت الاستقلال، كانت الأوضاع غير مستقرة. أخذ محمود يفضح مخلفات الاستعمار والاحتلال الأجنبي. فقد كان تعلم الحياة يختلط مرارا بتعلم البقاء والبحث عن لقمة العيش. وهو لن يشذ عن القاعدة : فقد أصبح حارسا ليليا في ثانوية ليساعد عائلته، ثم مستخدما في مصلحة التواصل -وزارة الخارجية.

ولما انتهى الكفاح من أجل الاستقلال، بدأ الكفاح من أجل بناء دولة عصرية ذات سيادة. لقد كان الجيل الجديد من الحاصلين على الشواهد يفيض أملا، فَعَزَمَ عَلَى أَنْ يندارك قرونا من التأخر في بضع سنوات على أقصى تقدير. وهي المهمة التي تعبا لها في ذلك الحين وخمس عدد من الشباب الموهوبين. وهكذا ليس من قبيل الصدفة أن ينخصص محمود في العلوم، وهو التخصص الذي أملته أولوية وضرورة تجاوز العوائق التقنية التي تقف في طريق بلوغ التنمية في أقرب الآجال. إنها وطنية صادقة إذن، ولكنها وطنية تزعم أولئك الذين يفضلون أن تبقى الأمور كما هي عليه دون تغيير. انضم محمود إلى هذه النخبة الجديدة الصاعدة التي ستصطدم مع الإقطاعيين المتشبثين بامتيازاتهم. فقد كانت كلمات تدرس وتحديث ودمقرطة كلها نداءات تنسف الأساس الاجتماعي للإقطاعية. ذلك أن تناقضاتهم وأميتهم وظلاميتهم ومحسوبيتهم كانت أفضل مرتع ليظل النظام الملكي مقدسا، إنه تعبير يعني ضمنا الملكية المطلقة التي تزعم بأنها تحكم بأمر من الله. كل هذا أدى إلى ميلاد شباب محروم من حقه في الحلم بتحقيق الانتصارات.

لم يكن محمود ورفاقه إذن يحتاجون إلى وقت طويل ليعرفوا أن معوقات التنمية هي كذلك، وعلى وجه الخصوص، معوقات سياسية. وهاهو أحد رفاقه بالمدرسة الثانوية، والذي يصغره بثلاث سنوات، والذي ذاق طعم سجون الحماية وعمره لم يتجاوز الرابعة عشرة هاهو يذكر بالجو العام الذي كان يسود حينها مدينة الرباط: "أكبد أن الوصاية الاستعمارية كانت قد انسحبت، ولكن بورجوازية الكومبرادور، بعد أن عرفت كيف تستفيد من هذه الوصاية، سرعان ما دخلت تحت حماية الملك"¹⁸.

اجتاز محمود الباكالوريا في ثانوية مولاي يوسف بالرباط، وهي المكان السامي الرفيع الذي شهد احتجاج تلاميذ المدارس الثانوية على الاستعمار. دفعت قضية قناة السويس، وخويل طائفة قادة جبهة التحرير الوطني والتجربة الذرية الفرنسية

بالصحراء. كل هذا دفع بتلاميذ المدارس الثانوية إلى الشارع ليعلموا تضامنهم فيما يخص النزاعات التي تجري وراء الحدود. وهكذا كان محمود من بين أولئك الذين يقدمون في السر مساعدات لوجيستكية لجهة التحرير الوطني الجزائرية. فبالنسبة إليه، كانت الروح الوطنية والمواطنة جزءاً لا يتجزأ من روح المقاومة.

ولكن بدأت تظهر تدريجياً بوادر نزاع داخل البلد.

ففي هذا السياق المشحون والقابل لكل الانزلاقات، حدث انشقاق حزب الاستقلال وظهر الاخاد الوطني للقوات الشعبية سنة 1959. فوجدت النقابات والمنظمات نفسها مجبرة على الخيار: مع المهدي بن بركة أو ضده. فأخذ المهدي بن بركة وأنصاره يجوبون البلاد ليعبئوا وليكسبوا مناضلين يناصرونهم. وأما فيما يخص محمود فإن الطريق كانت واضحة جلية. إذ عمل على تنظيم إضراب في أهم ثانويات البلاد. وكان الشعار دون أهمية الهدف التكتيكي: وضع عراقيل أمام هيمنة حزب الاستقلال على المنظومة المدرسية. ففي عهد الحماية، كان حزب الاستقلال قد فتح مدارس سُميت بالمدارس "الوطنية" في رد فعل على مدارس الأعيان التي أنشأتها الإدارة الاستعمارية.

وتزامناً مع هذا، وجد محمود نفسه مسؤولاً عن إدارة الطفولة الشعبية بمدينة الرباط. وهي منظمة كشفية مناضلة ومتأثرة بالغ التأثير بالاخاد الوطني للقوات الشعبية. وكان الهدف السياسي هو تكوين وتأطير جيل من المواطنين قادرين على بناء دولة مستقلة يكونون فيها هم من يصنعون مصيرهم. وفي ذلك العهد، كان على المرء أن يتحلى، وفي آن واحد، بالإيثار والبسالة حتى يعانق هذا السبيل. ذلك أن مؤسسات هذا الوطن الشاب كانت بالغة الهشاشة. هذا الوطن الذي ما كاد ينعق من وصاية المستعمر حتى أذكى الأطماع وأحياها. ولكن محمود، وكما هو شأن رفاقه في الطفولة الشعبية الذين كان أغلبهم ينتمون للاخاد الوطني للقوات الشعبية، لم يكن ينقصهم لا الإيثار ولا البسالة. فحتى في الوقت الذي كان فيه التفكير الناقد لا يخلو من مخاطر، كان الاخاد الوطني للقوات الشعبية قد طبع منذ إنشائه بهذا التوجه التربوي الذي سوف يجعل منه مدرسة تكوين الأطر قبل أن يكون حزبا. ويلخص محمود هذا التوجه في كلمات قليلة بسيطة: "إن مستقبل بلادنا وخريره من نير الإقطاع ونير القامعين يكمنان في وعي هذه الشبيبة. وفي تربيته السياسية"¹⁹.

إن محمود لا يرتبط بهذا الحزب ارتباطاً إيديولوجياً فحسب: فالمهدي بن بركة زوج ابنة خالته، غيثة بناني. فهو يزورهم، كما هو شأن العديد من الشباب الآخرين. في بيت العائلة بشارع تمارة. فتحوّلت القرابة العائلية إذن إلى ترابط فكري.

كان طموح محمود يوحى مسبقاً بطبيعة الكفاح الذي سوف يخوضه. وكيف يكون الأمر غير ذلك والنظام الملكي المزمع يقوم على تفاني الرعايا في خدمته؟ فالقصر

19 أفريقيا-آسيا، عدد 27، 1973/4/2. سيمون مالى: "المغرب: حرب العصابات؟".

وهو يجازي الخاضعين المستسلمين. لم يكن يخفي الدور الذي خَصَّ به المواطنين في إطار مشروعه الوطني: دور التفاني اللامشروط في خدمة الملكية المطلقة. وفي نظر شبّية الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، لم يكن هذا الاستبداد الأبوي الذي ما زال يقبس عظمتَه بمدى استعبد الرعايا إلا اليقينة المتقدمة التي تثقل المسير.

فتحوّلت هذه الشبّية، وقلّبتها كله أمل، بأنظارها إلى أبطال معاصرين هم جمال عبد الناصر وتشي غيفارا وباتريس لومومبا. رجال أصبحوا الصّوت الناطق باسم الكرامة المسترجعة بعد أن اعتقوا شعوبهم من قرون عديدةٍ من الهيمنة ونفخوا فيهم روح الكفاح والاعتداد بالنفس وعدم الاستسلام.

بالنسبة إلى محمود، لم تكن حينها أصوات المدافع والإعدامات التعسفية في واحات الجنوب وجبال الشمال سوى أصداءٍ بعيدةٍ يذهب بها الحماس العام الذي نشأ عن هذا الاستقلال الذي طالما كان مُنتظرا. ولكن هذه الأصوات كانت تقترب كلما زاد الظلم وكلما تقلص هامش الحرية. وما كاد محمود ينهي دراسته حتى كان عليه أن يعمل. فاشتغل موظفا مكلّفاً بجمع الضرائب من المناطق القروية. فكتب بعد ذلك: "لم يُثرني شيءٌ مثلما أثارني منظر فلاحينا وهم يخضعون لتعسفات الملاكين العقاريين من أبناء البلد والأجانب واستغلالهم... إنني، ومن خلال لقاءاتي اليومية مع هذه الطبقة المحرومة، أحسستُ أكثر بضرورة ثورة تعيد الأرض إلى ملائكتها الحقيقيين، الفلاحون..."²⁰.

ولكن سرعان ما سافر محمود، بفضل منحةٍ من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، إلى ألمانيا الشرقية ليتلقّى تكوين مهندس في الإلكترونيك. ولما عاد إلى المغرب، رفض العديد من الاقتراحات لشغل وظيفة حكومية وفضل التفرغ للعمل السياسي والنضال وسط العمال والفلاحين. إذ إنه انتبه إلى أن العمل الملموس على أرض الواقع يجعله يحس بأنه يساهم في تنمية بلاده مساهمة فعلية.

دهكون، المناضل النشيط

"كان عمر دهكون رجلا قليل الكلام، لا يثير الانتباه، ولطيفا بشوشا. كان يُلمح إلى الأمور أكثر مما يتحدث عنها. ولكن كانت له قدرة كبيرة على الإقناع، ويفرض رأيه ويدهش من حوّله بفصاحته"²¹. هذه الصورة وضعتها له سيرة ذاتية لهذا الرجل ذي الماضي الدوي الرنان. نُشرت في شهر غشت من سنة 2001. وُلد دهكون في فاخ ما من سنة 1936 في منطقة تارودانت، يكاد يكون في سن محمود. ويفور منه الحماس

²⁰ أفريغيا-أسيا، عدد 27، 1973/4/2، سيمون مالي، "المغرب: حرب العصابات؟".

²¹ أنظر بومية الإخاد الاشتراكي، 12 غشت 2001، الحلقة الخامسة من سيرة دهكون، غير تامة لأن الرقابة أوقفها. نشرها ن. الحميد الجماهري الإخاد الاشتراكي (من 8 إلى 26 غشت 2001).

نفسه: تَوَقُّ إلى الحرية لا يجد له مخرجاً ولا متنفساً إلا في العصيان. ولكن، ورغم أنهما من جيل واحد، فإن طفولة دهكون كانت أشقى وأصعب من طفولة محمود الذي لم يكن مع ذلك ميسوراً. فدهكون ابنٌ كادح، إنه الطفلُ الثالثُ في أسرةٍ فقيرةٍ رَمَتْ بها الأقدارُ داخل أكواخ عين السبع على هامش مدينة الدار البيضاء، حيث رست الأمواج الأولى من المهاجرين القرويين.

وبعد أن تدرس دهكون في غير انتظام بمدينة الدار البيضاء، تابع تكوينه الثانوي بمدينة الرباط. قبل أن يلتحق بثانوية النهضة بسلا. ولما كانت تغيب عنه ضيافة بعض المحسنين، كان غالباً ما يمضي ليلاليه في ضريح بمقبرة سلا.

وما كاد دهكون يدخل سن المراهقة حتى اكتشف البؤس والفقر، ووسط ظروف العيش هذه، سرعان ما تَبَخَّرَت الفرحة بالاستقلال: فحتى تلك الآمال البالغة التواضع كان يعاكسها الواقع. فعَلِمَت الحنةُ دهكون فضائل التضامن. إذ وظف دهكون القليل الذي كان بحوزته، ومسكنه المتواضع، وكوَّخ العائلة بعين السبع لإيواء عدد من رفاقه الطلبة الذين يعانون مثله الحرمان.

وبمدينة الرباط، ثم بمدينة سلا، احتك دهكون بالحياة بعيداً عن أسرته، وخاصة بالحياة السياسية. كان يحضر بانتظام اجتماعات خلية للإخاد الوطني للقوات الشعبية. كان المتدخلون في هذه الاجتماعات يتحدثون عن الحقوق، وعن التحرر والفتح، وعن الحرية وعن التقدم، وهي كلمات كانت تُدَوِّي في أذنيه وكأنها وحي من السماء. فقد كان يسمع أن البؤس ليس بتاتاَ لعنة، إنه نتاج نظام منحرفٍ يجب تغييره. وسنة 1962، وهو يتابع دراسته بمدينة سلا، أصبح صديقَ رَفيقينِ يصغرانه بثلاث سنوات، ادريس الملياني ومصطفى الجداني. الأول أصله من مدينة سلا، والثاني من مدينة وجدة. وتزامنت صداقتهم الناشئة مع وعيهم بالكفاح السياسي وميل سريع إلى راديكالية هذا الكفاح. لقد أصبحت المدارس الثانوية، بفعل الإضرابات والمظاهرات، حلبة تشهد المجابهات السياسية، ويحكى حميد برادة، رئيس الإخاد الوطني لطلبة المغرب في ذلك الحين، أنه نظم خلايا في الثانويات مستوحيا ذلك من نموذج جنوب-أمريكا؛ "في هذه المدارس تبدأ الثورات في التفتق"²². كان دهكون ورفيقاهُ يكونون إحدى هذه الخلايا. وسرعان ما تفتقت الثورة، ففي سنة 1963، وقف دهكون ومجموعته في وجه مدير الثانوية، أبو بكر الفادري، مرشح حزب الاستقلال في الانتخابات التشريعية، وهذا في حين كان المهدي العلوي، مرشح الإخاد الوطني للقوات الشعبية، هو رمزهم وقودتهم. فقد كان هذا الأخير، بضعة أشهر قبل ذلك، ورفقة المهدي بن بركة، ضحيتين لمحاولة اغتيال قُنعَت على أنها "حادثة سير". تنبه دهكون ورفيقاه بفضل هذا الحدث إلى الوجه الآخر الذي يتخفى وراء مسرحية ما فتئت تعمل على تغليط العديد من رفاقهم الذين كانوا يساندون شرعية ظاهرة.

ولكن دهكون كان مناضلا نشيطا أكثر مما كان متفتنا في أمور الجدل والحوار. فقد اكتشف بحدسه الرهانات السياسية التي تكشف عن تسلسل للأمور بقود لا محالة إلى مجابهة مباشرة لا رحمة فيها. فقد كان يرى في الخمول الغلف بالبلغة تذي كان يرُضي بعض رفاقه تعبيرا عن استسلام يفضل أن ينتظر ما سوف تأتي به لأقدار إنها وجه من الاستسلام لنظام يرفضه. ومجمل القول إنها كلمات جميلة. كان المترددون فيما يخص تأويل نوايا النظام يجدون فيها بعض الأمل يدغدغ أوهامهم. لقد أذكت في دهكون هذه الانتظارية الخطيرة حماسا نضاليا لن ينطفئ إلا مع أفول خمه هو نفسه.

حصل تلاميذ الثانوي الثلاثة هؤلاء على البكالوريا سنة 1964. اختار الملباني والجدايني ميدان التعليم. يحدوهم في ذلك ولا شك برنامج دراسي لم يكن يرضيهما؛ فأصبحا أستاذين بالثانوي²³. أما دهكون فقد تردد. فبعد أن أمضى بضعة أشهر في مصلحة جوازات السفر بمدينة الدار البيضاء، جرب حظه في فرنسا ثم في ألمانيا. ولكنه كان يمضي من الوقت في مناقشة الوضع بالمغرب مع رفاقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب أكثر مما يمضيه داخل الجامعة أو داخل مكتب يسلم فيه الوثائق. لقد كان يبحث لنفسه عن مهبة مهنية. فإذا به يكتشف مهبة سياسية.

وفي شهر مارس من سنة 1965، وبعد أن لم يعد بوسعه كبح جماحه، رحل إلى الجزائر. ثم وبعد سنة من ذلك، غادر العاصمة الجزائرية ورجع إلى الرباط حاملا في حبيه رسالة من بنسعيد إلى الفقيه البصري.

إن حياة النمري المتمرد، وسيدي حمو الثائر في جبال الأطلس، ومحمود المناضل دهكون المناضل النشط، كل هذا يرسم أربعة مسارات تختلف في ظاهرها ولكنها تكشف عن طموحات واحدة متشابهة وعن تخوفات ماثلة، كلها وليدة الغموض وتُس للذات تعرفهما الأزمنة الجديدة التي تبعث الإيمان والإعتقاد بأن كل شيء ممكن. سرعان ما تلاقت تلك المسارات الأربعة. إنه قدر حقبة كان لا بد أن يتضامن فيها ينحد استمراء الكفاح من أجل الاستقلال مع إرادة النخبة المثقفة التقدمية العازمة على الدفع بالمغرب إلى الحداثة. ووحد التسلسل المأساوي لأحداث التاريخ فيما بعد نصبرهم. بعد خمس عشرة سنة، في كفاح لا يخرج منه المرء سالما.

²³ سوف يُعدم الجدايني بالقميطة يوم فاخ نونبر من سنة 1973، والملباني بالقميطة يوم 27 غشت من سنة 1974.



مر اليمين إلى اليسار، المهدي بنبركة وعبد الرحيم بوعبيد والفقيه البصري



مهدي بنبركة مع الفقيه البصري.



إبراهيم التيزيني. المعروف بعبد الله التمري. والشيباني. والشيخ.
توفي في ساحة المعركة بميسور يوم 8 ماي 1973.



سيدي حمو عبد العليم. المعروف بالطاهر. توفي
بتنغير سنة 1996.



محمد بنونة. المعروف بمحمود. وُلد سنة 1938 بالرباط. توفي في
ساحة للعركة بأملاغو (بمنطقة كوليمة) يوم 5 مارس 1973.



عمر دهكون. المعروف بزهير. وُلد سنة 1942. تُفد فيه -
حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاخ نونبر 1973.



اجتماع بمدينة إفي سنة 1958 بين القيادة العليا لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب وقادة المقاومة. من اليمين إلى اليسار: عمر المرشني. ادريس بن بوبكر (واقفا). سحمو. سعيد بوعيلات. محمد بنسعيد. محمد بن علي المعروف بـ"الفيلسوف". الكبير بوركري



إحدى الصور النادرة لمقاومي جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. يمكن التعرف على النمري (الثالث من اليمين) إلى جانب ادريس بن بوبكر (الثاني من اليمين). يحيط بهما ضباط من جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب.

النمري (الرابع من اليمين) إلى جانب ادريس بن بوبكر (الثالث من اليمين).





صورة للجنة المؤسسة للطفولة الشعبية بمر التعرف على محمود في الصف الثاني (الرابع من اليسار) والمهدي بنبركة في الصف الأول (الثاني من اليمين).



محمود (على اليسار) خلال جمع الطفولة الشعبية.
من بينهم بنكيران (في الوسط يضع نظارات)،
سيصبح فيما بعد عاملا إقليميا.



محمود وهو يُتسبر اجتماعا ليلية الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بجمهورية ألمانيا الديمقراطية

الاختيار الثوري (1963 – 1968)

“سوف تطوى الصفحة”

بعد اعتلاء الحسن الثاني العرش، يوم ثالث مارس 1961، كان عليه أن يواجه مشاكل عويصة داخلية وخارجية. فأخذ يتأكد الصراع بين الاتحاد الوطني للقوات الشعبية والقصر. ذلك الصراع الذي بدأ منذ تسريح حكومة عبد الله إبراهيم في ماي 1960، وقبل وفاة محمد الخامس. وقد زاد من خطر هذا الصراع تنحية جيش التحرير الوطني وخنق الحريات.

أكد أن الحسن الثاني استطاع التحكم في الإدارة حكما كاملا وخنق كل إمكانية للاحتجاج. ولكن، وفي هذه الفترة الموسومة بنزعة القومية العربية، والتي وصل فيها حزب البعث، ومنذ زمن قصير إلى السلطة في بغداد ودمشق، كان اليسار العربي يشكل نموذجا في كامل قوته. وكانت هذه الفترة كذلك فترة ظهور حركات التحرير في أفريقيا وأمريكا اللاتينية، حركات “الفوكوس”، وهي البؤر الثورية العزيزة على تشي غيفارا. وبما أن المعارضة لجأت إلى أقصى الحدود، فقد استفادت من مساندة الدول الرائدة في الشرق الأوسط من مصر وسوريا والعراق. كان عزم هذه المعارضة أشد ما يكون العزم: فقد تمكن المهدي بن بركة، بفضل منفاه الأول ابتداءً من سنة 1960، من أن يكسب مساندة دولية تبتدئ من بيكين ثم هافانا مروراً بالقاهرة وموسكو. لقد كان الصراع الذي بدأ بين الملكية والتشكيلة السياسية الجديدة، وهما الطرفان اللذان ينفرد كل منهما برؤية خاصة عن بلاد المغرب. يبدو صراعا لا رجعة فيه.

وقبل مؤتمر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية سنة 1962، كان المهدي بن بركة قد استفاد من أخطاء الماضي ووضع النص المؤسس لما أصبح يُعرف فيما بعد بـ “الاختيار

أي حد يمكن أن تذهب الأمور. فعند محاولة هيمنة الإدارة على الشعب والسيطرة عليه، سوف نكون مضطرين للرد ولن يكون بوسعنا عندها أن نستمر بصفتنا حزبا يعمل في إطار قانوني". ثم أضافا: "إن الصفحة سوف تُطوى فيما يخص الحركة الوطنية التي ستدخل حينها مرحلة جديدة من مراحل كفاحها²". لقد اعتقد الكثيرون أن هذه الراديكالية الكلامية لم تكن سوى محاولة للضغط. وأن الهدف منها هو أن تكون ورقة ضغط عند التفاوض السياسي المحتمل. ومع ذلك فإن الإنذار كان يندرج في إطار لعبة، مهما بدت خفية ولبقة، فقد كان بمقدورها في أي لحظة أن تنقلب إلى ما لا رجعة فيه. وعند هذه اللحظة، يختلط الهدف بالوسيلة فيصبحان شيئا واحدا.

وبعد مرور بضع أيام، يوم 5 ماي 1963، قبيل الانتخابات، نشر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بيانا يعلن فيه أنه أصبح "خصم النظام الإقطاعي والشخصي. ومن بين أهدافنا هناك هدف فوري أي، ألا وهو إنهاء هذا النظام. وإنه لمن مفاخر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أن يكون قد أرغم هذا النظام على الكشف عن حقيقته. ليس الغرض من هذا هو تحسين النظام أو تعديله أو ضمان بقائه. بل إن الغرض هو القضاء عليه. لا توافق مع هذا النظام. لا إجماع ولا اتحاد وطنيا من حوله³".

في مرحلة أولى، خرج الاتحاد الوطني للقوات الشعبية قويا من المعركة. فقد أكدت الانتخابات تفوقه. إذ رغم العراقيل والقمع، ورغم تنحية الموظفين المتهمين بالتعاطف (وهي التنحية التي بدأت في الحقيقة منذ سنة 1958)، فاز الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بـ 28 مقعدا و 22,3 بالمائة من الأصوات بل وصل إلى 90 بالمائة من الأصوات المعبر عنها في مقاطعات حضرية كما كان شأن مدينة الرباط. حيث ترشح أهم قادة الحزب وخطبائه، المهدي بن بركة وعبد الرحيم بوعبيد.

وفي هذا السياق، كانت مساندة الشعب للحزب الجديد، رغم ما طال الانتخابات من تزوير، مساندة واضحة معبرة. وسرعان ما جاء رد فعل النظام. فقد نُقل عمال إقليميون أو موظفون سامون أو طردوا لتعاطفهم مع المعارضة، وأغلقت بعض مقرات الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، واعتُقل مناضلون من أعضاء الحزب.

مؤامرة بوليوز سنة 1963

ينسب عدة كتاب مطلعين⁴ نهاية المؤامرة والدسياسة الناشئة إلى شخص واحد: به العقيد (الكولونيل) المذبوح. فقد رُقي الرجل الذي عمل على تهدئة الريف قائدا لحرس المقرب من الملك. واسمه يعني "ذاك الذي نحر أو ذبح"، وهي إحالة للثمن

² نُظر أسبوعية جون أفريك، 8-14 أبريل 1963.

³ بر بركة، حياة وموت، سبق ذكره.

⁴ ولاسيما منهم المعطي منجب، الملكية المغربية والصراع من أجل السلطة، منشورات لارماتان، 1992؛ وجيل بيرو، صديقتنا، منشورات غاليمار، 1990.

الذي دفعه أبوه. الذي كان معروفاً بكونه حارب عبد الكريم الخطابي وساعد الجيش الفرنسي-الإسباني ضد بطل حرب الريف سنة 1926. ولكن وفي تلك الفترة. كان أغلب المتحقيقين بصقوف ضباط القوات المسلحة الملكية من أفراد الجيش الاستعماري سابقا. فلم يكن هذا الانتماء بالأمر المشين. فالمذبوح تكوّن في إعدادية أزرو. وهو من قدماء الحرب الهندية-الصينية. وتسلق الدرجات تحت ظل نظيره المماثل له محمد أوفقيير.

ودون أن يبين الرجل عن أي تعاطف سياسي. وبصفته وزيرا للبريد والمواصلات في حكومة عبد الله إبراهيم. ثم بصفته عاملا على مدينة الدار البيضاء. أبان عن ترحاب يشوبه الحذر بالاختار الوطني للقوات الشعبية. وهكذا تضاعفت لقاءاته مع الفقيه البصري. ويبدو عندها أن هذا الأخير. وخلف مظاهر عادية تبدو على أنها تبادلات سياسية محضة. استطاع الحصول على معلومات استراتيجية عديدة. ولكن العقيد المذبوح تراجع⁵ حين طُلبت منه معلومات مفصلة تهم تصاميم القصر وعدد أفراد الحرس الملكي. من البديهي أن الرجل كان مرتاحا في دور الملاحظ المتساهل أكثر مما كان مرتاحا في دور المتأمر. بعد ذلك. عرفت الأيام الموالية تفكيك عدة شبكات واعتقال العديد من المناضلين.

ولما أصبح المذبوح جنرالا. تميز بعد مرور عقد بكونه الرجل الثاني في تدبير أول انقلاب عسكري. إن تاريخ المغرب يشبه من وجوه عديدة سلسلة متتالية من المواجهات لا تُكتشف إلا بعد فوات الأوان.

وحتى يومنا هذا ما زالت الروايات تختلف. هل كانت هناك فعلا مؤامرة؟ ألم تكن سيوى نوايا مترددة وغير واضحة؟ ألا يتعلق الأمر سوى بمؤامرة دبرها القصر نفسه؟ ومهما كان الأمر. فإن القمع الوقائي الذي قام به القصر⁶ استطاع أن يقتل في مهدها منظمة كان من شأنها أن تقلب النظام الملكي. وحسب شهادة حميد برادة⁷. الذي كان حينها رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. والذي اعتُقل خلال حملات الاعتقال.

٥ . عن ذلك أنه سوف يشهد بذلك خلال المحاكمة. فكل الأشخاص الذين اتصل بهم الفقيه البصري صرحوا بأنهم "سقطوا على العياش" التي قد تكون طلبت منهم "الحفاظ على العلاقة". المغرب الوثائق. رقم 10. الرباط. وزارة الإعلام. ١٩٩٦. أنظر أيضا ابن بركة. حياة وموت. لركبة داود واللعطي منجب. منشورات ميشالون. باريس. ١٩٩٦. و16 بوليز. تحت تلطيف جبر. منشورات المعارف الجديدة. الرباط. 2000.

٦ . ما قد غشت 1964. كتب رضى اكدير. صديق الملك. والذي كان حسب الطرح الرسمي مستهدفا كذلك من المؤامرة. في حريته "في فناء الفئانات" بأن "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية لا دخل له في المؤامرة المزعومة التي لم تكن من نصيبه. بل هي نصيب مشايخين محترقين لم يتحركوا سوى بحض إرادتهم". بعد ذلك. سوف يصرح الحسن الثاني بحسب "سجل" كفة مؤامرة يمكن أن تناقض. إلا أنها كانت مؤامرة في ذهن أولئك الذين دبروها. وبما أن الأمر كان بهم هذه حصة جزئية. فأن الناس اعتقدوا بأن الأمور ربما ضُخمت بعض الشيء". ذاكرة ملك. ١٩٩٦. ص ١٠٠. ترجمه سوبيد. الذي تزعم حياة الدفاع خلال المحاكمة. جريدة لوموند يوم 22 نونبر 1963. "أنه بعد من حصة معجزة من حيث تسليحها. وأناس متعاونين من حيث سداجتهم. وضعت الشرطة ارتباطا بأعضاء قدماء من حصة حسمهم. من لاخذ توطي للقوات الشعبية. إنها مؤامرة ضد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية".

٧ . محمد مع عبد الله.

فإن ما يشكل "مؤامرة" في نظر القصر ليس سوى بداية منظمة تتمفصل أساسا حول محورين اثنين يتحركان دون تنسيق ظاهر بينهما. المحور الأول يحركه عمر بنجلون والفقبة البصري. والمحور الثاني. وهو أكثر افتراضية من الأول. نتج عن لقاء بين المهدي بن بركة وشيخ العرب.

شيخ العرب اسمه الحقيقي أحمد أكويز وهو طباح سابق وفي الوقت نفسه أحد أول المقاومين في الوسط الحضري وأحد مؤسسي جيش التحرير. بعد أن لجأ من التصفيات التي تلت تفكيك جيش التحرير الوطني. عاش منذ سنة 1956 في السرية. إنه رجل عنيد وصارم. ولا يمكن إرشاؤه في إطار صفقات التوظيفات المتواطئة. ويتذكر أحد رفاقه بأن "في هذه الفترة كان شيخ العرب يأتي مرارا لزيارتنا بالقنيطرة. ورغم أنه كان هاربا من العدالة بتهمة قتل أحد عناصر الأمن الوطني في الجنوب. فإنه كان يتنقل كما يطيب له ويملك عدة متاجر متخفيا وراء هويات مزورة. بل إنه كان يزور رفاقه المعتقلين بالسجن المركزي بالقنيطرة. وسنة 1962. استطاع بعض من رفاقه. كما هو شأن بوشعيب الدكالي. الفرار من السجن (بمساعدة خارجية)⁸."

ولكن أصبح الشعور بالانفلات من العقاب مصدر نشوة. فأخذ مومن الديبوري. أحد المقربين من شيخ العرب. يتردد علناً بمدينة القنيطرة على ضباط المخابرات والدرك. بل وأفشى لهم ببعض الأسرار. ولأن هؤلاء الضباط لم يصدقوه. فإنهم لم يكتروا بالأمر إلا قليلا. ولكنهم. وفي اليوم الذي أثبتت فيه الأحداث حقيقة تلك الأقوال. لم يجدوا عناء كبيرا في الوصول إلى منفذي العمليات.

اعتقل مومن الديبوري. الذي كان وسيطا بين المهدي بن بركة وشيخ العرب. يوم 11 يونيو 1963. وقبل ذلك بأسبوعين اثنين. كان قد تسلم حمولة من السلاح من القاعدة العسكرية الأمريكية بالقنيطرة. وكما كان يفعل الأمر نفسه من قبل لحساب جيش التحرير الوطني. إذ كان يتاجر بهذا العمل. في هذه المرة. كان السلاح موجها إلى شيخ العرب. الذي أصبح هكذا العدو العمومي الأول لأنه أراد تشكيل مخازن سلاح وخلايا ثورية. وفي الوقت نفسه. استدعى إلى القصر عدة ضباط متهمين بالتواطؤ مع الفقبة البصري. بعضهم لن يعود منه أبدا. وإبان الحملة. شنت الشرطة حملة اعتقالات. فاعتقل عبد الرحمن اليوسفي وعمر بنجلون وحوالي 130 مسؤولا ومناضلا يوم 16 يوليو خلال انعقاد اجتماع الحزب بالدار البيضاء. وكذلك اعتقل الفقبة البصري وبعض رفاقه في اليوم الموالي. بعد مطاردة حقيقية. كل القيادة العليا للحزب ومسؤوليه الوطنيين. و21 برلمانيا من بين 28 من برلماني الحزب. أي إن أزيد من مائة شخص اعتقلوا. ومع ذلك لم يكن هذا سوى الظاهر. أما الخفي فكان أعظم ما دام أزيد من 1700 مناضل قد اعتقلوا. و5000 مناضل ومتعاطف ومسؤول ومرشح للانتخابات المقبلة قد وُضعوا رهن الاعتقال الاحتياطي في مخافر الشرطة.

8 أنظر في هذا الصدد شهادة محمد بن سعيد المنشورة بجريدة أنوال. أنوال نونبر 91 - أبريل 92.

نشئت المعارضة

يعيش الإنسان المنفي على ما هو مؤقت. والانتظار بالنسبة إليه هو البديل الذي يحل محل الحياة المنتظمة. ولأن المنفي يرفض مسبقا كل فكرة لها علاقة بالدوام. فإنه يتوجس ويترقب علامات التغيير التي سوف تمكنه ثانية من العودة إلى وطنه مرفوع الرأس. ولكن ومع مرور الوقت وامتداده. يزداد المؤقت ضغطا وحضورا. ويتشابه البعد والمنفى مع الموت البطيء. ويصبح من اللازم على المناضل الثوري أن يعمل بنشاط من أجل تحقيق الشروط الضرورية لعودته. بل وإن دعا الأمر ذلك. إلى استباق هذه الشروط.

إنها حالة النمرى. المتمرد منذ حل جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. والذي كان يفضل عدم دخول هذه التجربة. ليس لأنه كان يعتقد ساذجا أنه محمي من مثل هذا الاحتمال. ولكن لأن هذا الاحتمال يتسبب في أمور تعاكس السير المنطقي للأحداث التي وجد نفسه وذاته فيها.

مباشرة بعد استقلال الجزائر. غادر النمرى منفاه في دمشق ودخل الجزائر العاصمة. وهو الأمر الذي كان بالنسبة إليه يشكل مرحلة قبل عودته إلى بلاده. إنها المرة الأولى. منذ أن أطلق أول رصاصة ضد الفرنسيين. التي يضطر فيها النمرى إلى مغادرة وطنه الأم. هذا هو ثمن الحرية. إنه عزاء قليل ضعيف لمناضل ثوري أرغم على التراجع أمام خصم كان هذا المناضل نفسه قد أقسم على تصفيته.

ما كاد الرجل يصل إلى العاصمة الجزائرية. مكان المنفى ومكان اللقاءات. حتى شهد مندهشا وصول موجة جديدة من المناضلين الهاربين من حملة القمع التي اجتاحت البلاد سنة 1963. إنها هجرة ثانية تنضاف إلى ما يكتنف المنفى من غموض. وتشخذ الضمائر. هجرة ترتبت عنها اجتماعات عديدة وانتقادات ذاتية كثيرة. نوقشت بضراوة أسباب الفشل والمسؤوليات. إنها بداية منافسات سوف تتأكد فيما بعد. إنها مناسبة كذلك بالنسبة إلى هؤلاء الذين تربطهم قواسم مشتركة أو عداوات أن يشكلوا فرقا صغيرة فيما بينهم.

ولما كانت الجزائر تحتفل بمرور أول سنة على استقلالها. وصل ما تبقى من قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى الجزائر العاصمة لحضور الحفل: المهدي بن بركة وعبد الرحمن اليوسفي والمهدي العلوي. وقفوا على عدد الأعضاء وبدءوا يجددون تنظيم الرجال. بقي المهدي بن بركة وفيما لما عرف عنه من قدرة على جمع الشمل. فأنشأ فرعا في حي القبة. وهو حي إقامة [عصري] يوجد فوق مرتفعات الجزائر العاصمة. به مصلحة صحافية ومركز للتوثيق لخدمة المنفيين. ومع مرور الوقت. سوف يتوسع مركز التوثيق هذا ليصبح مدرسة ثورية حقيقية. ويتذكر أحمد بنجلون الذي

أمضى في هذا المركز الساعات الطوال يتصفح الكتب الخاصة بحرب العصابات عند نهاية الستينيات بأن: "خزانة القبة كانت مَوْثقة توثيقاً يُضاهي جودة توثيق الأكاديمية العسكرية بسان سير؛ ويضيف "لقد كان يوجد فيها كتاب كلوزفيتز إلى جانب نظرية البؤر الثورية لتشي غيفارا"¹¹.

لم يتأخر المهدي بن بركة طويلاً في الجزائر العاصمة. فهو قد تفرغ لعلاقاته الدبلوماسية مع الحركات التحريرية والحكومات الصديقة. وبدأ يتأمل في بوادر مشروع تنسيق كفاح الشعوب التواقة إلى الانعتاق من الهيمنة الاستعمارية والاستعمارية-الجديدة. فتحول محامي اليسار المغربي صاحب الهبة الجماهيرية إلى زعيم لعالم ثالث يريد الانعتاق من الوصاية الاستعمارية القديمة دون أن يسقط ثائفةً في أيدي الهيمنة السوفيتية أو الصينية. كان المهدي بن بركة يجوب القارات ويعبئ الموارد والإرادات السياسية. وكان محاوروه هم جمال عبد الناصر وفيدل كاسترو وهو شي مين. وخلال هذا الوقت، كان المنفيون ينظمون أنفسهم في الجزائر العاصمة.

حرب الرمال

يتذكر أحد المنفيين، مصطفى العماري، الذي كان يعمل صحافياً نهاراً وناقلاً للسلاح ليلاً، يتذكر وصوله إلى الجزائر العاصمة سنة 1963: "سجلني أحد قادة جيش التحرير الذي كانت له علاقة جيدة مع الجزائريين. في الأكاديمية العسكرية الجديدة ببني مسوس، والتي كان يديرها القائد (الكومندان) سليمان هوفمان". ومن سخرية الأقدار أنه عند وصوله إلى الأكاديمية، وجد بها المدرعات الخفيفة التي أهداها الحسن الثاني إلى الجمهورية الجزائرية الشابة. ويواصل المنفي الحديث الالتحاق بالصفوف: "ولأنني من مواليد فيكيك، لم أجد صعوبة في جعل الآخرين يعتقدون بأنني جزائري. لقد كان اسمي المستعار هو رحمان. وحده هوفمان كان يعرف هويتي الحقيقية والهدف من تكويني بالأكاديمية. وخلال الزيارة الرسمية التي قام بها جمال عبد الناصر يوم 4 ماي من سنة 1963، تم اختياري لحماية الرئيس من المطار إلى القصر الرئاسي"¹².

ووقع اتفاق للتعاون بين الجمهوريتين العربيتين الشابتين. وسرعان ما خرج الاتفاق إلى حيز الوجود. فبعد عبارات تهدف إلى إيهام الجميع أن السبل الدبلوماسية لم تجد نفعاً، انفجرت بين المغرب والجزائر الحرب التي تدعى "حرب الرمال". لقد كانت عمليات مناوشة متتالية امتدت من 13 شتنبر إلى 2 نونبر 1963¹³.

فرأى الشباب المغربي زملاءه الجزائريين بالأكاديمية يذهبون إلى الجبهة انطلاقاً من الأكاديمية العسكرية التي يتواجد بها. فغداً في وضع لا يحسد عليه. ساعده مواطنه.

11 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

12 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

13 أنظر الجرد التاريخي في نهاية الكتاب.

حميد برادة. رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. والذي هرب من المغرب إبان عمليات القمع المرتبطة بالمؤامرة والذي كان قد حُكِم عليه غيابيا بالإعدام لأنه انتقد "اعتداء بلاده على الجزائر"¹⁴. ساعده على مغادرة الأكاديمية العسكرية وأُسكنه في الجزائر العاصمة. كان المنفيون المغاربة يشهدون الاصطدامات بين قادة جيش التحرير الوطني التي لم يكونوا يعرفون أسبابها ونتائجها إلا جزئيا. وكانوا يحاولون قياس رهاناتها. ويتذكر أحدهم. عبد الرحمن صياد. قائلا: "بينما كان بعض من الأطر المنفيين يتحدثون عن إعادة بناء الحزب. كان البعض الآخر يرى في النقاشات والحوارات داخل الفيلات بالجزائر العاصمة مضيعة للوقت. ويبدون رغبتهم في المرور إلى العمل"¹⁵.

فبدأ الحديث عن فكرة إعادة تنشيط جيش التحرير الوطني بمساعدة جبهة التحرير الوطني.

يقول أحد المنفيين. وهو مصطفى العماري: "رافقتُ شيخ العرب وسعيد بونعيلات إلى بشار (واسمها السابق كولومب بشار). واتفقنا مع الرائد (كومندان) ب. رئيس الجهة العسكرية الثالثة. على إقامة معسكر للتدريب على بُعد 400 كلم من بشار. في قرية تُدعى أوواط¹⁶".

وخلال أسابيع قليلة. استقبل معسكر أوواط زهاء المائة مناضل. لقد استهوت هذه المبادرة المناضلين الأكثر شجاعة: إذ ظهر النمري ضمن أول الوافدين. إذ لم يكن بمقدور قوة شكيمته وعزمته أن تقنع أكثر ما مضى بذلك الإحساس بالعجز الناتج عن غياب الحركة الذي يفرضه المنفى. التحق بالقيادة العليا النواة التي استقرت في وهران. والتي يتواجد بها شيخ العرب وسعيد بونعيلات وحسين خضار وحمدون.

كلف بارو بإدارة المعسكر وبارو قائد سابق (من رجال السلطة) لمدينة سلا. ورفيق قديم لأوفقيير أيام الدراسة بمدرسة الضباط بأزرو قبل أن يلتحق بجيش التحرير الوطني. وكان ثلاثة ضباط جزائريين مكلفين بتكوين وتعليم المناضلين. كل واحد في مجال تخصصه: حرب العصابات والسلاح الثقيل وصنع القنابل. "كان هناك ضباط فروا من القوات المسلحة الملكية. ومقاومون وشباب. الكثير من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 20 و 25 سنة"¹⁷.

وسرعان ما رأت النور معسكرات أخرى. في تلمسان وسيدي خالد على وجه الخصوص.

14 في يوم 25 أكتوبر. والنزاع في أشده. فُتحت مسطرة ضد المهدي بن بركة وحميد برادة بتهمة اللس بأمن الدولة أمام المحكمة العسكرية للقوات المسلحة الملكية بالرباط. حُكِم فيها على المهدي بن بركة بثلاث حُكِم بالإعدام لأنه قال كلاما

يائل كلام برادة على أمواج إنذاعة لبنانية.

15 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن صياد.

16 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

17 حوار للمؤلف مع عمر الناصر المعروف بالفرشي.

الطمع في الفوز بزعامة الثورة

لم يكن التعايش داخل القيادة العليا لجيش التحرير الوطني المغربي يعرف التفاهم الأخوي الذي لا يتزعزع. فالأهداف المطلوبة لم تكن دائما تتطابق مع النوايا المعلن عنها. وكان الرجال الذين يشكلون هذه القيادة العليا فخورين بكونهم مقاومين وفي الآن نفسه غيورين على سلطتهم. وكان العقيد (الكولونيل) بنحمو أول من أفصح عما يخالجه. إذ كان الرجل بطلا في الحرب العالمية الثانية وقد بقي إلى جانب النمري في آخر معاقل جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب قبل أن يلتحق بالقوات المسلحة الملكية. ليعود أخيرا إلى حبه الأول. وقد دفعه قمع "مؤامرة 1963" و"حرب الرمال" إلى الفرار صُحبة عدد من رجاله إلى الجزائر. وحتى يبين اختلافه وتمييزه عن الآخرين، فتح الرجل معسكره الخاص به بسيدي بالعباس. في المكان نفسه الذي كانت توجد به معسكرات الجنود الأجانب العاملين تحت الراية الفرنسية.

كان حجر الزاوية الثاني هو مسألة جمع المتدربين في المعسكرات. إذ لم يكن بعض نزلاء المعسكر النازحين من الهجرة، والذين يُجمَعون أحيانا دون أن يعلموا بالأمر، لم يكونوا مناضلين حقيقيين. بل على العكس من ذلك، كانوا فقراء خدوهم وعود غير أكيدة بتحقيق بعض الريح. فيتم اقتيادهم دون هودة ولا عناية إلى معسكر يتحول بالنسبة إليهم إلى مركز اعتقال. لقد كان هؤلاء المجندون يقاتلون لأنهم لم يجدوا ما هو أحسن. هذا إن لم يكونوا يقاتلون رغما عنهم، فكانوا في حد ذاتهم عنصرا أكيدا لعدم الانضباط وخطرا لا يخلو من عواقب وخيمة. وزادت الوضعية حدة عندما اقترح الجزائريون على شيخ العرب أن يستقدم مناضلين إلى تندوف. فاقتيدت عائلات بكاملها إلى بشار. انتبه شيخ العرب إلى خدعة الجزائريين، ولكن بعد أن وقع ما وقع. ذلك أن هدف الجزائريين كان هو أن تفقد هذه المدينة كل ما من شأنه أن يوحى. انتمائها إلى المغرب، وهي مدينة توجد على ممر خط الحدود ويعتبرها الجزائريون جزءا لا يتجزأ من التراب الجزائري. ولأن القيادة العليا فوجئت، فإنها ترددت حول الموقف الذي يجب تبنيه. وتدل كل الأمور على أن القيادة العليا هاته لا تولي سوى أهمية ثانوية إلى مسألة وضع استراتيجية سياسية مشتركة وذلك لأن الهدف الذي يجمع عليه الكل، وهو الإطاحة بالحسن الثاني، كان هدفا كافيا في حد ذاته بالنسبة إليها.

وسوف يعمل الصراع حول صلاحيات القيادة على تقسيم القيادة العليا. فعندما تصر شيوخ العرب سرا بالجنود المصريين ببشار، ثارت ثائرة النمري. فزاد هذا الخرق من حدة النزاع الكامن بين الطامعين في الفوز بالقيادة. راجع النمري الجزائريين من أحمر فم يستحسنوا هذه الخيانة. فقام الرائد (الكوماندان) ب. رئيس الجهة

العسكرية الثالثة. باعتقال شيخ العرب وسجنه. ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن تدخل حمدون وسعيد بونعيلات.

وعند خروج شيخ العرب من السجن. كان همه هو الانتقام من "الخائن" الذي وَشَى به. ولما علم بارو أنه أصبح مُهددا. هرب من المعسكر. فبات الجو العام قابلا للانفجار. وبعد أن مل أعضاء المعسكرات من الانتظار والوعود الكاذبة. أبانوا عن استيائهم. أخذ عندها النزاع يهدد بالانتساع والانتشار. فأحس حينها شيخ العرب بأن اللحظة باتت مواتية. فجمع رجاله. وكانت القطيعة. انفجرت القيادة العليا إلى قسمين متنافسين. شيخ العرب وسعيد بونعيلات وحمدون من جهة. والنمري وبارو وحسين خضار من جهة أخرى. حاول البعض إصلاح ذات البين. ولكن تصدير الثورة الجزائرية لم يكن بالتصدير الموفق. ففشل مشروع إقامة معسكر أوواطا لأنه بات لا يملك قيادة منسجمة.

شيخ العرب، الرجل الذي لا يمكن القبض عليه

أذكت ذكرى شيخ العرب ألما كان دفينا عند الفرشي. وانطلاقا من الجزائر التي اختبأ فيها شيخ العرب خوفا من تعرضه إلى عملية خاك ضده. كان يقول للمقربين منه: "ما دام الأمر يعني الموت. فليكن هذا الموت برصاص مغربي". ومن ثمة قرر الرجوع إلى المغرب. كان الفرشي الوحيد الذي رافق شيخ العرب في رحلته اليائسة: "عبرنا سرا الحدود يوم 7 أبريل 1964. في البداية. أقمنا في الدار البيضاء عند مناضل سري¹⁸". وبعد مرور بضعة أسابيع. استطاع شيخ العرب والفرشي تكوين شبكة من خمس خلايا سرية تتكون من حوالي ثلاثين رجلا. واسترجعا بعض الأسلحة. وهذا إنجاز يعود الفضل الكبير في تحقيقه إلى مساندة بعض الرفاق السابقين الذين بقوا أوفياء للمثل الأعلى الذي دفعهم في القديم إلى حمل السلاح ضد الاستعمار.

تعتمد منظمتهم على شبكة من محلات البقالة يسيرها سوسيون¹⁹. وكما كان شأن زمن المقاومة. فإن هذه المحلات سوف تصبح. وفي الآن نفسه. مخابئ للمناضلين ومخازن أسلحة ومخازن التزويد ومراكز لإرسال الرسائل وتسلمها. ولأن شيخ العرب كانت تطارده قوات الأمن فإنه سرعان ما اكتسب سمعة شخصية روينسون الغاية. يتحدى الشرطة ويفلت منها عدة مرات. وذلك في الوقت الذي تكون فيه على وشك "تقبض عليه". وداخل مدن القصدير بالدار البيضاء. كبرت حكاية "الرجل الذي لا يمكن تقبض عليه". لقد كان شيخ العرب دائم الحركة. يوجد في كل مكان وفي الآن

¹⁸ حوار للمؤلف مع عمر الناصر المعروف بالفرشي.

¹⁹ سكان سوس. منطقة تمتد جنوب مدينة أكادير.

نفسه، لا يوجد في أي مكان. وما كان يزيد من مدى قدرته على الحركة أنه كان يستفيد من توافقات تمتد حتى داخل القوات النظامية. وهاهو أحد رفاقه يبتهج للآمر بعد أن مرت أزيد من ثلاثين سنة على ذلك: "كنت مع شيخ العرب في سيارة دجيب لأحد ضباط الصف من القوات المساعدة عندما أذاع مذيعه خبراً مفاده أننا نتواجد بمكان آخر من الدار البيضاء ويطلب من كل الوحدات أن تطوق المكان المشار إليه"²⁰.

وكان شيخ العرب، على سبيل الاحتياط، لا ينام أبداً ليلتين متتابعتين في البيت نفسه. ولكن، وحتى لا يُكذب الأساطير، أمضى بضعة ليال داخل القصر بالرباط. عند طبّاخ الملك، الذي كان من أبناء قريته. وأقسم الجنرال أوفقي، الرئيس المربع للأمن الوطني، على أن يقبض على شيخ العرب حياً حتى يهدم تلك الأسطورة التي تلقى بظلمها على هيئته. ذلك أن الاستبداد يخشى أن يكون موضع سخرة وتهكم. فلجأ إذن إلى الوسائل الكبرى. وعبأ فرق التدخل الخفيفة. كان أول من وقع هو الدكالي، وهو الحركي الذي اعتُقل في بيت مناضل سري. ولما تم استنطاقه، باح بأحد مخابري شيخ العرب: بيت مدير شركة الصيدلة أسبرو، بحي ليرميتاج (المنسك). ويوضح الفرشي أن "الدكالي كان يجهل وجودي بعين الشق (حي شعبي يوجد على هامش مدينة الدار البيضاء)".

بات أوفقي يملك خيطاً. فقرر على الفور مفاجأة ساكني الفيلا بالهجوم عليها. لقد تسرع في القرار، إذ إن الرجل الذي لا يمكن القبض عليه كان قد أخذ احتياطاته. ذلك أن الزقاق المجاور للفيلا كان موضع مراقبة مستمرة. وعندما تقدم رجال الفرقة الخفيفة نحو سياج البيت، استقبلتهم طلقات أسلحة رشاشة. كان رد ساكني بيت ليرميتاج مبنياً. قُتل ثلاثة ضباط من المخابرات العامة. ولما استعادت قوات النظام قوتها وهاجمت ثانية، ألقت القبض على ... لا شيء. إذ كان شيخ العرب ورجاله قد فروا من خلف البيت. أثار هذا الفشل الذريع غيظ أوفقي. وفي اليوم الموالي، أخرج من السجن أربعة رفاق من رفاق شيخ العرب. كانوا قد اعتُقلوا سنة 1960. أيام لجأ الفرشي بأعجوبة من مطارديه. فقتل الرجال الأربعة دون محاكمة ودون شهود: هكذا مات عبد الله بوزاليم وعبد الله كرجاج والسويسسي المزالقي المسمى بلحسن ومحمد أوشواط.

أخذ الخناق يشتد حول شيخ العرب. فقد ألقي القبض على 26 مقاتلاً وهم يحملون السلاح. تسربوا من الجزائر في شهر يونيو²¹. لمساعدته. وبعد مرور شهرين، يوم 7 غشت، قدم مخبر لأوفقي الخيط. فلربما كان شيخ العرب عند أحد المتواطئين معه. وهو ضابط صف في القوات المساعدة. هذه المرة طوق أوفقي حي سيدي عثمان بفرقة التدخل الخفيفة. بعد ذلك وقع اشتباك توفي فيه شيخ العرب ورفاقه وكذا

20 شهادة الحلوي بحكها أحمد أويحمان.

21 اعتُقل ستة رجال يوم 3 يونيو بمدينة وجدة، وثمانية عشر يوم 10 يونيو بمدينة مكناس. ورجلان الثان يوم 3 بوليوز بمدينة مكناس. أعيد 14 منهم يوم 27 مارس 1965.

ثلاثة من رجال الشرطة. ونشب اشتباك ثان في اليوم نفسه بحي آخر من أحياء الدار البيضاء، انتهى باعتقال ثلاثة رجال²². في المجموع، تم اعتقال حوالي الأربعين رجلاً من رجال شبكة شيخ العرب.

إن مسار شيخ العرب، ذي الصيت الشعبي الواسع، يخفي وراءه غياياً تاماً لتنظيم والتخطيط: يوضح هذا المسار توضيحاً مأساوياً عدم تلاؤم مناهج المقاومة مع واقع المغرب المستقل.

إنه قدر مأساوي لثائر فقد الأمل في حل سياسي، رجل كان لا يتحمل أن يرى "سياسيين" يطفئون نار الثورة بتنازلاتهم وتراجعهم وتواطئهم. عندما يتحدث الفرشي عن ذاك الذي كان معلمه ومرشده، تكسو وجهه كآبة خفية. ويخلص الرجل بصوت تعمد أن يبقيه صوتاً هادئاً غير مبال، وكأنه يريد أن يخفي ألماً عميقاً لم يخمد أبداً: "طريقة شيخ العرب؟ طريقته هي أن لا تكون له خطة مضبوطة سلفاً" وللمرة الثانية، هرب الفرشي من المغرب.

اعتقالات

صوت خطوات يقترب من مكان ظليل. كان الجو ثقيلًا، الجو حار ورطب. آيت قدور²³ جامد لا يتحرك. بعد أن أمضى دقائق طويلة يستجمع أحاسيسه المشتتة، انتبه إلى حركات ذهاب وإياب غير واضحة في رواق السجن، خلف باب الزنزانة. عند الليل، تنزعه نهائياً من خموله صباحاً. إنه يوجد بدار المقرّي التي تبدو من الخارج مسكنًا باذخاً وسط حديقة من أشجار الليمون في حي إقامة بالرباط، ويوجد بداخل هذه الدار مركزٌ للتعذيب. اطمأن بعد أن مرت أولى لحظات الخوف. لقد انتهت حصّة التعذيب وخرج منها بدون خسائر كبيرة. عادت إلى ذهنه فجأة لحظة غريبة مرت عليها بضعة أسابيع. عاود اكتشافها في أعماق عزلته: سألّه الدكتور بنهيمّة، وزير الأشغال والنقل وهو يسقيه كأس ويسكي، وكأنه يريد أن يقول له بعد الإنذار الذي وجهه له بأن الساعة هي ساعة راحة يحلو فيها تبادل الأسرار:

— هل أنت متزوج؟

ثم أضاف الوزير دون أن يترك لمخاطبه الوقت الكافي ليجيب عن السؤال:

— ابحث لك عن زوجة وابعث لي بفاتورة حفل الزفاف.

22 إبراهيم مسليل المدعو الحلاوي، الذي جرح في ساقه، وبوشوا وجوهراً.
23 محمد آيت قدور كان. سنة 2002، رئيس ديوان وزارة السكنى داخل "حكومة التناوب" التي شكلها عبد الرحمن تيسفي سنة 1998 في عهد الحسن الثاني.

ذلك أن الرجل الأعزب يكون مصدر عدم استقرار. والدكتور بنهيمة. الوزير بالوصاية على القسم الذي يشتغل فيه آيت قدور. يريد أن يحل المشكل دون ضوضاء. فقد كان هو نفسه في الماضي متعاوناً مقرباً من المهدي بن بركة في ورشة طريق الوحدة. وهو الأمر الذي له ولا شك علاقة بكونه أصبح وزيراً. ذلك أن القصر كان يولي عناية خاصة لوفاء الأطر من ذوي الكفاءات. ومن ثمة فهو قد اختص في جلب الأفراد المقربين من المهدي بن بركة مستعينا في ذلك بالمكافآت الهامة؛ إذ إن ثمن المرتد من أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يزيد كثيراً عن ثمن عضو من الحاشية خنوع مجامل.

منذ سنتين وآيت قدور يشتغل مهندساً في السكك الحديدية. وهي المهنة التي أتاحت له إمكانية التحرك والترحال. فكان يستغلها في أنشطته السرية. إلا أنه لم يكن يشك أدنى شك أن أهداف تنقلاته قد انتبه إليها أفراد المخابرات العامة المتمرسون.

كانت كل الأمور قد انقلبت رأساً على عقب منذ يومين. ففي ربيع سنة 1964. أخذ آيت قدور عطلةً ليزور أباه بمدينة ميدلت. وقبل أن يتمكن من رؤية أبيه. أوقفه شخصان وألقيا به في وضع غير مريح تحت المقعد الخلفي لسيارة. وربطت يداه ووُضعت قطعة من القماش على عينيه. ثم نزلوا به إلى سرداب حار خانق. سيعرف فيما بعد بأنه سرداب مخفر شرطة مكناس. ثم الاستنطاق على سطح البني. تحت شمس حارة. كانت الأسئلة عادية ولا علاقة بينها. لا يمكن للمرء أن يقرأ ما وراءها. كانت التمهيد الذي سبق نقله إلى مدينة الرباط في اليوم نفسه.

وفجأة توقفت أفكاره النათية إذ دخل الضوء بغتة. انفتح باب زنزانته وظهر ثلاثة شبان بأقمصة زرقاء. يشنون بصعوبة. كانت سنهم تتراوح ما بين 16 و 21 سنة. ولكن سنهم الحقيقي لم يكن واضحاً إذ إن الألفم الشديد قد غير من ملامح وجوههم. هم الذين كانوا مصدر الخطوات التي سمعها من قبل من وراء الباب. ما كادوا يدخلون حتى سقطوا أرضاً. كانت أرجلهم دامية مندملة. لقد تعرض هؤلاء البقالة السوسيون لشاب من مدينة الدار البيضاء إلى عملية سلخ أخصص أقدامهم. فالشرطة تعرف - شيخ العرب يلجأ أحياناً إلى بعض حوانيتهم. فأرادت بذلك أن تنتزع منهم اعترافات نيرة كبت الوسيلة. بعد دخول الشباب الثلاثة. اعتادت عينا آيت قدور على الظلام فكنس في الوقت نفسه جماعة من الأفراد مكدمسين داخل قاعة الزنزانة. كانوا على قدر حسي شخصاً. إنه عالم مختلط يذكّر بردهة محطة القطار أكثر مما يشبه - عيب نعيم أولاً على صديق يجثم على بُعد أمتار. يكاد يكون فاقد الوعي. - عيب نعيم عمومية ببركان. أصله هو كذلك من ميدلت. كان مثله لاهياً غير - عيب نعيم نعيم نعيم. وقد عاشوا رحلتهم إلى تلمسان بالجزائر قبل ثلاثة - عيب نعيم نعيم نعيم جيش التحرير الوطني في المنفى. عاشوها وكأنها

رحلة جديدة يقوم بها طلبة مشاغبون. وهاهو آيت قدور يتذكر: "فقد كنا على درجة كبيرة من السذاجة جعلتنا نسافر بجوازٍ سفرنا الخاصين ومررنا من الحدود مروراً رسمياً. والأدهى من ذلك، أننا رجعنا إلى هناك مرة ثانية²⁴". في المغرب، ثمن أخطاء الشباب يُدفعُ عالياً. وخلال تلك الفترة دخل شيخ العرب مع الفرشي من الجزائر متحدياً الشرطة والجيش. ولأن الأحداث تزامنت صدفة، أصبح انتقال آيت قدور إلى تلمسان أمراً بشكل مساً بأمن الدولة.

إلى جانبه كان يوجد ضابطان، خمن أنهما فاران من الجيش. وتكدس هناك كذلك بعض الصحراويين، من المحتمل أنهم من رجال جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. وبعيدا عنهم، تُصغي مجموعة من الفلاحين إلى شيخ قوي البنية من مدينة صفرو وهو يرتل القرآن. بعض الكتابات على الجدران تشهد على أن جنوداً جزائريين نزلوا حديثاً بالزنزانة، لا شك أنهم اعتقلوا خلال حرب الرمال. هناك كذلك بعض أفراد عائلة شيخ العرب، اعتقلوا كرهائن. وإلى جانبهم، رئيس سابق لديوان كان يغدق عليهم بالسجائر ومقاول من مكناس. وصحافي مزعج ما انفك يثير الشكوك من حوله.

بعد مرور سنوات، احتفظ آيت قدور بمشهد معين ظل منقوشاً في ذاكرته من ضمن تلك المشاهد التي عاشها في دار المقر. فعندما بدأت حصته من التعذيب، وصله صوت مندهش وسط آلامه: "أنت هنا؟" ورغم أن قماش الثوب يغطي عينيه، تعرف آيت قدور على صاحب الصوت وسط الأصوات الأخرى. إنه صوت الدليمي، الذي كان في الفوج الذي سبقه إلى الأكاديمية العسكرية بمكناس. منذ ذلك الحين تسلك الدليمي السلالم. ولما أصبح قبطانا أقام لمدة قصيرة في الاستخبارات العسكرية قبل أن يصبح الساعد الأمين لأوفقير في الأمن الوطني.

وبعد أن أمضى آيت قدور ثمانين يوماً تحت ذلك السقف الخانق بدار المقر، يترقب حركات الذهاب والإياب ويستخرج الدود الذي كان يأكل أرجل الشباب السوسيين المتحللة، اقتيد الرجل أمام قاضٍ للتحقيق أخبره باعتقاله وبحبسه بالسجن المركزي بمكناس. وبعد أسابيع مثل آيت قدور أمام محكمة عسكرية، وتمت تبرئته. لقد كان التسامح معه تسامحاً غريباً وغير منتظر في الآن نفسه وذلك باعتبار العدد الهائل من أحكام الإعدام التي انتهالت خلال الجلسة نفسها على المقاتلين المتسربين من الجزائر لمساعدة شيخ العرب. نُفذ حُكمُ الإعدام في 14 منهم يوم 27 مارس 1965. فأوضح آيت قدور قائلاً: "إن القاضي فسر ذلك بقوله إن البلد ما زال يحتاج إلى مهندسين²⁵".

24 حوار للمؤلف مع آيت قدور.

25 في حوار مع المؤلف.

من الراعي الشاب إلى المهندس المناضل

لما التقيت آيت قدور سنة 1996، استقبلتني صورة رجل قلبه قد أضحي قاسيا، قلبٌ لم يعد يدق إلا عندما يشعر بالحنين. رجل يسارع إلى البوح بأسرار حياة قبل أن يحبها الزمن. عندما يبلغ المرء سنا كسنه، تصبح المواهب قليلة ولكنها ثابتة لا تنزعزع. باح لي آيت قدور بقصته وكأنها اعترافٌ لطالما حاول كبه.

وُلد في بوعياش بمنطقة ميدلت. حيث نزلت قبيلةٌ أجبرتها الحماية الفرنسية على أن تتحول إلى قبيلة غير مترحلة. تميز الرجل منذ نعومة أظافره بحدة ذكائه الذي كان يثير إعجاب مدرّسيه. وقد شأئت الأقدار أن يكون المهدي بن بركة وراء دخوله إلى المدرسة. ففي سنة 1946، اعتُقلت قبيلته لأنها رفضت العمل المضني لفائدة القائد (رجل سلطة). وانهت حينها بأنها ما زالت تحتفظ بميزات وطنية.

وعند خروج أهل القبيلة من السجن، أرسلوا بعثة منهم إلى مدينة الرباط ليطالبوا بتعويض في إطار استئناف الحكم. ربحت القبيلة القضية بفضل مساعدة محامين متحمسين من حزب الاستقلال.

كان آيت قدور في ذلك الحين راعيا صغير السن. نزح من أعالي الهضاب لينصت وكله إعجابٌ إلى حكاية أبيه وهو يقص عليهم الأحداث الكبرى التي عرفها سفرهم إلى الرباط من أجل التقاضي. كانت الحكاية تتحدث باستمرار عن "رجل قصير القامة لا يكف عن الحركة"، وهو الرجل نفسه الذي صاح في أفراد القبيلة: "أدخلوا أولادكم المدرسة". كان المهدي بن بركة يعرف عما يتحدث. إذ لم يكن التعليم أولوية فحسب في بلد شباب ما فتئ يعرف التحولات، بل إن التعليم كذلك أرض خصبة للدعاية الوطنية.

وفي سنة 1953، كان العقيد (الكولونيل) دوليمو مكلفا بالبحث عن أحسن العناصر من "الأهالي" بغرض تكوين قوات مساعدة تتقبلها الساكنة أحسن ما تتقبل القناصين السينغاليين. كانت العادة حينئذ هي إعطاء الأسبقية في العمل أولا إلى أبناء الباشوات. ولكن وبغرض الرفع من مستوى قيمة المتقدمين أضيفت حصة من "الذين تلقوا تربية جيدة" إلى حصة "أبناء الأعيان". وهكذا تم التعرف على الشاب آيت قدور، الذي كان قد تخرج للتو من إعدادية ميدلت. ولكن كان لابد مع ذلك من إلحاق السيد فولون، مدير مدرسة ميدلت، ليؤكد على أبيه، وهو الرجل المعجب ب"الرجل القصير القامة الذي لا يكف عن الحركة"، بأن يسمح لابنه بالذهاب إلى الإعدادية الأمازيغية بأرزو. وهي مرتع أطر الجيش العليا في المستقبل. تميز فيها آيت قدور، بعد ابن المدير، كما تدعو إلى ذلك الأصول. ولأن هذه النتائج الجيدة زادت من ثقل كفته، فإنه تابع عمله بالمدرسة العسكرية بمكناس.

وفي سنة 1956، كان التحضير للاستقلال. وبعد أن زار المدرسة الحسن الثاني، أفرغت الأقسام من كان فيها حتى تستقبل أفواجاً جديدة تم انتقاؤها بعناية. أرسل أغلب التلاميذ السابقين إلى ثانويات مجاورة لإتمام تكوينهم قبل أن يلتحقوا بالجيش. علم آيت قدور بالأمر عند عودته من تداريبه الصباحية. أخبره صديقه الذي يسبقه بفوج أنه (أي آيت قدور) سوف يصبح شرطياً. أخبره بذلك وهو يقلد. في شيء من الاعتزاز و المرح. حركات شرطي المرور. كان اسم صديقه هذا ... الدليمي. وأما جل باقي الرفاق فقد تم توجيههم إلى الجندية. وهذا حال الأخوين عبابو اللذين سوف يدبران في المستقبل انقلاب الصخيرات. واللذين كانا يوجدان كذلك في الفوج الأول.

في هذا الجو المفعم بالتردد، التحق آيت قدور بثانوية مكناس. وتكلفت تقلبات التاريخ وغليانه بأن جد له موهبة. فقد دفعته قضية قناة السويس وحويل طائرة قادة جبهة التحرير الوطني إلى الخروج في أول مظاهرة قمعتها القوات النظامية بعد الاستقلال. فتساءل آيت قدور كيف يمكن لمظاهرة للتضامن مع البلدان العربية الشقيقة أن تُقمع في المغرب المستقل؟

ولربما لأنه لم يجد جواباً عن سؤاله. فقد تخلى عن الجيش ليلتحق بمدرسة مسيري الأوراش بالرباط. تخرج منها على رأس دفعته وتطوع للعمل في ورشة طريق الوحدة. وهناك التقى لأول مرة بالمهدي بن بركة، الرجل الذي يدين له آيت قدور ديناً غير مباشر بتألقه ونجاحه. بعد الورشة، تابع آيت قدور تكوينه بالمدرسة الصناعية بالدار البيضاء، وتخرج منها من جديد على رأس دفعته وحصل على منحة لتحضير دبلوم مدرسة المهندسين بباريس. وفي ختام المباراة، اقترحت عليه مدرسة الطرق والجسور. إنه أكبر امتياز لشباب مغربي في فرنسا خلال سنة 1961 في الوقت الذي كانت فيه الجزائر لا تزال دائماً تتخبط في الحرب. ولكن آيت قدور كان يتميز بالحيطه والحذر اللذين ورثهما عن أصوله البدوية. فهو لا يغامر في الأمور التي يرى بأنها تتجاوز مقدراته. فرفض الاقتراح.

داعي المصلحة العليا للدولة

أنهى إيقاف إطلاق النار في نونبر من سنة 1963 "حرب الرمال". وأفضى إلى تهديد دبلوماسي وضع أسس التفاوض على حل الخلاف حول الحدود بين المغرب والجزائر. أرسل الرئيس الجزائري أحمد بنبلا وزيره في الاقتصاد البشير بومعزة إلى الرباط. وزاد من غرابة اختيار وزير الاقتصاد للقيام بهذه المهمة أن الوزير الجزائري في الخارجية أرسله بنبلا. وفي الوقت نفسه، إلى باريس ليفاوض في ملف اقتصادي. لقد كان قلب الأدوار

هذا مقصودا، وهو يدل. إن هو تُرجم إلى اللغة الدبلوماسية. على أن نبلا لم يكن راضيا البتة.

وصل بومعزة إلى الرباط يوم 25 أكتوبر 1964. وخلال المفاوضات قال له الحسن

الثاني:

— إنني أتحداكم أن تجدوا أثرا لمساندتنا لحركة آيت احمد الانفصالية²⁶.

وبالفعل فإن الحسين آيت احمد. وهو عضو تاريخي في جبهة التحرير الوطني. كان قد لجأ إلى الجبال في منطقة القبائل. لقد كان في السجن عندما بدأت الشكوك في ذهن مسيري الجزائر. حوم حول اتفاق بين مقاتلي الجبال التابعين لآيت احمد²⁷ وهجوم القوات المسلحة الملكية إبان "حرب الرمال". وواصل الحسن الثاني قائلا:

— وفي المقابل عندي تقرير مفصل عن الأنشطة التي دبرها معارضون مغاربة في الجزائر.

وأشار إلى أحد مستشاريه الذي سلم البشير بومعزة تقريراً ضخماً به أسماء وعناوين وتفاصيل تهم أطر جيش التحرير الوطني اللاجئين في الجزائر. فقال الحسن الثاني موضحاً الأمور:

— لا أرى مانعاً في أن نملوهم. أعطوهم حتى فيلات على شاطئ آزير. ولكن. وعلى وجه الخصوص. لا تعطوهم أسلحة !

كان البشير بومعزة يجهل الأمور الأساسية في القضية. فهو وزير الاقتصاد. وكانت علاقته الوحيدة بالمعارضة المغربية تقتصر على التوقيع على رخص التمويل التي كانت تستفيد منها. وعند عودته إلى الجزائر العاصمة. قدم البشير بومعزة الملف إلى نبلا. فكانت الهدنة قصيرة. ذلك أن بومدين. الذي كان حينها وزير الدفاع الجزائري. لم يكن يرى في تلك الفترة أي مصلحة في تهدئة العلاقات المغربية-الجزائرية. لقد ترك في نفسه فشل "حرب الرمال" رغبة في الانتقام. وبعد يومين من عودة البشير بومعزة. استغل مناسبة الاحتفال بالاستقلال واستعرض في الجزائر العاصمة فرقة من المدرعات تحمل اسم المدن التي كانت موضوع النزاع والواقعة على خط الرسم الحدودي. غادر الوفد المغربي المنصة تعبيراً عن احتجاجه. ومع ذلك فإن هذا الحادث لن تكون له عواقب: فنبلا سوف يهدي إلى الحسن الثاني عربون حسن نية. إذ أمر رئيس الجزائر الثوار المغاربة بإغلاق معسكر التدريب بأوواط. وخلال ذلك. فوجئ بكون بعض أعضاء القيادة العليا في المنفى قد انصاعوا للأوامر دون مجادلة وبتفان. وأما آخرون. ومنهم سعيد بونعيلات. فقد عارضوا ذلك معارضة شديدة.

26 الفقرة الموالية مأخوذة من حوار للمؤلف مع البشير بومعزة.

27 أرسل الإخبار الوطني للقوات الشعبية خمسة محامين من المغرب للدفاع عن آيت احمد خلال محاكمته.

ساهمت مبادرة شيخ العرب، الميؤوس منها، في تفجير الخلافات في واضحة النهار. ويتذكر سعيد بونعيلات عندها الصغير بوخروبة الذي كان يحملُه من قَبْلُ على كتفيه في جبال الريف والذي أصبح العقيد بومدين. وزير الجيش. لم يدع بومدين أي فرصة تمر دون إظهار عدائه للنظام الملكي العلوي. ولكن مبادرة سعيد بونعيلات كانت فاشلة. لم يكن بومدين يستطيع التوسط. إذ إن قرار بنبلا لا رجعة فيه. فقد كان حل مشكل الحدود مرهونا في ذهن الرئيس الجزائري بسحب المساعدة العسكرية المقدمة إلى المعارضة المغربية. فاستؤنفت ثانية العلاقات الدبلوماسية بين الجزائر والرباط في فبراير من سنة 1964. وحت إشراف منظمة الأمم المتحدة، نزع السلاح عن المناطق التي عرفت الحرب وغادرها الجنود وبدأ تبادل الأسرى. عاد البلدان إلى المسار المغربي في شهر نونبر ووقعا معا 14 اتفاقية وبروتوكولا.

وخلال هذه الفترة، أصبح 250 مناضلا مغربا بلا عون ولا سند في الجزائر العاصمة. عاد العديد منهم إلى المغرب، وباحوا لبوليس الحسن الثاني بمعلومات قيمة. بل إن بعض المناضلين الذين تكونوا في أوواطا التحقوا بقوات الشرطة وجمعوا داخل فرقة خاصة من فرق مصالح الأمن التي يراقبها وزير الداخلية. وهكذا أصبح العديد من العناصر التي كونها الثوار المغاربة هم أنفسهم جلادي هؤلاء الثوار فيما بعد.

الحزب الثوري

عندما علم آيت قدور سنة 1965 بالعفو عن المدانين في محاكمة مارس من سنة 1964، رحل توا إلى مدينة الرباط. التقى ثانية بالفقيه البصري وعمر بنجلون ومومن الديوري خلال عشاء أقامه عبد الرحيم بوعبيد. يوم 15 أبريل من سنة 1965، احتفالا بإطلاق سراحهم. كان المراد من العفو الملكي وإطلاق سراح "منظمي مؤامرة 1963" هو أن يكونا مبادرة للتصالح مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية غداة انتفاضات الدار البيضاء التي كادت تقلب مجرى التاريخ.

ففي يوم 23 مارس من سنة 1965، وعند صدور مذكرة دورية لوزير التربية الوطنية توجه التلاميذ المتقدمين في السن إلى تعليم تقني غير موجود. خرج تلاميذ الثانوي، يوطرهم الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. ثم خرج أولياؤهم كذلك، في مظاهرة دفعت ساكنة الدار البيضاء إلى النزول إلى الشارع. إذ إن كثافة السكان الكبيرة داخل المدينة والبطالة والبؤس المتزايد من جهة، والاعتناء بالمشروع والفساد المتفشى والقمع من جهة أخرى، شكلت جميعها وضعا قابلا للانفجار. فقد ألقت عدن الصفيح بالدار البيضاء، وهي الميدان الحقيقي لإنجاز المعجزات. تحت وطأة البؤس والمهانة، ألقت بإحباطها في وجه المحظوظين اليسورين.

أعاد أوفقيّر. وهو وزير الداخلية منذ غشت 1964 في حين أصبح الدليمي وفي اللحظة نفسها المدير العام للأمن الوطني. أعاد الهدوء بطريقته الخاصة. إذ وضع رهن إشارته مجموعات من المدرعات على الحاور الاستراتيجية بالمدينة. فكان المتظاهرون وهم في أغلبهم من تلاميذ المدارس الثانوية ومن العمال. يحصدهم رصاص الرشاشات التي وُضعت في الأزقة. ويحصدهم كذلك رصاص طائرة مروحية كانت تخلق فوق رؤوس المتظاهرين. وبما أن الثقة لا توضع إلا في أهلها. فإن الإشاعات تقول بأن القناص الماهر الذي كان في طائرة الهليكوبتر لم يكن سوى أوفقيّر نفسه. غدت الدار البيضاء مدينة مُحاصرة. وامتلات المقابر الجماعية وبلغ إحباط الشعب أقصى مداه. ووصلت حصيلة المذبحة. وهي الحصيلة التي تختلف حسب المصادر. إلى مئات القتلى.

ومن هنا نفهم مبادرة الصلح التي قام بها القصر الذي كان في نيته أن يدفع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى مواقف أكثر اعتدالا. فمبادرات التقرب من المعارضة²⁸ كانت قد بدأت منذ سنة 1964. وهذه المرة تسارعت المبادرات وبما أن الحزب كان قد طلب عفوا شاملا. فقد أطلق سراح قادته المسجونين. وربط الحسن الثاني العلاقات مجددا مع قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على أعلى مستوى.

وكان تنظيم الحزب. تحت القيادة المترددة لثلة من القادة الذين نجوا من المنفى ومن السجن. قد تجاوزته الأحداث. كان القادة الذين غادروا السجن واعين بالأمور فوضعوا نصب أعينهم أولوية إعادة تنظيم الحزب. كان غرضهم هو أن يجعلوا منه. وفي الآن نفسه. أداة لتعبئة الجماهير وجهازا للأعمال الثورية²⁹.

جعل ثلاثة رجال من هذه المهمة قضيتهم المشتركة: إنهم عمر بنجلون وعبد الرحيم بوعبيد والفقير البصري. كان اختلاف طبعهم أمرا ملحوظا. ولكنهم كانوا مع ذلك متكاملين.

كان عمر بنجلون جامعا ونقابيا. كان رجلا من الشعب ذا ثقافة موسوعية. يرتاح على حد سواء في الخطب الشعبية وفي التحاليل السياسية. لقد كان محاميا متحمسا في كلامه ومناضلا حركيا لا يعرف التعب. لقد كان فريدا متميزا في عملية تعبئة الحركات العمالية. فتكلف بدور تسييس البروليتاريا وتأطيرها من أجل اقتلاعها من التوجه النقابي الحرفي الذي لا يمتلك آفاقا سياسية.

28 حولت أحكام إعدام الدانين في مارس 1964 إلى الاعتقال مدى الحياة في غشت 1964. كان عبد الرحيم بوعبيد قد عاد إلى المغرب. كما سُمح للمعارضة أن تقدم ملتقى رقابة ضد الحكومة في يونيو من سنة 1964. بل إن جلسات النقاش بنيتها التلغزة. وهو الأمر الذي نزع الثقة عن البرلمانيين المغاربة من السلطة. فبدأ الحديث ثانية حينها عن حكومة اتحاد وطني كان من المتوقع أن تؤول إلى الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

29 وكُمُشّر على هذا. في الفترة نفسها. نُشِر النص الذي قدمه ابن بركة لمؤتمر سنة 1962 في صيغته غير الملطّفة بعنوان "الاختيار الثوري".

أما عبد الرحيم بوعبيد فقد كان ذا ثقافة كونية. محام من حيث التكوين. وسبق له أن كان عضواً، إلى جانب المهدي بن بركة. في الضليعة أُنشأة لحزب الاستقلال. ثم التحق به في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. كان الرجل منظماً لا مثيل له. وكان كذلك دبلوماسياً بارعاً. فقد أصبحت له. ابتداءً من مفاوضات إكس ليان مروراً بوزارة المالية. ثم بمنصب أول سفير مغربي بباريس. أصبحت له سمعة المفاوض العارف اللبق. لقد كان محاور القصر والممثلين الأجانب. يتظاهر باحترام القانون وذلك بغرض خدمة الإختبار الثوري وكذا إعطاء طابع تنظيمي لثورة ما فتئت تنذر بالاندلاع. وأما الفقيه البصري. ولقب الفقيه يعني قارئ القرآن. فقد كان مقاوماً كله إصرار. وهي السمعة التي زكت صورته على أنه رجل يعمل في الظل. كان طالباً بجامعة ابن يوسف مراكش يتردد على الحلقة الصغيرة التي ينظمها أولئك الذين سيصبحون قادة جيش التحرير الوطني. وأصبح الرجل هو نفسه رمزاً للمقاومة المسلحة ضد الاستعمار. فظهر مظهر المعارض المتشدد للملكية. رافعا بهذه الصفة شعاراً "البديل بالسلاح". إنه الرجل الذي بإمكانه أن يحدث تغييراً في حالة حدوث أزمة سياسية. هذه الأوجه الثلاثة اجتمعت في شخص المهدي بن بركة: كلام متحمس لتعبئة القواعد المناضلة. ويد ممدودة للتفاوض وإيجاد حل وسط. ويد تحمل السلاح في حالة ضربة قاسية.

ولكن الاتفاق كان يبدو صعباً. فقد كان الحسن الثاني يتظاهر بالبحث عن حل سياسي للأزمة. فقال للمهدي بن بركة الذي كان من قبل أستاذه في مادة الرياضيات بالمدسة المولوية: "لدي معادلة يجب حلها". فبعث قريباً للملك. مولاي علي. وهو سفير المغرب بفرنسا. إلى المهدي بن بركة ليتفاوض معه في شأن تشكيل حكومة اتحاد وطني. ولكن المهدي بن بركة وضع شروطاً. كان لحيطته وحذره ما يبررهما. ففي ذلك التوازن الهش بين الحل الوسط والمجابهة. كانت الكلمة الأخيرة للمجابهة. ففي 7 يونيو من سنة 1965. أعلن الحسن الثاني حالة الاستثناء وأوقف العمل بالدستور الذي كان قد منحه قبل ذلك بسنتين. وفي يوم 29 أكتوبر اختطف المهدي بن بركة وأغتالته مجموعة من اللصوص الأشرار ورجال المخابرات الفرنسية العاملين بحساب أوفقيير. واعتقل عمر بنجلون في مارس من سنة 1966. وغادر الفقيه البصري المغرب في ماي من سنة 1966.

من تازة إلى معسكرات دمشق

في سنة 1963. كان ضمن طلبة كلية العلوم الاجتماعية ببغداد طالباً مغربي منوح. إنه محمد التوزاني. لقد كان الأمر بالنسبة إلى الطالب الشاب استثماراً مشوار

دراسي بدأه في جامعة القرويين الشهيرة بفاس. وهي إحدى معالم الإسلام الفكرية. قبل أن يتخصص في التعليم الثانوي بمدينة الدار البيضاء. بدأ مشواره الدراسي عصاميا. وهي التجربة التي يتقاسمها مع عدد كبير من الشباب الذين كانوا في مستوى من الفقر لا يسمح لهم بتمويل تدرّسهم.

وُلد التوزاني بتازة. في شمال البلاد. من والدَيْن فلاحين. وكان الابنَ البكر لعائلة من ستة أطفال. تربي على احترام الواجب. فانتبه وهو لا يزال صغيرا إلى وجود عالمين منفصلين. عالم المالكين وعالم المملوكين. وهكذا تعلم أن يلزم حدوده. تلك الحدود التي ترتعن بمدى تسامح الملاكين. ولكنه لما بلغ سن الثانية والعشرين. التحق بصفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. حزب المتواضعين البسطاء. فتسبب له انضمامه هذا في الاعتقال صحيحة مجموعة من رفاقه. علمته هذه التجربة البالغة أن الطموحات عند الفقراء يُعاقب عليها بالسجن.

وهكذا توجه بنظره توجها طبيعيا نحو العراق الثورية التي كانت في ذلك الحين تجلب العديد من الشباب العرب الطامح إلى التحرر. أكيد أن الواقع اليومي في عراق الستينيات كان أقل رخاءً مما كان يتصوره طلبة جامعة الدار البيضاء. ولكن السلطة الملكية كانت قد خَلِعت. وهو في حد ذاته الأمر الذي زرع الحماس ثانية في القلوب. ولهذا فإن السلطة لم تعد موضع امتيازات: فقد كان بوسع الطالب المغربي الشاب الحصول على منحة أن يتجاوز بسهولة مدهشة مع وزراء تخلصوا من هالتهن. وهي أمور كانت مع ذلك تثير الإعجاب أكثر من ذلك البذخ المنحط الذي يعرفه النظام الرجعي. لم تعد السلطة مسألة امتيازات. بل أداة يمكن الوصول إليها لتسريع مجرى التاريخ: فخلال سنة واحدة. شهد هذا الطالب محاولتين متتاليتين لقلب النظام. وزادت الأخبار التي كانت تصل من المغرب والتي كانت تهم الإشاعات البعيدة عن "حرب الرمال" والحكم بالإعدام غيابيا على المهدي بن بركة. زادت من رغبته المبهمة في تقديم حل جذري لمشكل بلده. حل جاء ليبحث عنه. في حيرة وغموض. في بغداد.

وخلال السنة الأولى من الدراسة. توصل التوزاني برسالة من حميد برادة. الذي كان حينها رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. يدعو فيه إلى موعد في دمشق عند أحد المناضلين ليتابع تكوينا عسكريا في سوريا. كان التوزاني قد رأى من الأمور وبحث [في الأسباب والحلول] ما يكفي ليفعل فيه هذا الاقتراح فعلة.

بات اسمه خالد. إنها هوية جديدة وقدر جديد. ولكن في دمشق كان الوقت يمر دون أن يأتي بالوسائل الموعودة. فاستبق خالد الأمور بفعل الحماس الكبير الذي انتابه إبان لقاء قصير مع المهدي بن بركة خلال جولة قام بها هذا الأخير إلى العاصمة السورية. وقضى على آخر توجساته عرض قدمه الأستاذ حول الحاجات الضرورية للحزب فيما

بحص الأطر الكفأة. وفي اليوم الموالي. ذهب عند وزير الشؤون الخارجية السوري المكلف كذلك بالعلاقات مع الحركات التحريرية. فحتى ذلك الوقت لم تكن حياته تعرف سوى الرفض تلو الرفض. وها هو يرى أن كل شيء سوف يتغير. أحس خالد لأول مرة أن طموحاته لم يعد يعترضها أي شيء. ولهذا. وهو يتحدث وكأن الأمر طبيعي عادي. طلب السماح له بمتابعة تكوين خاص ببرابنة طائرات المطاردة في الجيش الجوي السوري. ودفع الوزير المعني. حسن مريود. المحابة إلى حد الشروع في القيام بالإجراءات الضرورية تماماً كما يفعل الكبار عندما يرضخون لنزوات الصغار. وعلى أي حال ألا يتعلق الأمر بحلم من أحلام الطفولة؟ كان الوزير يعرف معرفة جيدة أن الاتحاد الوطني للقوات الشعبية سيعارض هذه النزوة. وبالفعل ما الذي سوف يصنعه حزب برابنة طائرة مطاردة لا يملك طائرة؟ وجاء أمر مقتضب من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية نبه في المسألة: على خالد أن يتدرب في صفوف فرق المشاة.

وبعد مرور سنتين. يوم 8 مارس من سنة 1966. تلقى خالد الذي أصبح ضابط مشاة في الجيش السوري زيارة: إنه وفد من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يضم على وجه الخصوص الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي وبنسعيد الذين كانوا في زيارة عابرة إلى دمشق لحضور الاحتفالات بالذكرى الثالثة لوصول حزب البعث إلى السلطة. بدأ قادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية زيارة بالمناسبة للمناضلين المتواجدين هناك. كان خالد ضمن المدعوين. كان اللقاء مهذباً لا جديد فيه على ما يبدو. ولكن خالد أحس فيه ببوار مصرير جديد.

منذ اغتيال المهدي بن بركة. قطعت سوريا علاقاتها الدبلوماسية مع المغرب. ولذا لم يعد بمقدور خالد أن يجدد جواز سفره. ولكن ذلك لم يكن مهماً في نظر خالد ما دام أنه كان من أولئك الذين لا يعترفون بأي حدود. وفي يوم 17 يونيو 1967. وصل خالد إلى الجزائر العاصمة. حاملاً جواز سفر دبلوماسياً سورياً. ومباشرة بعد وصوله. عاص في الشبكة السرية المغلقة. تعلم وتدريب في هذه المناطق المتسترة وتأقلم مع أسرار هذا الوسط الذي أفصح له عن المتخفي وراء خطاب المناضلين. فقد أصبحت المنظمة في الجزائر العاصمة تحت سيطرة الفقيه البصري الذي بدأ إعادة تنظيم شبكاتها.

ولئن كان انقلاب بومدين يوم 19 يونيو 1965. لم يأت بتغيير سريع وفوري. فإن وصول الفقيه البصري. بعد أقل من سنة عن ذلك. قد ترك بصماته. ولأن الجبلي وبنسعيد وحמיד برادة لم يكونوا متفقين معه. فإنهم غادروا العاصمة الجزائر تبعثوا في منفى جديد بباريس. ويفسر حميد برادة الأمر قائلاً: "قبل وصول الفقيه البصري. كنا عازمين على قطع كل علاقة مع عهد الارتزاق ومد يد المساعدة. وهي الأسباب التي دفعتنا إلى تبني مقياس الكيف في مناهج الاستقطاب والتنظيم". "والحال أنه منذ

وصول الفقيه البصري. ورغم أنه كان يوافق شكلا على خليلنا، فإنه كان قد عاد إلى المناهج التي كنا نريد التخلي عنها³⁰.”

ويوضح الجبلي أن: “ بنسعيد وأنا كنا قد التقينا سرا بالفقيه البصري بستوكهولم قبل أن يغادر رسميا المغرب. اتفقنا عندها على أن ندفع بالكفاح المسلح إلى الطريق السياسي الذي حدده الحزب. تحت قيادة مشتركة وبدون تنازلات للجزائريين. ولكن بينت باقي الأحداث أنه لم يكن يعبر إلا أهمية قليلة لمثل هذه الالتزامات³¹.”

زادت هذه القطيعة من شساعة الهوة التي أخذت تفصل بين “البلنكيين³²”. وهو المصطلح الذي يتبع به خصوم الفقيه البصري مناصريه و“الثوار في الغربة”. هي الجمالة التي يرد بها عليهم هؤلاء.

لم يكن الفقيه البصري يقيم في الجزائر العاصمة إلا إقامة متقطعة. فقد كان يمضي جل وقته. يجوب العواصم العربية والأوروبية ليجمع المناضلين تحت إمرته. ولأنه كان خطيبا بارعا ورحالة لا يعرف التعب. فإنه حاك شبكة من العلاقات مع مسؤولين عرب كان يطلب منهم المساندة المالية واللوجستية. وقد استطاع الفقيه البصري. بقدر غير قليل من العناء، إقناع بوراس، رفيقه في جامعة ابن يوسف، بأن يسانده في عمله. ولكن وفي سنة 1967، أصيب القائد السابق لجيش التحرير الوطني بعمى متزايد فأصبح أقرب إلى الوصي الأبوي الذي كان مقاوما سابقا، منه إلى الثوري المتأهب للرحيل إلى الجبهة. ومع ذلك فإن سمعته كقائد تاريخي جعلت منه حليفا متازا للفقيه البصري الذي كان يبحث عن مصداقية في نظر المناضلين. ولأن بوراس كان شخصا غير مرغوب فيه في الجزائر لكونه ولا شك طالب وبشدة بمغربية منطقة بشار. فإنه استقر في باريس في رقم 20، بشارع سيربونوت بالدائرة الخامسة، حيث كان يلتقي أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية واللاجئون المارون من العاصمة الفرنسية.

يحتفظ خالد بذكرى دقيقة عن لحظات الوحدة والانعزال هاته في إطار العمل السري بالجزائر: “طيلة شهور عديدة، كان الشخص الوحيد الذي بقيت على اتصال به هو الفقيه البصري. وأحيانا، سعيد بونعيلات”. وقد تسببت له هذه الوحدة والعزلة في مفاجآت أليمة: “اعتقلتني الشرطة الجزائرية بعين الطورق عندما كنت ذاهبا إلى وهران صحبة مناضل سري. ولأنني كنت أحمل جواز سفر سوري فقد اعتبروني جاسوسا. أمضيت ثلاثة أيام في مخفر الشرطة بوهران قبل أن يُقرَّج عني³³”. كان بإمكان خالد أن يجنب نفسه متاعب هذه الزيارة إلى السجنون الجزائرية لو صرح بهويته لرجال الشرطة. ولكن لم يكن ذلك بالإمكان أمام رفيقه في السفر الذي كان من المفروض

30 حوار للمؤلف مع حميد براءة.

31 حوار للمؤلف مع عبد السلام الجبلي.

32 تعبير مأخوذ من اسم لويس أوغيسست بلانكي. وهو رمز من رموز ثورة 1848 بفرنسا. ويرمز في تعبير السياسيين إلى موقف لا يهتم إلا بالنتيجة. حيث النتيجة تبرر الوسيلة.

33 حوار للمؤلف محمد التوزاني. المعروف بخالد.

فيه أن لا يعرف لا هويته الحقيقية ولا دوره داخل المنظمة. فقد كان على المناضل تسري أن يكون جاهلا لهويات رفاقه وذلك حتى لا يبوّح إلى جلاديه في حالة اعتقاله سوى بأقل ما يمكن من المعلومات.

ومع ذلك فخالد لا يأسف لمغادرته دمشق. بل على العكس من ذلك، إذ إن نداء الفقيه تبصري قد انتزعه من مهمة لا اعتبار لها. سوف يتحدث عنها باقتضاب شديد بعد مرور سنوات. كانت حرب الستة أيام بين إسرائيل وجيرانها قد اندلعت، ولكن الإعداد لها كان قد بدأ منذ شهور عديدة. كان خالد، الضابط المدرس، قد تكلف بتدريب الطلبة تدريبا عسكريا، وهي الوظيفة التي كانت تجربته أحيانا على مطاردة العصاة منهم.

وفي الجزائر العاصمة، وبعد أن أصبح خالد معزولا عن العالم، وُضع في فيلا. سُلّمت له نسخ من خرائط القيادة العليا المغربية ودراسة عن الجيش المغربي وطلب منه أن يشتغل عليها لإعداد استراتيجية لحرب العصابات في المدن والبادي. استعرض ترسوم الطوبوغرافية ومواقع الثكنات العسكرية وأعداد الفرق العسكرية حسب العمليات والترتيب الهيكلي للقيادات العليا ونوع الأسلحة وذلك ليحدد أفضل المناطق خلق بؤر ثورية.

ولمساعده في عمله هذا، قُدم له طالب يبلغ من العمر خمسا وعشرين سنة، اسمه عبد المومن، وهذا هو لقب أحمد بنجلون. أخ عمر، القائد النقابي الذي اعتُقل بالمغرب في مارس من سنة 1966.

من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب إلى الكفاح المسلح

كما هو شأن خالد، وُلد أحمد بنجلون في الشمال الشرقي للمغرب. أمضى جل طفولته بقرية في منطقة وجدة، تبعد بثلاثين كيلومترا عن الحدود الجزائرية، وتعتبرها جارة الحدود. ورغم أن جد أحمد بنجلون كان ينحدر من عائلة بوجوازية، فإنه أصبح فقيرا عند مغادرته مدينة فاس. ذلك أن الحرب ضربت ضربة قاتلة أولئك الذين لم يعرفوا كيف يتكيفون مع اقتصادها، وما دام ضياع الممتلكات المادية يشحذ أكثر الإحساس بالكرامة، فقد أصبحت عائلة بنجلون مرتعا للاحتجاج بالمنطقة. وقد شحذ موهبته أخواه اللذان يكبرانه سنا، وهما عمر النقابي والوزير الأستاذ الثانوي، وكلاهما من أشدّ المتشبثين بالاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وفي صيف سنة 1963، اعتُقل أخواه. أطلق سراح الزبير بعد شهر ونصف. ولكن عمر، الذي اعتُبر مفقودا في البداية، قُدم للمحاكمة بتهمة "التآمر ضد الملكية". وبات يتهدده الحكم بالإعدام. عندما زاره أحمد بسجن القنيطرة، طلب منه عمر وألح في الطلب بأن يواصل تعليمه في الجزائر. في الواقع، كان غرضه هو أن ينجو أخوه من انتقامات البوليس المحتملة.

وافق أحمد وذهب إلى الجزائر العاصمة سنة 1964. لم يتم الأمر دون عناء. إذ كاد يُعتقل لأنه يشبه أحد رفاق شيخ العرب. ولكن لم تدم تجربته في الجزائر طويلا. فبعد أن مرت سنتان. غادر أحمد بنجلون الجزائر العاصمة ليحل بباريس. ولكن التاريخ لاحقه. فلما تم الاتصال به بالخي الجامعي. قبل موعدا سريا في شقة بشارع سان-دومينيك. ولما وصل إلى المكان المحدد. استقبله الفقيه البصري. كانت امتناعات احمد بنجلون قوية. فقد كانت ذكرى الانشقاقات الداخلية في الحركة الطلابية والمنافسات التي تقسم صفوف المقاومين المستقرين في الجزائر العاصمة ما زالت قوية حاضرة في ذهنه.

ولكن وسط خضم اختلاط الأمور هذا. كان الفقيه البصري يقترح مسارا واضحا: الثورة المسلحة. وقد وجد الرجل الكلمات المناسبة التي جعلت خيبة أمل أحمد بنجلون تتحول إلى رغبة في الانتقام. وعند بداية صيف سنة 1967. عاد احمد بنجلون إلى الجزائر العاصمة التي كان قد غادرها قبل سنة من ذلك. عندما كان لا يزال طالبا ومناضلا في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. والآن. هاهو يعود إليها سرا ليصبح ثوريا محترفا. وأصبح اسمه السري عبد المومن.

سوف يدفع كذلك الفقيه البصري بعسكري قديم ليساعد خالد واحمد بنجلون في مهمتهما. كان رجلا متفردا ومساره بدوره مسار متفرد لا نظير له. اسمه محمد بن عمر حرش³⁴. وبمجرد وصوله إلى الجزائر العاصمة. أصبح يحمل اسم أبي فاضل. عمره 53 سنة. ولهذا فهو من قداماء المقاتلين. كان من بين الأوائل الذين ساهموا في حملة إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية إلى جانب أوفقيير. وهو عضو في الحزب الشيوعي المغربي. ولهذا أرسله الحزب إلى الفيتنام سنة 1954 بطلب من هو شي مينه. كان الغرض حينها هو تأطير المسجونين والفارين من الجيش المغاربيين المكدرسين في معسكر فييت مينه. تفانى الرجل الذي يعرفه الفيتناميون باسم آن ماه. وهو المناهض للاستعمار والشيوعي المقتنع. تفانى الرجل في عمله ولم يدخر جهدا. بل إنه وسع نشاطاته إلى حد التشويش على صفوف العدو بعد أن استقطب العديد من الفارين المغاربيين من الجيش ودفعهم لمعانقة قضية فييت مينه. فساهم على رأس فرقته المكونة من "المتطوعين" المغاربيين. في الهجوم الناجح على ديان بيان فو. وهو الإنجاز الذي سوف يدفع الجنرال جباب. وهو مهندس انتصار فييت مينه على ديان بيان فو. إلى تربيته.

وخلال هذه الفترة. وفي المعسكر الخصم. كان مغاربة آخرون يكافحون من أجل إنقاذ ما تبقى من إمبراطورية استعمارية منهوأة. كان أشدهم تفانيا في عمله هو أوفقيير. أخوه في السلاح إبان الحملة الإيطالية.

عاد أبو فاضل إلى المغرب في الستينيات. ولكن رجل العمل والفعل هذا سرعان ما أحس بالضيق في حزب شيوعي مغربي يتعثر داخل إصلاحوية لا منفذ لها. لم

34 عبد الله ساعف. قصة إن مح. منشورات لارماتان. 1996.

وفي صيف سنة 1967، كان اليزيد يبلغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة عندما دخل معسكرا بأرزو قرب وهران ليتلقى تدريباً دام ثلاثة أشهر: "كان المسؤول عن المعسكر هو النمري والمدرّب الرئيسي هو الفرشي. في تلك الفترة، كنت أتابع تكويناً يخص مهنة الصحافة بجامعة الجزائر العاصمة بفضل منحة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية³⁵". كان الحزب يقصد بهذه المنحة أن يحفظ سلامة أحد زعماء مظاهرات الدار البيضاء في مارس من سنة 1965. إنه عمل ثوري يستهد جذوره من حياة ملوّه خيبات الأمل: "كنت عندها ما أزال مراهقاً عندما أغلق العمل الذي يُشغل أبي أبواه. عادت أسرتي إلى قريتها الأصلية". بات اليزيد إذن يعتمد على نفسه. يشتغل في ظروف متقلّبة في أعمال بسيطة حتى يستطيع مواصلة دراسته بالثانوي. إنه مصيرٌ يشترك فيه عددٌ من الشباب القرويين الذين ألقت بهم ظروفهم في مدينة الدار البيضاء لينضافوا لا محالة إلى تلك الأعداد الكبيرة من المحرومين ضعفاء بروليتارية المناطق الحضرية. كانت مدن القصدير بآين أمسيك عالّمة. وشبيبة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أملّة. كان يناضل في إطارها منذ ثلاث سنوات. وفي الجزائر العاصمة، كان المناضلون الشباب في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية خدوهم أحلام تحقيق الفتوحات. فقد أصبح للمثالي الجزائري منافسون. ويتذكر اليزيد أنه: "في معسكر أرزو كان يوجد طلبة مثلي أساساً".

من بينهم طالب اسمه "بودراع". وكما هو شأن اليزيد، فقد كان شبابه هو كذلك كفاحاً ضد التهميش. وحتى يتخلص من حياة بنيسة ناجمة عن انتمائه إلى طبقة المحرومين، كان يملك فائضاً من الطاقة وقناعة بأن اعتناقه لم يكن إلا بدايةً لتحرير شعبه. اسمه الحقيقي: دهكون. كان قد التقى بالمغرب، قبل سنة من ذلك، الفقيه البصري ليسلمه رسالة من بنسعيد. وهو الأمر الذي غير مجرى حياته. فقد تلت ذلك اجتماعات سرية ومواعيد خاطفة مع وسطاء أدخلوه في شبكة خليتين سريتين لشيخ العرب بقيتا فاعلتين رغم ذهاب المحارب الذي لا يمكن القبض عليه. أذكى هذا اللقاء فيه موهبة جديدة.

كان دهكون يرفض أن يستسلم قبل أن يحارب. ولذلك فإنه أعاد جمع الجنود واسترجع الأسلحة التي كانت لا تزال صالحة بتواطؤ مع اثنين من رجال شيخ العرب المقربين، محمد عواد، المعروف بكندا، وحسين أمير. منذ ذلك الحين، انصب كل اهتمامه على إعادة تنظيم الشبكة. وبما أن هم دهكون الأول كان هو تعزيز الروابط بين الصفوف فإنه بعث بالعديد من رجاله ليتكفّلوا في الجزائر، وأما الآخرون، وعددهم زهاء العشرين، فقد أطروهم مدرّب جلبه هو شخصياً، بالدار البيضاء. ولما وصل دهكون إلى أرزو لمتابعة التكوين السياسي العسكري الذي يسهر عليه النمري، كان الرجل قد تغير ولم يعد ذلك المبتدئ في الكفاح السري.

35 الفقرات التالية مأخوذة من حوار بين المؤلف والبركة اليزيد.

ولكن دهكون لم يكن وحده مناضل الاخاد الوطني لطلبة المغرب الذي يتردد على معسكر أرزيو.

فمن بينهم كان كذلك المدعو بنيحيى³⁶. وهو طالبٌ مسجل بكلية الآداب بالجزائر العاصمة. وخلف أحمد بنجلون على رأس كتابة الفرع المحلي للإخاد الوطني لطلبة المغرب. أصله من سوس كما هو شأن دهكون واليزيد. وكانت له سمعة العنيد اللجوج. وفي سنة 1958، طرد من ثانوية محمد الخامس بالرباط لأنه نظم إضرابات داخل الثانويات.

ويتابع اليزيد: "أنهت دراساتي الصحافية في الجزائر العاصمة سنة 1968. وكلفني حينها الحزب بتأطير العمال المهاجرين بفرنسا وبلجيكا وهولندا. ومن الجانب شبه الرسمي، كان الأمر لا يعدو أن يكون تعزيز الروابط مع منظمات العمال المغاربة في الخارج بغرض استقطاب عناصر تلتحق بالكفاح المسلح³⁷."

بدأ اليزيد حينها جولة في أهم المدن الأوروبية. انتهت به في شتنبر 1968 في باريس. دعاه الفقيه البصري إلى اجتماع سري في شقة في الدائرة السابعة، والتقى فيها اليزيد ثانياً ببنيحيى. رفيقه في السلاح بمعسكر أرزيو وكذا رجّلين آخرين يحملان اسم محمود وعجول³⁸.

كانت بنية عجول التحيلة لا تصنفه من بين المؤهلين لتحقيق الإنجازات في حرب العصابات. ولكنه كان يعوض هذا النقص بنشاط متحمس مندفع. كان يُوظف فيه كل ذكائه. تم تعيين بنيحيى وعجول. وهما على التوالي مسؤولين عن الاخاد الوطني لطلبة المغرب في الجزائر العاصمة وفي باريس. لاستقطاب الطلبة. أما محمود. الكتوم اللطيف، الذي كاد يغطيه حماس بنيحيى الجارف، فإنه كان يتكلم عن قناعة ودون تكلف. إنه مسؤول عن الاخاد الوطني لطلبة المغرب في ألمانيا الشرقية. نخمن أن تلك الأطر من الطلبة، الذين يكتشفون في أنفسهم موهبةً مشتركة، يمثلون في ذهن الفقيه البصري قوةً ناشئة قادرة على تحقيق الاختيار الثوري على أرض الواقع.

ومنذ قضية المؤامرات، سحِق ما تبقى من جيش التحرير الوطني ونضب احتياطي المناضلين. ولكن الراديكالية المتزايدة لحركة الطلبة، التي تتسم بانتظار الثورة القادمة، والتي تمتح نموذجها من الثورة الكوبية وحرب الفيتنام، قد فتحت لها آفاقاً جديدة. وهكذا لما وجد اليزيد وعجول وبنيحيى ومحمود أنفسهم أمام الفقيه البصري، التحمت طموحاتهم التحاماً كاد يكون فورياً. لقد كانت لحظة قوية زاد منها حماس جعلهم يقفون على كل خصائص وميزات هذا الاجتماع. أو كانت تلك الأطر الشابة

36 الملحق الصحافي للوزير الأول في "حكومة التناوب" التي شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998. في عهد الحسن الثاني.

37 حوار للمؤلف مع البركة اليزيد.

38 العربي عجول كان كاتب الدولة في أول "حكومة تناوب" شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998 في عهد حسن الثاني.

من الطلبة الذين رُقوا إلى مستقبل مضيء يعرفون أنهم يلجون. في تلك اللحظة. الميدان المغلق لكفاح لا رحمة فيه؟

بندرج هذا اللقاء في إطار لقاءات عديدة تكاثرت في أوساط المعارضة المغربية في المنفى. ويؤكد أحد المنفيين السابقين: "كنت قد انسحبت منذ إغلاق معسكر أوواطا. وبما أنني لجأت إلى بلغراد. فإني لم أكن أتلاقى مع بوراس والفقير البصري إلا في مناسبات نادرة في باريس والجزائر العاصمة³⁹". ومع ذلك فإن الفقير البصري. بعد أن غادر السجون المغربية. وهو القائد المعروف وصاحب الصيت الواسع عند باقي الحكام العرب. كان يتمتع بكل الميزات التي جعلته قادرا على أن يبعث الثقة ثانية في مناضل متمرس فقد هذه الثقة. وهكذا وعندما ضرب له الفقير البصري موعدا في باريس بواسطة من بوراس. لبى الرجل الدعوة. جرى اللقاء في مارس من سنة 1968 في بيت المهدي العلوي⁴⁰. وجد في بيته الفقير البصري وبوراس وأبو فاضل. وسرعان ما دار النقاش حول إعادة تنظيم الحركة المسلحة. فمنذ إغلاق المعسكرات. لم تعد الجزائر قاعدة آمنة يمكن أن يلجأ إليها الثوار المغاربة آمنين. فالحكومة الجزائرية غدت تفضل خطتها في التنمية الصناعية. ومن ثمة فهي تريد تطبيع العلاقات مع الجيران فزادت من ضغطها على المعارضة المغربية. وأظهرت بذلك نيتها في أنها لا تطبق أي بؤر مسلحة تنطلق من ترابها.

وعند نهاية هذا اللقاء الثاني في باريس. اتفق الحاضرون على احتمال الانطلاق في اتجاهين اثنين ممكنين: الفيتنام أو بلغاريا. وتظهر هاهنا بصمات أبو الفاضل. وتابع المنفي السابق قائلا: "عند عودتي إلى زغرب. زارني أنا ورفاقاً آخرين بوراس ورجل آخر قدمه لي على أنه محمود. أخبراني بأن قاعدتهم لم تعد لا في الفيتنام ولا في بلغاريا كما تم الاتفاق عليه في البداية بباريس. بل أصبحت في سوريا⁴¹". وسوف يجد إلحاح حزب البعث السوري الذي كان يعتبر نفسه مقدم الدروس والعبر إلى من تبعوا من أفراد جيش التحرير الوطني. سوف يجد مجالا يتحقق فيه.

وفي الحين نفسه الذي ضاعت فيه [الأحلام بَعْدَ أفضل] وتواضعت فيه القنوات وتعقلت. أصبح جيل جديد. قلبه مَفْعَمٌ بالأمل. مُستعداً ليحل محل الجيل السابق ليكتب بقية القصة التي بدأت بدايةً غير موفقة. لم يكن هذا الجيل الجديد أكثر طوباوية. ولا أكثر تطوعاً من الجيل السابق. بل إن شباب هذا الجيل الجديد وبكل بساطة قرروا أن يوحدوا مصيرهم. عن قناعة. وبدافع الضرورة. أن يواصلوا هذا الكفاح الذي غدا ضروريا لتغيير الأقدار.

39 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

40 كان حينها مسؤولاً عن الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بفرنسا. وسوف يصبح سفيرا. ثم مستشارا للوزير الأول عبد الرحمن اليوسفي.

41 حوارٌ للمؤلف مع مصطفى العماري.

يذل الفقيه البصري مجهودا كبيرا لإقناعه بالانخراط في مشروعه الثوري. ذلك أن ما كان يحس به هذا المناضل الشيوعي الصادق من الكآبة ذات النزعة الدولية قد جعلت الباقي.

سوف يجد أحمد بنجلون عند أبي الفضل تكوينا سياسيا كبيرا وقدرة متمرس على التنظيم. ولكن سوف تبدو له مفاهيمه العسكرية فيما يخص حرب العصابات ناقصة ومبتدئة. كان أبو الفضل يبعث فيه إحساسا بأنه مقاتل محارب أكثر مما هو خبير باستراتيجية الكفاح المسلح.

الذين حملوا المشعل ثانية

وبينما خالد وأحمد بنجلون. بمساعدة أبي الفضل. يضعون اللمسات الأخيرة على دراسة جهاز القوات المسلحة الملكية ويناقشون تقنيات حرب العصابات التي تلائم أكثر الوضع في الميدان. ألح النمري على مواصلة التدريب العسكري. فكان له ذلك. إذ إن القائد السابق في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب قد التحق بمعسكر الفقيه البصري.

منذ إغلاق المعسكرات بأمر من الجزائريين. والنمري. وهو في ذلك وفي نفسه. يواصل في سرية. متفانيا في أدق التفاصيل. الاستعدادات العسكرية التي تخضر لليوم الموعد. ولهذا استقر في عين الطورق. قريبا من وهران. مع مجموعة من المقاتلين من أوواطا من الذين لم يتخلوا عن وفائهم. كان كل واحد منهم قد تلقى الأمر الحازم بأن لا يغادر الثكنة-السجن أيا كان السبب. بل إن إصراره دفع قوات الأمن الجزائرية إلى اعتقاله إبان انقلاب بومدين. وتعذبه ليعترف بمواقع مخابئ السلاح.

وكما هو شأن النمري. استجابت أطر أخرى من أطر الكفاح المسلح لنداء الفقيه البصري. من بينهم عباس سباطة وحسين الخضار وسعيد بونعيلات. يوجد بينهم كذلك الفرشي الذي استطاع النجاة. لا يبدو أن موت رفيقه شيخ العرب. ولا فراره الثاني الذي لم يخل من مخاطرة من المغرب. لا يبدو أنهما قد زعزا حماسه. وكأن الفرشي كان يجد في قدرته الخارقة على الاستمرار في العيش الموارد الضرورية لمواصلة الكفاح. هل هي جرأة من لحا بمعجزة؟ إلا إن كان هذا الثبات والاستمرار ناجين عن استحالة أن يتخلص الفرشي من ذكرى رفاقه الذين سقطوا بجانبه. ألم يتم التسامح معه بغرض أن يرفع ثانية مشعل الكفاح الذي من أجله ضحوا بأنفسهم؟

كان هذا الإصرار وقوة الشكيمة التي لا مثيل لها. هما ما يميز هؤلاء الرجال الذين قروا أن يجعلوا مصيرهم مصيرا واحدا مشتركا.

التنظيم (1969-1970)

طائرة شارتر الحملة بالمناضلين

زار النمري خالد يوم 21 فبراير من سنة 1969 بفيلا على شاطئ الجزائر العاصمة. كان الرجلان مرتاحين مطمئنين وشربا القهوة معا. وبعد أن تبادل بعض المزح. أخرج النمري من جيبه وثيقة، جواز سفر سوري كُتب عليه اسم حسن إبراهيم. وعندما فتحه خالد. وجد عليه صورته. قال النمري دون مقدمات: — سوف تسافر غدا إلى دمشق¹.

كان خالد مناضلا متواضعا مخلصا منضبطا. وكان في الآن نفسه. رجلا عادلا. وإجازاته وتعلقه الذي لا تشوبه شائبة بالقضية الثورية. كلها أمور تؤهله ليركب مصيرا هاهو النمري يعلن انطلاقه بدايته بجملة واحدة. سوف يكون ضمن المسافرين زهاء الثلاثين مناضلا اختيروا بعناية. من بينهم الفرشي. الرجل الذي استطاع النجاة.

كان المالكي يبلغ من العمر ثماني عشرة سنة عندما غادر. يوم 22 فبراير من سنة 1969. مطار الجزائر العاصمة مع جماعة خالد. كانوا جميعهم يحملون جوازات سفر سورية. أصبح المالكي واحدا من المسافرين بفضل جذوره وأصله. فهو من عائلة من الحاربيين من الأطلس. وحفيد للبطل سيدي حمو. إذن فهو يملك أصولا يستمد منها زاده ومثونته. منذ نعومة أظافره وهو يسمع مرارا الذين يكبرونه سنا يتحدثون عن أن المستقبل الأفضل يجب كسبه وانتزاعه بـ"القدرة على الصبر والتحمل" وبـ"الكفاح". ولما بلغ سن الثانية عشرة. وفي أوج عملية القمع سنة 1963. أصبح بدوره مهددا. اعتقل العديد من أفراد قبيلته. فبات عندها وحيدا. ثم وجد النجاة في الهروب. اجتاز مشيا على الأقدام الجبال ليلتحق بأهله الذين احتموا بالجزائر. اكتشف إذن المالكي. وعودُه لم يشتد بعد. الواقع المر الذي يختمي وراء كلمة

1 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني المعروف بخالد.

“الصبر والتحمل”. وفي المنفى. برع الطفل المراهق في عملية تسليم الرسائل. إذ أبان عن مواهب مبكرة. كان يلتحق ليلاً بالحدود تحذوه في ذلك نزعة قتالية مدهشة. وينسل من تحت الأسلاك الشائكة. ثم. وهو يتلاعب بانتباه حراس الحدود. فيصل إلى المراكز الحضرية ليسلم الرسائل. لقد كان عامل تواصل وريط ممتاز يتجاوز الصعوبات بإحساس طفولي بعدم الاكتراث. فأصبحت القدرة على الصبر والتحمل عنده لعباً من لعب الأطفال.

عاش عامل التواصل والريط الممتاز سفره إلى دمشق على أنه مرحلة جديدة من مراحل مسار تعلمه وتدريبه. فقد بات المالكي الطفل الذي تبنته الثورة. فتعلم الكفاح والقتال. ذلك أن بعد مرحلة الصبر والتحمل تأتي مرحلة الكفاح. بعد وقفة قصيرة في روما. أنزلت الطائرة المالكي ورفاقه بمطار بيروت. والمالكي ما زال يندهش. بعد مرور ثلاثين عاماً. من كل هذه الحيرة في التنقل: “بجوازات سفرنا السورية. لم يكن عبور الحدود سوى مراسيم شكلية لا غير”².

كان محمود يدخل سجارته الرابعة. وكما هو شأن الثوريين في زمنه. كان يستهلك من التبغ الكثير. كان التبغ وسيلة تلهي عن الجوع وعن الملل في الآن نفسه. وهما عدوا حرب العصابات. وقف ينتظر وصول خالد بمطار بيروت ويحانه أحد الرفاق. ذلك أن خالد يرافق المجموعة الأولى من المناضلين القادمين من الجزائر³.

لقد تغير محمود كثيراً منذ أيام الدراسة. فقد أصبح شجاعاً وعازماً وقليل الكلام. نعلو محياه دائماً ابتسامة مفعمة بالثقة وقسمات هادئة. حركه قوة قناعاته: فهو يعطي الانطباع بأنه من هؤلاء الرجال القلائل الذين يعرفون من الأمور ما هو خفي. فهو إن كان يثور عما يبدو له ظلماً وجوراً. فإنه لا يستسلم للقناعات غير المتبصرة.

كان اختطاف المهدي بن بركة واغتياله الصدمة التي أذكت نار حماسه الثوري. وكان كتيب عناوين المهدي بن بركة يضم في مكان بارز عنوان محمود بمدينة ليبزيغ. فالروابط التي كانت تجمع الرجلين كانت أكثر من روابط عائلية. كان توافقا فكرياً. فمحمود لم يكن يهتم بالماديات وكان يميل إلى التقشف. فاكشف في نفسه تشبهاً عاطفياً بالقضية الثورية وتعلقاً بها. وهاهو يحمل في قلبه مشروعه السري الرامي إلى إعادة الأمور إلى نصابها. إنه كرم وسخاء الروح اللذين لا يمنعان صاحبهما من أن يمتلك طبعاً فواراً. فهو يشعر وبالفقد نفسه. بكراهية قوية نحو الاستبداد وبتعاطف أخوي مع المقموعين المهجورين.

2 حوار للمؤلف مع عبد الله المالكي.

3 هذا المشهد هو الوحيد في هذه القصة الذي لا يعتمد على شهادة. لقد تم تخيله لحاجة السرد.

كان عمره إحدى وثلاثين سنة وكان عازما أكثر من أي وقت مضى على قلب مجرى تاريخ. قرأ كثيرا منذ أيام الدراسة. ازدادت خاليله دقة وصرامة. كان صارما في تنظيم الأشياء. ومن ثمة فإن المقربين منه كانوا يحترمونه ويعزونه نظرا لرغبته الدائمة في - يكون فعلا دون أن يتخلى أبدا عن هدوئه المطمئن وعن عزمه. فالأمران لا يمكن تفصل بينهما في ذهنه. والفعالية لا حاجة لها بالتصنع. لقد كان هذا المهندس في الالكترونىك مضبوطاً الحركة بأسيم الوجه. مطمئنا وهو يعمل منذ شهور على وضع بنية مسلحة ثورية.

كان الرفيق الذي ينظر إليه بهدوء تام وهو يجوب ردهة مطار بيروت ذهابا وإيابا. صديق منذ أيام الطفولة. إذ لهوا من قبل معا في أزقة مدينة الرياض. وتقاسما رغبات نفسها داخل منظمة الطفولة الشعبية. قبل أن يتابعا معا دراستهما في لانيا الشرقية. وقادهما معا هذا التواطؤ إلى سوريا. وبعد بضعة أيام. التحق بهما يزيد وأحمد بنجلون. قديم الأول من باريس. والثاني من الجزائر العاصمة.

وصية المهدي

مع وصول خالد اكتملت المجموعة. فخالد يتقاسم مع أحمد بنجلون. زميله في الجزائر العاصمة. القدرة على الانتظار التي تعلمهاها من تقلبات الدهر. مع فارق بسيط هو أن أحمد بنجلون كان يعيش على أمل تلك التغيرات الكبيرة التي يرضى بها أولئك الذين يعيشون سجناء داخل حياة يومية يتحملونها دون أن يكونوا فاعلين فيها. مرت سنوات وهو يعدد أحلاما مضمومة وجدت أخيرا متنفسا لها.

أما اليزيد. الذي سبق خالد إلى دمشق. فإنه لم يكن من أولئك الذين يحلمون بالجراح والأورام. فهو كان يعيشها. ذلك أنه لجأ بأعجوبة من الرصاص الذي حصده رفاقه خلال مظاهرات 1965. ولم يتوقف منذ ذلك الحين عن العمل حتى يحل اليوم الموعود.

كلهم يتقاسمون أمل تحرير قريب قد ينبثق عن حركة أعادت قيادة جديدة خريكتها من جديد. تلاقى أقدار هؤلاء الرجال في دمشق حول مشروع مشترك: أن يصبح الاختيار الثوري الذي نادى به المهدي بن بركة وتمناه. في النص الذي غدا فيما بعد وصيته السياسية. أمرا ملموسا. وأما طموحهم فهو أن ينشئوا قوة مسلحة ثورية منضبطة ومنظمة.

كانوا يتميزون بصغر سنهم. إذ كانوا على عتبة الثلاثينات. يجسدون جيلا جديدا. ذلك أن الجيل القديم شحذه الكفاح ضد الاستعمار. وأما الجيل الثاني فإنه يتعلم في إطار الكفاح من أجل تحرير فلسطين. برز هذا الجيل وسط خيبة أمل أثارها استغلال مغتصب. ذلك أنه شهد. وهو مسلوب القوى. انشقاقات تنسف عمل الكبار في

السن من المناضلين. وبعد تفكيك جيش التحرير الوطني، قاد وهم الحزب الثوري العبد من الرفاق الذين كانت تعرفهم الشرطة ووضعت لهم بطاقات، قادهم إلى مخالب البوليس.

ومن هنا، فرضت ملاحظة نفسها: إن بنية الحزب الحالي، الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ليست من الثورية في شيء. فالحزب يتخبط في انتظارية سياسية، وزج به في مجابهة مع النظام أبانت غياب فعاليته. ولأن الحزب لا يتوفر على بنية سرية منظمة، فإنه اكتفى بالرد أكثر ما كان فاعلا مؤثرا.

كان يفتقر إلى طليعة، أي قوة ضاربة مستقلة لا تستعمل بنية الحزب كقاعدة تستند إليها ولكن كأداة لتعبئة الجماهير بغرض الانتقال إلى مرحلة الكفاح المسلح. ومن هنا بات على النخبة الثورية أن تفتح المسيرة لانطلاق حركة مسلحة أوسع وأكبر وأن تسيرها. تستمد هذه الاستراتيجية مفهومها من تشي غيفارا وكان طموحها في مستوى الآمال المجروحة.

وفي ذهن هؤلاء المناضلين الجدد، يجب الانتقال من الهواية إلى نوع من الكفاح المنظم. وحتى الخلفية الإيديولوجية فإنها قد تطورت، فرغم أن هذا المشروع يستمد جذوره من المقاومة ضد الاستعمار ومن التضامن المبني على القومية العربية، فإن الثقافة الماركسية، التي كانت لا تزال مبتدئة غير مكتملة عند القيادة العليا، كانت بادية واضحة. وهكذا فإن التكوين السياسي سوف ينفع في وضع اللمسات الأخيرة على الهوية الإيديولوجية للحركة بإعطاء إطار معقلن لثورة كثيرا ما عاشها المناضلون عيشة متشنجة وعفوية. وسوف يتبين فيما بعد أن الصرامة المعنوية عند بعض الأطر، كما هو شأن محمود، سوف تشكل لحاما جمع الصفوف ووحدها أقوى وأطول ما فعلت بنود الإيمان بالثورة.

هيكّل تنظيم الحركة هيكله هرمية، تستند على خلايا محلية تنتشر حتى في أكثر مناطق المغرب بُعدا وعزلة. وسُميت هذه البنية بتواضع "التنظيم". وكان الهدف الأولي، الذي سطرته القيادة العليا، هو الإبقاء على السر بضرِب عزلة صارمة. ولهذا الغرض، طوقت هذه القيادة نفسها بالعديد من الاحتياطات: عزل العلاقات بواسطة قطع سبل الاتصال المباشر، وإعطاء المناضلين أسماء مستعارة، بل وعدة أسماء يمكن أن تتغير بتغير المهام، وعدم ترك أي آثار مكتوبة أو عقد اجتماعات في المكان الواحد وفي التوقيت نفسه ... ومع الممارسة، تربي الكل على هذه العادات. فأصبحت عملية عزل بين حركات المناضلين تسري تلقائيا. وهكذا اكتشف المناضلون السريون في هذا التخصص التنظيمي نمطا جديدا للحياة.

كـ محمود وأحمد بنجلون يتقاسمان التسيير السياسي. وتكلف خالد منطقيا
— عسكري. وفي الصفوف الخلفية، تكلف الفقيه البصري وبوراس والنمري

تكثيف الاستقطاب وتنظيم الخلايا السرية بالمغرب. وقد نفعهم نفعا كبيرا تعاطفهم الملحوظ مع حزب البعث إذ غدا هذا التعاطف ضماناً معنوية وسياسية عند السلطات السورية.

بات الفقيه البصري رجلا يعمل في الظل. دائم الترحل من مكان إلى آخر. إذ لم يكن يمضي أكثر من أسبوع في المدينة الواحدة، حاملا العديد من الأسماء المستعارة. كان يعرف بأنه كان مطاردة وكان يخشى أن يلقى المصير نفسه الذي عرفه رفيقه المهدي بن بركة.

معسكر الزيداني

ويتذكر الفرشي، الذي كان كذلك ضمن المسافرين مع الفرقة التي توجه بها خالد إلى سوريا: "بعد أن أمضينا أسبوعا في دمشق، تم إقتيادنا إلى معسكر الزيداني يوم 15 مارس⁴". كان يوجد في هذه القرية معسكر عسكري خصصه السوريون للفلسطينيين من منظمة الصاعقة. فقد كانت سوريا، كما هو شأن العديد من الدول العربية التي كانت في ذلك العهد توظف القضية الفلسطينية وتستعملها كوسيلة. قد صنعت مَنَوتَوجها المحلي الخاص بها من قضية "حرير فلسطين". كانت الصاعقة هي جوهر هذا المنتج. فالمعسكر الذي يأوي المنظمة الفلسطينية يوجد على بعد حوالي 60 كيلومترا في الشمال-الغربي لدمشق، على طريق بيروت، قرب الحدود مع لبنان. كان يتواجد بها باستمرار أزيد من ثمان مائة جندي. وفي الوقت نفسه الذي وصل فيه الفرشي، وصل خمسون مناضلا مغربا إلى المعسكر. رسميا، هم تونسيون جاءوا للالتحاق بصفوف الفدائيين الفلسطينيين. إنه القناع الذي تخفى وراءه القضية نظرا لضرورة العمل السري.

كان عُمر هؤلاء الرجال يتراوح ما بين العشرين والثلاثين سنة. إنهم مقاتلون نزحوا على وجه العموم من جيش التحرير الوطني أوجنود أقبلوا من مهنتهم. ورغم ظروف العيش الهشة والمتواضعة في معسكر أوواطا أو سيدي بالعباس بالجزائر، بقوا أوفياء للنمري. أحس تجاههم خالد الذي كان يحترم فضائل التربية الصارمة بالتقدير والثقة. كانوا جميعهم يحركهم إحساس بالثورة. وكانوا يثقون في عدالة قضيتهم. فهم يقدمون المثال بطريقتهم وذلك بوهبهم أغلى ما يملكون [فداءً لقضيتهم]. ذلك أن العديدين منهم سوف يدفعهم وفاؤهم للقضية إلى التضحية بأغلى ما لديهم.

ويتذكر النجار الذي كان واحدا منهم: "بعد تفكيك جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، التحقت بمدرسة ضباط الصف بأهرمومو [رباط الخير اليوم]. وهي المدرسة التي ستكون أول قوة ضاربة في أول انقلاب عسكري سنة 1971. تخرجت منها برتبة رقيب

⁴ حوار للمؤلف مع عمر الناصر. المعروف بالفرشي.

أول. وفي سنة 1963، قام العقيد بنحمو، الذي كان رئيسي في جيش التحرير الوطني- منطقة الجنوب، بجولة تفتيش. كان يريد أن يتعرف على أحوالنا وعلى إحساسنا بصفتنا مناضلين سابقين في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. وبهذه المناسبة أَسْرَ لنا بأن عملية سرية كانت قيد التحضير من أجل التحكم من جديد في القوات المسلحة الملكية. لم أكن أعلم أكثر مما قال سوى أن الأوامر. وفي حالة فشل العملية، هي اللجوء إلى الجزائر. وهكذا. وعندما بدأت الاعتقالات الأولى. رحلت إلى الجزائر صحبة ضابط صف آخر يدعى لحسن الإدريسي. المعروف بالناصري⁵. وكما سنرى، فإن الرجلين معا سوف يصبحان محمود. بعد مرور بضع سنوات من ذلك. في آخر معاركه.

عاش البعض وصول المجموعة التي ترافق خالد إلى دمشق على أنه عودة الخطوة إلى ما لا يمكن قبوله: كانت القيادة الجديدة توحيدها الرغبة في التجدد. والحال أن المناضلين الأولين القادمين للتدريب في سوريا جاءوا من المعسكرات الجزائرية! وهما أحد المنفيين السابقين في الجزائر يصبح قائلاً:

— إننا في حاجة إلى عناصر جديدة. هؤلاء الرجال أعرفهم⁶

هذه الصرخة النابعة من القلب تعبيرٌ عن رفض ممارسات تركت في الأذهان ذكرى ملؤها الاضطراب وكأن الأمور لم تحدث سوى بالأمس القريب. هذه الصرخة تعبيرٌ إذن عن الرغبة في عدم إدخال عنصر الصدا والتآكل الذي تسبب في فشل وسحق عقيد من الكفاح. إلى معسكر الزيداني. فقد كان خطرٌ تواجد مخبر بين صفوف المناضلين خطراً كبيراً. هذا دون احتساب أن بعض المناضلين كانوا معروفين عند المخابرات الجزائرية التي كان بوسعها وإمكانها أن تبعث بمعلومات عنهم إلى المخابرات المغربية. ذلك أن الجانب السلبي في التجربة الجزائرية لم يمتح بسرعة. فهو يغطي عند الكثيرين مأساة وجودية. لأنها لم تعالج إلا من الجانب الجدلي وحده. هذه المأساة التي لم تجد دائماً طريقها إلى التهذنة. ويشهد النجار قائلاً: “كنا نجر معنا أمارات فشل جريتنا الجزائرية. إذ ما انفك اليأس والحذريتنا يزدان ويكبران”.

عند وصول هؤلاء الرجال. وجدوا في محمود رجلاً يعرف كيف يعلو بهم فوق الظروف والملابسات العابرة وكيف يحميهم من هشاشة الأوضاع. ويواصل النجار قائلاً: “عرف محمود كيف يعيد إلينا الإحساس بالكمال الذي كان قد ضاع. كان يتقاسم معنا ظروف عيشنا ويشغل دون هواده. ولا ينام إلا أربع ساعات في الليلة الواحدة. كان يبدي قوة جسمية لم تكن بنيته المتواضعة توحى بها. كان متنبها لطلباتنا ويشرح لنا هدف التزامنا وكان يقدم معنىً لتضحياتنا”⁷.

5 الناصري. ضابط صف قديم في القوات المسلحة الملكية. سوف يُعدم بالقميطة يوم فاخ نونبر من سنة 1973. حوار للمؤلف مع البشير الزين. المعروف بالنجار.

6 حوار للمؤلف مع مصطفى العماري.

7 حوار للمؤلف مع البشير الزين. المعروف بالنجار.

ومنذ اليوم الأول، اجتاز هؤلاء الذين لم تكتمل شوكتهم بعد مراسيم النار والرصاص التي ستجعلهم يلتحقون بصفوف الكبار. مازال المالكي، عامل التواصل الشاب وصغير مجموعته، يتذكر. كان يتقاسم خيمة مع سبعة من رفاقه عندما، وعند الفجر، أخرجته قبضة حديدية من نومه. وبصوت قوي أمره محمود، هو وأصدقاؤه، باللجوء إلى الخنادق المحفورة على جنبات المعسكر. وبعد تشابك قصير وجد المالكي نفسه مرمياً على بطنه وأنفه في التراب المبتل في قعر خندق مليء بمياه الأمطار الغزيرة التي تهاطلت في اليوم السابق. ولما استعاد رُشده، وصله من بعيد دوي أسلحة وصوت مطاردة جوية: كان الإسرائيليون يهاجمون معسكر الفدائيين الفلسطينيين المجاور.

كان هذا التمهيد مقدمة تدريب يليق بالقوات التي تشكلها النخبة، يُسبِرُه ضابط مُدرّس سوري يركز على وجه الخصوص على التمارين التي تجري في أقصى الظروف. فبقيت ذكراه محفورة في ذهن المتدربين الثوريين الصغار وتعني عندهم العذاب والحرمان. فحتى أقوى الأقوياء من الضباط السابقين في القوات المسلحة الملكية السابقين، كما هو شأن النجار، ما زالوا يؤكدون على خشونة التدريب الذي تلقوه: صبر وتحمل جسمانيان، واستعمال لأنواع مختلفة من السلاح، وصنع المتفجرات واستعمالها، والعيش في أوساط معادية، وتجربة تقنيات متنوعة من القتال. وإضافة إلى التكوين العملي، كان هناك تكوين نظري لتحسين معارف أطر المستقبل الشابة ومعلوماتهم. يُعَدُّ هذا التكوين أدوات الكفاح السري من الكتابة بالخبر السري إلى الاتصالات السلكية واللاسلكية، مروراً بالترميز والخرائط.

وأخيراً كان التكوين الإيديولوجي يحتل المكانة البارزة في البرنامج. وهاهو خالد يتذكر الأمر قائلاً: "خلال المناقشات السياسية، كان النمري يتحدث إلى السوسيين، وآخر إلى الفيكيكيين. وأما محمود وأحمد بنجلون وأنا فلم نكن نعرف إلى أي معسكر ننحاز. وكنا نعتبر أنفسنا، في شيء من السخرية، في معسكر المغرب"⁸ فخلف الإجماع الظاهر، كانت النزعة الجهوية تضع خطأ يفصل بين الجهات. وهو الأمر الذي يدل على أن الطريق المؤدي إلى ميلاد المواطن-المناضل، وهو التصور الذي كان عزيزاً على المهدي بن بركة، كانت طريقاً لا تزال بعيدة. كان محمود من أنصار فضائل التربية، وسرعان ما اقتنع بأن نجاح الثورة يعود إلى الاجتيازات العسكرية لهذه الأطر وإلى قدراتهم الفكرية في الآن نفسه. إن التوجه نحو مذهب يلغي القدرة على التفكير وعلى الفكر لن يُنتج سوى حرية قصيرة النظر. وحدها النخبة المتعلمة، المتيقظة الواعي، يمكنها أن تنتزع الشعب من عبادة الدكتاتورية وتقديسها. ولأن محمود كان مقتنعاً كل الاقتناع برأيه، فإنه أضاف برنامجاً خاصاً بالتكوين التكميلي الموجه إلى أولئك الذين توقف تدريسيهم قبل الأوان.

8 حوارٌ للمؤلف مع محمد التوزاني المعروف بخالد.

كان السوريون يزودونهم بأسلحة من صنع روسي أو تشيكوسلوفاكي. ولكن سرعان ما وسع التنظيم لائحته مزوديه وذلك كي يصبح هو كذلك يملك نوع الأسلحة نفسه الذي بحوزة القوات المسلحة الملكية، وخاصة البنادق-الرشاشة الفرنسية الصنع ما ط 49.

وبعد مرور بضعة أسابيع، طلبت القيادة العليا للتنظيم الترخيص لها بتدريب مجنديها في معسكر خاص بهذا الغرض. كان الهدف، وفي آن واحد، هو تفادي التعايش مع باقي نزلاء المعسكر لما فيه من مخاطرة ما دام يُنَجَّح الفضول، وكذا الإعداد لتدريب بلاتن المهام التي سطرها التنظيم لنفسه.

حرب الفرق الخاصة الفلسطينية

وبينما التدريبات تجري على قدم وساق، كانت الأخبار مقلقة وغير سارة. كان النقص المتكرر يجعل الاستعدادات الضرورية لتسرب الأطر الثورية إلى المغرب استعدادات بطيئة. فاحتدت النقاشات. وفي نهاية المطاف، بدأ غياب الحركة والعمل يُهدد معنويات وانضباط الرجال الذين يأكلهم الخمول في معسكر الزيداني. اكتشف مناضل اسمه آيت عمي⁹ في نفسه موهبة ذات نزعة دولية، ولأنه مَلَّ انتظار الأمر بالسير فإنه التحق بصفوف الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وبعد مرور بضع سنوات نجأ من مذبحة أيلول (شتنبر) الأسود، فالتحق الرجل ثانية بصفوف التنظيم. ليموت إلى جانب إخوانه في السلاح ...

ولأن محمود ورفاقه لم تكن أمامهم آفاق واضحة، فإنهم قرروا الحسم في الأمر. فارتأوا أن الوقت يناسب رجالهم لِيُنَمُّوا مقدراتهم على الجبهة. نحن في شهر يونيو من سنة 1969، دخلت منظمة فتح في حرب عصابات لإنهاك الخصم، فكان أعضاؤها يشنون الهجوم تلو الهجوم على المواقع الإسرائيلية أساسا على الحدود الشرقية للدولة العبرية. انقسم مقاتلو التنظيم إلى فرق صغيرة داخل صفوف فرق التدخل السريع الفلسطينية التي جُوب الضفة الشرقية لنهر الأردن. وعلى قمة الضفة المقابلة، بنى الإسرائيليون مجموعة متراصة من الحصون. كانت هذه المواقع المحصنة، التي تبعد الواحدة منها عن الأخرى مسافة ثلاثة كيلومترات، تراقب كل هضبة نهر الأردن.

استقرت مجموعة أولى في المنطقة السورية على الجولان، في البيار قرب القنيطرة. واستقرت المجموعة الثانية في جنوب هذا المكان، على طول نهر اليرموك بالأردن. لم يكن يفصلهم عن القوات المسلحة الإسرائيلية سوى هذا الواد. أسفل القرية. واستقرت المجموعة الثالثة بسكورة، في ضواحي الكرامة بالأردن. كان معسكرهم

9 أُعِدَّ لحسن آيت عمي بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

يطل على ضفاف البحر الميت أمام أريحا. كانت هذه الفرق تملك سلاحاً خفيفاً من البنادق الرشاشة الروسية الصنع وقاذفات للقنابل ر.ب.ج. فكانوا يتسربون ليلاً. وأما في النهار، فكانوا يختبئون ولا يتحركون وكأنهم موتى. عمليات خاطفة واختباءات وانتظار. هذا هو وضع العمل الناجع الذي يرمي إلى أن يجعل من المتدرب الثوري الناشئ مقاتل عصابات فعالاً. كانت كل عملية ينفذها 15 رجلاً: خمسةً بهاجمون وخرس مجموعتان أخرتان متخلفتان قليلاً إلى الوراء، جانبي مكان العملية. كان دور الحراسة هذا عموماً من اختصاص المغاربة، في حين كان الفلسطينيون يختصون بالوسط.

لم يكن المغاربة الذين كانوا يفضلون خوض المعركة راضين تمام الرضى عن هذا الدور. ومع ذلك فإن هذه العمليات الحقيقية الأولى كان لها دورها الفعال من حيث التكوين. إذ أجز الرجال ما مجموعه خمس أو ست عمليات. ذلك أنهم كانوا يعبرون نهر الأردن ليلاً، ويتسلقون الضفة المقابلة مختبئين وسط الأشجار الصغيرة. ينسلون في صمت حتى يبلغوا مواقع العدو فيطلقون النار. كان رد الفعل الإسرائيلي دائماً هو نفسه: قنابل مضئنة تضيء المنطقة التي حدث فيها إطلاق النار، فتُطلق عليها النار بدورها.

ويتذكر خالد بمرارة إنجازات بعض الرجال الذين سوف تكون نهايتهم مأساوية على ساحة المعركة: "كان الباعمراني رجلاً متفناً بارعاً حقيقة في إطلاق القذائف، وكان يحقق المعجزات بآلة ر.ب.ج. لإطلاق القذائف. شارك في أكثر من عشر عمليات فدائية. وأما فاريكس فكان قناصاً بارعاً. استطاع أن يقتل عدة جنود إسرائيليين. خدّى الأوامر وشن عمليات فردية كانت قاتلة دموية. مما جعل الإسرائيليين يستنجدون بقناص ماهر آخر لوضع حد لعملياته. أصاب هذا الأخير فاريكس في إصبعه، وهي الميزة التي جعلت منه الجريح الوحيد في صفوف المغاربة¹⁰".

ولأسباب سياسية داخلية، انقسم السوريون فيما يخص فائدة استمرار المغاربة في المشاركة مباشرة في عمليات حرب العصابات على طول نهر الأردن. وكان أشد المعارضين لوجودهم في أوساط الفدائيين الفلسطينيين هو وزير الدفاع السوري. حافظ الأسد. ودون أن يعلم محمود ورجاله بالأمر، فإنهم سرعان ما أصبحوا يشكلون رهان الصراع من أجل السلطة في دمشق. وكان صلاح الجديد، وهو الرجل القوي في النظام والمدمع الرئيسي للمغاربة، يؤيد تكوين جيش من الميليشيات. فهو يعتقد بأن شعباً من المواطنين العرب المعبئين إلى جانب القوات النظامية هو أهم وسيلة للقضاء على القوات المسلحة الإسرائيلية. ولأن صلاح الجديد كان يعتقد كامل الاعتقاد في

10 سوف يُعَدَّم برو مبارك. المدعو الباعمراني. وعبد الله بن محزون. المدعو فاريكس. بالقنيطرة يوم فاخ نونبر من سنة 1973. حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المدعو خالد.

الأمر. فإنه زار عدة مرات معسكرات التدريب والمواقع الأمامية على الجبهة لتحسيس المقاتلين الفلسطينيين والعرب المنضوين تحت قيادة القوات المسلحة السورية. وكانت تنوب عنه بانتظام أطر من حزب البعث للإبقاء على حماس الجنود. وهكذا وكل أسبوع تقريبا. كان المقاتلون المغاربة يُستدعون إلى مناقشات سياسية لا تهمهم سوى من بعيد. وخلف هذه المظاهر. كان يجري أمام أعينهم صراع من أجل التأثير والنفوذ. أحس حافظ الأسد بالخطر. وحتى يحافظ على بقاء سلطته. كان يحتاج إلى أن يستند على جيش مُجند ملتحم يخضع لقيادة موحدة. والحال أن عمل صلاح الجديد يهدف بالضبط إلى حل قيادة الجيش السوري وتوزيعها على عدة قيادات عامة تخضع إلى هيئة عليا منفردة واحدة تُكون الرئاسة. كان السيناريو يتصور مسبقا كيف ستكون النهاية والخاتمة. فبعد مرور بضعة أشهر. أزاح حافظ الأسد صلاح الجديد واستولى على السلطة. مات صلاح الجديد في السجن بعد احتضار طويل.

عين البيضاء، يوليو 1969

بينما الرجال الذين تدربوا في الزيداني يطلقون النار في هضبة نهر الأردن. كانت موجة جديدة من المناضلين تصل من أوروبا. كان جل الرجال الذين يستقرون في المساكن التي غادرها من سبقهم من طلبة الجناح الراديكالي في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. استقطبهم دهكون. الذي أصبح اسمه في دمشق زهير. كان دهكون مناضلا محاربا تدرب على مناهج تنظيم الحزب. وتلقى تدريبه في الجزائر. كان محل تقدير واحترام نظرا لقوته الجسمية ولهدوئه وورائته. كان أكثر من مناضل. كان إطارا ثوريا يصل إلى دمشق. وقبل ذلك بعامين. كان قد أثار الحديث حوله عندما استرجع بعض عناصر شبكة شيخ العرب الذين باتوا مشتهين بعد وفاة زعيمهم. وفي دمشق حدا حدوه عشرات الرجال الذين استقطبهم هو نفسه: كانوا يصلون الجماعة نلو الأخرى. بعد أن ساروا على الدرب نفسه. يُجندون في المغرب. ويتوجهون إلى باريس يحملون في جيوبهم رقم هاتف. بعد أن يخضعوا للملاحظة خلال عدة أيام. يلاقيهم الفقيه البصري أو النمرى الذي يقرر في شأن ترحيلهم إلى دمشق. وأما "تدريبهم" في سوريا فلم يكن سوى محطة. يدوم بضعة أسابيع على أقصى تقدير. كان معظمهم من الطلبة. ولكن كان من بينهم كذلك. العديد من المدرسين خلال العطلة الصيفية.

إنهم مناضلون صادقون. لهم نوايا حسنة. تَعَذُّوا بقيم السلم. موهبتهم المهنية كمدرسين وضعت على عاتقهم مهمة خاصة: ضمان مستقبل الأجيال اللاحقة. وأمام نظام لا يسمح بأي انتقاد أخضع الرجال إلى حد إنلافهم وسط الذل والمهانة

والفساد. كان قدرهم إذن واضحاً لا غموض فيه. ولأنهم لم يعودوا يملكون سوى الثورة ليقاوموا حظهم العاثر. فإنهم اختاروا حمل السلاح.

وأمام هذا العدد المتزايد من المناضلين الوافدين. وضع السوريون تحت تصرف التنظيم معسكر عين البيضاء. على بعد خمسة عشر كيلومتراً شرق دمشق.

يحكي الكوار¹¹. وهو طالب مناضل جُند ليتدرب في عين البيضاء: "اتصل بي دهكون بالدار البيضاء في شهر فبراير من سنة 1969. كنت حينها أبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة. وكنت قد أنهيت لتوي دراستي في التاريخ واللغة اليونانية بجامعة الرباط. كنت عضواً في شبيبة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. أناضل في مجموعات صغيرة تابعة لشبيبة الحزب تسمى حلقة. كان الأمر يتعلق بتيار ماوي جعلت منه مظاهرات شهر مارس من سنة 1965 واغتيال المهدي بن بركة وحرب الستة أيام تياراً راديكالياً. وفي قلب مجموعتي. كان الكفاح المسلح يبدو شكلاً من العمل أكثر ملاءمة من المقاومة السلبية التي اختارتها قيادة الحزب. هذا على الأقل من الناحية النظرية. عندما اتصل بي دهكون اقترح علي أن يساعدنا في تحقيق مشروعنا الثوري والالتقاء بالفقيه البصري. قبلت. وصلت إلى باريس في بداية شهر يوليو وسيلة الاتصال الوحيدة التي لدي هي رقم هاتف. ضرب لي بعد ذلك مناضل موعداً في فندق حيث حُجِرت لي غرفة. على مدى عدة أيام. عاشرت بعض المعارف في باريس. وبعد ذلك. ضرب لي الفقيه البصري موعداً في مقهى قرب مترو لا موت بيكي¹²". وبعد ذلك بتسعة أيام. يوم 22 يوليو. ركب الكوار طائرة من مطار أورلي بفرنسا متجهة إلى دمشق. كان معه زهاء العشرة من المناضلين كلهم أعضاء في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

مساراً موازاً وقدّر متشابه. كان توفيق الإدريسي. وهو محام شاب متدرب بالدار البيضاء. في مرحلة قطيعة مع الحزب. كانت اتصالاته السياسية تنحصر في رفيقين قديمين من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. أصبحا إطارين في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية: بالقاضي والخصاصي. بعد أن درس بالقاضي القانون. أصبح عضواً دائماً في الحزب وعضواً في اللجنة الإدارية. أما الخصاصي. فإنه يَسِير الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. كانوا كلهم يعترفون بأن الطريق السياسي طريق مسدود وأن لا بد من شكل جديد من العمل. كان توفيق يجهل حينها أن بالقاضي والخصاصي هما في خدمة الفقيه البصري يستقطبان المناضلين.

كان توفيق رئيس جمعية الحامون الشباب. وكان له صيت واسع وعلاقات جيدة مع أوساط مطلعة. وهكذا وحتى سنة 1969. كان النشاط السري لتوفيق يتلخص في تقارير عن المناضلين المستقطبين. كانت رسائله تَحرر بالخبير السري وترسَل مباشرة إلى

11 سوف يصبح فيما بعد رئيس تحرير جريدة أنوال. وتوفي في دجنبر من سنة 2001.

12 حوار للمؤلف مع حسين الكوار.

الفقيه البصري عبر صناديق بريد في أوروبا. ولكن دهكون. صديقه منذ الطفولة. كان يحدثه عن معسكرات التدريب في سوريا. وبعد أن اختبر وفاءه وإخلاصه. دعاه ليتلقى بها تدريباً. وصل توفيق إلى سوريا في شهر شتبر من سنة 1969 تحت غطاء مؤتمر المحامين الشباب العرب في بيروت.

كان خالد يشرف دون محابة على التدريبات. وينظر نظرة شك إلى هؤلاء القادمين الجدد من خريجي الجامعة كما هو شأن الكوار وتوفيق الإدريسي. كان حماسهم الشباب مصدر شك في نظره. كانوا يملكون من الحماس والبلاغة الثورية أكثر مما يملكون من الانضباط العسكري. كانوا يسيرون في مسار المقاتل وكأنهم يكتشفون مخيماً لقضاء العطلة. كان عليهم. هم الذين يطالبون بالعالم. أن يبدؤوا بتعلم الاكتفاء بما هو ممكن ومتاح. القليل منهم ولا شك كانوا يتصورون. عند وصولهم إلى سوريا. أن يتحول التحامهم الثوري إلى تجمع كهنوتي.

يقول الكوار: "أمضيت مع رفاقي ثلاثة أيام في دمشق عند بوراس. وجدنا عنده دهكون ومحمود. ثم ذهبنا إلى عين البيضاء. هناك انتهت إلى الهوة التي تفصل بين وعود الفقيه البصري والواقع. ولأسباب أمنية. كنت قد طالبت أن أتدرب وحدي. والحال أنني وجدت نفسي في معسكر يحيط بي مناظرون مغاربة كان العديد منهم رفاقاً لي في الجامعة. بل إن الإحساس المهيمن كان في نظري هو الشعور بالوطنية أكثر منه شعوراً ماركسياً¹³. وبالفعل فإن الفقيه البصري. بصفته رجل الدعاية للثورة. كان يميل إلى ملائمة أهدافه مع التوجهات الإيديولوجية لمحاوره. وكان يعتمد فيما بعد على مساعديه لإزالة الاختلافات المحتملة في وجهات النظر التي تفتن في العمل على إخفائها. كان من اللازم توظيف كل القوة الإقناعية لمحمود لثني الكوار على جمع أمتعته. ويخلص الكوار الذي أمضى ستة أسابيع في عين البيضاء : "من الناحية الإيديولوجية. كان هو الأقرب مني. ولا شك أن هذا هو ما أقنعني بالبقاء".

وقد ألقى هذا الحادث نفسه بظله على حماس توفيق الإدريسي: "عندما وصلت إلى دمشق. نزلت عند بوراس. أخذني أحمد بنجلون إلى معسكر التدريب في الزيداني. أمضيت به ثلاثة أسابيع. كنت قد طلبت أن أتدرب سرا. كم كانت دهشتي كبيرة لما علمت عند وصولي أن أحد أقاربي البعيدين يوجد في المعسكر. طلبت من أحمد بنجلون أن يخرجني حتى لا يتعرف علي. لم يجد الطلب شيئاً. ذلك أنني وجدت نفسي وجها لوجه مع أحد الرفاق بالثانوي¹⁴".

اكتشف توفيق أن بعض المناضلين يتقاسمون معه المسار نفسه. فكلهم أمضوا طفولتهم أيام دهكون نفسه بمدرسة النهضة بمدينة سلا. في بداية الستينيات.

13 حوار للمؤلف مع حسين الكوار.

14 حوار للمؤلف مع توفيق الإدريسي.

فأصبح المعسكر وكأنه اجتماع تلاميذ مشاغبين قداماء. جاءوا ليعبروا عن ثورتهم في ميدان جديد للكفاح.

كان الجوار اللصيق وكذا تنوع الضيوف من الأمور التي حيرت توفيق: "في المعسكر كان عددٌ مهم من المناضلين عمالاً جاءوا من بلجيكا وفرنسا وألمانيا وهولندا". ترك عنده التعايش بين مناضلين وافرين من آفاق متنوعة انطبعا بأن الأمر تجمعٌ من أجل أهداف إيديولوجية مختلفة ومتناقضة. ولكن الجدلية الثورية. وهو المنطق الذي لا يدخله الشك والذي تنمحي أمامه التبرمات والتضايقات. قد سَوَتْ ومحت العديد من الأمور غير المكتملة. ورغم أن توفيق الإدريسي لم يكن من هؤلاء الذين يبحثون عن الواقع في الخطب البلاغية. فإنه وكما هو شأن آخرين عديدين. سوف يعطي الأسبقية لإيمانه بالثورة قبل توجساته الأولى. لم يعد الزمن زمنَ الخطب والشعارات. إنه زمن الثورة.

تسريبات

بعد مرور ثلاثة أشهر على التحاق أول فريق بالفدائيين الفلسطينيين. وقعت واقعة ذات أهمية بالغة زادت من حماس هؤلاء الشباب الذين التحقوا حديثاً بالركب. ففي يوم فاتح شتنبير. أعلن الراديو أن قبطانا شابا يحمل اسم معمر القذافي قد استولى على السلطة في ليبيا بعد أن خلع الملك إدريس السنوسي. وهذه العملية التي خلعت أحد النظم الملكية في أفريقيا الشمالية. تدل في نظرهم على صحة إستراتيجية الثورة والتدريب شبه العسكري للأطر. أظهر الرجال فرحة عارمة. واجتاح الأمل القلوب: كانوا يعتقدون أن التاريخ بين لهم بأنهم على صواب. وأنهم على وشك تحقيق الغرض من تضحياتهم.

ساهم هذا التغيير في المعطيات السياسية ولا شك في تسريع الاستعدادات. كان الفقيه البصري والنمري يشرفان على عودة تلك الأطر الثورية التي تكونت في سوريا إلى البلد. فتلقوا أمرا واحدا: "انتظار الأوامر". إنه شعار كُرّر مرارا وتكرارا وكان القصد منه هو تذكير هؤلاء الرجال بالحيلة والحذر اللذين تراخيا بفعل الفرحة العارمة وحماس لحظات الحفل.

وفي البلد. استحوذ شعور ملحوظ بالحماس والاندفاع على مناضلي الحزب الذين علموا بالسر. لم يعد هناك ما يكبح جموحهم. لم يعد ينقصهم سوى السلاح والأطر لتشكيل بؤرة ثورية. لقد تمت مراجعة السيناريو مرارا وتكرارا: شن إضرابات تشل كل شيء ومظاهرات تعبر عن العصيان والانتفاضة. وعندها سيصبح الشارع في ملك الشعب الذي يؤطره جهاز الحزب السياسي والنقابي. آنذاك يمكن للجناح المسلح أن يباشر العمل: عمليات فدائية ضد أهداف إستراتيجية ورمزية. سوف يرغم

التضامن بين الشعب والفدائيين الجيش. بعد أن تكون قد زُرعت فيه باتقان [بعض الخلابا]. على أن يغير معسكره: إنها لحظة حاسمة ومصيرية تنتقل فيها السلطة من أيدي الملكية إلى أيدي الثوار.

وفي يوم 5 أكتوبر من سنة 1969. استقبل سعيد بونعيلات محمود وأحمد بنجلون في مطار مدريد. كان القائد السابق لجيش التحرير الوطني قد غادر الجزائر بعد أن علم "بأمر يسري": فقد أخبره أحد الأعيان الجزائريين أن مشروعا لاختطافه يوجد قيد الإعداد. إذ أبرم اتفاق يحسن الجوار بين الحسن الثاني وبومدين سنة 1968. ولأن سعيد بونعيلات كان قد حُكِم عليه بالأعدام غيابيا في قضية "مؤامرة 1963". ولأنه صديق لبنبلا، الرئيس المخلوع، فإنه كان يعلم المصير الذي ينتظره إن نفذت الخطة. استقر الرجل في مدريد. ومنذ ذلك الحين وبيته في مدريد نقطة من نقاط التقاء الثوار المغاربة. التقى محمود وأحمد بنجلون في هذا البيت بالفقيه البصري والنمري. خادثوا في شأن آخر تفاصيل مخطط العمل وتقاسموا مهام تسيير العمليات.

تكلف أحمد بنجلون والنمري بالمرحلة النهائية لتسريب المناضلين الذين تدربوا في سوريا وقدماء معسكر أوواطا. كانت السلطات المغربية تبحث عنهم كلهم لتواطئهم في "مؤامرة 1963". كان إذن تسريبهم يتطلب طريقا سريا ومساعدة من شرطين متواطئين. رافق الفقيه البصري أحمد بنجلون والنمري إلى مدينة مالاغا حيث قدم لهما رجلا اسمه المبد كانت مهمته هي تهريب الرجال. في السابق، أيام المقاومة، وبأوامر من بوراس. كان الرجل مكلفا بتسريب المناضلين وجزء من الأسلحة عبر مدينة مليلية. إحدى الثغور الإسبانية. وقد ذهب أحمد بنجلون ليقف شخصا في مليلية على الوسائل التي يملكها المبد: خواتم وجوازات سفر ومهريو رجال. كل شيء كان موجودا. فالمد كان له رجاله داخل عمالة وجدة

وخلال هذا الوقت. عمل محمود على تمرير حمولة سلاح من ميناء برشلونة. ذلك أن الحكومة السورية كانت قد طلبت فعلا سلاحا من الأسبان. وكان الاتفاق هو أن يتم شحن جزء من هذا السلاح لحساب التنظيم. وبعد مراجعة حيثيات الرحلة إلى السفارة السورية في مدريد. ذهب محمود إلى برشلونة لتفتيش الحمولة صحبة مناضل مكلف بشحن الأسلحة.

ويتذكر أحد المشاركين في العملية. وكان عندها عاملا موسميا في فرنسا. بأنه كان متوترا بعض الشيء عندما وجد نفسه وجها لوجه مع الفقيه البصري والنمري ورجل ثالث لا يعرف هويته. داخل شقة في شارع سان دومينيك بالدائرة السابعة في باريس. كان الموعد قد ضُرب بواسطة من أخيه الذي كان قد عاد من تدريب في سوريا. وقد طلب منه الفقيه البصري. الذي كان يتقن استعمال الكلمات الملائمة في مثل هذه الظروف. أن يذهب إلى الرباط من أجل تخضير مخبأ آمن يستقبل قائدا

ثوريا. وكما هو شأنه هو نفسه، فإن الرجل ينحدر من الأطلس وسبق له أن قاتل الفرنسيين. إنه سيدي حمو.

عاد سيدي حمو إلى المغرب عبر الجزائر. ولأن شبكته لم يتم حلها، فقد بقيت تنتظر وهي تحمل السلاح حتى وفاة شيخ العرب سنة 1964. في ذلك الحين، كان سيدي حمو مرغما على اختيار المنفى. فنادى الذين كانوا يناصرونه. وهاهو أحد رفاقه يتذكر: "وبطلب من سيدي حمو، ترك العديد منا عمله في فرنسا لنلتحق قبله بتنغير"¹⁵.

وكما كان شأن خلية سيدي حمو، فإن الخلايا السرية كانت تشكل بالعشرات الشبكة التي كان ينسجها الفقيه البصري في المغرب. وقد تبع الفرشي، الذي عاد عبر مليلية صحبة مجموعة تتكون من ثلاثة ثوار آخرين تدرّبوا في سوريا، تبع مسارا مشابها ولكن هدفه كان هدفا آخر: "لما أخبرنا النمري بالهدف وبرجل اتصّلنا داخل المغرب، رافقنا من مدريد حتى محطة القطار بالأغا. هناك تكلف بنا الميد الذي قادنا إلى الناظور. ومن هناك واصلنا الطريق حتى الدار البيضاء مروراً بوجدة"¹⁶. زار فيها مُسَيّران من الحزب، جاءا من مراكش (وهما الحبيب الفرقاني وآيت الموزن). مجموعة الفرشي، ويواصل الفرشي: "وَزَعَّانَا إلى عدة مجموعات. ذهب رفيق منا إلى أمزميز ورفيقان إلى دمنات. أما أنا، فبقيت في مراكش".

وفيما يخص الخطير وهو كذلك مناضل تَكوّن في الزيداني، فقد توجه إلى أغادير: "قادني النمري صحبة رفيق تدرب مثلي في سوريا، إلى مليلية. ومن هناك أدخلنا أحمد بنجلون والميد إلى المغرب بعد أن استبدلنا جوازات سفرنا السورية ببطاقات تعريف مغربية. أمضينا ليلة أولى في الناظور عند أحد أفراد الشرطة. ثم واصلنا الطريق طبقاً لأوامر النمري، إلى دوار آيت عبد الله، وهو دوار يوجد قرب مدينة أغادير"¹⁷. الشهادات هنا عديدة كثيرة ومتشابهة مفادها وصول العشرات من المناضلين إلى المغرب عبر هذه الطريق.

الهروب

حدث عندها ما لم يكن بالحسبان. حدثٌ بسيط قلب وجه الأحداث. أُنذر محمد التانوتي، وهو ضابط مسؤول عن المواقع الحدودية في وجدة، الفقيه البصري بأن مخبرا قد تسرب إلى التنظيم في سوريا. وقد كتب هذا المخبر تقريراً بخط اليد أرسله إلى سفارة مغربية يصف فيها وصفاً دقيقاً تفاصيل مشروع الثورة. وقد وصلت نسخة منه إلى وزارة الشؤون الخارجية، التي بعثت بها إلى وزارة الداخلية. وخلال بضعة ساعات،

15 حوار للمؤلف مع تركي عدي.

16 حوار للمؤلف مع عمر الناصر المعروف بالفرشي.

17 حوار للمؤلف مع الخطير الخطير.

كانت كل أقسام الشرطة في حالة طوارئ. وكان التانوتي بطبيعة الحال من بين الذين توصلوا بالدورية. فاكشف مرعوباً لائحة الرجال الذين عليه تسهيل دخولهم إلى المغرب. وفي اللحظة التي توصل فيها بالذاكرة. كان جزء مهم من المناضلين الذين تكونوا في سوريا قد دخلوا البلد. كان من بينهم الكوار. إذ لأنه كان قد مل الإقامة في سوريا. فقد عاد إلى الدار البيضاء في شهر غشت من سنة 1969: "خلال توقيفي بباريس. وجهت تقريراً أنتقد فيه أموراً إلى الفقيه البصري بواسطة أحد المناضلين المقربين منه. وفي الدار البيضاء. سرعان ما تأكدت توجساتي. أخذت الألسن تبوح بالأسرار. وكان بعض المناضلين يتحدثون دون تكتم عن وجود معسكرات تدريب في سوريا¹⁸".

اجتاح الشك كذلك توفيق الإدريسي الذي عاد إلى الدار البيضاء يوم الخميس ثاني أكتوبر من سنة 1969. وكما هو شأن الكوار. فإنه وجه كذلك تقريراً منتقداً إلى الفقيه البصري عند مروره من باريس. وما كاد يضل إلى بيته حتى رن جرس الهاتف. على الطرف الآخر من الخط. أخبره شرطي متعاطف. ملحق بفرقة المطار. بأنه مطارداً وأبلغه بأرقام تسجيل السيارات التي تطارده. وفي اليوم الموالي. عندما اتصل الفقيه البصري بتوفيق. لح له هذا الأخير بأن أمره قد بات مكشوفاً. فأحرق كل الوثائق الخطيرة التي كانت بحوزته. ولكن الصداقة التي كانت تربطه بدهكون منعتهم من أن يقطع علاقته به نهائياً. فكان يلتقي به بانتظام في قاعة سينما بالدار البيضاء بعد أن يكون قد جال طويلاً حتى ينفلت من مراقبة مطارديه. اقترح عليه دهكون أن يتم ترحيله عبر الجزائر. ولكن توفيق رفض. فبدل أن يريحه هذا الاقتراح. زاد من قلقه: عديدون أولئك الذين يتحدثون عن مخبرين تسربوا داخل أوساط المغاربة في الجزائر. دق هذا الرفض وكأنه صوت التحدي.

لم يكن توفيق الإدريسي والكوار سوى حلقتين داخل الجهاز الذي وضعه دهكون بالدار البيضاء والمناطق المجاورة. فقد كانا تائهيْن وسط عالم مجهول لشبكة من الخلايا السرية تتكون من عشرات الأطر من طلبة أو مدرسين أو موظفين تكونوا في سوريا خلال صيف سنة 1969. وعند عودتهم إلى المغرب. أصبحت مهمتهم هي تشكيل خلايا سرية تتكون من ثلاثة إلى ستة أعضاء. طيلة أسابيع عملوا على استقطاب مناضلين مستعدين للكفاح المسلح وتأطيرهم وتقييم سلامة سبل التزويد بالسلاح ودرسوا أعداد أفراد ثكنات الدرك والقوات المساعدة.

وعندما بلغ الفقيه البصري الخبر ارتأى أن وقت التراجع قد فات. وأمر بمواصلة التسريبات عبر سبته بدل مليلية كما كان الأمر مقرراً في البداية. أليس طموح الثورة نفسه هو أن يخاطر المرء بكل شيء من أجل تحقيق كل شيء؟

مستقبل مكتوبٌ سلفاً

ينحدر الحسين المانوزي من تافراوت جنوب أغادير. يبلغ من العمر سنّاً وعشرين سنة ويحمل معه إرث تقاليد عائلية ملوّها الكفاح والتضحيات. عرفت عائلته الكفاح ضد الاستعمار وتألّقت فيه. قبل أن تثور على التعسف الإقطاعي. كان أبوه. الحاج علي المانوزي. وعماه. إبراهيم وسعيد المانوزي. من بين قياديي جيش التحرير الوطني الرئيسيين. وأصبح. بحكم الظروف. وارث طموحات الذين سبقوه. فبعد أن هرب الحسين المانوزي من حملة القمع سنة 1963. استقر عند أحد أفراد عائلته ببلجيكا لإتمام تكوينه الذي بدأه في الدار البيضاء ليصبح تقنيا في الطيران. كان بالإمكان أن تمر الأمور مروراً عادياً. ولكن كان وجهه الأملس لطالِبٍ مثابر وجدي وقصر قامته ونحالته. كانت هذه المظاهر تخفي روحه الثورية. وبما أنه مناضل نقابي. فإنه ما فتئ يراكم أيام التفاني والتضحية التي تشحذ العزائم والهمم. وما برح عصابه أن أغضب الشركة التي يشتغل بها؛ لاسابينا. وبعد أن حدثت أمورٌ بسيطة. وجد الحسين المانوزي نفسه مرغماً سنة 1967 على الرحيل على وجه السرعة إلى ليبيا. لقد كان مناضلاً يبحث عن فرص للتحرك بعد أن اختمر حماسه السياسي في إطار الكفاح النقابي ببلجيكا. إلا أن طبعه المتحمس طَعَمَ ومَيَّ موهبة راديكالية. عندما التقى الفقيه البصري رأى فيه هذا الأخير رجلاً متأهباً مستعداً للحرب. فالتكوين العسكري بسوريا بالنسبة إلى الحسين المانوزي سيكون فترة للمراجعة العامة قبل أن ينطلق اليوم الموعود.

ويتذكر إطاراً تَكون في الزيداني. تسرب صحبة حسين المانوزي: "من دمشق. التحقت بالحسين المانوزي والشافعي ملوك. المعروف بأبي علي¹⁹ في باريس. ذهبنا جماعةً عند النمري الذي وضح لنا وجهتنا وكذا مهمتنا. وهكذا. وفي فاتح شتنبر من سنة 1969. عدت أنا وحسين المانوزي إلى المغرب عن طريق سبتة²⁰".

استقر الحسين المانوزي في الدار البيضاء ببيت العائلة بحي بورغوني. وحتى تنجح عملية اندماجه. تصرف الرجل كما يتصرف كل العمال المهاجرين عند عودتهم إلى البلد. تزوج. ثم. ودائماً كما يصنع المهاجر الذي يعود إلى بلده. أبان على أنه يمتلك مالا "جمعه بفضل عمله المضمّن بأوروباً". وأخذ يبحث عن جارة تليق به. سلّم أباه 75000 درهم. وهو مبلغ كان يُعتَبَر ثروةً في ذلك العهد. ليشتري بها سفينة صيد. وشرع يدبر الأمر من أجل الحصول على رخصة صيد. إلى هذا الحد كانت الأمور عادية. ما عدا البيت الصغير الذي اكتراه بشارع كلميمة رقم 205. والذي أصبح مكان التقاء أعضاء خليفته الذين تدربوا جميعهم في سوريا مثله.

19 طالبٌ في موسكو. ثم كاتب عام للإتحاد الوطني لطلبة المغرب بدمشق. وسوف يصبح مدير جريدة الإخاد الاشتراكي.

20 حوار للمؤلف مع إبراهيم بوجمعة. المعروف بستينو.

كان أعضاء التنظيم يحدوهم إيمان يسمو فوق كل الترددات، وكانوا يتشبهون بمهمة تتأرجح بين الخيانة والارتيال. لم يكن أحدٌ حتى ذلك الحين يعرف مدامها الحقيقي. ولهذا كان فكرهم كله مشغولا بمهامهم الفورية. وسوف يبين تشريح هذه العملية فيما بعد. والتي وُلدت مِيتةً. نقطة بداية سلسلة سوداء سوف تقضي على الأحلام والأهداف.

بدأ كل شيء بوشاية. في يوم 16 دجنبر من سنة 1969، دخل المدعو المناضي، وهو تاجر وفلاح صغير وعضو في خلية سرية بأمزويز جنوب مراكش، مكتب عميد الشرطة الرئيسي بالرباط²¹. هذه هي على الأقل الرواية الرسمية التي أعطت قيمة كبيرة لاعتراف هذا النائب الذي أرسلته الأقدار. كان أول مَنْ سقط في الفخ هو شوجار، وهو إطار تكون في الزيداني، واستقر في أمزويز منذ أن عاد إلى البلد ثانية. كان مدرسا بأسفي وعضوا سابقا في شبكة شيخ العرب، تسرب من إسبانيا مع مجموعة الفرشي، فكون ودرب عدة مناضلين من بينهم الواشي المناضي. كانت هذه بداية موجة أولى من الاعتقالات اجتاحت مدينة مراكش. اختطف الحبيب الفرقاني، المسؤول الجهوي عن الحزب، يوم الأربعاء 17 دجنبر. واعتقل في ضواحي مراكش ثمانون فردا، من بينهم 45 فلحا اشتبه في انتمائهم إلى خلايا سرية. ثم وبعد انتزاع الاعترافات، دخلت القوات المساعدة مدينة دمنات. ولأن الإطارين الآخرين اللذين عادوا مع الفرشي، بوزيان والعثماني²²، كانا قد سلحا ودربا في السر أربع خلايا، علما بالخبر وهربا إلى مدينة بني ملال. لجأ الفرشي ضمن آخرين، فاختفى وسط أزقة مدينة مراكش المظلمة قبل أن يلجأ سرا إلى مدينة الدار البيضاء.

ولكن الكارثة لم تنحصر فقط في عاصمة الجنوب. إذ امتدت موجة ثانية من الاعتقالات (زهاء المائة والعشرين) بعد بضعة أيام إلى الدار البيضاء. اختطف توفيق الإدريسي يوم الأربعاء 24 دجنبر على الساعة السابعة صباحا بشارع محمد الخامس بينما كان في طريقه إلى مكتبه. وكذلك كان شأن عدد من مساعدي دهكون الذين تكونوا في سوريا وجلهم أطر في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب²³.

21 سوف يكون هو الشاهد الرئيسي في تهمة محاكمة مراكش سنة 1971. قال في تصريحه بأنه حاول أولا أن يستمع إليه الديوان الملكي. ثم الشرطة فالدرك. لم يصدق أحد. فامضى ما بين ستة وثمانية أشهر قبل أن يجد أخيرا من يستمع إليه.

22 سوف يتم إعدام محمد بوشاكوك، المعروف بالعثماني، وحسن تفجيسيت، المعروف ببوزيان، وهما على التوالي رقيب أول سابق في القوات المسلحة الملكية ومقدم بمدينة أسفي، بالقيظرة يوم فاخ نونبر 1973.

23 لاسيما مصطفى الراشدي، المعروف بطلال، وإبراهيم الرباطي، المعروف بالناصحي، وعيسى انتظام، المعروف بعبد الله، والشافعي ملوك، المعروف بابي علي.

وَضُرِبَتْ موجَةً اعتقالات ثالثة مدينتي الناصور ووجدة. فسقطت في الفخ أولاً شبكة مهربي الرجال التابعة للميد. ولسوء حظ سيدي حمو. نائر الأطلس. فإنه كان يتواجد حينها بوجدة. إذ بعد أن تسرب من الجزائر. كان يستعد ليواصل الرحلة إلى الرباط. فوشى به مخبرٌ إلى الشرطة.

الأربعاء 31 دجنبر من سنة 1969. دار المقرري

أغلق بابُ الزنزانة على الكوار. ملأ المكانَ صوتُ المفاتيح وهي تغلق الباب. كان الجو باردا ورطبا في شهر دجنبر هذا. كانت تتراءى على الحائط ثلاثة ظلال. وعندما اعتاد بصر الكوار على الظلام. رأى امرأةً ورجلين. هولندي وبلجيكي. المرأة جزائرية. إنهم متهمون بتهريب السلاح. كان الكوار قد اعتُقل يوم السبت 27 دجنبر في المحطة الطرقية بتطوان خلال عملية مراقبة للهويات على متن حافلة كانت في طريقها إلى الدار البيضاء. وهاهو الكوار يتذكر: "كنت قد جئت إلى تطوان بطلب من قائد للمنطقة كان قد أخبرني بأن الفقيه البصري يود ملاقاتي في إسبانيا. لم يتم اللقاء. وكنت أستعد للعودة إلى الدار البيضاء. وأما دهكون الذي كان قد افترق معي منذ زمن قصير فإنه شهد. لا حول له ولا قوة. اعتقاله على بعد عشرة أمتار من الحافلة²⁴". وحال وصول الكوار إلى دار المقرري. شُرع في استنطاقه. وتمهيدا لذلك خضع الكوار للعديد من التحرشات النفسية: تواطؤات مصطنعة. وفساد ومساومة. ثم التعذيب. إنه فيض من طرق التعذيب التي تتفنن في القذارة والخسة: خنق بواسطة خرقة مبللة بمواد كيميائية توضع داخل الفم. وكهرتة للمواضع الحساسة من الجسم تحدد قوتها بإتقان. هذا عدا "الطائرة". وهو المصطلح الذي يدل على وضعية المعذب الذي يعلق أفقيا من رجليه ويديه ووجهه نحو الأرض. فينطوي العمود الفقري تحت ضغط وزن الجسم. كانت أعضاء الكوار تتجمع بفعل آلام مفاجئة وجارحة تشل تدريجيا حواسه. فلا تترك في قبضة الجلادين سوى جسد ضاعت تمفصلاته يتأرجح بين الحياة والموت. وبعد أسبوعين من هذا التعذيب يُغلق الملف. إلتنى الكوار. بعد أن أنهك جسديا رغم قوة بدنه. ثانية في الاعتقال رفاقا آخرين من كان حظهم عائرا مثله سبق أن التقى بهم في معسكرات سوريا.

يبدو أن الشرطة ارتأت أنها تملك المعلومات الكافية. ويؤكد توفيق الطابع المتسرع للتحقيق: "عُذبت طيلة ستة أيام. كانت الأسئلة تهم دائما مخبا دهكون والأسلحة وأسماء المناضلين الذين تدربوا في سوريا²⁵". وحده الحبيب الفرقاني خصصت له

24 حوار للمؤلف مع الحسين الكوار.

25 حوار للمؤلف مع توفيق الإدريسي.

معاملة خاصة. إذ لأنه كان مسؤولاً جهوياً عن الحزب. فقد كان يُعتَقَد بأنه يعرف أكثر ما يعرف الآخرون. فكان جلاؤ أوفقيز يعذبونه مرتين في اليوم الواحد دون هوادة. ولكن القصر كان يطالب برؤوس القياديين الثوريين. عُبئت الدبلوماسية. وفي اليوم التاسع من شهر يناير من سنة 1970. وصل عبد الهادي بوطالب. وزير الشؤون الخارجية. إلى مدريد. ووصل لوبيز برافو. نظيره في نظام فرانكو. إلى الرباط بعد بضعة أيام من ذلك ليدخل في مفاوضات تهم استخراج الفوسفات من الصحراء الخاضعة للمراقبة الإسبانية. كان الحسن الثاني يملك ورقة يقاوض بها. فمقابل أن يلبى المغرب من موقفه. طالب بالقبض على "قادة المؤامرة" الذين تعرفت شرطته على مواقعهم بمدريد وتسليمهم له.

الخميس 29 يناير من سنة 1970، اعتقالات مدريد

عندما بلغ أحمد بنجلون خبرَ اختفاء أحد مهربي الرجال. بات الشكُّ أقوى من العزيمة. إذ إن هذا الاختفاء الغريب كان يُنذرُ بوقوع ما هو أخطر. ذلك أن جل الرجال الذين تدرّبوا في سوريا كانوا قد عبروا الحدود. ولذلك فإن أحمد بنجلون كان يعرف أن عليه أن يلتحق بوجدة بعد بضعة أسابيع صحبة إطارين ثوريين آخرين. فساورته التساؤلات. وزيادة في الحيلة. قرر الذهاب إلى مدريد ليقدم تقريراً عن الوضع. ومهما بدا الأمر مستحيلاً. فإنه لم يكن يشك أبداً في أن اختطاف مهربي الرجال كان نتيجة موجة من الاعتقالات بدأت في جنوب البلاد. وكانت مسألة متابعة العملية. أو إيقاف كل شيء أو الإبقاء على الأمور نائمة تُطرحُ بحدّة تفوق ما كان يتصوره. وفي مدريد. صُعِقَ محمود وسعيد بونعيلات عندما علما بالخبر. وكان من اللازم القيام بدورات عديدة حول الهوائف العمومية قبل الاتصال بالفقيه البصري وإخباره بالوضع. ولكن وكما هو الشأن في الغالب عندما تناكف الظروف الخطط التي يُزعم بأنها محكمة متقنة. فإن جواب الرجل المدبر المخطط كان هو الغضب من قلق رجال يوجدون وسط المعركة. وأمام عدم تصديق الفقيه البصري للأمر. فقد محمود صبره. فذهب إلى باريس يوم 20 يناير من سنة 1970 وترك سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون في مدريد. وبعد مرور تسعة أيام. يوم الجمعة 29 يناير. داهمت الشرطة شارع سانشو دافيلا واقتحمت بيت سعيد بونعيلات ووضعت الأصفاد في يديه واحتجزت الشرطة الإسبانية كمية كبيرة من المال وعدة وثائق وجوازات سفر مزورة. ولكن ما تم احتجازه بدا ضعيفاً مقارنةً مع الغنيمة التي كانت مُنظرة. وأخضعت الشرطة. دون غاية محددة. الشقة للمراقبة. ولم يذهب صبرها هباءً. إذ عند بداية المساء. وصل أحمد بنجلون إلى الشارع. كان يحمل في جيبه نصاً انتهى منذ زمن قصير من كتابته

في مقهى. يجيب فيه عن مقال حميد برادة، نشره في مجلة الجبهة. وهي منشور للمناضلين لم يستمر طويلا، فيه خلط غريب من الجدل ومن السرية. فوجئ أحمد بنجلون وطوق فلم يبد أي مقاومة. وخلال الحملة، اعتقلت الشرطة الإسبانية أربعة أطر ثورية أخرى كانت تنتظر الأوامر في فندق في ضاحية مدريد: الشاب المالكي والتجار والصغير وسي ابراهيم. ولأن المالكي ورفاقه كانوا يملكون جوازات سفر سورية سرعان ما تحسنت ظروف اعتقالهم. إذ لما علم الرئيس السوري الأناسي باعتقالهم، طالب بأن يسلم "الطلبة السوريين الذين اعتقلوا خطأ" إلى السفارة السورية. وكانت المطالبة مصحوبة بتهديد بقطع العلاقات الدبلوماسية.

ولأن نظام فرانكو كانت له حزازات مع عدد من العواصم، فإنه لم يكن يريد أن يضيف إليها حياة بلد عربي. فكان للتهديد وقعه. وبداية من اليوم الأول من اعتقالهم، رُخص لسفير سوريا بزيارة المالكي ورفاقه في السجن. أمضوا به عشرين يوما. أي ريثما تقتنع الشرطة الإسبانية بأن لا علاقة لهم بالشيعيين الإسبان وبالانفصاليين الباسك.

أما سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون. اللذان كانا يحملان جوازي سفر مغربيين، فقد كانا أقل حظا. زد على ذلك أن أحمد بنجلون، ونظرا لحظه العائر، كان يملك جراحة على الكلام تتناقض مع صمت رفاقه الذي له دلالات كثيرة. فمنذ التحقيق الأول معه داخل مقرات الأمن الإسباني، صرح بجنسيته المغربية دون أن يشك لحظة في عاقبة إصراره. ولأن رجال الشرطة الإسبان كانوا يعملون على أن لا يكون شيء وليد الصدفة، فإنهم دفعوا بالحيلة والحذر إلى حد إحضار موظف استعماري سابق للتأكد من مغربية أحمد بنجلون. وبعد أن تم التعرف على هويته، قدم له ضابط الشرطة الذي يحقق معه صور مناضلين وطلب منه أن يوضح هويتهم. انتبه أحمد بنجلون فجأة إلى المنحى الذي أخذته الأحداث. الأمور جميعها تدفع إلى الاعتقاد بأن هذه الصور مصدرها هو المخابرات المغربية. انتابت أحمد بنجلون دهشة أخرسته. تظاهر الضابط بعدم ملاحظة دهشته. وواصل تحقيقه متظاهرا بأن الأمور عادية. ولكن جهده ذهب سدى. فعندما شاهد أحمد بنجلون الصور، ولأنه زعزع فجأة، لاذ بالصمت. وأمام الدليل القاطع على نواطؤ بوليس فرانكو وبوليس الحسن الثاني، أخذ يلعن ثقته العمياء. سأل الضابط الإسباني فجأة وصوته كله سخرية بعد أن وضع أمام عينيه صورته هو نفسه:

— وهذا، هل تعرفه؟

تعرف أحمد بنجلون فعلا على صورته التي أخذت في الجزائر العاصمة. ولما اغتاض الضابط من الصمت العنيد لأحمد بنجلون، قال له فجأة:

— سوف نبعث بك إلى أوفكير، فهو سوف يعرف كيف يجعلك تتكلم.²⁶

26 كتبت ليمايني يوم 1971/6/3، "زود فرانكو السلطة المغربية بعناصر مؤامرة ضد المعارضة الغربية".

الشتات

حتى هذه المرحلة، كانت الأمور الأساسية مستهلكة. ولأن السلطة كانت تعلم أن مرحلة الانتفاضة قد تم التخلي عنها منذ اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون. فإنها أخذت تطارد الشبكات السرية التي انقطعت صلاتها بقيادتها العليا. فبدأ حينها القانون الثابت لتتابع الأمور والأحداث. كان المشتبه فيهم يُعتقلون بالملات. ويتم التحقيق معهم. بالعناية المعروفة عند المكلفين بالتحقيق. والحاصل هو أن التنظيم سوف يفقد في هذه العملية ثلاث مائة مناضل. وهي إحصائيات عادية في حوليات القمع المغربي. ومع ذلك ووراء هذا الرقم، فككت شبكاتٌ بكاملها. من بينها شبكة الشرطة بوجدة.

أما سهيل رمسيس، مفتش شرطة بوجدة، وبعد أن خايل على أفراد مديرية الأمن الترابي (د.س.ت.)، فقد ركب سراً على متن القطار المتوجه إلى الجزائر. ومن سخرية الأقدار أن يساهم التانوتي، رئيسه المباشر وعضو التنظيم مثله، في عملية تفتيش بيته على الساعة الرابعة صباحاً. تجاوزت عملية التفتيش ما كانت تنتظره منها الشرطة. فقد وضعوا يدهم على أسلحة ومواد لصنع قنابل. ومع ذلك استطاع التانوتي أن ينقذ ما هو أساسي، فصدقةً وخلال التفتيش، اختلس رسالةً مكتوبةً بخط اليد موجهة إلى الفقيه البصري بها معلومات عن شبكة وجدة. لقد كان الاحتياط احتياطاً مشكوراً ولكنه غير مُجدٍ. ذلك أن هروب المفتش رمسيس لم يدم طويلاً. فقد اعتقلته شرطة الجزائر، ثم سُلِمَ إلى السلطات المغربية في إطار عملية تبادل السجناء. وغداة ترحيله إلى المغرب، يوم 27 مارس من سنة 1970، حضر رجال مديرية الأمن الترابي (د.س.ت.) إلى بيت التانوتي. واعتُقل في الوقت نفسه الذي اعتُقل فيه أستاذان بالتانوتي وتاجرٌ كان يستعد للالتحاق بصقوف الثوار.

ومع ذلك، ووسط زوبعة الاعتقالات التي ذهبت بقيادي أطر الثورة، استطاع العديد منهم الهروب بأعجوبة. وهذا شأن دهكون الذي هرب من بين أيدي الشرطة بفضل مساعدة رفاق سابقين لشيوخ العرب، نجوا هم كذلك بمعجزة من الاعتقالات. لجأ دهكون إلى مدينة سلا، ثم رحل إلى الدار البيضاء متخفياً في لباس امرأة، وسرعان ما وقف على حجم الخسائر التي لحقت شبكته. وحسب ما ورد في مراسلات مع محام بمدينة مراكش كان يتشاور معه في مدى شساعة الاعتقالات، فإنه بقي مؤمناً بقدرة التنظيم على أن ينبعث ثانية من عدم. كتب في رسالة وقعت بين أيدي الشرطة عندما اعتقل حاملها: "يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر".

لجأ سيدي حمو بأعجوبة بدوره. فوسط الفوضى العارمة، أطلق سراحه بعد أن أمضى بضع أسابيع بدار المقرري. إذ صدقت الشرطة روايته الحزينة التي تحدثت عن

أب يعود إلى أرضه التي وُلد بها لِيَمْضِيَ بها ما تبقى من عمره. ولن تنتبه الشرطة إلى غلطتها إلا بعد اعتقال سعيد بونجيلات وأحمد بنجلون، ولكن بعد فوات الأوان. فقد اختفى كل أثر لسيدي حمو. بحثت عنه الشرطة في تنغير في حين كان هو مختبئاً في مدينة الرباط.

ولكن تكثيف الشرطة لعمليات البحث والتفتيش جعلت من الوضع وضعاً لا يطاق. ولم يجد عدد من المناضلين النجاة إلا في الهرب إلى خارج البلاد. كان يوم الأحد 15 فبراير يوم عيد الأضحى. تراخت الحراسة بعض الشيء نظراً للاحتفالات بالعيد. فاستطاع الفرشي أن يعبر الحدود ويلجأ إلى الجزائر. وَحَدَّتْ حَدَوَهُ أطرٌ ثورية أخرى. كانت قد عادت إلى المغرب ضمن جماهير الوافدين. يعلق الفرشي على الأمر وهو يضم إبهامه إلى سبابته: "كان ما أجزته يساوي صفراً". كانت حركته تمثل مجهوداته التي لم تُعط ثماراً بقدر ما تمثل كذلك الرحلة التي دارت في حلقة مفرغة. وبالفعل فإنه كان قد غادر وهران قبل سنة من ذلك ليرحل إلى دمشق. قبل أن يصل إلى إسبانيا ويتسرب إلى المغرب. كل هذا من أجل أن يجد نفسه من جديد. بعد ستة أشهر. في وهران.

أهي الصدفة أم دلالة الرموز المبهمة؟ إذ إن نظام فرانكو سلم. يوم عيد الأضحى كذلك. سعيد بونجيلات وأحمد بنجلون إلى الأمن المغربي²⁷. وهكذا أنزلتهما طائرة شحن عسكرية. وقطعة قماش تغطي عينيهما والأصفا في يديهما. بمطار سلا. ويوضح أحمد بنجلون قائلاً: "كان البرد قارساً. وحسن الحظ كنت قد احتفظت بمعطفي منذ اليوم الذي تم اعتقاله فيه. معطف جميل كان أحد المناضلين قد أعطاني إياه وأنا أغادر الجزائر العاصمة"²⁸.

الاثنين 16 فبراير من سنة 1970، الكاب 1، الدار البيضاء

لم يكن أحمد بنجلون يصدق ما حدث. فقد كان مطوياً على مقعده، وأبقى على رأسه منحنيًا. ذلك أن الصفعة المزدوجة التي صفعه بها على أذنيه رجل يقف خلفه قد أزاحت قليلاً القماش الذي كان يغطي عينيه. أزاحته ما يكفي لِيُبْصِرَ عندها الضابط الذي يُسِير التحقيق. إنه أوفقيز وقد وضع على عينيه نظارته الشمسية الشهيرة. يحيط به ثلاثة رجال بلباس مدني. كان عليه أن لا يرفع رأسه ثانية. إذ لو انتبه أوفقيز إلى أن أحمد بنجلون قد تعرف عليه. فإن مصيره معروف سلفاً. احتفظ أحمد بنجلون بالعين المكشوفة متجهة نحو الأرض. كانت يدها مشدودتين إلى ظهره بالأصفا الإسبانية التي لم تفارقه منذ اعتقاله بشوارع سانشو دافيل.

27 حسب فيليب هيرمان. جريدة لوموند (العالم). يوم 12 يونيو 1971. فإن الإسبان لربما خضعوا لبعض الضغوط الأمريكية. ذلك أن اتفاق تبادل الأسرى لم يكن موقعاً بين البلدين.

28 الفقرة الموالية هي خلاصة حوار أجراه المؤلف مع أحمد بنجلون.

كان هاجِسٌ وهَوَسٌ أوفقيِر هو معرفة الهُويّة الحقيقية لأطر التنظيم التي تتخفى وراء أسماء مستعارة.

— هل لكم علاقات مع العقيد حاتيمي²⁹

وكما هو طبع أحمد بنجلون دائماً، نفى كل شيء جملةً وتفصيلاً. نظر إليه أوفقيِر غير مبالٍ بعناده:

— يبدو أنك بعنيد، لذلك فإنني سوف أسلمك إلى هؤلاء الرجال الذين سوف يخصوصوك بمعاملة خاصة. وختم أوفقيِر الكلام قائلاً:

— إنك بليد، لو أنك جئتَ عندي لدريتك أحسن ما فعل السوريون.

اعتقد أحمد بنجلون أن الأمر لا يعدو أن يكون كلاماً فارغاً بقوله أحد ضباط الجيش الفرنسي. ولكن رجال أوفقيِر لم يتركوا له وقتاً للتفكير والتأمل. فقد كان هذا بداية كابوس بالنسبة إليه. دفعته يدان إلى القبو. نزعتا عنه معطفه ومددتاه. بعد أن خلعتا الملابس عن جذعه، على طاولة من خشب. وقبل أن ينزعوا القناع عن عينيه، أنذره العشعاشي³⁰ المسؤول عن الكاب³¹، بنبرة مَن لا ينتظر جواباً:

— إن التفتت إلى الخلف، فإنك رجل ميت.

على طرف الطاولة سدد إليه خمسة رجال مقنعين سلاحهم (ماط 49). وإلى جانبه كان العميد (الكوميسير) الحسوني مرتدياً وزرة بيضاء دلالة على أنه طبيب. بهدوء تام استعرض العميد أمام عيني أحمد بنجلون ترسانة كاملة من أدوات الجراحة الخاصة بالأطباء الجراحين. كان أحمد بنجلون يعرف أن جلادي المعتقلين السياسيين يتفنونون في طرق التعذيب الفظيع. فكر لحظة في المقدمة التي تسبق بداية حصة التعذيب الجراحية.

سخر منه العشعاشي بصوت مَن يشعر بنشوة الانتصار:

— إنك ترتعد، هل أنت خائف يا أحمد؟

تشجّع أحمد بنجلون وأجاب:

— لا، إنني أشعر بالبرد.

في الواقع كان العشعاشي يريد جَس نبضه لتقييم مدى قدرته على الصمود خلال التعذيب. بعد انتهاء عملية جس النبض، اقتيد أحمد بنجلون إلى المكان البغيض الشهير، دار المقر، بالرياض. بعد ثلاثة أيام من العزلة داخل غرفة انتظار المصالح الخاصة، جاء دور فرق التحريات لتتنزع منه شيئاً. ويذكر أحمد بنجلون: “كانت الأصفاد الإسبانية دائماً تقيد يداي، وأما معطفي فقد اختفى”. لم تكن للأصفاد الإسبانية التي تمنع يديه من الحركة سوى حلقة واحدة. ومن ثمة فهي سرعان ما كانت تتحول إلى عذاب شديد.

29 وهو الاسم المستعار لابن يحيى. العقيد الحاتيمي سوف يُقتل في الصخيرات.

30 قال عنه أحمد البخاري في كتابه السرى. منشورات ميشيل لافو، بأنه أحد المشاركين في قضية المهدي بن بركة. وأصبح العشعاشي فيما بعد والي الشرطة.

31 تهم التسمية مختلف مراكز التحقيق التابعة لوزارة الداخلية: الكاب¹. الكاب² -

ولكن أحمد بنجلون استمر في عناده. لم يستسلم.
قال له صوتٌ مستخبرٌ يريد منه صاحبه أن يشدد على كل صرخةٍ أَلَمْ تُنزع من
الرجل تحت التعذيب:

— نحن نعلم أنك تُدعى عبد المومن. وسوف تعترف بذلك.

بعد يوم من التعذيب الشديد. وبينما الضحية تتأرجح بين الحياة والموت. استعاد
الجلادون رباطة جأشهم. كان إصرار أحمد بنجلون يؤكد. إن كان الأمر يحتاج إلى تأكيد.
أن الرجل يجهل أن رفاقه في الزيداني وعين البيضا قد اعتقلوا. لم يعد هناك سوى
سبيل واحد لوضع حد لإصراره وعناده: وضعه وجهها لوجه أمام الأمر الواقع. وما زال
أحمد بنجلون يتذكر الأمر وكأنه وقع بالأمس القريب: “كنت مُددا فاقد الوعي تقريبا.
كانوا قد أزالوا القماش عن عيني حتى أستطيع الإبصار. مر أمامي الواحد تلو الآخر. بضعة
أطر كنت قد سررتهم إلى المغرب ومهربٌ رجال”. وكان الجلاد الرئيس يسأل كل واحد
منهم: “ما هو اسمه؟” وكان السجناء يجيبون إجابة واحدة لا تتغير: “عبد المومن”.

تواصل التحقيق وُجدت ثمانية مع السجناء الذين اعتقلوا منذ بضعة شهور. ومنهم
توفيق والكوار. جرت اعتقالات جديدة. كانت وحشية جلادي أحمد بنجلون الذين
يتناوبون عليه في مستوى إصراره وعناده. لقد أصيب ساعده بجراح عميقة وتقيحت
رجلاه. فأرسل إلى المستشفى العسكري مرتين ليعاد “ترميمه وإصلاحه”. وبعد أن
فحصه الجنرال ماجور مولاي عريشان. قال: “إن كنتم تريدون الإبقاء عليه حيا. عليكم أن
ترفقوا به بعض الرفق”.

لم يكن التحذير أبدا مجرد نزوة وقول عابر. فقد كان جلادو أوفقيرو يختارون حسب مواصفات
خاصة توجد في سلالة معينة. لقد كانوا في الغالب من أبناء الخونة الذين عمل المقاومون على
تصفيتهم. لقد كان هذا الاختيار الشيطاني يزيد عشرات اللرات من تفانيهم في الانتقام من
المقاومين السابقين. كما كان شأن سعيد بونعيلات. أو الذين كانوا يعلنون صراحة انتماءهم
إلى المقاومة. بعد 15 يوما. بدا أن العاملة أخذت تلين بعض الشيء. فقد أصبحت يدا أحمد
بنجلون مقيدتين من أمامه وبأصفاة مغربية “عذابها أقل” من عذاب الأصفاة الإسبانية.

وقد صرح له أحد جلاديه الذي كان ولا شك يُكن بعض التقدير لأشد المعتقلين
مقاومة: “إن لك سبعة أرواح. تموت ثم تُبعث من جديد”.

ولكن مساجين المؤبد هؤلاء لم يكونوا كثيرين في دار المقر. كانوا حوالي الثمانين
معتقلا مكسدين في غرفٍ من 60 مترا مربعا كانت تقوم مقام الزنزانة. وعلى طرفي الحائط
الذي يحيط بالبناية نافذة عليها قضبان حديدية. وكان أحمد بنجلون مددا في إحدى الزوايا.
نشده سلاسل إلى قضبان إحدى النافذتين. كان شعاع الشمس الذي يتسرب عبر القضبان
يرسم بقعة من الضوء على الأرض وسط القاعة. ورغم الحركة الدائرية لهذه البقعة
المضيئة. وهي آخر علامات العالم الخارجي. كان النهار والليل يختلطان. فينمحي الزمان

ويستولي الخمول والفتور على العقول. كان المعتقلون. وعيونهم تغطيها قطع القماش. يُبصرون بأذانهم. كانوا يتعرفون على الحراس من خطواتهم. ومن أصواتهم. كانوا يعرفون المسافات والدهاليز والحيطان من خلال تحسسها تحسسا محسوسا. وكان انعدام الحركة. وأصوات المزالج وصرير الأبواب الحاد والأناث الخنوقة. وبعيدا. صراخ المعذبين الذي يليه صمت ثقيل. كان هذا هو ما يؤثت جظهم العاثر ويبعث فيهم إحساسا كبيرا فضفاضا بالضيق والخسارة. أصبحت دار المقرى القبلية النهائية حلمهم بالحرية. في هذا المكان الضيق. كان من المستحيل الانفلات من قبضة اليأس. ولكن كان بها على وجه الخصوص أفضع وأبشع ما مر بذاكرة المعتقلين. إنه رنة الجرس التي تعلن النداء من أجل التحقيق؛ إنه صوت حاد يصم الأذان يدخل الرعب في فؤاد كل سجين ويضع في أعماق أعماقه هذه الخاتلة الخزية التي تختلف بالجبن على أنه السبيل الوحيد إلى النجاة.

كان كل بئس من هؤلاء البؤساء يتمنى في سره. وهو يعلم أن ما يتمناه يعني عذاب أحد الرفاق. كان يتمنى أن لا يكون الدور في التعذيب دوره هو. بعد مرور ثلاثين سنة. ما زال أحمد بنجلون يتذكر بإعجاب يمتزج بالدهشة أحد السجناء يدعى الخيرانى. كان يعرف أنه قد أدين. وكان يسبب الحسّن الثاني كل ليلة. كانت جرائته هاته تتسبب له في حصّة جلد يومية. وفي يوم من الأيام. بعد أن مل هذه اللعبة. لجأ إلى سبيل آخر. أخبر أحد الحراس:

— عندي خبر مهم أريد إبلاغكم إياه. خذني إلى كبير الحراس.
ولأن الحارس لم يكن ليرضى أن يتنازل عن صلاحياته. فإنه كان ينظر إلى الأمور نظرة مغايرة.

— هيا الخيرانى. قل لي ما هو الأمر المهم إلى هذا الحد وإلا قتلتك.
— انتبه! إن أرغمتني على الكلام فتحمل مسئوليتك. ذلك أن الأمر الذي أعرفه بالغ الحساسية.

فيستشير الحارس الذي انتابته الخبطة والحذر رئيسه المباشر. فيقرران معا دفع الخيرانى إلى الاعتراف. ولكن الخيرانى يتشبث بموقفه.

— لا. إن ما أريد قوله مهم جدا. لا بد أن أرى المسؤول الكبير.
وبعد أن ينتاب العياء الحراس. يعودون بالخيرانى إلى الزنزانة. ولكن وفي المساء نفسه. يتم اقتياده ثانية إلى المكتب.

— هيا. يمكنك أن تتحدث الآن. إن الرئيس الكبير هنا.
— أزيلوا القناع عن عيني لأرى إن كنتم صادقين.

وعندما رُفِع القناع عن عينيه. وجد الخيرانى نفسه وسط غرفة كبيرة وأمامه رجل في لباس مدني تدل هيأته على أنه في مرتبة عليا.

— هل أنت فعلا الرئيس الكبير؟

— نعم. ما هو الشيء المهم جدا الذي تريد أن تقوله لي؟

فيصبح الخيرانى وعيناه تفيضان فرحا:

— إنك أكبر ابن قحبة يوجد على هذه الأرض.

إنه انتقام من الفظاعة والوحشية. انتقام قصير ولكنه ممتع. احتفظ أحمد بنجلون بحنين خاص لذكرى هذه الأحداث التي كانت تمكن رفاقه الغارقين في هذه المغارة اللانسانية من التشبث بالحياة. ويحتفظ في ذاكرته بذكرى شاب مستخدم في شركة السكر بالدار البيضاء. لم تمض ساعة واحدة على بداية تعذيبه حتى أخذت مفاصله ترتعد وأخذ يئن أنينا متواصلا. وعندما ينظر إليه المرء وهو يرتعد، كان يخشى أن يصاب الشاب بسكتة قلبية أو دماغية. ولأن الحراس ساورهم الشك فإنهم أعادوه إلى الزنزانة. كان الشاب غارقا في تشنجاته عندما دخل معتقلان من مدينة مراكش في مناظرة كلامية للترفيه عن باقي المعتقلين. أخذت ضحكات مكتومة تخترق الظلام. إنها اليأس وهو يتنفس. وفي بضع دقائق اجتاحت الزنزانة موجة عارمة من الضحك. لم يستطع المستخدم الشاب أن يكتم ضحكته. فانفجر ضاحكا بدوره. لقد كان حظ المسكين عاثرا. فقد ظل أحد الحراس من راوده الشك فيما ظهر على الشاب متربصا به منذ أن أرجع إلى الزنزانة. فانقض عليه وأخذه من قفاه:

— هكذا إذن. تتظاهر بالموت أولا، ثم تضحك بعد ذلك.

ولأن الشاب البئيس الجرف مع جو المرح العام، فقد أجاب الحارس:

— أنا أشبه رأس الخروف. لا تظهر ابتسامتي إلا عندما أشوى.

الكفاح الأخير

كانت الساعة في باريس ووهران ودمشق ساعة حساب وتعداد الحصيلة. كان الفقيه البصري يقول ويكرر لكل من كان يصدقه:

— إن الوضع قابل للإنفجار. أنتم عود الثقاب الذي سوف يُشعل فتيل الانتفاضة. ولكن أخفقت النظرية. ذلك أن الحلم تقضي عليه الوقاحة.

فعندما يستمع المرء إليه يعتقد أن ضربة صغيرة تكفي للقضاء على النظام. كان بوراس. الذي كاد يصبح أثرا بعد عين. يتواجد في دمشق. ومن هناك، أخذ يستخلص نتائج الكارثة. فقد قبل القيادي السابق لجيش التحرير الوطني بالأمر البديهي. وهو الرجل الذي التحق بالفقيه البصري قصد مواصلة كفاح لم ينته بعد. إنه رجل لا عدوانية فيه ولا حقد. ذاك الذي أسر لي أسفه بعد مرور عقود عن تلك الأحداث: "لم نكن قد تعلمنا شيئا من أخطائنا السابقة"³².

حاول محمود والنمري أن يفهما. ويتذكر الفرششي: "وصل محمود والنمري إلى وهران. انهال علي محمود بوابل من الأسئلة وكان النمري يشك في كوني لم أتبع أوامره. شرحت لهما أن عملية تطهير الجماهير كانت ناقصة ومغلوبة تماما. ذلك أن النقاط المعتمد عليها في الداخل هي أطر الحزب المحلية. كما هو شأن حبيب الفرقاني في مراكش. والذي لم يكن يفقه شيئا في الكفاح المسلح³³". ولكن إن كان مسيرو الحزب قد أخلوا بمهمتهم. فإن التنظيم، وهو الطليعة الثورية. قد فشل هو كذلك في مهمته. فقد كان يحدث أن يأوي الأطر المتسربة مناضلون كانت لهم بهم معرفة شخصية ولكنهم كانوا في الآن نفسه معروفين في أوساط الشرطة. ومجمل القول إن لقبهم السري لم يكن سوى تمرين بلاغي. إنه تخالط مشؤوم سهل عملية القمع. إذ إن اعتقالات قليلة كانت كافية لتفكيك الشبكات. اكتشف محمود مذهولا واقع أحداث لم يكن يتصورها في وضوح. فقد كشف تعداد الخلايا التي كانت ما زالت عاملة حول الكارثة. إذ تم القضاء على شبكة مراكش. وفي الدار البيضاء. بقي دهكون وبعض رجاله المقربين. وكذا خلية الحسين المانوزي. وفي الرباط. بقيت مجموعة سيدي حمو إضافة إلى بعض الأطر الثورية في وجدة وفي الأطلس المتوسط من نجوا بأعجوبة من الشرطة.

عدّ محمود. دون جدوى. الآفاق التي ما زالت مفتوحة أمام التنظيم الذي أصبح مشلول القدرة على الحركة. إذ ليس هناك أي أفق يسمح بتلمس منفذ سياسي أو عسكري ناجع. وهكذا وأمام هول الكارثة. تحولت دهشة محمود إلى عدم التصديق بما حدث. فكر في تسريب المناضلين الذين ما زال بالإمكان تسريبهم إلى الخارج. ولكن الفقيه البصري ما زال يرفض وضع السلاح والاستسلام. فقد كانت الإشاعات تحدث عن مؤامرة داخل الجيش زادته يقينا بالنصر في نهاية المطاف. انضم النمري إلى رأيه معتقدا أن الرجال فشلوا نتيجة إهمال. ولأن الرجلين كانا يكرهان فكرة الاستسلام. فإنهما واصلتا دون هوادة العمل كيما ينصاع القدر ويرضخ. إذ كان يكفي في نظرهما إعادة إشعال فتيل الثورة الضعيف. وعندّها. سيقوم الغليان السياسي بالباقي. ولهذا قرّرا إعادة تنشيط البؤر الثورية في جنوب البلاد التي أطفأتها موجة الاعتقالات التي اجتاحت مراكش وضواحيها.

إنها مهمة اليزيد.

الجبهة الثانية

وصدفة وخلال اجتماع في باريس حضره الفقيه البصري والنمري، أوكلت لليزيد مهمة: "كانت مجموعتي تتكون من خمسة رفاق³⁴: كلهم تكونوا في الزيداني. كان هدفنا هو تأطير الخلايا السرية وتنظيمها في منطقة سوس. أغاير أساسا وتارودانت وتيزنيت. وكان من المفروض أن يكون الوسيط في عين المكان إطارا محليا من الحزب يدعى الحسين بوعدان³⁵".

لم يكن اليزيد في مرحلة التجريب عندما عبر الجزائر إلى المغرب يوم 19 يونيو من سنة 1970. فتدريبه بسوريا لم يدم سوى شهرا. وكان قد سبق الكل قبل ذلك بسنة ليغادر المغرب ثانية في نونبر من سنة 1969: "كان علي أن أنظّم شبكة سرية في تارودانت. ولكن محاولتي بقيت عقيمة لم تثمر شيئا". وفي اليوم نفسه الذي أخبر فيه الفقيه البصري بفشل مهمته. جرفت موجة الاعتقالات في المغرب العديد من رفاقه الذين تدربوا في الزيداني ومناضلين كل من خليته الخاصة³⁶.

إذن فالرجل الذي كلفه الفقيه البصري بإنقاذ القارب هو نفسه غريق لجأ من الغرق. ولكنه كان ناجيا شحذ همته يقين بأن الهدوء الذي يتلو العاصفة يناسب الفتوحات الجديدة. في هذا الموقف عزم رجال التنظيم وأجمعوا على أن يواصلوا العمل حتى نفاذ آخر ما لديهم من طاقة. كانوا يعرفون. لأنهم أقسموا على ذلك، أن كفاحهم يجب أن يقذف بهم إلى ما وراء الحدود الهشة لأخف ضرر وأقله.

ورغم أن اليزيد كان قد استعد للأمر فإنه وقف مندهشا أمام هول الكارثة التي حلت بالتنظيم. كان العزاء الوحيد هو أن المقر العام رقم 205 بشارع كلميمة قد تزايد عدد أعضائه منذ تسرب الحسين المانوزي. إذ بات زهاء العشرة من الرجال يشكلون النواة الصلبة للخلية السرية. من بينهم الدهيش. وهو إطار تدرب في سوريا. وآيت الموزن. وهو مسؤول عن الحزب. وكان الرجلان قد لجؤا بأعجوبة من الاعتقالات التي انتهالت على مراكزهم. وبالنسبة إليهم، كان الانفصال والانعزال بين الخلايا قد لعبا دورهما. فقد أُنذر الرجلان الهاريان من مراكز مجموعة الحسين المانوزي بالخطر. فغيرت المجموعة أوراق تعريفها وجمدوا علاقاتهم مع باقي الخلايا.

34 الأطر الثورية الخمسة هي: محمد بنحجي، وعزيز بن إبراهيم المعروف بخليفة. واليزيد مرزوق المعروف بالسملالي. ومحمد أسكور المعروف بكاسترو. ومحمد بن الحسين المعروف بصبري. توفي هذا الأخير سنة 1973. الأول في المعركة. والثاني نُفذ فيه حكم الإعدام.

35 حوار للمؤلف مع اليزيد البركة.

36 لا سيما خلية عيسى انتظام. وهو إطار تكون في سوريا في الوقت نفسه الذي تكون فيه الكوار (بوحي محمد بنموسى ومحمد بن محمد ورياض بوشعيب العربي ونونس محمد) وخلية اليزيد (بنموسى ومحمد بن عمرو وحسن الزندي وسوكا محمد). المصدر: قرار المحكمة الجهوية بمراكش رقم 71/612.

ولكن عين الشرطة لم تنم. إذ في شهر مارس. اعتُقل وسيط شبكة مراكش البيضاوي³⁷. وقد تم اعتقاله في الوقت نفسه الذي كان فيه الحسين المانوزي قادما من باريس ليسأل عن آخر المستجدات. غادرت ساكنة شارع كلميمة على وجه السرعة المكان خشية وصول الشرطة. وبعد بضعة أيام ودون سابق إنذار. عادوا إلى قواعدهم. ذلك أن المناضل السري الذي اعتُقل لم يبح بالأمر.

ولما اتصل اليزيد بشبكة الحسين المنوزي. بداية شهر يوليوز من سنة 1970. كان هذا الأخير منهمكا في التحضير للعملية: كان الحسين المنوزي يصنع قنابل مع إطار تكون في سوريا في حين أن باقي أعضاء المجموعة كانوا يحددون مواقع مقر الأمن الوطني بالمحمدية ومدرسة الشرطة في عين السبع ومقر الدرك في عين حرودة. وكان شرطي معين في مقر الأمن الوطني بالمحمدية. وعضو في الخلية السرية. قد أعطى مسبقا تصاميم بنايات ومعلومات تخص عدد العناصر وإحصائيات تهم الأسلحة. بل وتم كذلك إعداد لائحة تخص متعاونين مستعدين لحمل السلاح (من بينهم عدة عناصر من رجال الشرطة). وخلال هذا الوقت. وبالرقم 269 من شارع الزراوي. وهو الشقة الثانية لشبكة المانوزي. كانت تُطبع منشورٌ وترسل عبر البريد.

توصل الحسين المانوزي من الفقيه البصري بأمر بالهجوم. وتوصل دهبكون بالأمر نفسه. وكذا اليزيد يوم 15 يوليوز من سنة 1970. وكانت مجموعتا الحسين المانوزي ودهكون قد توصلتا من قبل بحمولتين من الأسلحة قادمتين من أوروبا. وكانت الأهداف المحددة فيما يخص مجموعة اليزيد هي عمارة بناية مجموعة ماس. وهي من بقايا الحملة الدعائية الاستعمارية التي أصبحت تتملق للنظام الملكي. وكذا المركز الثقافي الأمريكي الذي يثير الشكوك في كونه بأي مصالح مخبرات.

خولت الثورة إلى إرهاب داخل المدن. بأي هدف؟ إسباغ المصادقية على اتحاد المعارضة الحديث العهد. هذا الاتحاد الذي جُمع حول مطلب الديمقراطية المشترك (الكتلة). التي أنشئت بين الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب الاستقلال يوم 22 يوليوز من سنة 1970)؛ إظهار عدم الاتفاق مع الاستعدادات للاستفتاء الدستوري الذي كانت نتائجه معروفة سلفا (كانت بعض المنشورات التي طبعتها مجموعة الحسين المانوزي تتحدث عن الأمر بوضوح)؟ رجل واحد يمكنه أن يجيب: إنه الفقيه البصري.

ولكن النتيجة كانت معروفة: إمكانيات بالغة البساطة وأرجال وتأجيل. هذه الأمور التي ذهبت بحياة عدة أطر كانت قد نُجت حتى ذلك الحين من الاعتقالات. إذ إنها عجلت بدفعهم في عمليات محكوم عليها بالفشل مسبقا.

37 يتعلق الأمر بالنصور. طالب سابق في بلغراد تكون عسكريا في الجزائر. نزلت في بيته مجموعة الفرشي قبل مواصلة سيرها نحو مراكش.

وفي يوم 16 يوليو، جرح اليزيد جرحاً خطيراً عند اختباره جهازاً لإشعال القنابل. وبعد محاولات عدة، دخل المستشفى بعد مرور عشرة أيام، متستراً وراء هوية مزورة. وخرج من العملية وقد بتر أصبعاه (الوسطى والإبهام). وفي الليلة ما بين 17 يوليو و18 منه، أطلق رجلان من رجاله النار على رجال شرطة كانوا يريدون مراقبة هوياتهما.

زد على ذلك أن خلية الحسين المانوزي كانت تعرف انشقاقات داخلية. ووسط هذا التضارب بين العواطف المتناقضة تبين أن آيت المون يعارض العمليات المسلحة وأن الدهيش يرفض الانصياع للأوامر. ولما اغتاز الحسين المانوزي من الأمر، ذهب إلى باريس للإخبار بالوضع. ولكنه طلب قبل ذلك من أحد رجاله أن ينزع السلاح من الدهيش وأن يضعه تحت المراقبة.

فاجتمعت بذلك الشروط التي تؤدي إلى ارتكاب الخطأ.

وفي يوم الأربعاء فاش شنتبر من سنة 1970، كان على عضوين من خلية الحسين المانوزي أن يلتقيا أمام مقهى الشمس بشارع بوردو، على مفترق شارع الزيراوي. كان الأول، الذي استقطب في البدء من أجل نقل السلاح والمتفجرات من أوروبا والذي وصل إلى المكان قبل الموعد بقليل، ينتظر على متن سيارة بوجو 204 التي استعملها في آخر جمولة نقلها. إلى جانبه وضعت حقيبة بها مسدس كان قد أخذه من الدهيش وبذلة شرطي. ولما ظهر المناضل الثاني في أقصى الشارع، وهو إطار تكون في سوريا، انتبه شرطي إلى العملية. إذ إن الشرطي لما لاحظ أن السيارة واقفة غير بعيد عن محل لبيع الكحول، ومركمة في بلجيكا، شك في أن الأمر يتعلق بعملية غير قانونية لتهرب الكحول. لف الشرطي حول السيارة وتوجه نحو السائق طمعا في بعض المال مقابل تسامحه. ولما تفحص، مبدئياً تفهمه، أوراق السيارة، وصل المناضل الثاني إلى مكان الموعد. ولأنه خشى الوقوع في كمين، سدد مسدسه نحو الشرطي. ولما اختلعت الأمور، ولأن السائق الأول انتابه الرعب، فإنه فر على متن سيارة 204 تاركا أوراقه بين يدي الشرطي. وأما مسدس المناضل الثاني فقد كان به عطل ولذا فإن الشرطي، الذي انضم إليه شرطيون آخرون، لم يجد صعوبة في انتزاع السلاح من يده. وفي اليوم الموالي، توصل حسين المانوزي ببرقية في باريس تخبره بالكارثة: "لقد وقع حادث: الأول جريح والأخر دخل المستشفى"³⁸.

لم تكن هذه سوى البداية. وبعد يومين من ذلك، داهم الدرك شقة شارع كلميمة حيث كانت توجد ترسانة كاملة من الأسلحة: مسدسات مجهزة بكاتم الصوت وقنابل ولوازم لإشعال القنابل وألبسة عسكرية ووثائق شرطة مزورة وبطاقات ومختبر حقيقي من المواد الكيميائية والخامض المستعمل في صنع القنابل. وخلال الحملة نفسها، تمت مداهمة شقتين تستعملهما الشبكة: رقم 269 بشارع الزيراوي، على

38 حوار للمؤلف مع رشيد المانوزي، أخ الحسين المانوزي.

بعد خطوتين من هناك. ورقم 405 بشارع ماء العينين. وضع الدرك يده على أسلحة أخرى. وعلى عتاد ولوازم للطباعة وعلى لائحة بأسماء رجال الشرطة. وخلال حملات الشرطة هاته. اعتقل آيت الموزن والدهيش وجل رفاق الحسين المانوزي.

قتال المواقع الخلفية

أذهل الخبر الفقيه البصري. كان يحس بالخناق يشدد من حوله. فأخر خلايا التنظيم أصبحت مهددة. بل إن اليأس دفعه إلى أن يأمر اليزيد بالالتحاق بدهكون والتراجع نحو الجنوب. دامت مطاردة دهكون أكثر من أسبوع. غدا الوسطاء حذرين. وبعد محاولات وترددات كثيرة. ضرب موعد. كان اليزيد ومن معه متوترين. فبعد حملة الاعتقالات. زادوا من تنبههم ويقظتهم. ذهب اليزيد إلى المكان المحدد. ومعه رجل آخر بقي بعيدا شيئا ما عن مكان الموعد. وعيناه متربعتان ويده على المسدس. لم يظهر دهكون. ضرب موعد ثان. لم يحضر دهكون هذه المرة كذلك. ولم يحضر حتى في الموعد الثالث. في الواقع. كان دهكون يحضر في كل مرة إلى مكان الموعد. ولكنه بات حذرا مرتابا. فكان يراقب اليزيد ورفيقه من بعيد. لقد أصبح من الصعب في هذه اللحظات البالغة التوتر والتي تكثر فيها الشكوك. أن يعتبر المرء أبسط علامات الترحاب على أنها مضمونة لا خوف منها.

لم يرحل اليزيد. الذي كان في فترة نقاهة. ورجاله الخمسة إلى منطقة أغادير إلا نهاية شهر أكتوبر. فباتت آخر مجموعة من الثوار معزولة لا مورد لها. ومع ذلك. لم يكن شيء في موقف اليزيد أو موقف دهكون يدل على القلق المعتاد عند الهاربين المذعورين. ولئن كان بالإمكان قياس قوة عمل الثائر من منظور إصراره وعزمه. فإن اليزيد ودهكون هما وبكل تأكيد ثوارا كبار. كان ذهن اليزيد مسكونا بالمهمة التي أناطه بها الفقيه البصري في باريس: تثبيت بؤرة للانتفاضة في منطقة سوس. وسوف تقود هذه المجابهة الأخيرة مع الواقع المنذر بالخطر والخيف لمنظمة التنظيم داخل البلد. سوف تقود اليزيد ودهكون إلى الوقوف على هول الكارثة. فسرعان ما ظهر أن خلايا الحسين بوعدان السرية أشباح ليس إلا. وكانت الإدارة متلعثمة متعثرة. لم تصل الأسلحة. والإمكانيات اللوجستكية منعدمة.

أحس الثوريون بأن عزيمتهم أخذ يتراجع إلى حد أنهم ندموا على كونهم ركبوا المغامرة. هناك نوع من الفشل لا يخدع أحدا. خدعهم واقع مزور. فحاولوا أن ينتزعوا من هذا القدر الصدقوي شيئا من الأمل. حاولوا جاهدين ربط علاقات مع خلايا سياسية للحزب من أجل التعرف على الموارد البشرية والمادية المتوفرة. بل وتم اللجوء حتى إلى أطر من السلطة الجهوية عرفت بتعاطفها معهم. إنها آخر المحاولات التي

لا تفيد في شيء. ليس لأن أبطال جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب هؤلاء كان من الصعب جدا جعلهم يَتَبَنُون المثل الثوري. ولكن ووسط صمت هذه المساحات الصحراوية الشاسعة وسكونها. لم يعد بمقدور شيوخ الدواوير المنعزلين وسط الحرمان سوى أدب الضيافة الخفية يوفرونه للثوار. وبعد أن استنزف دهمكون واليزيد ورفاقهما كل النبات الحسنة. وبعد أن انتابهم الإحساس باليأس. أخذوا ينظرون إلى الأمر الواقع: إن الإمكانات الحقيقية والواقعية لإعداد عمل مسلح غير متوفرة. فلم يبق أمامهم سوى الرجوع إلى الدار البيضاء. إذ هناك على الأقل. سوف يحتمون وسط ساكنة حضرية كثيرة العدد يجهل بعضها بعضا.

ولما لم يعد بمقدور المساعدين الخمسة الذين رافقوا اليزيد منذ دخوله المغرب اجترارَ حقدهم. قرروا العودة إلى الجزائر عبر بركان. وفضل اليزيد ودهكون البقاء. إنها كذلك اللحظة التي اختار فيها الحسين بوعدان. قائد الجيش الشبح. الهجوم من جديد. أكد لليزيد بأن له رجل اتصال بالدار البيضاء بإمكانه أن يزودهم بالسلاح وبالمناضلين المستعدين للقتال. كان الوسيط مساعدا سابقا لشيخ العرب. كان الرجل "واشيا" مخبرا. ولأن اليزيد ساوره الشك في تحركات الحسين بوعدان الغربية. فإنه شك فيه وفضل أن يختبر الوسيط الجديد قبل أن يضمه إلى الشبكة. ولأن الشرطة أعيتها اللعبة. فقد اكتفت باعتقاله وحده.

اعتُقل اليزيد في مقبرة ابن امسيك بالدار البيضاء يوم الجمعة 27 نونبر من سنة 1970. ونُقلَ توا إلى مخفر درب مولاي الشريف بالدار البيضاء. عذب هناك عذابا شديدا وحشيا مدة شهر حتى يعترف بتفاصيل قصة كان قد تخيلها ليوقع الوسيط الذي اقترحه الحسين بوعدان ويمتحنه: "كان من المنتظر وصول شاحنة تحمل مناضلين مسلحين قادمين من الجزائر"³⁹.

وقد تلقى اليازغي⁴⁰. وهو عضو في اللجنة المركزية للحزب. اعتُقل في الفترة نفسها لتواطئه المفترض مع التنظيم. المعاملة نفسها. وكان استيتو. الساعد الأمين للحسين المانوزي. يقبع كذلك في قبو درب مولاي الشريف. وسوف يبقى خائر القوى لكثرة ما عذب. لا يمكنه أن يتحرك إلا مشيا على رجليه ويديه. وهو الأمر الذي جعل الآخرين ينعتونه بـ "البرويطة" (المنقطة).

39 حوار للمؤلف مع اليزيد البركة. إنه الأمر كذلك الذي سوف يقوله المناضي في محاكمة مراكش: "150 000 رجل لربما جمعوا على الحدود الجزائرية - المغربية لقلب النظام".

40 اعتُقل يوم 16 نونبر من سنة 1970. واعتُبر في البداية مفقودا حسب بلاغ للاخاء الوطني للقوات الشعبية في ذلك الوقت. كان حينها عضوا في اللجنة المركزية. ومسؤولا عن فيدرالية الاخاء الوطني للقوات الشعبية بالرباط. ومساعدة في ديوان عبد الرحيم بوعبيد. وسوف يصبح وزيرا للسكنى في حكومة "التناوب" التي شكلها عبد الرحمن اليوسفي سنة 1998 في عهد الحسن الثاني.

وسوف يشهد أفراد عائلة المانوزي على وحشية التعذيب الذي تعرض له. علّق الحاج علي ثلاث عشرة مرة من رجله. إذ أقسمت الشرطة على أن تجعله يعترف بأن سفينة الصيد التي حازها بطلب من الحسين المانوزي كان الغرض منها هو نقل الأسلحة. وفي حالات كثيرة. وصل إصرار الشرطة الأعمى حدوداً لا يمكن تصورها. فقد كان أفرادها يقتلون أشخاصاً أبرياء. كان المجاهد القاسم متعاطفاً مع القضية الثورية. أخبره الحسين المانوزي أن مجموعة اليزيد هي التي قتلت شرطياً بمدينة الدار البيضاء. فارتكب خطأ إشاعة الخبر بين مناضلين آخرين. فاعترف هؤلاء تحت التعذيب بكلام المجاهد. فكان هذا كافياً لتحوم الشكوك حول الشاب ذي الحظ العاثر. فعُذّب حتى اعترف بذنب لم يرتكبه. وبعد أن اعترف بالجريمة المزعومة. قرر أفراد الشرطة الانتقام لزميلهم بتصفية قاتله المزعوم: المجاهد القاسم.⁴¹

مُعْطَى سياسي جدي

كان لفشل عملية سنة 1969 آثارٌ سياسية كارثية على التنظيم. فمنذ أول الاعتقالات، أرسل الحسن الثاني أوفقيير إلى الجزائر العاصمة وإلى تونس العاصمة من أجل إقناع الرئيس بومدين والرئيس بورقيبة بأن المغرب ضحية "مؤامرة بعثية" مقرها في دمشق.

وزار الملك نفسه فرنسا في الأسبوع الأول من شهر فبراير من سنة 1970 لربط العلاقات ثانية مع الحكومة الفرنسية بعد أن كانت قد غدت متوترة منذ قضية ابن بركة. ومكنه رحيل الجنرال دوغول. قبل بضعة أيام من ذلك. من دخول التراب الفرنسي ثانية. وبالفعل فدوغل كان قد قطع العلاقات الدبلوماسية مع المغرب منذ اغتيال زعيم الاحاد الوطني للقوات الشعبية في فرنسا.

حاول الحسن الثاني أن يُقنع خلفَ دوغول. الرئيس بومبيدو. بحقيقة "المؤامرة البعثية" وطلب. بالمناسبة نفسها. مساندةً سياسية وعسكرية. لقد أثمرت المحاولة. وجون لاكوثير. ملاحظ نبيه للحياة السياسية الفرنسية وعارف ماهر بالمغرب. لا تنظلي عليه الخدعة. فكتب في أسبوعية لئونوفيل أوبسيفراتور (الملاحظ الجديد): "موريس شومان بالتأكيد وفيّ أمين للخط السياسي الذي وضعه الجنرال دوغول. ولكن ما أقصر ذاكرة هذا الوفاء والأمانة". ليخلص بعد ذلك: " (...) إن نظام الرباط هو اليوم أكثر من أي وقت مضى. النظام الذي كان دوغول قد قطع معه كل العلاقات". ولكن الساعة لم تعد ساعة التأملات التاريخية. فخلال زيارة الحسن الثاني.

41 مات تحت التعذيب. وسوف تصرّح الشرطة أنه "مات من فرط التعب والإعياء" في تقرير يزعم أنه حاول الفرار.

42 جون لاكوثير. قضية جديدة [سببها] ابن بركة". لئونوفيل أوبسيفراتور (الملاحظ الجديد). 7 دجنبر 1970.

اعتُقل النمري بباريس في شقة شارع سان دومينيك بعد أن شددت الشرطة المراقبة لتفادي عملية مسلحة محتملة ضد الملك. ووجدت الشرطة كمية كبيرة من الأموال بعمليات متنوعة وأسلحة وجوازات سفر. فالنمري كان قد اختبأ في باريس منذ اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون في مدريد. ومن هناك أخذ يعدد المؤشرات القليلة التي يبعث بها المراسلون القلائل الذين ما زالوا نشيطين في المغرب. والذين ما فتؤوا يؤكدون يوماً بعد يوم وقوع الكارثة التي لا رجعة فيها. كانت سابقة المهدي بن بركة خرج حكومة بومبيدو إلى درجة أنه فضل التخلص من النمري. وهو السجين الذي أصبح عبءاً. وذلك بتسليمه فوراً إلى السلطات السورية.

وهكذا لجأ النمري من برائن أوفقير. فقد كان ينتظره مصير آخر.

فبينما كان النظام الملكي المغربي يريح مساندة حكومة بومبيدو. كان التنظيم. الذي أصبح معزولاً سياسياً. يخسر حلفاءه العرب. فقد كان قياديو التنظيم. الذين احتسبوا بالعزلة التي فرضها عليهم فشلهم. يشهدون مساندتهم بالأمس يتحولون في أحسن الأحوال إلى أوصياء عليهم رغماً عنهم. وفي أسوأ الحالات. إلى معلمين عنيفين. ردت السلطات الجزائرية بعنف على التسريبات التي تمت انطلاقاً من أراضيها إذ اعتقلت بعض من ساهموا فيها. في وهران. وفي سوريا. انزعج شخصياً صلاح جديد. الذي ساند المشروع الثوري للتنظيم. واعتبر محميه المغاربة جزئياً مسؤولين عن إخفاقاته.

وأم انقلاب حافظ الأسد. نهاية شهر شتنبر من سنة 1970. عزلة التنظيم. ولئن كان حافظ الأسد قد واصل مساندته السياسية للتنظيم. فإنه قد سحب عنه المساندة العسكرية والمالية التي بقي يستفيد منها حتى ذلك الحين.

زد على ذلك أن شهر شتنبر من سنة 1970 يمثل منعطفاً تاريخياً حقيقياً دق نهاية الثوار العرب. فقد انضاف إلى انقلاب حافظ الأسد. اختفاء الرئيس جمال عبد الناصر. السند الرئيسي للحركات التحريرية في العالم الثالث. وأخيراً. وبعد الأحداث الدموية لأيلول (شتنبر) الأسود. ضُحي بالأمم المتحدة الثوري لصالح المصلحة العليا. فقد قضت القوات الأردنية على الفدائيين الفلسطينيين المرافقين على التراب الأردني. هؤلاء الفدائيين أنفسهم الذين تدرب إلى جانبهم الثوار المغاربة على الكفاح المسلح. لم يعد هناك سوى قتال يائس لإنقاذ ما تبقى من حلم أصبح وهماً. فقد أصبح التنظيم مشلولاً بفعل الجزرة التي طالت مناضليه ووسائله اللوجستكية التي أبيضت. والعزلة السياسية التي ضربت عليه. فأخذ يستعد لإجاء رحلة طويلة لعبور الصحراء. هذا هو السياق. غير المواتي للثوار. الذي اختاره الجيش للدخول إلى الساحة سنتي 1971 و1972.

وبالنسبة إلى قيادي التنظيم الذين نجوا من الكارثة. محمود والنمري ودهكون وسيدي حمو. فقد بدأ اختبار السخط والاستنكار. سوف يؤدي هذا السخط لا محالة إلى إعادة النظر التي كان من شأنها أن تصنع، لو كانت الظروف عادية، بقية الأحداث. ولكن وعند فجر السبعينيات، الجرف التاريخ حاملا معه أقدارا عديدة. أقدارُ أربعة أشخاص. فضلوا ركوب الخطر بَغِيَّةِ التعايش مع الشك. أقدارٌ سوف تتشابك مع رؤى وشجاعة وقوى.

صدي الأيام الموالية التي خيبت الآمال (1971 _ 1972)

مجندون جدد

لقد كان مسار إبراهيم أوصلح النضالي مسارا تقليديا. إنه مسار ثورة صريحة. كان أبوه تاجرا من منطقة سوس. استقر بمدينة سلا. فنشأ الابن منذ نعومة أظافره في وسط وطني. وكَبُرَ في خضم إرماصات استقلال المغرب. كان إبراهيم تلميذا بالثانوي ثم أصبح طالبا. فالتحق بصفوف الاتحاد الوطني لطلبة المغرب وشارك في إضرابات وتظاهرات عديدة.

عندما وصل إلى مدينة غرونوبل سنة 1967 لمتابعة دراسته والحصول على الإجازة في الجيولوجيا. كان الهدف كذلك هو أن يلتحق برفاقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذين جاءوا إلى فرنسا لمتابعة دراستهم. كانت فرنسا في هذه الفترة تعرف هدوءا نسبيا. فقد كان الشباب خُدُوهم رغبة قوية في التحرر تغذيها بلاغة ثورية تكاد تكون رومانسية. كان هؤلاء الشباب يحلمون بالتخلص من برجوازية لا إلهام لها. استوت على هناء ورخاء ما بعد الحرب العالمية الثانية دون عناء ودون تعب. أصبح الجنس والعنف هما أولى الحقائق للإطاحة بالبهارج البغيضة لهذه البرجوازية.

تعلم هذا الشبابُ من حرب الفيتنام ومن تشي غيفارا ومن خُطَب جمال عبد الناصر الملتهبة النزوعَ إلى النضال بعد أن زودته بالمضامين الإيديولوجية التي كانت تنقص ثورته. ولأن هؤلاء الشباب زادهم هذا اليقين قوة. فإنهم أخذوا يحلمون بالحرية. وهي الأحلام التي سوف تذهب بالعديدين وسط الخضم المأساوي للتاريخ.

مارس إبراهيم صحبة رفاقه في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب طقوس المناضلين القاعديين. فقد كان يشارك في اجتماعات لا نهاية لها تستمر حتى آخر الليل. وكان يوزع المناشير وينظم حفلات راقصة طلابية من أجل جمع التبرعات وبالمناسبة مخالطة الفتيات اللواتي يساهم حررهن في دعم القضية الثورية. في هذا المرتع الطلابي بمدينة غرونوبل. استقطب الاتحاد الوطني لطلبة المغرب بعضا من سيصبحون

أطره السياسية¹. كان جلهم من أبناء الأعيان الجرفوا بعيدا عن الأعراف التي تفرضها القيم البرجوازية.

بالنسبة إلى إبراهيم، فإن الحرية التي يطالب بها هي بمثابة الجنة على هذه البسيطة. والطريق الذي يفضي إلى الجنة لا يمكنه أن يكون إلا طويلا شاقا. بدأت الثورة تتحول شيئا فشيئا إلى أكثر من تمرين بلاغي. فقد أصبحت ضرورة عملية. لم يكن وحده الذي يطمح سرا إلى حل سريع. ومن بين رفاقه، ظهر تقارب بينه وبين العربي عجول الذي كان يتقاسم معه الطروحات نفسها. تحولت علاقتهما من مجرد مُسَارَاتٍ إلى لقاءات. فتقوت روابطهما في إطار تواطؤ سري له هدف مشترك.

لم يعد الفقيه البصري بعيدا جدا. إذ بدأت الاتصالات الأولى بين الفقيه البصري وإبراهيم في الوقت نفسه الذي كان فيه عدد من أطر الاتحاد الوطني لطلبة المغرب يناضلون داخل صفوف التنظيم. كما كان حال عجول. إذ كان عجول مسؤولا عن الاتحاد الوطني لطلبة المغرب في فرنسا. وكان في ذلك الحين أحد الأطر الطلابية التي زودت معسكرات الزيداني وعين البيضاء بمجندين جدد. ويتذكر إبراهيم قائلا: "كانت اتصالاتي بالفقيه البصري تتم بواسطة سعيد الأشكر، وهو طالب يقطن في الحي الجامعي وسوف يُخْتَفَى فيما بعد من طرابلس. وكان الغزواني الراشدي، عضو اللجنة التنفيذية للإتحاد الوطني لطلبة المغرب، والذي سوف يصبح وزيرا، يربط بين الخلايا السرية لنقابة الطلبة المستقرة في المغرب والتي كان مسيرها الثاني في ذلك الحين هو الخاصي"².

وفي صيف سنة 1970، كان سن إبراهيم 25 سنة وأخذ مسار حياته منعظا حاسما. فمن مدينة نانسي، حيث كان يتابع تخصصه في الجيولوجيا، دُعي إلى اجتماع سري في باريس. التقى فيه بعجول والفقيه البصري. فمنذ زمن الحفلات الطلابية بمدينة غرونوبل، كان عجول قد سلك طريقه. ولأنه فعال وريز، أصبحت له اليد العليا على حركة الطلاب المغاربة بفرنسا. حضر الاجتماع أربعة طلاب، جميعهم أطر في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. من بينهم بنيحيى، وهو مسؤول سابق في النقابة الطلابية بالجزائر العاصمة. كان قد بدأ مسار المقاتل في معسكر أرزيو بمدينة وهران إلى جانب دهكون واليزيد. قبل أن يلتحق بالزيداني في سوريا. وكان ضمن الحضور كذلك طالبان جاءا من ألمانيا وآخر جاء من الشرق الأوسط. عرف إبراهيم فيما بعد أنه اليزيد.

كان اليوم عشية دخول اليزيد إلى المغرب ليلتحق بتارودانت. وكان هذا كذلك شأن بنيحيى. أحد رجاله الخمسة الذين يرافقونه في محاولته اليائسة.

1 من بينهم: العربي عجول، كاتب الدولة لاحقا، والطيب بناني، رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب لاحقا. ثم مدير المدرسة الحميدة للمهندسين بالرباط. وعبد الغني بوسنة، مهندس ومدير لاحق للسدود بجنوب المغرب. سوف يصبحون جميعهم أعضاء نشيطين في التنظيم.

2 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوصلح. كان الخاصي رئيسا لـ الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

كان بنحبي بارعا في البلاغة الخطابية الثورية التي تلهب حماس الرفاق. وذلك بالإشادة بالأبطال الذين دخلوا التاريخ. إنه "شاعر من شعراء الثورة". قالها إبراهيم في سره وهو الذي شهد الكثير من هؤلاء الشعراء في الجامعات حيث أصبحت "الثورة" موضوعا يتداوله الكثيرون. فالكواريث التي تضرب التاريخ لها خصوصية الإحياء بأوهام شعرية.

استقبل الطلبة شخصان في سن الكهولة. يبدو أنهما قاطنان في الشقة. وقدا لهم الشاي. ولأن إبراهيم اعتقد أنهما عاملان مهاجران فإنه خاطبهما في أدب ودون اكتراث. وعلم فيما بعد أن الرجلين هما النمري وبوراس. مع تقدم النقاش. فهم إبراهيم أن موضوع الاجتماع هو المؤتمر المقبل للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي سوف ينعقد صيف سنة 1970⁴. وحيث تتزود الحركة الطلابية في هذا المؤتمر بقاعدة للعمل وبرئاسة جديدة. كان التوجه الذي أخذه المؤتمر أساسيا. فالمشهد السياسي في المغرب أصبح راديكاليا. وأهم أحزاب المعارضة تستعد لإلغاء الإصلاح الدستوري للمرة الثانية ولقاطعة الانتخابات التشريعية. في هذا الجو المتوتر سياسيا. كان التحكم في الحركة الطلابية رهانا أساسيا. فعدا النقابة العمالية للاتحاد المغربي للشغل. كان الاتحاد الوطني لطلبة المغرب حينها أهم قوى التعبئة الشعبية في البلد. وهامو إبراهيم يقول: "بعد المداولات. اتفقنا على مساندة الطيب بناني لخلافة الخصاصي". بالنسبة إليه. كان هذا الاجتماع أحد اللقاءات التي حسمت أكثر مجرى حياته. وعند خروجه من الشقة. كان مجال عمله قد حُدّد حديدا واضحا. لقد كان الأمر يتطلب نمطا ونهجاً جديدين في العمل. إنه العمل السري.

الاثنين 14 يونيو 1971، المحكمة الجهوية بمراكش

نزاح المتهمون على الكراسي الخشبية. يحيط بهم رجال الشرطة بعضهم بلباس مدني وبعضهم بالبذلة الرسمية. كانوا هم وحدهم يمثلون الأغلبية الساحقة بين الحاضرين داخل قاعة المحكمة بالمحكمة الجهوية بمراكش. عجز جناح المتهمين عن احتوائهم جميعا. فأجلسوا أرضاً في قاعة المحكمة. كان هناك حوالي الخمسة عشر إطارا تكونوا في سوريا. من بينهم اليزيد والكوار وتوفيق الإدريسي⁵. وكان هناك أحد قياديينهم الرئيسيين. أحمد بنجلون.

4 تأجل هذا المؤتمر. وهو المؤتمر رقم 13. ولن ينعقد إلا في شهر دجنبر من السنة نفسها.

5 وكذلك مصطفى الراشدي (طلال) وإبراهيم الرياطي (الناصر) وعيسى انتظام (عبد الله) والشافعي ملوك (أبو علي) وعبد الرحمن شوجار (وليد) والخطير الخطير وإبراهيم بوجمعة (ستينو) وعبد السلام صدقاوي ومحمد الحفيان (شاهين) ومحمد -ريوش.

وإلى جانبهم، كان مقاومون سابقون. كما هو شأن سعيد بونعيلات وآيت المودن والحاج علي المانوزي وكذا إطارين من الحزب. الحبيب الفرقاني والبازيغي. وأخيرا، كان عدد كبير من المناضلين الطلبة والعمال والفلاحين والتجار الصغار. وذلك لإتمام طبخة 161 مداناً حضروا الجلسة⁶.

على اليسار، يوجد جمهور الحاضرين الذي يتكون من حوالي عشرين صحافيا وملاحظا. وفي الصف الأول من جناح المتهمين، يوجد صف من المحامين. ولأن الحزب كان يعرف رهان المحاكمة فإنه قد عبأ محاميه المرموقين وعلى رأسهم عبد الرحيم بوعبيد. وأمامهم هيئة المحكمة. وأسفلها صفوف من دلائل الإثبات : حوالي عشر مسدسات، ورشاشتان، وآلة كاتبة وآلة نسخ قديمة. كانت هذه الأدوات القليلة التي تتناقض مع الهيئة القضائية الضخمة التي عبأتها السلطة تنال منذ البدء من مصداقية المحاكمة. إنها أولى أخطاء نظام سياسي يرتاح في القمع أكثر مما يرتاح في التنفن في جلسات المحاكمة.

كانت معنويات المتهمين حسنة. فقد كان في مثولهم أمام المحكمة راحة لهم ولذويهم. فهو يقطع مع عزلهم ومع الدورة الجهنمية للتعذيب وظروف الاعتقال الرهيبة. كان جلهم، حتى ذلك اليوم، في عداد "المفقودين". لم تكن هناك أية وثيقة رسمية تشهد على اعتقالهم منذ تاريخ وقوعه. هؤلاء الذين يمثلون في جناح المتهمين هم إذن عائدون بعثوا من جديد. كان الوقت اللازم للنظام قبل أن يحيل القضية على العدالة هو أزيد من ستة أشهر داخل مراكز التعذيب السرية وسنة من التحقيق. أعلنت المحكمة العسكرية بالرباط، محكمة القضايا الاستثنائية، عدم الاختصاص في القضية، فأحيلت القضية على المحكمة الجهوية بمراكش.

أن يعمل المرء من أجل الثورة شيء، وأن يُلقي المرء خطابا داخل المحكمة شيء آخر. أعطى المناضلون المثال بطريقتهم حيث اظهروا تضامنا لا غبار عليه واحتقارا للإتهام. وأما فيما يخص الباقي، فقد فوضوا الأمر للمحامين. خدى أحمد بنجلون وسعيد بونعيلات متهميهم. وعند المناداة التقليدية على المتهمين، وردّا على سؤال "مكان إقامتك؟"، أجاب الأول "زنزانة سجن مراكش"؛ وسخر الثاني مجيبا "الجزائر العاصمة". اتسمت مرافعة الحبيب الفرقاني بطابع أكثر أكاديمية. فقد استعرض

6 كان 193 مدانا (منهم 32 غيبابا من بينهم الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي والهدي العلوي، الذي كان حينها مثلا للافاد الوطني للقوات الشعبية في فرنسا. تتراوح أعمارهم ما بين 30 و40 سنة. أكثر من نصفهم عمال ومستخدمون، و13 معلما وأستاذنا، و7 طلبة. و24 تاجرا وصانعا. و6 محامين. 45 من مراكش ونواحيها. والباقي من الدار البيضاء ووجدة والناضور والجديدة. هم متهمون بمحاولة قلب النظام لاستبداله بـ "جمهورية اشتراكية". لهم علاقة بعناصر "تلقت تدريبا عسكريا خارج المغرب ودخلت سرا إلى البلد". هم متابعون بتهمة المس بأمن الدولة ومحاولة القتل العمد مع سبق الإصرار والترصد. متابعون بالتروير واستعمال وثائق مزورة.

عيوب المسطرة وظروف الاعتقال والتعذيب وانتزاع الاعترافات والمحاضر الملفقة والموقعة تحت الضغط⁷.

ومع ذلك فإن المتهمين لا تساورهم الأوهام فيما يخص مصير المحاكمة. كان العديد منهم يعرف مسبقاً أنه محكوم عليه بالإعدام. بدايةً من أحمد بنجلون واليزيد اللذين لم يفترقا منذ إطلاق الرصاصة الأولى في ميادين التدريب على إطلاق النار في وهران. وحتى هذه النهاية المأساوية لاعتقالهم. ولربما كانت اللائحة ستطول وتطول لو أن الشرطة ألقت القبض على القياديين الآخرين الذين كان يتهدهم بدورهم الحكم بالإعدام: الفقيه البصري وبوراس ومحمود والنمري ودهكون.

حُكِم غيابياً على 32 متهماً. بما جعل عدد المدانين يصبح 193. ومنذ الاعتقالات الأولى، كان للقصر الملكي ما يكفي من الوقت للنفخ في روابيته للأحداث وتضخيمها. وهي الرواية التي تتحدث عن المؤامرة. وأضاف أسماء أخرى إلى لائحة المتهمين: عبد الرحمن اليوسفي والمهدي العلوي ومحمد البازغي. وكلهم أعضاء في اللجنة المركزية للاخاء الوطني للقوات الشعبية. أدینوا بتهمة التواطؤ مع الفقيه البصري. واختطف البازغي. وهو محام ملحق بديوان عبد الرحيم بوعبيد. يوم الثلاثاء 16 نونبر من سنة 1970 ليُمثّل. في حالة لا يحسد عليها. بعد مرور تسعة أيام على اختطافه. أمام المحكمة العسكرية بالرباط. ويتقدم الفرقاني. كان النظام يقدم للمحاكمة عضوين من قيادة الاخاء الوطني للقوات الشعبية. كانت المعلومات التي بحوزة النظام والتي تخص مدى المشروع الثوري معلومات واسعة كثيرة. ولكنها كانت معلومات غير تامة. بل إنها كانت مدعاة للخلط والالتباس إن تذكرنا أن لائحة الأشخاص الذين يُحاكمون غيابياً تضم مناضلين قطعوا مع الفقيه البصري. كما هو شأن بنحمو أو بنسعيد. فائدي جيش التحرير الوطني - منطقة الجنوب.

تقدم المناضي. البالغ من العمر أربعاً وأربعين عاماً. مهنته تاجر بأمزوي. بصفته شاهداً. تحدث مدة ساعتين دون توقف. لم يبخل بأي جزء من التفاصيل. تحدث طويلاً عن اتصالاته بالقيادة المحلية للحزب. كان من الواضح أن شهادته تخضع لتمثيلية متفق عليها سلفاً. ولكن المناضي كان يهتم بإلقائه وعرضه هو. فهو شاهد الإثبات الرئيسي وهو يريد أن ينفخ في دوره ليجعل من نفسه ثائراً نائباً. وخلاصة القول فقد بالغ الرجل. ودخل في أمور غير معقولة ومتناقضة جعلت شهادته تثير الشكوك حولها⁸. كانت ضربة قوية للنائب العام الذي كان يتوقع أن يعتمد في مرافعته عما سيكشف عنه المناضي.

7 صرح الفرقاني: "إن الإكراه البدني والعنوي الذي تعرضنا له يبرر لوحده الطابع غير المبرر للتهمة". كل المتهمين أدانوا التعذيب الذي تعرضوا له. وأدلى بالدليل على الأضرار رغم رفض الخبرة الطبية. ويمكن أن نقرأ في بلاغ للكتلة: "كل الضحايا. باستثناءات نادرة. تعرضوا للتعذيب والإهانات - وهذا طيلة فترة احتجازهم - في هذه الظروف تم الحصول على "اعترافات عفوية متطابقة" نَكُون منها ملفّ الاتهام".

8 نشدد جريدة ليوموند (العالم). 19/7/1971. على تناقضات شهادته. انتبه جل الملاحظين إلى خداعه. يوجد في حالة سراح مؤثف وتصفه الصحافة بالشخص الخرس.

ذلك أنه، ورغم المعلومات المجمعة، سوف تتخلى المحكمة عن الجانب المتعلق بسوريا. فقد افرغ انقلاب حافظ الأسد صك الاتهام من أهميته السياسية. ولم يعد أمام الاتهام سوى التدليل على "محاولة قلب النظام داخليا". فأخذ الإتهام يجمع الأشلاء التي بعثرها تيه المناضي. لقد كان التمرين صعبا. بل وزاد من صعوبته أنه خارج المحكمة كان على السلطة السياسية أن تواجه التعبئة الدولية. لم يحدث أبدا أن عرفت محاكمة سياسية في المغرب موجة تضامنية ماثلة خارج البلاد. وكان اعتقال سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون، ثم تسليمهما مكبلي البلدين والرجلين إلى جلاديهما في المغرب، قد أسبغ منذ الوهلة الأولى طابعا دوليا على المحاكمة. وقد شددت صحافة تلك الفترة على المقارنة مع قضية ابن بركة، خمس سنوات قبل ذلك. لم يكن هناك أي اتفاق على تسليم المعتقلين بين المغرب وإسبانيا. ولكن وهنا كذلك، انتصر داعي المصلحة العليا للدولة على القانون. ورغم أن الحكم كان معروفا مسبقا، فإن الحسن الثاني كان يريد أن تمثل المحاكمة، أن يكون اتهام عمومي للمعارضة، واستعراض قضائي يسبغ المشروعية على جهازه القمعي. والحال أن عبد الرحيم بوعبيد، وهو يتراجع أمام المحكمة، وعبد الرحمن اليوسفي في باريس سوف يهزمان السلطة على أرضية ملعبها، إذ وظفوا كل خبرتهم القضائية والتنظيمية.

منذ انطلاق المحاكمة، عكس الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد الأدوار. في الصف الأول من المتهمين يوجد رجال ساهموا في عودة السيادة الوطنية. في حين قدم رئيس المحكمة على أنه خائن معروف لأنه كان الكاتب الخاص لـ "السلطان الدمية"، ابن عرفة. كان هذا الخائن المعروف، والذي يوجد اسمه ضمن لائحة الخونة المنشورة في الجريدة الرسمية غداة الاستقلال، كان يترأس جلسات المناقشة في القاعة نفسها التي حكمت فيها العدالة الفرنسية على آيت المودن بالإعدام لأنه حاول قتل ابن عرفة. سنة 1954⁹.

كان الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد قد وضع يده على الفكرة الجوهرية: إن مغربا معينا يحاكم مغربا آخر. كانت الإقطاعية الفاسدة والخائنة تنوي التزین ببهاج العدل لتخلق قدرة المواطنين، التواقين إلى العدل، على المقاومة. عمل الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد على تفكيك صك الاتهام ببراعة صانع الجواهرات مستعينا في ذلك بضعف الدلائل المعروضة، والمثيرة للسخرية، وقلب شهود الإثبات.

9 حُكم على آيت المودن 13 مرة بالإعدام إبان الحماية. ومرتين بعد الاستقلال. وسوف تسخر الصحافة من كونه حوكم بمراكش من قبل محمد العربي. وهو الشخص الذي حرر عقد البيعة لـ "السلطان الدمية" ابن عرفة والذي كان يتواجد إلى جانبه عند وقوع العملية ضده بمسجد مراكش والتي ساهم فيها آيت المودن. كان محمد العربي قد عقد جلسات في المحكمة التي كانت قد حكمت على آيت المودن في ذلك العهد بالإعدام. يوجد اسم محمد العربي ضمن لائحة الخونة الواردة في الجريدة الرسمية ليوم 1957/9/6. وقد طعن، ولكن دون جدوى، فيه الحامون الخمسون الذين جاء جلهم من الرباط والدار البيضاء، ومن بينهم الكاتب العام لحزب الاستقلال مستقبلا، محمد بوسنة. وطمعوا كذلك في بعض قضايا التحقيق الذين كانوا هم كذلك متعاونين سابقين [مع المستعمر]. ولكن محمد العربي أعفي عنه وأعيدت له ممتلكاته التي كانت قد انتزعت منه.

ومن باريس. قاد عبد الرحمن اليوسفي. الذي كان هو نفسه مدانا. حملة مساندة عبا لها الآلة الجموعية. حينها كان عبد الرحمن اليوسفي يفيض نشاطا. فبعد أن فكك جيش التحرير الوطني. ساهم في إنشاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وتسفيره إلى جانب عبد الرحيم بوعبيد والمهدي بن بركة. قبل أن يلجأ إلى فرنسا حيث أصبح ثانية ذلك الطالب كما كان من قبل أن يلتحق بحرب الجبال. كان عضوا نشيطا في اتحاد المحامين العرب. واكتسب سمعة المدافع عن القضية العربية. وفي سنة 1958. شارك في الدفاع عن القياديين الخمسة لجهة التحرير الوطني الجزائريين الذين اختطفوا في عملية تحويل طائرة نفذتها المخابرات الفرنسية. وهو كذلك من دافع عن فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين التابعة لجورج حبش الذين اختطفوا يوم 18 فبراير من سنة 1969 طائرة بوينغ في ملك شركة العال بمطار زورخ.

وعشية افتتاح محاكمة مراكش. أعطى عبد الرحمن اليوسفي ومعه روبيرت بيرون. وهو وزير فرنسي سابق. ندوة صحافية في باريس. أعلن فيها عن تشكيل لجنة دولية للدفاع عن المدانين بمراكش. كان أعضاء اللجنة في مستوى الحدث. كان من بينهم محامون مرموقون ومستشرقون معروفون (جاك بيرك وشارل أندري جوليان وفانسون مونتي وجون لاكوتير وماكسيم رودنسون). والكثير من رجال السياسة اليساريين (بيير كوت وبيير جوكس وفرانسوا مبيتران وآلان سافاري وميشيل روكار)¹⁰. وجه عبد الرحمن اليوسفي الدعوة كذلك إلى جمعيات دولية أخرى للمحامين: جمعية المحامين الأسبان والجمعية الدولية لرجال القضاء الديمقراطيين واتحاد المحامين العرب التي كان حينها نائب كاتبها العام. كل هذه المنظمات أرسلت ملاحظتين إلى المحاكمة للوقوف على "خروقات المسطرة". وهو التعبير المحتشم الذي يقصد به في ذلك العهد الخروقات التي تطال حقوق الإنسان. وفي المغرب. قامت تعبئة أخرى مماثلة من خلال نقابات العمال والطلبة. بل وحصل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على نضامن حزب الاستقلال. شريكه في المرحلة. الذي أرسل محاميا للدفاع ووقع باسم الكتلة (وهي تجمع قوى المعارضة المطالبة بالديمقراطية) على إدانة للمحاكمة.

الثورة الليبية

قد يحدث أن تؤثر الإعاقة الجسدية لرجل السلطة. ولو كانت هذه الإعاقة بسيطة. على مجرى التاريخ. وهذا ولا شك هو شأن ألم الأسنان الذي أصاب الرائد (الكومندان)

10 أدانت الصحافة الأجنبية بالإجماع ضعف التهمة وظروف المحاكمة. كتب ميشيل لوكري في جريدة ليوموند (العالم). يوم 19/7/1971: "إن كانت هناك مؤامرة وأيا كانت طموحات أصحابها. فإن جزءا من المتأمرين كانت تنقصه الجدية. ولأنهم كانوا يعرضون في النزرة فإنهم كانوا يورطون منظماتهم باستخفاف". وفيما يخص جريدة ليمانيتي (الإنسانية) ليوم 24/6/1971. فإن "هذه المؤامرة هي محاولة جديدة لتصفية المقاومة".

الهوني. وهو الرجل الثاني في مجلس الثورة ووزير الشؤون الخارجية ورئيس المخابرات الليبية. فقد كان على الهوني أن يرحل إلى إسبانيا بداية سنة 1971 ليخضع لعملية جراحية على أسنانه. فقرر عند مروره من المغرب أن يمضي به بضعة أيام. كان يرافقه ساعده الأمين. القبطان محمود الزاكي. وعند مرور الرجلين من فاس استضافهما عامل في محطة البنزين. كان هذا الأخير فرحاً. رغم أنه كان يجهل هوية الرجلين بأن يستقبل لبيبين غداة الإطاحة بالملكية الإدريسية. كان الهدوء يسود وجبة العشاء التي أقيمت تكريماً للبيبين. ففي جو الشك الذي كان يعم حينها المغرب. كانت معايشرة الأجانب تشجع المسارات أكثر مما لو كان الحاضرون من أهل البلد.

وبما أن عامل محطة البنزين شجعه حضور الرجلين اللبيين فإنه صرح لضيافته: "الرجل الوحيد الذي لا زال صالحاً في المغرب هو الفقيه البصري". إنها المرة الأولى التي سمع فيها الرائد (الكومندان) الهوني بهذا الاسم. ولكن الأقدار المتضامنة لا يمكن أن يتجاهل بعضها بعضاً لمدة طويلة.

وبعد مضي بضعة أسابيع. وعند عودته إلى طرابلس. دخل وزير الإعلام البوصيري¹¹ مكتبه. فقد كان أحد معارفه القدماء بالمغرب يود ملاقاته. إنه شخص يدعى البصري. كان اللقاء رأساً لرأس. وكان بداية سلسلة من اللقاءات كان الفقيه البصري قد دشنها من قبل مع محمود في دجنبر من سنة 1970. في ذلك الحين. كان يرافقهما عثمان بناني. ابن خالة محمود وصهر المهدي بن بركة. كان عثمان بناني مكلفاً باتصالات المهدي بن بركة الدبلوماسية في إفريقيا وكانت له علاقات داخل أوساط بعض الحكومات.

وما دام الهوني هو وزير الشؤون الخارجية ورئيس المخابرات. فقد كان المحاور الذي تفضله مختلف حركات التحرر التي تبحث عن المساندة. كانت المهمة تستحوذ على مجمل وقته. إذ منذ إعلان الجمهورية الليبية سنة 1969. كان المجلس الحاكم يساند عدة قضايا. حسب المزاج المتقلب لرعيمة. معمر القذافي. الذي كان يرى في نفسه الوصي على مهمة ثورية هو زعيمها. فكان الفلسطينيون والوطنيون العرب والثوار الأفارقة والجمهوريون الإيرلنديون والإسلاميون يجدون بالتناوب الدعم والمأوى في ليبيا. لم تكن زيارة الفقيه البصري ضرباً من الصدفة. إذ إن قاعدته الخلفية في سوريا أصبحت مهددة بوصول حافظ الأسد إلى السلطة. وكانت الجزائر في عهد بومدين تُبقية بعيداً. والاتصالات الطيبة مع المصريين قد تأخرت في أن تتجسد على مستوى التمويل.

11 سوف يختمني فوق البحر الأبيض المتوسط على متن طائرة مدنية ليبية أسقطتها طائرة مطاردة جوية إسرائيلية.

وهكذا كانت الجمهورية الليبية تبدو الوجه الجديد لأمة قلبت علاقات القوة باسم مذهب سخي تجاه حركات التحرير. وفي الوقت نفسه يتحدى القوى الغربية التي تدافع عن مصالحها ومكتسباتها الجهوية. أعطت الجمهورية الليبية العبرة بخلع نظام ملكي في أفريقيا الشمالية. وهو الأمر الذي ليس بأقل خصالها شأنًا في نظر الثوار المغاربة. الهوني والفقير البصري خُلِقَا إن لكي يتفاهما؛ ولما غادر الفقير البصري مكتب الهوني. كان التنظيم قد أصبح ضيف ليبيا.

السبت 10 يوليو من سنة 1971، الصخيرات

احتفل الحسن الثاني احتفالاً باذخا بعيد ميلاده الثاني والأربعين في قصره بالصخيرات. وبينما ألف ومانتا مدعو ، بلباسهم العادي غير الرسمي، منشغلون داخل حدائق الملك الموجودة بإقامته الصيفية. دخل فجأة العقيد (الكولونيل) امحمد اعابو على رأس صفين من الشاحنات تحمل ألفاً وأربع مائة من الجنود التلاميذ بالمدرسة العسكرية بأهرمومو (رباط الخير حالياً). الساعة الواحدة زوالاً وخمس وأربعون دقيقة. كان الحفل في أوجه داخل الحديقة، إذ بدأ الضيوف في تناول الأطعمة.

أدى ولوج تلاميذ المدرسة العسكرية داخل أسوار القصر إلى تبادل إطلاق النار ذهب بأرواح زهاء المائة¹². فعم الذعر والهلع. ولكن وقع خلاف ما بين العقيد اعابو والجنرال المذبوح اللذين كانا يسيّران معا العملية. الأمر الذي أجهض الإنقلاب. فقتل الأول الثاني. وحول بذلك الأنظار وهو الأمر الذي كان هدية غير منتظرة استغلها الملك ففوض الأمور إلى أوفقيير. استطاع هذا الأخير أن يقلب الوضع في بضع ساعات. كان المشاركون في المؤامرة قد وضعوا لائحة بأسماء وهياكل الحكومة. فباتت الاعتقالات سهلة. أصبح عندها بإمكان الحسن الثاني أن ينتقم. وبعد مرور يومين اثنين. يوم الأربعاء 13 يوليو. أعيد عشرة ضباط من بينهم أربعة جنرالات. وحضر مراسيم الإعدام مثلو الجيش. على رأسهم أوفقيير. كان الرجال الذين يديرون ظهرهم تجاه حائط الإعدام رفاهه في السلاح. فقد كان الجنرال بوكرين رفيقه في الفوج إبان الدراسة بإعادية أزرو. وكذا شأن الجنرال حمو. أخيه في السلاح خلال تعيينه الأول بفيلق الجيش الرابع للقناصين في ثكنة نازة. وكان الجنرال مصطفى والجنرال حبيبي إلى جانبه خلال حملة إيطاليا. وأما العقيد (الكولونيل) الشلواطي فقد لجأ معه من

12 من بين المائة ميت الذين تم إحصاؤهم. 67 معروفون. و33 لم يتم التعرف عليهم أو بدون وثائق من بينهم جنود. تم إحصاء 158 ميتاً ضمن الهاجمين. من بين الموتى المعروفين: طبيبان اثنان للملك. والدير العام لوكالة المغرب العربي للأنباء وسفيران اثنان بدير السباحة ومدير التخطيط ورئيس المحكمة العليا وأربعة جنرالات (الغريباوي والتميشي والبوهالي وعبد الحفي) وثلاث كولونيلات من بينهم بوليمص وقائد (كومندان) ساحة الدار البيضاء (الكي) وحفيد بوكرين وموظفون سامون. ومن بين الجرحى المائة وثلثين. كان حسن الوزاني. الكاتب العام لحزب الديمقراطية الدستورية والذي يترت يده. ومولاي عبد الله. أخ الملك. وثلاث وزراء.

مزارع الأرز بالهند الصينية. وقبل أن يطلق الجنود وابل رصاصهم، صاح أحد المنكل بهم¹³ في أوفقيز: "انتبه يا أوفقيز، فإن الدور المقبل سيكون دورك، لأنني أعرف أنك تفكر كما نفكر نحن".

جاءت من بعيد موجة القهر فدفعت الجيش إلى العصيان. فأجمعت أشد القوات تنوعاً على نقطة واحدة: تنحية المحسن الثاني. كان يوجد ضمن المنكل بهم الرائد (الكومندان) إبراهيم المانوزي، عم الحسين المانوزي. ذلك أنه بعد أن كان طالباً في فرنسا خلال الخمسينيات، أصبح رفيق النمري في الكفاح داخل جيش التحرير الوطني. وبهذا فهو قد عبر طريقاً طويلاً. ومع ذلك فإن مشاركته في الانقلاب ليست بالأمر الواضح تمام الوضوح. فوجئ عند اعتقاله، فوجد نائماً في بيته العائلي. وهو تصرف غريب لا يصدر عن شخص يفترض فيه أنه ساهم في انقلاب فاشل. ولكن يبدو أن سبب تصفيته سبب آخر.

وعند الإعلان عن إعدامه، سوف يكون لأحمد بنجلون، من داخل السجن، رد فعل له دلالة: "عندما سمعت اسم الرائد (الكومندان) المانوزي، مرت بذهني فكرة وكأنها وحي من السماء، في سوريا. عندما كنت أعلم الرمي بقذائف الهاون. كان الحسين المانوزي يقول لي في اندفاع: لنتحدث عن موضوع آخر، إنني أعرف شخصاً آخر سوف يعلمني هذا"¹⁴. ويقدم إبراهيم توضيحاً آخر للدور المفترض للرائد (الكومندان) المانوزي: "في يوم من الأيام، سلمني الفقيه البصري وسلم كذلك عجل قارورات من سم الزرنخ. وطلب من إدخال السم داخل أواني لا تثير الانتباه"¹⁵. وسوف يتم إدخال المشروب القاتل إلى المغرب داخل قارورات عادية من العطر. وفيما يخص الشخص الذي تسلم القارورات، فإن إبراهيم يقول إنه الرائد (الكومندان) المانوزي: "علمت أنه كان يخطط لاستعماله خلال وليمة جمع الضباط الساميين في الجيش. وهم الضباط المعادون للقضية الثورية". هل كان التواطؤ حقيقياً؟ لا شك في ذلك. فمثال انقلاب ليبيا كان قد أصبح له معجبون به داخل صفوف الجيش المغربي. وسوف يؤدي انقلاب الصخيرات إلى موجة من التنقيلات والإعفاءات من الجيش. وموازة مع ذلك، زيد في أجور الجنود. ولكن وعلى وجه الخصوص، وهو المؤشر على حيطة وحذر مطلقين، وضعت مخازن ذخيرة سلاح القوات المسلحة الملكية، والتي باتت متهمّة بإيواء انقلابيين محتملين، وضعت تحت المراقبة المباشرة للدرك الملكي.

13 هو الجنرال بوكرين حسب جبل بيزو، صديقنا الملك، منشورات غاليمار، 1985. وهو الكولونيل الشلواطي حسب ستيفن سميث، أوفقيز مصير مغربي، منشورات كلان ليفي، 1999. انتزعت من المنكل بهم نياشينهم من قبل نظرائهم قبل إعدامهم. بث الإعدام على شاشات التلفزة.

14 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

الأحد 11 يوليوز من سنة 1971. باريس

كان إبراهيم يجلس إلى طاولة في مقهى بالدائرة 15 بباريس. على قرب ميترو ديروك. كان ينتظر الفقيه البصري وإلى جانبه حقيبة جَمَعَ فيها لوازمه الخاصة. إذ قبل ذلك بشهرين. كان الفقيه البصري قد جس نبضه ليتحسس مدى التزامه بالقضية الثورية. فهمَّ إبراهيم حينها أن الأمر لم يعد يتعلق بمضاعفة الاجتماعات وتوزيع المناشير أو تنظيم حفلات صغيرة. كان عليه أن يعلن إن كان مستعدا ليصبح عضوا ثوريا نشيطا. وإن تطلب الأمر ذلك. أن يضحي بحياته. وفي فصل الشتاء. وخلال المؤتمر 13 للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي انعقد بالمغرب. لامس عن قرب العواقب الممكنة لالتزامه السياسي. فمِنذ جَنيد الأطر الشابة داخل صفوف الثوار كانت الشرطة تولي عناية خاصة لأنشطة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. متخذة من أجل ذلك العديد من الإجراءات : اعتقال الأطر والتجنيد للدفاع عن راية البلاد وإقفال دار المغرب بالحي الجامعي بباريس. وهي الدار التي أصبحت تساند نقابة الطلبة .. وبما أن إبراهيم جاء إلى المغرب من أجل المشاركة في مؤتمر النقابة الطلابية. فإنه كاد يُعْتَقَل وشهد العديد من رفاقه "يختفون" داخل مراكز الاعتقال السرية.

فعشية ذلك اليوم عندما وصل من مدينة نانسي. نزل في فندق صغير بمحطة القطار الشمالية. أمضى جزءً من الليل يستعرض تدفقات أفكاره وهو ينظر إلى سقف الغرفة. وحتى يتيقن بأنه قد اختار الاختيار الصحيح. عاود. من أجله هو. استعراض الأسباب العميقة التي دفعته إلى مغادرة رفيقته وابنته. استطاع أن يُقنِع رفيقته بسهولة. فهي مناضلة ماوية. ومن ثمة تفهم دوافعه. ومع ذلك فهو لم يتجرأ على مواجهة فراق رسمي. فقد سلم مفاتيح شقته لصديقه. وطلب منه أن يسلمها إلى رفيقته. والآن. لم يعد هناك شيء يمنع. وكأن الأقدار أرادت أن تسرع قراره. سمع. عشية ذلك اليوم وعلى أمواج الإذاعة. أصداء المحاولة الانقلابية في المغرب.

قطع وصول الفقيه البصري حبل أفكاره. لاحظ إبراهيم عينيه المنتفختين. وأحاسيسه القامة: إنه لم ينم الليلة بأكملها. لا شك أنه أمضى الليلة بين المذيع والهاتف. انتاب إبراهيم شعورٌ بالفضول والحيرة. فانهال على الرجل بالأسئلة حول الانقلاب الفاشل. كان الفقيه البصري يعرف معرفة جيدة المذبوح. وهو الرجل الذي تسبب في موجة من القمع كان الغرض منها خنق "مؤامرة سنة 1963". ولكن يبدو أن الأحداث تجاوزته. فإن كان قصد الانقلابيين واضحا شفافا. فإن حثيئات انقلاب الصخيرات كانت لا تزال غامضة.

ودون شكليات أخرى. وضع الفقيه البصري لإبراهيم قبلته: طرابلس. كانت مهمته هي وضع قاعدة لوجستكية للتنظيم في ليبيا. فقد أطلقت الجمهورية الليبية

الجديدة إعلانا بعرض أثمان يَخص استغلال حقولها النفطية. وكانت كفاءات إبراهيم في مجال الجيولوجيا غطاءً يمكنه أن يتخفى وراءه.

بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة، دخل إبراهيم فندقَ قصر ليبيا الذي كان عندها من أفخر فنادق طرابلس. وفي غرفته، كانت تنتظره عينة من الجرائد والصحف الدولية. زاره في بداية المساء الضابط الذي استقبله في المطار، بلباس مدني. الرائد (الكومندان) منصور، صحبة زميل له. قادتهم سيارة فولزفاغن. وهي السيارة الرسمية لأعضاء مجلس الثورة. إلى ثكنة سوف يعرف إبراهيم فيما بعد أنها ثكنة باب العزيزية، مقر مجلس الثورة. قدم إبراهيم إلى رجلين آخرين كان مرافقاه يعاملانهما باحترام كبير، ولكنهما لم يقدموا له الرجلين ولم يُعرفاه باسميهما.

ورغم صغر سنهما، خمن إبراهيم أنهما عضوان في مجلس الثورة، وسيعرف فيما بعد أنهما المختار الكروي وعبد السلام جلود. وبما أن إبراهيم كان طالباً حركياً شاباً، فإنه لم يشعر إلا قليلاً بأنه قريب من هؤلاء الضباط المتدربين على الصرامة العسكرية، والبعيدون كل البعد عن رغباته النضالية الشغوفة. سرعان ما دار النقاش حول المحاولة الانقلابية في المغرب. اندهش إبراهيم عندما عَلِم أن الليبيين كانوا قد أرسلوا طائرات محاربة على وجه السرعة لمساعدة أولئك الذين يسمونهم "الثوار المغاربة". ولكن، اضطرت الطائرات إلى الرجوع لأن بومدين منعها من الإقلاع عندما حطت فوق التراب الجزائري للتزود بالوقود. أو كان الأمر مجرد دعاية من حكومة شابة تجهل التقاليد الدبلوماسية؟ أم جرأة ثورية حقيقية؟ في تلك اللحظة بالذات، لم يحاول إبراهيم أن يفهم لكثرة ما كانت تبدو له الفكرة سخيفة. ولأن الظرف كان يتجاوزُه فإنه لم يكن يعرف ما الذي يجيب به. ولهذا وحتى يخلق انطباعاً مشرفاً، اكتفى بإظهار خُفْظ يناسب المقام، طلب منه الليبيون حينها أن يترجم بعض المقاطع من ندوة صحافية أدلى بها الحسن الثاني. طلب منه الليبيون أن يترجم إلى العربية: "*Je me fous royalement de Khaddafi, aujourd'hui encore plus*". بالنسبة إلى إبراهيم، فإن مشاكل التواصل مع الليبيين كانت في بدايتها.

رأى إبراهيم أن فندق قصر ليبيا باذخ أكثر من اللازم بالنسبة إلى من يقوم بمهمة سرية، فقرر أن يرحل إلى فندق كليوباترا، وهو الفندق الذي نزل به الفقيه البصري ومحمود قبل بضعة أشهر. استمر يتوصل فيه بانتظام بالصحف الدولية وكذا ببعض المال لقضاء حوائجه اليومية. وعلى العكس من ذلك، لم يعد يصله أي خبر عن المسيرين اللبيين. ولم يعد له أي اتصال بالرائد (الكومندان) موسى. ولم يَظهر كذلك الرجلان اللذان استقبلاه في اليوم الأول: "هل طالني النسيان؟ هل ارتكبت خطأ خلال اللقاءات السابقة؟"

في الحقيقة، لم يطله النسيان . وأما الخطأ فإن الليبيين ما زالوا ينتظرون من إبراهيم أن يرتكبه، إنه في فترة ملاحظة. وسوف تدوم هذه الفترة شهرين. شهران فرض إبراهيم خلالهما على نفسه سريةً وتكتما مطلقين. فكان يتفادى كل اتصال ليتجنب بذلك الأسئلة التي لا مفر منها والتي تخص هويته وسبب زيارته إلى طرابلس. قلل من تنقلاته إلى أقصى حد ممكن. فكان يمضي مجمل وقته في غرفته بالفندق يقرأ الروايات ويستمتع إلى بوريس فيان. فهو ما كاد يخرج من هرج ومرج الشباب حتى وجد نفسه مجبرا على لزوم عدم الحركة لزوماً لا يطاق. تفاقم منه ضرورة عدم مغادرة محل إقامته. وبما أنه سجين داخل قيود العمل السري، معزول عن العالم الخارجي، فإنه كان يعدد أياما لا تنتهي في انتظار أن يحدث شيء. وخفت من وطأة هذه الوحدة صدافةً عابرة مع الدكتور أبي صادق، الكاتب العام لجبهة التحرير الوطني للشهاد، وهو رجل لطيف بشوش، تعرف عليه بواسطة زوجته، وهي شابة بشوشة مرحة. قال إبراهيم في داخله، وكأنه يريد أن يبرر لنفسه هو هذا الإخلال بواجب التكتيم بأن الدكتور أبو صادق ليس عربيا. على أية حال، وليس هناك من خطر للتسرب. أصبح رفيق ظروفٍ معينة هذا فيما بعد وزيرا في بلده.

وفي شهر شتنبر وصل الفقيه البصري إلى طرابلس. ولأن إبراهيم مل الانتظار الذي امتد وطال إلى ما لا نهاية له، فإنه استقبل قدوم الفقيه البصري وكأنه خيرٌ وتخليص له. قدمه الفقيه البصري توا إلى وزير الإعلام البوصيري ورئيس ديوانه جامع الفزاني والرائد (الكومندان) الهوني.

ولأن إبراهيم شجعتة عودة الاتصالات، فإنه وظف كل طاقته لإجاز مهمته. لدرجة أن الليبيين سرعان ما أطلقوا عليه اسما مستعاراً: واحد اثنان ثلاثة. وبالفعل فإن إبراهيم، الذي كان همه هو تلخيص طلباته وتخديدها تحديدا دقيقا، كان قد اعتاد على ترقيم كلامه بتعداد مختصر: أولا وثانيا وثالثا. ومن ثمة جاء لقبه، في ذهن إبراهيم، لم يكن الغرض هو الزيادة في فعالية طلباته بقدر ما كان هو الاقتصاد في وقت محاوريه. من وزراء وموظفين سامين، الوقت الذي كان يظنه ثمينا جدا. والحال أن الليبيين كانوا يجدون لذة خاصة في الحشو والإطناب في موضوع الثورة كمقدمة للنقاشات العملية. كان الوزراء وكتاب الدولة يتركون أبواب مكاتبهم مفتوحة، وكأنهم بذلك يدعون المارة إلى الحديث إليهم. وهكذا ودون أن يعلم إبراهيم بالأمر، فإنه كان يحرمهم من وسيلتهم المفضلة في قضاء الوقت.

كان شخص واحد يتميز داخل مجلس الثورة : الرائد (الكومندان) الهوني¹⁷. كان في الثلاثينات من عمره، وكان شخصية لا نظير لها في صفوف الثوار الليبيين. كان

17 سنة 1975. أبدي حفظا في علاقته مع القذافي وفضل المنفى إلى مصر. ويوم 5 شتنبر من سنة 2000. عاد وربط علاقات ثانية مع طرابلس. فكان له أن أصبح ممثل ليبيا في الجامعة العربية.

يفضل اللباس المدني على اللباس العسكري. ويعتني عناية خاصة بمظهره. كان مكتبه مغلقا دائما لدرجة أن الحوارات كانت تجري بداخله على انفراد. زد على ذلك أنه كان لا يشتغل إلا ليلا.

سرعان ما أصبح الهوني وإبراهيم صديقين. فقد اعتاد الهوني. على الساعة السادسة مساء وقبل أن يذهب إلى مكتبه. أن يزور الشاب المغربي الذي بات يسكن في الطابق السفلي من فيلا في شارع ابن عاشور بحي إقامة بطرابلس. أصبحت العادة طقسا من الطقوس. كان خلاله الضابط الليبي يُحضر عينة من الصحف الفرنسية ليجرّم له إبراهيم افتتاحياتها. وكان التمرين يوحي له كل مرة بتعلم لغة موليير. كان اجتهاده ومنابرته على تعلم اللغة الفرنسية. رغم أنه لم يكن مواظبا عليها بانتظام. قد جعل البعض يطلق عليه لقب "التلميذ" في لغة الثوار المغاربة المشفرة.

الجمعة 17 شتنبر من سنة 1971، محاكمة مراکش

نطق قاضي المحكمة بخمسة أحكام إعدام منها أربعة غيابيا. وستة أحكام بالسجن المؤبد وأزيد من مائة حكم تتراوح ما بين الحبس سنتين اثنتين وثلاثين سنة. في المغرب. هذه الأحكام تُعتبر ضربا من العفو. أنقذت المحاولة الانقلابية للصخيرات ماء وجه العديد من المناضلين ما جعل المحكمة أكثر حلما. ففي تلك الفترة المضطربة. كان القصر الملكي ينوي تخفيف الخناق على الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وفعلت براعة عبد الرحيم بوعبيد الباقي. كان سعيد بونعيلات الوحيد في قفص الاتهام الذي حُكم عليه بالإعدام. وحُكم على الفقيه البصري وبوراس وعباس سباطة والحسين المانوزي بالإعدام غيابيا. وبالنسبة إلى اليزيد وأحمد بنجلون. طالبت النيابة العامة بالإعدام. ولكن حُكم عليهما بعشر سنوات سجنا. وحُكم على الكوار بالحبس خمس سنوات. وعلى توفيق الإدريسي بأربع سنوات غير نافذة. وبرّء زهاء الخمسين متهما. من بينهم عبد الرحمن اليوسفي ومحمد اليازغي والمهدي العلوي.

انتهى الفصل القضائي-السياسي الذي يعلن [رسميا] فشل التنظيم. وأما خاتمته فستقوم على تصفية الحسابات.

إذ سرعان ما تم التعرف على الخبير الواشي في سوريا. إنه مناضل تدرّب في عين البيضاء واسمه الورادي. وصل مع مجموعة دهبكون. وكان يتظاهر بأنه مثقف ماركسي. ويتظاهر بضعف بنيته ليستغل فترات نقاهته المصطنعة لتحريّر تقاريره المفصلة وملاحظاته اليومية. تقارير كان يبعث بها إلى المخابرات المغربية. ولا شك أنه وجد في نفسه موهبة ناشئة ليصبح كاتباً فأصدر كتاباً عنونه بالأغلبية الصامتة

يسرد فيه إنجازاته. وقد انتاب دهكون. إذ كان هو الذي جنده. استياءً وغيظ عميقان. ولأن عليه ضمان أمان الشبكة. فقد حاول تصفيته بسلا في دجنبر من سنة 1972. ولكن الورادي لم تقتله جراحه. أما المناضي. "مخبر" مراكش. فلن يكون له الحظ نفسه. وهكذا فإن "الزائر"¹⁸ الذي بعث به دهكون أصاب الهدف منذ الضربة الأولى. يوم 7 يوليوز من سنة 1972. وهكذا لحق المناضي ما لحق. سنةً من قبل. عميلاً آخر للمخابرات. كان الغربي الميلودي يَعْبُر كل أسبوع الحدود ليتاجر مع الجزائر. ولكن أمراً بسيطاً أثار انتباه المفتش رمسيس: كان جواز سفره لا يحمل أي خاتم. وهو الأمر الذي كان نادراً قليلاً. فحير المفتش الذي أخبر رئيسه المباشر العميد التانوتي. كان المفتش رمسيس والعميد التانوتي مراسلين للتنظيم. فاستدعيا "المشكوك فيه" لإتمام التحقيق. ولأن الغربي الميلودي لم يشك في أن الأمر لا يعدو أن يكون عملية روتينية. فإنه. وهو يقصد ولا شك بذلك أن يختصر التحقيق. كَشَف عن مهمته كعميل للمخابرات المغربية. اندهش التانوتي لهذه السذاجة كلها فابتسم ابتسامة إعجاب. وشجعه. وهو يتظاهر بالتواطؤ معه. على أن يواصل البوح بأسراره:

— جواز السفر؟ أعطاه له العقيد (الكولونيل) الشلواطي (عامل "رجل سلطة يوجد على رأس عمالة" ومتأمر مستقبلاً في انقلاب الصخيرات).

— اعتقال سيدي حمو وشبكة مهربي الرجال بوجدة؟ بالطبع كان الرجل يعلم. إذ صرح متعجرفاً بأنه هو نفسه الذي أرشد الدرك.

هل هناك عمليات أخرى جارية؟ بكل تأكيد. فهو الآن يحاول أن يتسرب داخل محيط الحسين الحضار بوهران قصد اختطافه.

لم يكن للميلودي الغربي الوقت الكافي لتنفيذ خطته. فقد قُتِل بعد بضعة أيام في زقاق بوجدة. في ليلة غير مقيمة.

النقد الذاتي

بعد فشل التنظيم. بدأت أولى عمليات مغادرته. وهكذا تلقن بوراس درسا كان يريده أن يكون الدرس الأخير: ففي رسالة مطولة بعث بها إلى الفقيه البصري. عرض أسباب تخليه عن التنظيم: هناك هواية مفرطة وتسرع مفرط وأرجال مفرط. وأما محمود. وهو العارف بالأمر أكثر من أي شخص آخر. فقد كان يعرف مدى الخراب الذي طال التنظيم. كم من الشباب الذين لا تجربة لهم جُنَدوا لتنفيذ مهام لم يتم إعدادهم لها أحسن إعداد؟ وكم من الأعضاء ألقوا بأنفسهم في فم الذئب لأنهم لم يحتاطوا الاحتياط الكافي؟ كانت التساؤلات كثيرة نظراً لاستحالة القبول باستشهاد هؤلاء الشباب. لقد بات التساؤل يهم سوء استعمال التضحية البشرية.

18 اعتُقل هذا الزائر. الدعو الخياري. وحُكِم عليه بالإعدام في مارس من سنة 1973. ولم يُطبق فيه الحكم بالإعدام.

كان الفقيه البصري يجهل الوسائل التقنية لحرب العصابات. ومحمود كان يعلم ذلك. فكان يصحح الهفوات. ولأنه شفاف لا يتسامح. فإنه استعرض الخيارات والامكانات الاستراتيجية وخلصها الواحدة تلو الأخرى من أغلالها وقيودها البالية.

تمخض عن تحليله النقدي رسالة من زهاء العشر صفحات موجهة إلى الفقيه البصري بتاريخ 7 غشت 1971¹⁹. كتابتها الرقيقة ترسم فكرا كريما سخيا لا مجاملة فيه. شرح فيها الثقل التنظيمي للتنظيم وغياب الشفافية وهما الأمران اللذان يميزان قرارات البصري: “ (...) طالما حافظنا على شكل تنظيمنا الحالي فلن يكون بمقدورنا تتبع إيقاع الأحداث .. إن فكرة “الضغط على البوطونات” وهم في هذه الحالة كحالات عديدة أخرى. لأن ما لدينا من إمكانيات. وليس هنا فقط. هو دون تحقيق هذا الشعار”. أدى التنظيم ثَمَنَ نقص الفعالية هذا غالبا عندما ضيع الفرص: “ (...) عدم حركتنا في هذا الوقت بالذات غلطة لا تغفر بل نحاسب عليها. (...) إن أحداث 10 7 وما نتج عنها من وضع ناضج لخوض معركة الانتفاضة المسلحة. وعجز عن أخذ زمام المبادرة والإستفادة من عجز الحكم ليست هي أول مرة نقف فيها متفرجين على الأحداث التي تهز المغرب ..”. قادت هذه الملاحظة محمود إلى وضع حصيلة صارمة للمنظمة التي كان عيبها كذلك. في نظره. أنها لا تملك رؤية سياسية: “أما ما نقوم به اليوم نظرا لواقعنا وأساليبنا فليس من الممكن أن نعتبره بداية العمل الثوري ولا حرب التحرير الشعبية (...) وإلا فلن يكون سوى شعل نار الفتنة وتمكين إحدى الطبقات المستغلة من السيطرة على السلطة”. أما العقاب المحتملة لاستراتيجية الزعزعة هذه. والتي تفتقد إلى رؤية سياسية. فيمكن توقعها وهي “تمكين إحدى الطبقات المستغلة من السيطرة على السلطة. (...) فإننا [لا] نعمل سوى على تعويض حكم فاسد بما قد يكون أفسد منه”. ويتخلل هذا التحليل الاستراتيجي الوقوف على عدم احتراز التنظيم وافتراده لنظرة بعيدة المدى. ومن هنا ذلك النقد الذاتي الطويل. والذي يريد أن يكون وفي الآن نفسه. وقوفا على الحصيلة وتحليلا للوضع السياسي. تحليل يحدد في نهايته محمود المهام التي يجب القيام بها فورا: “ومن المؤكد أن المطلوب ليس هو عدم ضياع الوقت فقط ولكن إعادة تقييم الوضع من جديد وبسرعة (...) إن الذي يحول بيننا وبين العمل حاليا هو السلاح والعلاقة مع الداخل. لهذا يجب التعجيل بمهمة ليبيا لتزودنا بالسلاح. واستقدام الرفاق من الشرق وإعطائنا موعدا جديدا مع عبد السلام” (وهو الاسم المستعار لحسين آيت الزايد. إطار تكون في الزيداني سُرِب إلى الأطلس²⁰).

إنه خط العمل الذي تجلّى منه عقيدة محمود. الإيمان بثورة شعبية من أسفل. تعتمد على المناطق المحرومة النائية: “أما الجناح العسكري فإن الاعتقالات تبين أن أغلبية المعتقلين من الفلاحين وهذه نسبة تعكس الوضع الاقتصادي والاجتماعي الصحيح للبلاد

19 توجد في ملحق الكتاب.

20 الحسين آيت الزايد. المعروف بعبد السلام. سوف يُعدم في القنيطرة يوم فاخ نونبر من سنة 1973.

وجعل من اختيار الحرب الشعبية الطويلة النفس اختيارا صحيحا. مع أن الشكل الذي نظم عليه الإخوان في البداية ظهر (...) أنه فيه انحراف. وأن المسؤولين كانوا لا يدركون شكل العمل المطلوب منهم حقيقته“.

كان لمدسة المادية التاريخية في ألمانيا الشرقية وقعها. ولكن إن كانت الأخطاء الإستراتيجية والتنظيمية قد تم التعرف عليها وتحليلها. فإن ضعف الشبكة داخل المغرب سوف يحتاج إلى بعض الوقت للوقوف عليه. إذ إن التنظيم بالغ في تقييم قدرة تأطير الحزب. وبسبب الزيغ وعدم التبصر أو بسبب تقديس إيديولوجي أعمى. زين الواقع إلى درجة أن المجاملة السلبية من قِبَل بعض المسؤولين الإداريين كانت تفهم على أنها التزام نشيط بقضية التنظيم. وكان غليان الإنتفاضة الذي يصفه الفاعلون بالداخل. والذين ولا محالة أفرحتهم نشوة الحمى النضالية. يبدو أنه كان من وحي الجدلية أكثر مما كان من وحي واقع الأحداث.

وأمام بقايا أشلاء الحلم الثوري. اكتشف محمود شعبا. بعد عقد من الاستقلال. عاد إلى قرون الاستعباد الإقطاعي. قال الفرشي بعد أن لجأ من برائن الشرطة والقوات المساعدة: “إن الشعب قد غاص في جمود وشلل يتناقضان تناقضا مع الجهود الثورية“.

هل استسلم الشعب؟ لا شك في أن قبوله المستسلم يشهد على قوة نظام أصبح خبيرا في فن اللعب بالقمع والمحسوبية. بمباركة من إدارة انتخبها هو نفسه وأفسدها هو نفسه. كان هذا النظام. وهو بكل تأكيد أحد النماذج الكاملة والمكتملة للاستبداد. يحمل اسما. إنه الخزن. ولأن الشعب قد غرق غرقا في منحرجات الفكر الوحيد. ولأنه رُوض على الخوف والنفاق. فإنه دُعِيَ إلى مباركة استلابه وكأنه الحاجز الذي يمنع زلزال الحرية. إن هذا الجمود والحمول. اللذين أغرق فيهما الخزن الشعب. والذي بدا وكأنه لا يطمح إلا إلى الراحة النسبية والهشة التي يسمح بها استعباده. قد أريكا إذن نوايا المناضلين. وهي النوايا المليئة بالحبّة والإيثار بكل تأكيد ولكنها نوايا لا حول لها ولا قوة أمام هاته المناهة الإيديولوجية. ولكن ما هو الشعب إن لم يكن هو الفاعل الأساس. والخفي. لجرى التاريخ؟ وبما أن غياب روح المواطنة أصبح سبيلا للعيش. ألم يكن بالضبط واجب الحزب هو أن يعلم الشعب ويقوده؟

تفسر هذه الحصيلة اللطيفة بلا شك سبب خمس محمود خمسا متواضعا للإستراتيجية التي كانت تهدف إلى إعطاء الأولوية للعمل السياسي. فهو كان يعرف أن النخب السياسية والاقتصادية التي أصبحت ترتاح في عبودية مذهب ترى في الثورة حماقة قاتلة.

ولأن محمود كان يحب المطالعة والتاريخ حبا جما. فإنه سطر من جديد مسار الفرصة الضائعة. فبعد أن فقد الخزن مصداقيته بعد أن ابتز [خيرات] البلد. أنقذته الحماية الفرنسية التي زودته ببنيات عصرية. كان هدفها من ذلك صريحا وهو إسباغ

المشروعية على تواجدها بالمغرب. وبعد ذلك، أَلَمْ تعمل الحركة الوطنية نفسها. نظراً لغياب رؤية سياسية عندها. على إعادة الشباب إلى الخزن غداة الاستقلال؟ كم تبقى من الوقت قبل أن تنمحي نهائياً كل قدرة على المقاومة المعنوية والمادية؟ انتابت محمود القناعة بأن الثورة وحدها يمكنها القضاء على الخزن والسماح بميلاد المغرب العصري. الذي تخلص من طقوسه المتقادمة التي تعود إلى العصور الوسطى. وأمام الطريق المسدود. اختار العمل الثوري. ذلك العمل الذي سوف يدفع بالظروف المواتية إلى الظهور. كان هذا طموحاً عالياً سامياً في نظره. فلا يقبل أن يقلل من شأنه فشلاً عزم على أن يستخرج منه الدروس والعبر.

كان محمود يعرف أن الظروف ملائمة لقلب الوضع. رغم كارثة عملية 1969. فقد كانت التقارير القادمة من الداخل. وخاصة بعد انقلاب الصخيرات. تعزز هذا الإحساس. قرر محمود. بعد أن تشاور مع المقربين منه. أن يعود لتسيير التنظيم. وهكذا. فقد اشتبك مصير التنظيم بمصيره.

المواقع المتقدمة. وهران

كان الإحساس الذي يبعثه الماضي في ساهر ما زال حياً. في بيت الفرشي بالدار البيضاء. حيث التقيته سنة 1996. كان يستعرض مدققاً مشاهد من الماضي. لم يكن في ساهر. الذي يُطلق عليه بحنان لقب "الجميل" نظراً لقامته الطويلة المديدة. شيء من المناضل الملتوي. إنه شخص يتعلق به كل مَنْ يعاشره. تعلو وجهه ابتسامة مرحة ولا مبالاة ساخرة بالظروف المناكفة. كان هذا المرح الذي يدعو إلى الاستسلام يخفي حينها الشر الذي سوف يذهب به بعد بضعة شهور. وُلد ساهر بفاس. وأصله من فيكنيك. كان تاجراً صغيراً. التحق بالإتحاد الوطني للقوات الشعبية خلال المقاومة. وهاهو يكتفي بأن يذكر حتى يعطي الدليل على التزامه النضالي: "رافقت المهدي بن بركة خلال جولة قام بها بين وجدة وقصر السوق (الراشيدية اليوم)". جرفته اعتقالات سنة 1963. وأطلق سراحه بعد شهر من الاعتقال. فقد اكتفى وبكل بساطة بعدم الجواب عندما نطّق اسمه واكتفى بالتوقيع على المحاضر باسم مستعار. ولما استعاد ساهر حريته الهشة الموهنة بهوية من صنع خياله. قرر مغادرة البلد لِيَسْلَمَ نهائياً من قبضة البوليس. وانطلاقاً من باريس. قادته طريق المنفى إلى وهران بالجزائر. فاستقر بها. وهاهو ساهر يتذكر: "استقر محمود بوهان بداية صيف سنة 1971. هناك التقيته أول مرة"²¹. في ذلك الحين. كان أعضاء التنظيم الناجون قد لجؤوا إلى باريس والجزائر العاصمة ودمشق. أو غاصوا في السرية في المغرب. في حين كان الفقيه البصري يجول من عاصمة إلى أخرى ويعدد جنوده. كان التوتر قد

21 حوار للمؤلف مع العربي الفيكيكي. المعروف بساهر.

بلغ أوجه في كل مكان. فأينما حل القياديون الثوريون، كانوا يعرفون بأنهم مطاردون. فقد باتت مطلوبة رؤوس الفقيه البصري ومحمود²² ودهكون وسيدي حمو والنمري. وهما هو التانوتي. أحد أهم مزودي التنظيم بالأخبار من داخل مصالح أوفقيبر يشهد على كثرة ووفرة الوسائل الموظفة: "كان عدد كبير من الطلبة المغاربة في الخارج مخبرين، فمقابل أن يتسلموا جواز سفر كان يفتح لهم أبواب الخارج. كان عليهم أن يقدموا تقارير منتظمة عنم يعاشرهم. وكانت هذه التقارير تصل بعد ذلك إلى مكنتي في شكل إخطار بالبحث. وقبل اعتقالي بقليل، كانت الأنظار قد تركزت على وهران. فسريت مصالحي مختصا بالراديو إلى وهران²³".

كان أوفقيبر صائبا. ففي وهران، ارجل التنظيم قاعدته الرئيسية في حالة التراجع. ولكن وهران أصبحت أكثر من نقطة للتراجع. باتت ورشة واسعة لتعداد الخلايا السرية وإعادة تنظيمها. وجد فيها محمود العديد من الأطر الثورية التي سرت خارج المغرب. من بينهم دهكون الذي وصل يوم 24 أبريل من سنة 1971. وكما هي عادته، أعاد محمود هيكلته شبكته انطلاقا من نواة الأطر الموثوق فيها والمتمرسة. وفيما يخص تجنيد المناضلين الجدد، فقد كان له رأيه الذي تجده في رسالته التي بعث بها إلى الفقيه البصري: "أما بالنسبة للإخوان المراسلين وأصحاب العبور (...) فإن الأمر مختلط عندهم ما بين "عمل وطني" و "تهريب"، ما بين طموح في الوصول ورغبة في الاستفادة. (...) ليس هؤلاء الناس مناضلين ما دام البقشيش هو الرابط. وأسلوب الترضية سائدا وعقلية الولاء كامنة في نخاعهم وما إلى ذلك من روااسب مجتمع الإقطاع .. إن كانت الضرورة تقتضي التعامل مع هؤلاء الإخوان فلذلك حدوده ولم يخدم نوعهم المنظمة بأمانة واستماتة ما دام لم يصبح أحد مناضليها. إنهم في الحقيقة تربة خصبة لتكوين مناضلين أشداء في الميدان المسلح على أساس أن تنقلب العلاقة معهم رأسا على عقب وأن تخضع للمقاييس النضالية الحقبة .."

وعند عودة الفرشي إلى وهران، احتفظ بذكرى دقيقة عن لقائه بمحمود. فقد علمته التجارب الحيفة والحذر، وهي الصفة التي باتت مزروعة في أعماق روحه الأليمة وفي ذكريات فترة كانت الصداقات تقاس فيها بحسن الاضطرابات والعواصف: "عرفت الفقيه البصري سنة 1953 خلال الكفاح السري بالدار البيضاء. كان قد جاء من الجنوب كما هو شأننا كذلك"²⁴. ما زال الفرشي يحتفظ في ذاكرته بصورة خيال رجل يرتدي جلبابا، رأسه يغطيه طربوش. يتنقل به رجال الشرطة الفرنسية من مقهى إلى آخر. فقد كان رفيقه عبد الرحمن الصحراوي قد اعتقل في اليوم الموالي. ولما جوبه بالرجل

22 في المغرب، اختطف الأخ الأكبر لمحمود، عبد الواحد بنونة، موظف بمصلحة الموظفين بوزارة الشؤون الخارجية. في مارس من سنة 1971. ورغم أنه كان مجهول تفاصيل أنشطته أخيه، فإنه عذب طيلة ستة أشهر بدار المقر بالرباط. عرف المصير نفسه غارب القياديين الثوريين الآخرين. كما هو شأن دهكون.

23 حوار للمؤلف مع محمد التانوتي.

24 حوار للمؤلف مع عمر الناصر المعروف بالفرشي.

الذي يختبئ تحت الجلباب. عرف بأنه الفقيه البصري. عِلِمَ ذلك الفرشي مباشرة بعد الهروب الخارق ولكن العابر لرفيقه. ولما اعتقل ثانية في فاس وهو هارب نحو الشمال. شرب الصحراوي السم فمات. "الحرية أو الموت". كان هذا هو شعار المقاومين الذي لم يكن مجرد كلام عابر، بل كان الشعار الذي يشهد على روح التضحية التي زادت بها رفعةً وسمواً رغبةً مطلقةً في الحرية.

ما يبقى في الذاكرة لا ينمحي. وسوف يوظف محمود كل فكره المنهجي والعقلاني ليَقنع الساعد الأيمن لشيخ العرب بأن يساعده. هو الذي لم يكن له نظيره في حل خيوط الفتنة والذي كان صوته الهادئ وغير المندفع كافياً لإرجاع الثقة إلى النفوس. كان عليه أن يمضي عدة أيام لبيد الشك الذي استحوذ على الفرشي. فبالنسبة إلى الرجل الذي لجأ والذي ما فتئ يعاود النضال. فإن المسيرة التاريخية التي لا رجعة فيها. والتي سطرها منطق الثورة. المنطق الواضح السلس الذي لا يمكن دحضه. قد تسرب إليها شيء من الخداع والغدر. ولكن استقامة محمود الصارمة سوف تَقنع في نهاية المطاف الفرشي. فبالنسبة إليه. كان هذا العربيون أمراً أساسياً. ذلك أن الدساتير قد جعلت من النضال الصادق لعبةً سياسية ليس إلا.

وأما ساعة. الذي كان من رجال المقاومة الأوائل والمساعد السابق لقائد (رجل سلطة) كلميم. فلم يكن أقل خوفاً. فهو قد غادر السجن يوم فاتح أكتوبر من سنة 1965. بعد أن قضى عقوبة الحبس أربع سنوات. فأصبح بذلك. وسنه خمس وأربعين سنة. يبدو من الأعيان الهائنين. وتعددت الاتصالات. فرحل مرتين إلى وهران. انتصرت حيطته وحذره. وعند زيارته الثالثة إلى وهران. نهاية سنة 1971. التقى بمحمود. فقد أحضره محمود ليستفسره عن استعداداته الفكرية. وبعد أن وضع الرجلان طويلاً الأمور. توصلا إلى اتفاق: اتفاقاً على تنظيم خلايا فيكيك والدواوير الحدودية ونقط العبور ومخابئ الأسلحة. وسرعان ما بدأ السلاح يتسرب: حمولة واحدة في البداية. ثم حمولتان. ثم ثلاثة. كان الفرشي وساهر ينسقان شبكات رجال العبور. وعلى العكس من ذلك. عارض ساعة أن يسافر مناضلو فيكيك للتدرب بالخارج. فقد عارض قائلاً: "سوف تعلم كل المنطقة بالخبر". وكما هي عادة ساعة بصفته رجل الظل. فإنه لم يكن يستحسن إلا نسبياً الهيجان الآتي من الخارج. استبق محمود الأحداث: مناضلو فيكيك سوف يدربهم في عين المكان مدربون يتم تسريبهم إلى داخل البلاد.

ومن لقاءات ملؤها الانتقاد إلى أحاديث تتبادل فيها الأسرار. ومن محاولات تحقيق أمور إلى تحقيقها فعلاً. تم وضعُ بؤادر تنظيم جديد. إنه تقدم متواضع بكل تأكيد. ولكنه تقدم مكن من انبعاث أمل المناضلين الذي قضى عليه الفشل. فأخذ يرى ثانية المستقبل أكثر إشراقاً.

تلاقٍ وتلاحم في الأطلس

وعند نهاية صيف سنة 1971، أرسل محمود رسولا إلى الرباط. إنه الحسين آيت الزايد، المعروف بعبد السلام، إنه رجل الاتصال الذي تحدث عنه في رسالته إلى الفقيه البصري. تكون الحسين آيت زايد في سوريا والتحقيق سرا بالمغرب ليحيط الرجال في الأطلس. ولما وصل حيث كان عليه الوصول أخذ ينتظر طبقاً للأوامر التي تلقاها. الأوامر الأخرى التي سوف تصل. ولكن الانهزام والتشتت خلخل مهمته، التي باتت حينها "نائمة". وعند وصوله إلى الرباط، كان رجل الاتصال "النائم" الذي أبقظه محمود، يحمل رسالة إلى سيدي حمو. وأما مضمون الرسالة فكان أمراً بالتراجع. وحسب مناضل من خنيفرة، فإن: "سيدي حمو واثنين من رجاله نزلا عندي بخنيفرة. بعد أن غادرا الرباط. أخبرني الحسين آيت زايد بوصولهما. استقر واحد في خنيفرة لتنظيم شبكة سرية في المنطقة. في حين أن سيدي حمو والرجل الثاني واصلا طريقهما إلى تنغير"²⁵. ولما علمت الشرطة بحضورهما، سرعان ما أخذت تطارد سيدي حمو. ولكن الأسطورة لم تكن إلا في بدايتها. فقد كان شبيخ تنغير، الذي وصل عنده ضباط الشرطة الذين بعثت بهم الرباط ليستقصوا الأخبار عن وجود سيدي حمو، كان صديقا من الأصدقاء. فبينما هو يستقبل البوليس ويقدم لهم الشاي كما جرت العادة، انسل رسول من الباب الخلفي وأخطر سيدي حمو الذي فر لتوه. وقد كان محمود يقصد بالأمر الذي أعطاه لسيدي حمو أن يلجأ إلى الأطلس هدفا مزدوجا. إذ كان القصد هو حماية مجموعة الرباط وفي الوقت نفسه خلق ترابط مع النمري.

فقد دخل هذا الأخير مستوحيا ذلك من أصله الذي يعود إلى البدو الرحل. إلى التراب المغربي. يوم الاثنين 17 من شهر أكتوبر من سنة 1971، عبر النيف. وهي قرية صغيرة في الصحراء على الحدود، على ظهر جمل. وكما كان الشأن يوم إنجازاته الكبيرة مع جيش التحرير الوطني - منطقة الجنوب. فإن المطيتين اللتين تتبعانه كانتا محملتين بصناديق السلاح والذخيرة. وأما الجمل الرابع، فكان يمتطيه إطار تكون في سوريا كان عضوا في المجموعة التي أرسلها اليزيد، قبل سنة من ذلك، لملء الفراغ الذي كان يعرفه جنوب المغرب.

قادت خطوات الجمال المتوازنة وغير المبالية النمري ورفيقه إلى قصر إيزوريز على طريق زاكورة. كان ينتظرهما رجل الاتصال الحسين آيت زايد. وكان يرافقه مناضل آخر. ناقل أسلحة التنظيم في المنطقة²⁶. قاد الرجلان النمري ورفيقه عبر التلال التي

25 حوار للمؤلف مع أحمد بويقيا.

26 بهم الأمر سالم أومسعود الذي مات تحت التعذيب سنة 1973.

ينيرها بريق النجوم. متفاديين بدقة الطرق المطروقة. وعند الفجر. وصلوا إلى مريبط يشرف عليه متعاطفون. فأَمْضَوْا به اليوم. وبعد سبع ليالٍ. وصلت القافلة الصغيرة إلى آيت شعيب قرب تنغير. حيث كان ينتظرها سيدي حمو. ولكن فصل الشتاء حل مبكرا سنة 1971. فقد أخذت الثلوج الأولى تتساقط. وأغلقت منفذ العبور إلى خنيفرة عبر الممر الجبلي المجاور لإملشيل. وكان الانتقال عبر السهل فيه مخاطرة كبيرة. كان على النمري إذن أن ينتظر عدة أسابيع قبل بلوغ قبيلته. ومباشرة بعد بداية ذوبان الثلوج الأولى. وعلى ظهر بغل. وسيلة تنقل أهل الجبال. وبتواطؤ مع الخلايا السرية في الأطلس الكبير. وصل النمري إلى خنيفرة. يقوده دائما الحسين آيت زايد. التحق به بعد شهر من ذلك سيدي حمو ورجاله. إذ تكلف بالعمل على أن يعبر الأطلس الكبير زايد وأوميدو. قائد خلية سرية بإملشيل. ومع ذلك. وفيما يخص النمري. فإن خنيفرة لم تكن سوى محطة عبور. إذ كانت قبيلته الأخيرة هي سوس حيث ينتظره مناصروه. وجلهم رفاق سلاح سابقون في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. كان هدفه هو النجاح حيث فشل اليزيد سنة قبل ذلك.

أمدة. الجسور

أُعيدَ الجنرال حمو يومان بعد انقلاب الصخيرات. وكان لهذا الحدث بالغ الأثر في منطقة خنيفرة. فقد كان الجنرال من بين أعيان المنطقة المقدرين والمحترمين. كانت الساكنة بالغة الانفعال. وكانت الأحقاد والتظلمات تروج بأصوات منخفضة داخل بيوت "أولئك الذين يُضرب لهم الحساب". وقبل شهور من ذلك. في دجنبر من سنة 1970. ثار الفلاحون في أولاد خليفة في الغرب. وسرعان ما قمعت ثورتهم قوات التدخل المتحركة التي خلفت على الأقل سنة موتى وراءها. كان حقد الفلاحين الصغار على الفيودالين ومنتزعي الأراضي من أصحابها. إضافة إلى الإهانات التي طالت الجيش الذي بات متهما بالنزوع إلى الانقلاب. كان كل هذا يشكل أولى بوادر الإضطرابات.

كانت خنيفرة في ذلك العهد تضم 10 000 نسمة. فأصبحت بؤرة ثورية كامنة على الخريطة الإستراتيجية للتنظيم. ولربما هذا ما أقنع محمود بأن يرسل إليها النمري وسيدي حمو. كانت مهمتهما هي إعادة تنظيم الشبكات السرية وإعدادها لاستقبال الأوامر بشن القتال. وأما أمدة الذي جاء مع سيدي حمو فإنه خنيفري الأصل. وهو بالتأكيد المؤهل أكثر للاتصال بالسكان. فقد سُرِب هذا العضو السابق في القوات المساعدة والذي تكون في الزيداني. انطلاقا من إسبانيا. ليظهر في الرباط

سالما معافى. ثم التحق به بعد وقت قصير سيدي حمو. الذي لجأ في الظروف التي سبق ذكرها.

كان أمددة يملك بنية المقاتل الذي لا يُقهر. وكان يبدو قادرا على اجتياز كل التجارب. وهامو صهره يصفه بأنه رجل هادئ ولكنه جسور مجازف. ففي سنة 1954، كانوا يقومون بعمليات تخريبية ضد المصالح الفرنسية: "في إحدى الأمسيات، قادني خارج بيتي بعد وليمة عشاء. كنا نمشي تحت سماء تضيؤها آلاف النجوم. اعتقدت أن الأمر لا يعدو أن يكون جولةً للهضم. عندما سألتني بعد أن مشينا حوالي المائة متر: — هل تعرف ما الذي سنفعله الآن؟ —

— سوف نذهب لإشعال النار في الحطة الطرقية لخنيفرة²⁷.

كانت هذه هي طريقته العفوية وغير المبالية للقيام بعمليات الهدم والتخريب. "قادني إلى المكان الذي وضع فيه المتفجرات والبنزين. ولما اشتعلت النيران في الحطة الطرقية، كنا قد ابتعدنا عن عين المكان بأزيد من كيلومتر. كنا نجري منذ بضع دقائق عندما أوقفني أمددة:

— إن الجو بارد، أليس كذلك؟

قال قوله هذا وارثا راجعا إلى النيران المشتعلة التي تنير الأفق ومد يديه وطلب من رفيقه المندهب البهور أن يفعل مثله: — لنندفئ أجسامنا لحظة.

إن هذه الحكاية تترجم ذلك التجرد الظاهر والغريزي الذي يتسم به رجال الأعمال السرية. مع هذا الفارق البسيط وهو أن هذه الخاصة، عند أمددة، هي علامة تدل على أن الشخص عرف الكثير من خيبات الأمل. فبات لا يمكنه أن يتخيل احتفالا يختلف عن طريقته في الاحتفال بالظلم. إذ إن السخرية والهزل هما في الغالب آخر ملجئٍ يحتمي بهما اليأس.

كان أمددة يفرض نفسه ببنية جسمه بالقدر الذي كانت لامبالاته المصطنعة تقلق. فقد كان بمقدوره أن يبقى المتطفلين بعيدا. إذ إن سنوات من اجترار آمال مخدوعة جعلت منه أحد أهم النشاطات المسلحين في الأطلس المتوسط عشية الاستقلال. فبالنسبة إلى شخص كانت ثقافته السياسية تنحصر في أبسط مظاهرها، أي المفهوم القرآني عن الشر والخير وقبول قبلي بالشجاعة والولاء، لا يمكن إلا أن نلاحظ أن عمله كان له وقع يضاهي بل يفوق العديد من المسارات السياسية المتمرس على دسائس القصر الملكي. ولكن وبما أن التاريخ، بمعناه الواسع، لا يهتم بهؤلاء الأفراد المغمورين الذين لهم دوافع مبهمه، فإن أمددة يجسد ولا شك أحسن تجسيد المصير

²⁷ حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

الضائع للبطل المجهول. فقد كانت أعماله خلال عهد الحماية تصنفه بكل تأكيد داخل فئة "الإرهابيين". وهي الميزة التي وضعتها السلطات الفرنسية. والتي سوف تأخذ أهمية خاصة بعد الاستقلال.

موحى أو الحاج، الفيودالي صاحب النفوذ

المحتضن الرئيسي للتنظيم في خنيفرة هو موحى أو الحاج أمحزون. وُلد في خنيفرة سنة 1927. إنه شخص غير عادي، فهو صهر الملك²⁸. وبهذه الصفة، كان من الملاكين الكبار ذوي النفوذ والهيبة في المنطقة. وبما أن الثروة تصاحبها القوة والنفوذ، فإنه كان يملك العديد من قطعان الماشية وأراض وحظيرة شاحنات. في هذه المنطقة النائية، كان التقليد هو أن السلطة تولد من السلاح. ولهذا فإن موحى أو الحاج كان يفتخر بكونه لا أحد من أجداده مات ميتة طبيعية²⁹. وإعدام ابن عمه، الجنرال حمو، بعد انقلاب الصخيرات، ليس بالغريب عن التزامه بقضية الثوار.

ولأن الجنرال حمو كان عاملا على عمالة قصر السوق (الراشيدية حاليا)، فإنه كان يغض الطرف عن الصفقات التجارية التي كانت وراء ثروة موحى أو الحاج. ومنذ موت الجنرال، قيل بأن موحى أو الحاج ربط اتصالات منتظمة مع أطر عليا في الجيش. كانت هوايتهم المشتركة هي الصيد. وقد كشفت مصادر قضائية فيما بعد أن ثلاثة على الأقل من الضباط الذين كانوا يرافقون بانتظام موحى أو الحاج لممارسة رياضتهم المفضلة، كانوا من قياديي خلايا من خلايا التنظيم³⁰. أهي صدفة أم تواطؤ؟ إذ إن الدليمي، الذي لم يكن حينها سوى عقيد (كولونيل)، كان ومنذ سنة 1972 من بين المعتادين المترددين على حفلات موحى أو الحاج³¹.

مكنت مساعدة موحى أو الحاج أمدة ووالنمري وسيدي حمو، الذين لم يكونوا يجهلون مع ذلك أن الدوافع وراءها رائحة الرغبة في الانتقام والمحسوبية، مكنتهم من العمل والحركة بكل حرية. وسوف يعلم بذلك أمدة والنمري فيما بعد، ولكن على حسابهما. فقد قسما الأطر وضباط السلطة الجهوية إلى ثلاث فئات: المتعاطفون والمحايدين والمعادون. ووضعت أسماء الأعداء على لائحة سوداء كان يجب الحسم في مصيرها يوم اندلاع الانتفاضة. وحسب النمري وأمدة، كان عليها اسم مولاي أحمد.

28 زوجته أخت زوجة الملك.

29 جد. موحى أوحمو الزباني. مات في معركة الهري التي تقاتلت حينها القبائل المسماة "ثائرة" مع جيوش الاستعمار الفرنسي. وأبوه، موحى نعة، مات ضحية تصفية حسابات.

30 علا أوفكوه والحسين أمهراش وحديدو. المصدر: قرار محكمة مكناس. رقم 70/130.

31 شهادة مساعد-أول في القوات المسلحة الملكية، الحسين أمهراش. صديق موحى أو الحاج وأمدة، في جلسة محكمة الفينطرة. هو ابن قائد ومساعد-أول في القوات المسلحة الملكية بالخارج. كان قد أدين بخمسة سنوات حبسا في قضية عدي أربيهي سنة 1957. وأعفي عنه بعد أن قضى سنتين في السجن. جريدة العلم، 19 يوليوز 1973.

صهراً آخر للملك. ومن الملاكين الكبار في الأطلس المتوسط وعامل (رجل سلطة). وكان يعني الأمر على وجه الخصوص تناسي أنه كذلك أحد أقرباء موحى أوالحاج. وقد ذكر هذا الأخير بالأمر ولكن بطريقة:

— إن كنتم تنوون تصفية مولاى أحمد، فإنني سوف أبلغ عنكم السلطات. وعلى العكس من ذلك، كان موحى أوالحاج يوبخ بعنف أطر الحزب التي لم تكن تتساهل مع صفقاته. وهاهو مسئول سري مكلف بالتجنيد يتذكر بأنه دُعي إلى اجتماع سري: "ضرب لي أحد المناضلين موعداً بتيرسالي. وهي قرية صغيرة على بعد 10 كيلومترات من مدينة خنيفرة. وفي المكان المحدد، وجدته رفقة أمدة والنمري ورجل آخر لم أكن أعرفه. وبعد أن سألتني أمدة عن عدة أنشطة بالمنطقة، صرح لي بأن الموجي، رفيقي في الحزب، يجب أن يُعَدَم. فهو متهم بالوشاية بمناضلي التنظيم سنة 1969. ورغم أنني كنت أعتبر موحى أوالحاج صديقاً حميماً، فإنني لم أكن لأجهل بأن هناك خلافاً بينه وبين الموجي. لا شك إذن أن موحى أوالحاج قد اتهم الموجي بما لم يفعله وذلك بهدف واحد وهو أن يتخلص منه. فاعترضت على الأمر"³².

كان على النمري وأمدة إذن أن يوظفا الكثير من الدبلوماسية وأن يوليا العناية الكافية للحساسيات القبلية والتحالفات القائمة على المصالح من أجل تنظيم شبكاتهما. فقد كان الرجال يُختارون ويجمعون في خلايا مختلفة، تبقى درجة انخراطها في المشروع رهينة الثقة التي توضع في أعضائها. وهاهو أحد الرجال المجندين يحكي: "في البداية، كنت رسولا بين خنيفرة ووهران. وبعد ذلك طُلب مني أن أنظم خلية سرية من خمسة رجال. كان النمري يحضر ليدربنا على حمل السلاح وصنع القنابل"³³. وكما هو شأن خلية هذا المناضل، كانت العديد من مجموعات الرجال تَجْمَع في خلايا سرية داخل بنية مغلقة، ثم يَكُونُون ويُدَرَّبُون منفصلين.

ولكن إجراءات الأمن الأكثر تشدداً لا تساوي شيئاً بدون استباق أعمال وأفعال المعسكر الخصم. ولهذا فإن أمدة والنمري قد أنشأ شبكة للمخابرات بتواطؤ مع بعض الشيوخ الذين اعتنقوا القضية الثورية. كانت تلك الأذان وتلك الأعين تخبر النمري وأمدة بانتظام بأنشطة عامل المنطقة وأعوانه، وهو الاحتياط الذي لم يكن بالجانبي نظراً للمراقبة التي كان يضربها النظام على أنشطة الحزب.

وحسب مناضل سري فإن: "أول مرحلة من التجنيد كانت تتكلف بها أطر مطلعة من الحزب. وكانت حريتنا في الحركة والتنقل ودورنا النشط داخل جمعيات جهوية بضمننا لنا مجالا مهما للعمل"³⁴. ومع ذلك فهما هذا الأخير يتذكر بأنه لاحظ وجود شخص

32 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

33 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن ماسين.

34 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

مشبوه، وهو سائح كندي، خلال اتصالاته بمنظمة للشبيبة البربرية بأزرو. كان السائح نفسه يتجول حاملاً آلة تصويره بكلميمة وخنيقرة. وأحياناً كان التحدي ينضاف إلى المراقبة. فقد زار الرجل الموالي للـتنظيم مناضل يصحبه صديق من قصر السوق. وبعد أن انفرد المناضل بالرجل، حذره من "صديقه" وذلك بغرض زرع تواطؤ يشجع على تبادل الأسرار. وسأله:

— أين نحن من الأمور، هل كل شيء جاهز؟

ولكن رسول النمري وأمدة كان جندياً من جنود المقاومة مجرباً لا يمكن خداعه. ودون أن يتخلى الرجل عن مظهره البريء، سأل مندهشاً:

— عما تحدث، إن الانتخابات لن تجري إلا بعد سنتين.

راديو ليبيا

وفي بداية شهر أكتوبر من سنة 1971، عاد الفقيه البصري إلى طرابلس. كان يرافقه رجلان : عثمان بناني، ابن خالة محمود، ومراسل من التنظيم في سوريا. أخبرهما إبراهيم بافتخار بأن اتصالاته مع الليبيين قد باتت الآن متواصلة وعادية. وبما أن إبراهيم قد تعزز بضيافة الليبيين وترحابهم، فإنه اقترح تنظيم شيء بخصوص 29 أكتوبر، وهو يوم ذكرى اختطاف المهدي بن بركة. إذ كان الاحتفال بهذه الذكرى يشكل طقساً تمارسه بانتظام وثبات أوساط الطلبة. فحبذا لو كان هناك برنامج إذاعي. فإن الأمور ستكون حينها كاملة مكتملة. أعجب الفقيه البصري بالفكرة، وتكلف بإقناع الليبيين بأن يخصصوا بعض الوقت لإبراهيم على أمواج إذاعتهم للاحتفاء بذكرى اختطاف القائد التقدمي. وعاد الفقيه البصري إلى باريس تاركاً إبراهيم ومرافقيه يشغلون على إخراج ذلك البرنامج. ولكن سرعان ما وجد إبراهيم نفسه لوحده. فقد عاد عثمان في اليوم الموالي إلى القاهرة، والمسؤول عن التنظيم في سوريا عاد إلى دمشق بعد اليوم الموالي.

وقد عوضهما وصول مناضلين آخرين. الأول، أدهش إبراهيم بليكنته السورية. كانت هيأته قوية وقدم نفسه على أنه حسن إبراهيم؛ إنه خالد، قدم من دمشق. وأما الثاني فقد جاء من بلجيكا. كان إبراهيم قد راسله من نانسى خلال حملة لفائدة إطلاق سراح بونعيلات وأحمد بنجلون. إنه حسين المانوزي. حدث تفاهم فوري بين الرجال الثلاثة الذين حرروا نصاً للاحتفاء بذكرى 29 أكتوبر وسلموه للإذاعة الليبية.

وقد جند الليبيون أجود مذيع كان بحوزتهم، إنه جلال معوض، الذي كان حينها زوج الممثلة المصرية مريم فخر الدين. لقد كان نجم الأمواج الوطنية، وتخصص في سرد

ملاحم جمال عبد الناصر المجيدة. وهو الرمز الذي كان مثار إعجاب الثوار الليبيين. ولم يدخر المذيع نعتاً ولا لقباً للاحتفاء بذكرى الشهيد الراحل. حققت الفكرة من النجاح ما جعل إبراهيم ورفيقه يفوزون منذ تلك اللحظة بخمس وأربعين دقيقة أسبوعياً من أجل بث برنامج تجاه المغرب.

وسرعان ما تحولت الثلاثة أرباع الساعة إلى ساعتين. إذ إن محمد الزواي. مدير الإذاعة الليبية³⁵. والذي كان ودوداً لطيفاً في تعامله معهم. لا يدخر جهداً لتلبية حاجاتهم. لقد كانت كثيرة الساعات التي خصصت للحديث حديثاً طويلاً مطولاً عن الثورة في العالم العربي ..

ويشهد وصول إطارين تكونا في الزيداني. في شهر نونبر من سنة 1971. على تكثيف أنشطة التنظيم في طرابلس. كان الأول مقاوماً سابقاً عمره 45 سنة. حُكِمَ عليه بالإعدام غيابياً سنة 1963. وكان قد شارك إلى جانب آيت المودن. السيئ الحظ. في عدد من العمليات ضد الحماية بداية الخمسينيات. وأخوه. وهو عضو في مجموعة شيخ العرب. يوجد ضمن الرهائن الذين سقطوا برصاص أوفقيير الذي كان ينتقم بهذه الطريقة من عجزه عن القبض على الرجل الذي "يستحيل القبض عليه". وأما الثاني. والذي كان يصغر الأول بعشرين سنة. فقد كان شاباً عنيداً. إنه شخص قوي البنية. كان يفرض وجوده بجرائته وأحاديث في غير محلها. وقد وقعت حادثة بسيطة بقيت محفورة في ذاكرة إبراهيم وهي تلخص الأمر أحسن تلخيص: "عندما كان مكلفاً بنقل السلاح. حمل في يوم من الأيام سلاح كالا شنيكوف في سيارة فولسفاغن. فأوقفه شرطي ليبي حيرته لهجته. كان صندوق السيارة مملوءً بالسلاح. وكان الشرطي. ودون أن يفتش السيارة. قد شك في أن السائق جاسوس. ومعنى ذلك أنه لو فتح صندوق السيارة لحسمت القضية. وعادة وفي مثل هذه الحالة. كان على المناضلين الاتصال برقم هاتف في وزارة الداخلية الليبية دون أن يُدلووا بهويتهم. ولكن الشرطي الذي انتابه الشك في أمر الرجل. أخرج سلاحه ووضع على صدغ المناضل السري الشاب. وأمره بأن يدلي بهويته. وبكل هدوء أجابه هذا الأخير بأنه لو أطلق النار فإنه لن يعرف أبداً الجواب عن سؤاله³⁶".

عزز وصول الرجلين الفريق المكلف بهيكلية الإدارة العسكرية المسؤولة على الحسابات. فقد كان الأول ميكانيكي التكوين. فأخذ يَعدُّ العربات التي سوف تخصص لحمل السلاح. وكان الثاني ينقل الحمولة إلى الجزائر. كان كل شيء يسير وفق مَسَارٍ وضعه حسين المنوزي. واكتملت حلقة الأربعة من قدماء الزيداني بوصول رئيسهم. بعد أسبوعين من ذلك : إنه محمود. اكتشف فيه إبراهيم رجلاً هادئ الطبع. ابتسامته خاطفة عابرة. لا شيء يدل على نزعتة الثورية العميقة. باستثناء القناة التي تتجلى

35 أصبح فيما بعد. ولسهرية التاريخ. دبلوماسياً يعمل في المغرب قبل أن يُعين في منظمة الأمم المتحدة ثم وريثاً.
36 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوصلح.

من كلامه. فور وصول محمود، جَمَعَ أطر الزيداني واستعرض اللوجستيك العسكري. إذ إن التنظيم في طرابلس قد اتخذ بعدا أشد صرامة وأكثر حديدا وضبطا ومهنية. كان كل شيء يقول بأن دَرَسِي دمشق والجزائر العاصمة قد تمت الاستفادة منهما. لم يكن محمود رجلا يتمادي في مُساراته. وهذا الأمر اكتشفه إبراهيم صدقة خلال تعاونهما : “كان يكتب كثيرا، يبدو متعطشا كثيرا للمعرفة. كان يستفسر بانتظام عن آخر الإصدارات السياسية. وكان يحمل معه دائما دفترًا يكتب عليه ملاحظاته”. وكما هو شأن آخرين قبل إبراهيم، لاحظ هذا الأخير ترفعه عن الماديات: “كان محمود الرجل الذي يكلف التنظيم أقل تكلفة. في يوم من الأيام، بطرابلس، كان عليه أن يأخذ صورا توضع على جواز سفره. لم يكن يملك حتى قميصا لائفا. فكان علي أن أعيره بعض ملابس³⁷”.

الدبلوماسية الموازية

كان البشير بومعزة، وهو وزير مالية جزائري سابق، سنة 1971، حليفاً في تلك الظروف. فقد غادر الرجل الجزائر سنة 1966 بعد أن ساند انقلاب بومدين لمنع “الانحرافات المشخصة لابن بلا”. ولكن عهد بومدين لم يرضه. وسرعان ما كسب الفقيه البصري ترحاب هذا المعارض الحديث العهد بالمعارضة. فقد كان يعرف أن المسيرين العرب يعشقون المُسارات والأخبار الجديدة: فكان البشير بومعزة ميزةً واستثمارا خاصين عليه أن يجول به داخل القنصليات والسفارات العربية. وأما البشير بومعزة، فقد كان ممنونا للفقيه البصري لأنه جعل قادة “الدول الشقيقة” يستقبلونه على أنه رجل ذو مقام رفيع. ومع ذلك، فإن التقارب بينهما كان أكثر من اهتمام بأدب البروتوكول. ففي الجزائر، كان بومدين يقبض بقوة على زمام السلطة، وكان الشعب الجزائري، بعد كل سنوات الحرب التي عاشها، يطمح إلى السلام الذي يناله الشجعان. فلم يكن بإمكان التغيير إذن أن يأتي إلا من الخارج. وهكذا بدأ بومعزة يتقرب من العنصرين اللذين كان لهما في ذلك العهد أكبر الصدى لدى الشبيبة الجزائرية: الثوار المغاربة والمقاومة الفلسطينية.

كان مرد ذلك الصدى الذي يتمتع به الثوار المغاربة يعود أساسا إلى الجوار الجغرافي وإلى الخلاف المغربي-الجزائري. وأما الكفاح الفلسطيني فقد كان يعرف تعاطفا شاسعا.

وقد قادت بومعزة علاقاته مع هذين الفاعلين اللذين يحركان العالم العربي، من طرابلس إلى بيروت، ثم من دمشق إلى بغداد، مع تفادي عمان، التي كانت تشهد في

³⁷ حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

ذلك العهد أوجَّ مرحلة تصفية الحسابات مع المقاومة الفلسطينية. إذ إن المقاومة الفلسطينية قد تراجعت إلى بيروت بعد مجازر أيلول (سبتمبر) الأسود. وبدأت تركز عملياتها في ميدان تهتم به أكثر وسائل الإعلام. إنه عالم الإرهاب³⁸.

زادت اتصالاتهم بفضل التزام بومعزة والفقير البصري بقضيتهم. وسرعان ما مد الجناح العسكري في المقاومة الفلسطينية عمله إلى خارج الشرق الأوسط. كانت هذه العمليات يُنظمها ويُسقها بوضياء، وهو جزائري. وأما الرجل الذي سوف يصبح فيما بعد كارلوس الشهير عند وسائل الإعلام، فقد كان أحد الرجال الذين جندهم بوضياء. سوف يدفع بوضياء حياته ثمنا لالتزامه. فقد مات في عملية بالقنابل يوم 28 يونيو من سنة 1973 دبرها الموساد في باريس. أمام جامعة سانسيي.

وهاهو بنيحيى يتذكر زيارة في خريف سنة 1972. إلى شقة قرب شارع شان إليزي كانت تُستخدم محطةً لمهربي السلاح: "كان الفقير البصري قد طلب مني أن أوفر بعض السلاح لبوضياء"³⁹. ولكن العملية الوحيدة التي شارك التنظيم فيها هي إحراق محطة لتكرير البترول في هولندا سنة 1972. وهي المحطة التي كانت المزود الرئيس لإسرائيل بالحروقات.

وسوف يحكي أبو إياد، مؤسس منظمة "أيلول الأسود" الساعد العسكري لمنظمة ياسر عرفات "فتح" والذي رتب لعملية ميونخ سنة 1972، حكايةً أخرى في مذكراته: عملية متصلة [بالأولى] خلال القمة العربية بالدار البيضاء لم يُكتب لها أن تنفذ حتى آخر مراحلها.

فحسب إبراهيم، كان محمود يُبدي اهتماما بتحديد حقل تدويل القضية وتقليصه حتى لا تتشتت الإمكانات. وكان الفقير البصري كذلك يفضل عدم الاستفادة من مساندة بعض الحكومات العربية التي كانت حتى ذلك الحين محايدة فيما يخص المسألة المغربية. ولكن بومعزة لم يكن يفكر في أن يتوقف عند هذا الحد. وفي دمشق أخذ كل منهما طريقه. وهاهو بومعزة يتذكر: "ما كدت أنا والفقير البصري نصل إلى دمشق حتى أخبرنا أن الشريف بالقاسم. وهو صاحب مقام في الجزائر. قد اتصل من باريس

38 لقد أثار استعمال كلمة "إرهابي" في الطبعة الفرنسية من هذا الكتاب انتقادات كثيرة. وأود أن أفسر سبب استعمال هذه الكلمة وذلك بالذكور بادي ذي بدء بمعنى الكلمة الأولى. فـ"الإرهاب" ينعت نوعا من الكفاح يلجأ إلى التخريب والقتل المجددي الهدف. وغالبا ما تنبنى هذا النوع من الكفاح حركات مسلحة لا تمتلك الوسائل اللازمة لتدخل إما في "حرب خريف" وإما في "حرب عصابات". وبالفعل، فإن "حرب التحرير" تستلزم موارد بشرية ووسائل مادية هامة. وأما "حرب العصابات"، فإنها تعتمد وسائل لوجيستكية أخف ولكنها تتطلب استقلالية أكبر في العمل. ومن ثمة لا يمكنها أن تتحرك إلا على أرض تصعب على العدو مراقبتها. و نظرا لهذه الأزمات. فإن المقاومة الفرنسية جأت إلى الإرهاب ضد الغزاة الألمان خلال الحرب العالمية الثانية. ولجأ جيش التحرير الوطني إلى الإرهاب لمقاومة وجود الاستعمار الفرنسي في أفريقيا الشمالية. ويفسر نيلسون مانديلا الذي حصل على جائزة نوبل للسلام، في مذكراته كيف تبنى هو ورفاقه، ابتداء من سنة 1954. هذا النوع من الكفاح لمواجهة النظام العنصري (انظر كتاب مسير طويل نحو الحرية، مطبوعات أباتوس، 1994). وأنا أذكر هذه الأمثلة حتى أذكر بأن هذا النوع من الكفاح "غير الشعبي". بالمعنى التنظيمي والرمزي للكلمة. كان ميزة قضايا يعتبرها التاريخ قضايا "عادلة". إنها مفارقة لا يمكن أن نتجاهلها قراءة موضوعية للتاريخ. (المؤلف)

39 حوار للمؤلف مع محمد بنيحيى.

ويود ملاقة الفقيه البصري. ومن البدهي أن يومدين قد سمع عن هذه الاتصالات التي تمت معي. وأنه قد بات مستعدا ليقدم له اقتراحا مضادا. شاورني الفقيه البصري. فأجبتة: "في هذه المرحلة، فهو أنفع لك مني"⁴⁰.

ويؤكد جواب بومعزة إحساس الفقيه البصري: فقد كان دائما يرى في الجزائر موقعا متقدما للثورة في المغرب.

فَحَجَزَ تذكرة في أول طائرة متجهة إلى باريس.

الإذاعة الليبية

عند عودة إبراهيم من باريس في يناير من سنة 1972، كانت له أسباب ليكون راضيا عن نفسه. فقد كانت الفرقة الصغيرة التي استقرت في فيلا بشوارع عاشور فرقة فاعلة وعملية. وكان حسين المانوزي يشغل وظيفة مراقب المطار في طرابلس، وهو نفسه مستخدم في المصلحة التقنية (بل إنه مكتب للإعلام) التابعة لوزارة البترول. ولئن كانت ليبيا قد تعرفت على مواقع آبار البترول، فإن وسائل استغلالها كانت لا تزال غير متطورة. كان إبراهيم يعمل مع فريق من الروس يتقنون الحديث باللغة الإنجليزية كما يتقن هو اللغة الروسية. وأما خالد فكان يعمل جاهدا على إنشاء معسكر للتدريب.

وعلى أمواج الإذاعة، بات إيقاع البرامج المبتوثة جَاه المغرب منتظما. أصبح اسمها الجديد هو صوت التحرير، وبفضلها بات التنظيم غير ملموس ولكنه أصبح حاضرا في كل مكان. كانت شعاراته تنتقل وكأنها أسلحة لا يمكن حجبها. الهدف منها هو إيقاظ الضمائر وتوجيه النداء إلى المنسيين والمغمورين بأن يأخذوا زمام الأمور.

كل يوم أربعاء وسبت على الساعة السابعة مساءً، كانت الأذقة والمقاهي في المدن المغربية الكبيرة تبدو فارغة مهجورة. إذ إن آذان المغاربة كانت تلتصق بأجهزة الراديو فلا تضيع شيئا من نشرات الأخبار التي تنفلت من قبضة الرقيب. فوسط مشهد إعلامي خاضره رقابة شديدة، كان راديو ليبيا يبدو راديو حرا قبل الألوان. وللحد من تأثيره، حاولت وزارة الداخلية المغربية التشويش على أمواج بثه. بل إن فريقا أرسله أوفقيّر حاول وضع قنابل على برج الأسلاك الرئيسي للاتصالات في غرغاريش، وهو حي إقامة غرب طرابلس. بهدف إيقاف البث. "وحدهم المغاربة أو الإسرائيليون كان بإمكانهم القيام بمثل هذه العملية التي كانت تحتاج إنزالا من البحر". هذا ما يوضحه الهوني قبل أن يضيف ساخرا، و"إن الإخاز غير المتقن للعملية يدل على أن الذين قاموا بتنفيذها هم مغاربة"⁴¹. وبالفعل، فقد أصيب أسفل برج الأسلاك. ولكن الأسلاك التي تدعمه بقيت سالمة، فكان بالإمكان إصلاح الأعطاب بسرعة.

40 حوار للمؤلف مع البشير بومعزة.

41 حوار للمؤلف مع عبد المؤمن الهوني.

كانت محاولات أوفقيير لإسكات صوت التحرير إذن محاولة غير موفقة وغير مجدية. فقد كانت تصل إلى طرابلس رسائل المستمعين بالملئات. ويتذكر إبراهيم ما كان يوظفه بعض المواطنين من ذكاء وبراعة من أجل ربط الاتصال بالراديو: فقد وُجهت رسالة من المغرب إلى رقم 1270 بشارع سان جيرمان بباريس. اندهش مستخدم البريد من غرابة العنوان. ولاحظ تذكيرا صغيرا كتب على الظرف: راديو ليبيا. فوجه الرسالة إلى سفارة ليبيا التي سلمت الرسالة. وكانت رسائل أخرى تصل عبر إذاعة الب.ب.س. بلندن. إذ إن الزملاء يتعاونون فيما بينهم. وعلى العكس من ذلك. كان بعض المراسلين أسوء حظا. كما هو شأن هؤلاء الفلاحين الأربعة الأميين من بني ملال الذين حُكِمَ عليهم بالسجن ستة أشهر نافذة لأنهم لجؤوا إلى إمام مسجدهم ليكتب لهم رسالة يريدون توجيهها إلى راديو ليبيا.

وقد برأت محكمة مراكش. في شتنبر من سنة 1971. الأخ الأصغر لحسين المانوزي. وهاهو يتذكر الساعات التي أمضاها في هيئة خري راديو-ليبيا: "كنت أتعاون مع خالد وإبراهيم. وأسأهم على وجه الخصوص في وضع الافتتاحيات باللغة الأمازيغية. وغالبا ما كنت أقيم في فيلا ابن عاشور. وفي منزل آخر. كانت تتواجد أساسا الأطر العسكرية. رأيت محمود أول مرة في يونيو من سنة 1972. بينما ذهب خالد إلى مصر وإبراهيم إلى أوروبا"⁴².

وكما كان شأن آخرين قبله. فإنه اكتشف رجلا قليل الكلام كثير الكتابة. وفي صيف سنة 1972. كان محمود قد أنهى تخطيطه وأتمه. فقد وقف على الشطوط والترددات السالفة التي بددت الطاقات أكثر مما عبأتها وجمعتها. وسُلمت ثمرة هذا التفكير إلى راديو-ليبيا: "حتى تصبح حركتنا قوية. من الأساسي أن تتلاقى دوافعنا وأفكارنا. يجب أن يفهم شعبنا أن الطريق إلى الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد الذي بقي له لينعتق من الاستبداد والبؤس. في هذه اللحظة التي استنفذت فيها كل أشكال الكفاح الأخرى"⁴³.

اعتقال فاضل الناصري

مكن اعتقال مناضل تكون في الزيداني. ب مطار الدار البيضاء. يوم 14 يوليو من سنة 1972. الشرطة من معرفة الطريق المؤدي إلى فاضل الناصري. وهو رجل اتصال بمحمود في وهران وفي الآن نفسه. بقيادي خلية في المغرب. النمرى وأمدة من جهة. ودهكون من جهة أخرى. كان للخبر وقع الصاعقة وفاجأ الكل. إنه حدث عواقبه مخيفة. إذ يصعب التكهن بها: فبإمكانها أن تقضي على العمل الصبور الدؤوب

42 حوار للمؤلف مع رشيد المانوزي.

43 أفريقيا-آسيا. عدد 27. 1973/4/2. سيمون مالي. المغرب. حرب العصابات؟ ..

الذي شَرع فيه منذ شهور. وبدأ شبح سلسلة الاعتقالات التي قضت على صفوف التنظيم سنتين قبل ذلك يحوم ثانية حول التنظيم. كان فاضل الناصري طالبا سابقا في الاقتصاد. تدرب في بغداد في الوقت نفسه الذي كان يتواجد بها خالد. فكانت الزيداني بالنسبة إليه الطريق الذي يجب المرور منه قبل عودته إلى المغرب: "لما عدت إلى الدار البيضاء في أكتوبر من سنة 1969. فتحت مدرسة حرة. مدرسة عبد الكريم الخطابي". كان بارعا في فن الإخفاء والتخفي. فنجنا من الاعتقالات حتى ذلك اليوم المشؤوم: "اعتقلت بوجدة غداة افتراقي مع دهبكون. كان علي أن أراه ثانية يوم 15 يوليو⁴⁴". وفي حملة الاعتقالات، اعتقل كذلك المناضل الذي خبا مجموعة سيدي حمو بالرباط⁴⁵.

وهاهو مناضل سري كان بأوي النمري في ضواحي خنيفرة يجمع أشلاء ذكرياته: "أذكر حسين آيت زايد النمري باعتقال فاضل الناصري. وبما أنه كان الوسيط بيننا، فإن حسين آيت زايد أمرنا بالانتقال إلى الجبل. فلجأنا لصحبة النمري وأمدة وعدة أفراد من قبيلة آيت خويا إلى أكلموس نعامي⁴⁶".

وقد اقتيد فاضل الناصري. والأصفاد في يديه يغطيها جلباب. يرافقه الحرس إلى خنيفرة ليتعرف على مخابئ التنظيم. وقد كان المعتقل يتظاهر بالتعاون مع رجال الشرطة. فكان يتجول بالحققين في جميع جهات المنطقة ويعمل بعناية على اجتناب الأماكن الحساسة. وسرعان ما حقق الهدف. فقد شاع عبر الجبال خبر أن أمدة والنمري تبحث عنهما الشرطة. فأتيحت للرجلين الفرصة ليستبقا مطاردتهما. مكن حضور بديهة فاضل الناصري التنظيم من تفادي خسائر هذه الضربة.

التفت سبيل النمري وسيدي حمو ودهكون. فارتبطت مصائرهم بكفاح لم يكشف حتى الآن عن كل أسرارها. كان إيمانهم القوي الثابت بعدالة القضية هو مَعينهم الأساسي الذي يمدّهم بالصبر والثبات. فتدربوا. وهم يفيضون طاقة. على فترة استشفاء ونقاة تنظيم كان يجد صعوبة في الخروج من فشله. ذلك أنه بالنسبة إلى أولئك الرجال. الذين لم يكونوا مبتدئين في الميدان. لم تكن التضحيات السالفة سوى مقدمة النصر الذي ينتظر القضية العادلة.

44 حوار للمؤلف مع فاضل الناصري.

45 اعتُبر مَحْتَفَا. وظهر ثانية سنة 1978. ليموت في بيته بسبب آثار التعذيب الذي عانى منه.

46 حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

الفيضان 1972

قدمات إعدادية النهضة

بعد يوم شاق، عاد عباس، واسمه الحقيقي مبارك بودركة، إلى بيته في الرباط، بدايةً شهر دجنبر من سنة 1971. إنه محام شاب متدرب عند الأستاذ عبد الرحيم بوعبيد. وهو ما يعني أن ملفات المحاكمات السياسية كانت تنهطل على مكتبه ولا تترك له وقتاً للراحة. ولما ظهر في زقاق منزله، وجد قرب باب العمارة التي يسكنها، رجلاً قوي البنية، ينظر إليه مبتسماً. كان هذا الرجل هو دهكون.

لقاؤهما الأخير يعود إلى نهاية سنة 1969. فقد كان عباس قد آواه مع بنحبي، وهو يجهل حينها كل شيء عن أنشطتهما السرية. إذ لم يكن يرى فيهما في تلك الفترة سوى رفيقي الدراسة السابقين بمدرسة النهضة بسلا. وبعد وقت قليل، حُكِم على دهكون غيابياً وأصبحت كل مصالح الشرطة المغربية تبحث عنه. ومن ألمانيا، كان عباس يتوصل بانتظام بأخبار عن صديقه. فقد كتب له بعد انقلاب الصخيرات: "سمعت أنكم عشتُم حفلاً جميلاً. وأنا أسف لأنني لم أحضر هذا الحفل".

منذ ذلك الوقت، والمغرب يعرف حالة غليان ولم يعد مكاناً هادئاً آمناً يلجأ إليه الثوار السريون. ولأن عباس بقي هو هو كما كان معروفاً عنه منذ صغر سنه، ولأنه فرح بلقاء الرجل الشجاع النشط الذي فارقه منذ بضع سنين، فإنه سرعان ما وجد بيتاً صغيراً في الرباط يأوي صديقه.

لم يكن عباس يبلغ من العمر سنة 1962 سوى 14 سنة. عندما التقى دهكون أول مرة، في إعدادية النهضة بسلا. كان دهكون، وأصله من جنوب المغرب كما هو شأن عباس، قد وصل حديثاً. وهاهو عباس يتذكر: "كانت أسرته قد هربت من الزلزال الذي ضرب أغادير يوم 29 فبراير 1960". وأما عباس فإنه قَدِم من مكناس. مدينته بالتبني. وسط هذه الصداقة الحماسية التي تربط بين أفراد هذه الحلقة الصغيرة، المُشكّلة من أبناء المقاومين، على ساحة إعدادية سلا، نضجت فكرة الكفاح المسلح نضجاً طبيعياً. سمع عباس مراراً أباه يحكي عن مقاومة قريته الأصلية البطولية، وهي آخر قرية استسلمت للاحتلال الفرنسي. وأسرار الأحلام التي تلهب عقول

الأطفال لا يتفاسمها سوى رفاق المدرسة فيما بينهم لا غير. ولكن في هذه السنوات القليلة، سرعان ما تحولت هذه الأسرار إلى أحلام بالثورة. ولهذا ليس من الصدفة أن يصبح العديد من رفاقه في اللعب بسلا. بعد عودتهم من تكوين عسكري في سوريا. حركيين سربيين في التنظيم. هذا هو حال الجدائني. الرفيق الملازم لدهكون منذ أن وجد الواحد منهما عند الآخر قضية مشتركة¹.

وفي ليلة من ليالي الشتاء، خُدت المجموعة الصغيرة من تلاميذ الثانوي رطوبة شهر دجنبر لتجوب أزقة المدينة العتيقة بسلا التي كانت غارقة في الظلام. من أجل أن يكتبوا على جدران الأزقة شعارات مناهضة للمشاركة في الاستفتاء الدستوري. كان دهبكون يبلغ من العمر 23 سنة. والجدائني 20 سنة. وهو 15 سنة بالكاد. كان دهبكون والجدائني قد احتفلا بسخاء بنجاح مغامرتهم الليلية وكان صوتهما يعلو ويرتفع فأيقظ سكان الحي النائمين. وفي طرف الزقاق. التقى المناضلون الشباب الثلاثة وجها لوجه مع فرقة البوليس. ولكن. ولأن عباس لم يكن قد شرب من الشراب الذي أسكر رفيقيه. إذ إن صغر سنه كان يمنعه من ذلك. فقد أنقذ رفيقيه. إذ دخل في سرعة البرق زقاقا. فطارده رجال الشرطة. بدأت حينها مطاردة داخل أزقة المدينة العتيقة بسلا. وكان عباس قد أخذ معه لوازم النظافة لينظفها بأنه كان ذاهبا إلى الحمام العمومي في حالة اعتقاله. وصل إلى ساقية. ثم بعد أن نزع الثياب عن جذعه. مرر على بدنه الكثير من الصابون حتى يخفي آثار الصبغة التي كانت تغطي يديه ووجهه. ولما لحق به رجال الشرطة. سألوه إن كان قد رأى رجلا يجري. فأجاب. دون أن يرفع رأسه. مشبرا بحض الصدفة إلى زقاق: "لقد مر من هناك".

بالنسبة إلى عباس. كان النشاط السياسي إذن جزءا من تعلم الحياة. فقد اكتشف السياسة. كما يكتشف آخرون الصداقة والحب وكل ما يسم دخول المراهق حياة الكبار الراشدين. كانت السياسة لعبة ممتعة. لأن فيها مخاطرة. وقد مكنت الصغير عباس من أن يرقى إلى الصف الذي يطمح إليه الكبار. وذلك في الوقت الذي كان فيه سنه يتأرجح بين الطفولة والمراهقة. عَلم عن طريق أبيه. أن السياسة في المغرب تستدعي القمع. ولأن أباه كان مقاوما شديدا للاستعمار الفرنسي. ولأنه أصبح فيما بعد مناصرا لحزب الاستقلال قبل أن يلتحق بالائتلاف الوطني للقوات الشعبية. فإنه كان يُعتقل بانتظام بسبب أنشطته. ولما كان عباس في ربيع الخامس. زار أباه أول مرة في السجن صحبة عمه. كان يعتقد بأنه ذاهب إلى ذلك البيت الذي يوجد جنوب المغرب والذي طالما وصفه له أبوه. كانت التجربة مفيدة وما فتئت أن أصبحت له مثالا.

وجاء دوره في شهر يوليوز من سنة 1963. إذ اعتُقل عباس في إطار موجة الاعتقالات التي اجتاحت البلاد. وذلك بينما كان يمضي عطلة وسط عائلته بالجنوب.

1 أطر الفصل الأول.

عُذِب أبوه عذابا عنيفا في مخفر الشرطة، في حين تعرض هو نفسه بانتظام لانتقام قائد السلطة ضربه. فأصبح عباس مناضلا بغريزة المقاومة.

بعد أن حصل عباس والجدايني على البكالوريا سنة 1964، تابع عباس دراسته في الجزائر. وهناك تميز كعضو نشيط داخل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ومناضل مثابر داخل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. ولما عاد من الجزائر من أجل أداء الخدمة العسكرية، ساهم سنة 1965، مع عمر بنجلون واليازغي، في إنشاء فرع للحزب بكناس. مدينته بالتبني. ولما أنهى دراساته القانونية، أوصى به اليازغي عبد الرحيم بوعبيد الذي وظفه كمحام متدرب في مكتبه.

لم تكن زيارة دهكون لعباس من قبيل اللقاءات التي تجمع أصدقاء دراسة سابقين². إذ منذ بضعة شهور، أعاد دهكون بتان وصبر تنظيم خلايا الدار البيضاء والرباط من أجل وضع هيكل شبكة، مترددا بين شبه السرية والسرية المطلقة. كل شيء يدل على أن دهكون كان يحس بأن عباس سوف يلتحق بصفوف التنظيم، وبالنسبة إلى عباس، فإن المرور من المحكمة إلى العمل السري، لا يستلزم سوى خطوة واحدة، فقطعهما عباس دون تردد. هل كان ذلك عن خبرة ودراية؟ لم يكن الأمر أكيدا.

فمنذ اعتقالات السنة السابقة، كان دهكون يعمل جاهدا على تجنيد أفراد جدد. ولهذا الغرض، نظم الخصاصي وبلقاضي شبكة موازية داخل الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وخلال التجمعات، كانا يثان الحماس في الأذهان من أجل الكشف عن الموابث الثورية. وكان الذين يبدون عازمين مصممين يرحلون بعد ذلك ليتم تكوينهم في الخارج. وعند عودة دهكون إلى المغرب، يوم 15 أكتوبر من سنة 1971، ووسط اندفاع النصري، نظم يوم 29 أكتوبر وهو اليوم ذو الدلالة الرمزية، يوم ذكرى اختطاف المهدي بن بركة، سلسلة من العمليات ضد مخفري الدائرة الخامسة والثامنة بالدار البيضاء ومطبعة ماروك سوار (المغرب مساء)، وهي الجريدة التابعة لمجموعة ماس.

وهاهو عباس يقول لي بصوت هادئ، بعد مرور أزيد من ثلاثين سنة: "لو كان علي أن أعيد ما فعلته من قبل، لفعلته ثانية". ومع ذلك، فإن عباس كان لا يزال يحتفظ في ذاكرته بعدم جدوى العمل السياسي. فهو قد عاش خلال دراسته بالجزائر العاصمة شلل الجهاز السياسي والصراعات الداخلية وجو الشك العام؛ فقد كانت التقارير عن الخونة المفترضين كثيرة عديدة. ولا شك أن الحماس الذي تلا محاولة انقلاب الصخيرات قد بدد نهائيا تخوفاته.

كانت مهماته الأولى تقتصر على القيام بزيارات عديدة لسعيد بونعيلات وأحمد بنجلون في السجن. ومنذ سنة 1972، أصبح رجل الاتصال المفضل بين دهكون

² تم يكن الجدايني والملياني ودهكون هم الوحيدين قدماء إعدابية النهضة بسلا الذين التقوا في معسكرات التدريب بسوريا. - هناك كذلك: بنيجي ووفيق الإبريسي والصداقوي والورائي (الخبر الواشي). وقد التحق مناضلون آخرون بالتنظيم لاحقا. - هو هو شان إبراهيم أوشلح. تدرسوا هم كذلك بإعدابية النهضة.

والخارج. ويعترف عباس بأنه "أكثر من مرة. انتابني القلق من عمليات الذهاب والإياب التي كانت القيادة تطلب مني القيام بها". فقد كان من البديهي أن الحامي المتدرب. وهو يكثر من عمليات عبور الحدود مهددًا بأن تنتبه إليه الشرطة التي ضاعفت من تيقظها³. ولأن عباس لم يكن سوى حلقة من حلقات سلسلة. فإنه وجد أمامه وإبلا من أسئلة لا جواب عنها: "ما الذي كان يفعله دهكون في المغرب. في الوقت الذي كان فيه البحث عنه جاريا في كل البلد؟ هل للأمر علاقة بالانقلاب؟ ما هي الوسائل التي كانت بحوزته؟"

الكومونديو البحري

ويتذكر إبراهيم قائلا: "عند نهاية سنة 1971. وصل أربعة رجال إلى طرابلس. قادمين من دمشق. كل ما كنت أعرفه عنهم هو أنهم كانوا يشكلون فريقاً من النخبة تحت قيادة محمود. فطلب مني هذا الأخير أن أعزلهم عن الباقين ثوًا وأن أعمل على أن لا يكون لهم أي اتصال بباقي المناضلين⁴". الرجال الأربعة الذين بعث بهم إبراهيم إلى بنغازي هم الملكي والنجار والصغير وسي إبراهيم. كلهم أطلقت سراحهم الشرطة الإسبانية. في الوقت نفسه الذي سُلّم فيه سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون إلى جلاذيتهم. وعند عودتهم إلى دمشق. وُضعوا في حالة "نوم" ليصبحوا طلبة كما ادعوا ذلك في مدريد. كان برنامج دراستهم يهتم تعلم اللغات وكذا ممارسة الرياضة. وذلك بغية الحفاظ على سلامة الأبدان. ولكن سرعان ما واصل الرجال الأربعة طريقهم إلى العراق. حاملين جوازات سفر دبلوماسية. كانت قبلتهم النهائية هي قاعدة بحرية سرية في البصرة. تلقى فيها الرجال الأربعة تدريباً خاصاً لتلقن مهنة رجال الضفادع وكذا تكويناً في الميكانيك وصنع المتفجرات. وهماو الملكي يتذكر: "في شهر غشت من سنة 1971. عدنا إلى بغداد. ومن ثمة التحقنا بدمشق سرا عبر بيروت حيث خُبّننا⁵".

كانت طبيعة تكوين هؤلاء الرجال وكذا عددهم المحدود يوحي بأنهم سوف يقومون بعملية مسلحة. فقد كان الفريق يتكون من مقاتلين مدربين على الحرب بعد أن تَكونوا في العديد من التدريبات. من الجزائر إلى ليبيا مروراً بسوريا والعراق. دون احتساب تجربتهم في صفوف حرب العصابات داخل صفوف الفلسطينيين. كل هذا يدل على أن الرجال في مستوى عالٍ من الخبرة العسكرية. وهو المؤشر على الطابع الحساس للمهمة التي تنتظرهم.

إلى حد هذا اليوم ما زال السر قائماً. إلا إذا كان الجواب يوجد عند بعض المصادر التي تقول. بعد وقوع ما وقع. إن التحريات الجزائرية. كما يؤكد ذلك بعض رجال

3 حوار للمؤلف مع مبارك بودرفة. المعروف بعباس.

4 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوّشليح.

5 حوار للمؤلف مع عبد الله الملكي.

استعلامات التنظيم. هي التي قدمت المعلومات التي كانت وراء هذه المهمة فوق العادة: منذ انقلاب الصخيرات. كان الحسن الثاني قد أعدَّ من جديد قصره الصيفي ليمضي فيه أغلب وقته في إشارة إلى أنه يتحدى [الذين يريدون خلعهم]. والحال أن الملك كان يمضي ليلاليه في المرسى. في أعالي بحار الصخيرات. على ظهر يخت وضعه رهن إشارته ملك العربية السعودية.

القيادة العليا الثورية

منذ بداية سنة 1972، كان محمود وعجول وبنحى وإبراهيم وأطر أخرى من التنظيم يلتقون. كلما سنحت بذلك الظروف. في بيت صغير فوق سطح في مومارت. كانوا جميعهم يشكلون نواة مهندسين ومثقفين تحولت تدريجيا إلى قيادة عليا حول الفقيه البصري. في ذلك الوقت. كان كل من غدا له إطار مهندس. أو مدرس أو محامي. يعني أن بإمكانه أن يتمتع بالحظوة والنفوذ. وكثيرا ما كانت العناصر المكونة في جامعات أوروبا تختار لتشارك داخل الأحزاب في تشكيل الحرس المقرب من الجهاز التنفيذي. كان هؤلاء الرجال يظهرون بمظهر الإدارة التقنوقراطية التي ليس لها من هم سوى الفعالية. وفضلهم. وصل التنظيم إلى مستوى من التدبير والتنظيم لم يسبق له أن بلغهما. فقد تغيرت المناهج والأسلوب. وأصبح العمل منهجيا مهنيا. وأما الأسلوب فقد أصبح ماركسيا. وسرعان ما كانت تتجاوز نقط الاختلاف باللجوء إلى القرار الديمقراطي. ورغم أنهم قاموا بتحليل نقدي للماضي. فإن المستقبل وحده كان بهمهم. وكانوا قليلي الاهتمام بالنزاعات البشرية. فلا يهتمون إلا بالحصيلة الفعلية. ولهذا. انصاع الفقيه البصري. في شيء من اللامبالاة المصطنعة. إلى هذا الأسلوب الجديد. ذلك أنه ولا شك كان يرتاح أكثر في العمل مع عمال مكتسبين إيديولوجيا أكثر ما يرتاح مع مثقفين يحسنون استعمال النقد الذاتي. إنها مراهنات مقاومة سابق على العودة. مقاوم تطبعه وطنية عربية اشتراكية غير واضحة. يعتبر أن التواطؤات التي اختبرت زمن المقاومة ما زالت قائمة. ذلك أنه من الصعب التخلي عن العادات القديمة. ففي نظر الفقيه البصري. يبقى رفاقه أيام المقاومة. سواء كانوا قد تقاعدوا أو التحقوا بجهاز الشرطة أو الجيش لخدمة الملك. يبقون دائما حلفاء الأمس ويمكنهم أن يصبحوا ثانية حلفاء الغد. إنه ارتداد إلى طباع القدماء ستغذي وتطعم منطق التآمر الذي سوف يواجه بقية الأحداث توجيهها صارما ...

كان محمود هو أول من فكر في تفضيل العمل الثوري الذي يلتحم من جديد حول مثال أعلى مشترك. ففي رسالته المؤرخة بـ 7 غشت من سنة 1971. كتب محمود: " (..) ولا يمكن الاعتماد فقط على الشعور أو السخط والاستياء ولا حتى الإرادة

إذ أن هذا كله لا يشكل مضمون مبدأ أو شعار. (...) إن ما يربطنا هو اتفاق عام وهو بذلك غامض. إن مجرد إثارة هذا الموضوع مع الماضل أو المسؤول من بيننا تثير جدالا حادا لاختلاف المفاهيم. وليس الغرض هو توحيد المفاهيم فحسب وإنما تزويد الجناح السياسي والجناح العسكري على الخصوص باستراتيجية محددة يلتزم بها الكل ويعمل على تحقيقها. ننظم مجهوداتنا وتوحيدها وجعل حدا للفوضى الفكرية والتنظيمية“.

خمن محمود وجود اهتمامات أخرى وراء هذا الإهمال التنظيمي. ذلك أنه خلف ماطلات الفقيه البصري الجاهدة، لم يكن الرجل مبتدئا في عالم السياسة. وتبين التجربة أنه إن كان في سوريا قد فوض دون تردد تدبير التنظيم إلى محمود ورفاقه. فإنه لم يفعل الأمر نفسه مع الجهاز الذي كان يقود العمليات في المغرب. وقادت الضرورات التنظيمية محمود إلى التساؤل حول نمط إدارة التنظيم: “بناء على اقتناعي بأن التنظيم الثوري الحقيقي هو إلى جانب “انضباط أعمى” و “طاعة حديدية” فإنه أيضا متفتح لدرجة تسمح بنقل الأفكار والإبداع في تيار مزدوج من القمة إلى القاعدة ومن القاعدة إلى القمة وهذه إحدى الضمانات الأولية ليكون التنظيم طليعة فعلية للطبقة الكادحة يعيش واقعها. ويعيش في زمنه ويعيش مشاكله“.

وحتى لا يساور الشك في ضرورة إعادة تشكيل إدارة التنظيم. فإنه يضيف: “وفي هذا الصدد. فإن الاعتماد على أفراد منعزلين ليقوموا بوضع ما تحتاج إليه الحركة من برامج وتخطيطات قد مورس وأظهر لنا من جملة ما أظهر أن النتوج يكون دائما غير كاف ودون المطلوب. لذلك يجب اعتماد طريقة العمل الجماعي (...) لأن حركتنا قائمة على الولاء الشخصي في مختلف مستوياتها (...) وقائمة على سلسلة من الأساليب القديمة أغلبها من رواسب المجتمع الإقطاعي (...) وإن كنا نلتزم بما يحلو لنا تردده في مناشيرنا من اعتماد التحليل العلمي فيجب عند تقديرنا لوضع من الأوضاع ووضع خطة من الخطط أن ننطلق من الواقع لا من الممكن. غير أن التحليل يبقى عندنا وهما وأسطورة وفي أحسن الأحوال حليا تترين به حركتنا. ما دمنا نستعمل الصيغ المحفوظة نردها كما هي. كباقي المنزلات السماوية. تكون في أحسن الأحوال قادرة على إبراز أهداف عامة وبصفة تقريبية. وأخطر من هذا ترك المغالطات تروج بين صفوفنا بل وإثارتها“.

ويؤكد محمود في الخاتمة: “مع علمي بأن النقد ضرورة تكوينية وتربوية“. إنها نبرة جديدة في سياق المرحلة. الذي كان لا يزال موسوما بطرق المقاومة المتسارعة وانضباط إيديولوجي يستعمل حجة لممارسات سلطوية.

ومع ذلك. فبينما كان هو يحلم بالتغيير كان الحزب لا يزال. سنة 1972. في قبضة الماضي الذي يهمل الحديث عن الواقع الحاضر وإمكانات المستقبل. ولأن الحزب لم يزود نفسه بوسائل تعبئة الجماهير من أجل نصره كفاحه. فإن العديد من الهيئات المسيرة للحزب لم تكن ترى من بديل سوى التنازل عن المبادرة لفائدة الجيش.

المؤامرة المزدوجة الزناد

كان آيت قدور. بعد أن تجاوز الثلاثين من عمره. سنة 1972. رجلا مكتملا. فقد حصل على دبلوم مهندس الأشغال العمومية. وهو يشغل منصب مدير ميناء آسفي. بيد أنه. كان كذلك مناضلا متمرسا محنكا. فبعد أن ترقى مراتب الحزب. التقى المهدي بن بركة في باريس. في الوقت الذي كان فيه كاتباً للفرع المحلي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. هناك. كان آيت قدور يلتقي أطرا شابة كان ينتظرها مستقبل زاهر متنوع: مناصب وزراء وسفراء ومفكرين ورجال أعمال. وقد أدهشه وضوح خاليل المهدي بن بركة. وهو يلاقي مَعْلَمَات أكاديمية وفكرية كما هو شأن جاك بيرك وروني ديمون. كان آيت قدور بارعا في تحليل مسألة إجلاء الاستعمار والإصلاح الفلاحي. كان آيت قدور يعيش مباشرة التضامن مع الشعب الجزائري الذي كان حينها يكافح. و يشهد كذلك تجاوزات الشرطة الفرنسية. وقد مكنه سفره إلى الجزائر بعد خربها من اكتشاف منفي المسيرين وخضم النزاعات والمنافسات. ثم جاء دوره في القمع والتعذيب والسجن. فدخل آيت قدور بذلك مجال القتال لأول مرة. ومنذ ذلك الحين. تغيرت أمور كثيرة. فقد لاحظ من بعيد فشل محاولة قيام حرب العصابات سنة 1969. ومن بعيد كذلك. شهد محاولة انقلاب اعبابو الفاشلة وهو الذي كان رفيقه في إعدادية أزرو. ومن بعيد دائما. شهد بنهيمة. الوزير الوصي عليه سابقا. يصبح وزيرا للداخلية.

وتدرجيا. تزايدت عمليات ذهاب وإياب آيت قدور إلى الخارج. ففي دجنبر من سنة 1971. زار بروكسيل من أجل مشروع لبناء جرافات في الميناء البحري. ثم سافر مرتين كذلك. في شهر أبريل وشهر يونيو من سنة 1972. في رحلتين لم تكن لهما سوى علاقة بعيدة بمشروع الميناء. وأما الذي سلمه جواز سفره فهو الجنرال حسني بنسليمان. هل هو تواطؤ أم جهل؟ وهاهو الرئيس البارز لقيادة القنيطرة. عمر الخطابي. والذي لا يمكن اتهامه بحب الأكاذيب. يصرح: "أنا الذي اتصلت بالجنرال حسني بنسليمان. الذي كان حينها عاملا على القنيطرة. لأطلب منه إرسال جواز سفر آيت قدور. وكان العقيد (الكولونيل) أمقران. الذي أنذرتة اتصالات آيت قدور الكثيرة بضباط الشرطة. قد ارتأى بأن هذا الأخير يثير الشكوك أكثر من اللازم. وبما أنه اعتبره عنصرا يكمن فيه خطر. فإنه أسر إلي نيته في تصفيته. وبما أن الجنرال بنسليمان كان صديقا شخصيا. فإني تدخلت عنده لأطلب منه تسهيل رجيل آيت قدور⁶".

وصل آيت قدور يوم الثلاثاء 4 يوليوز من سنة 1972 إلى فرنسا. وهاهو يوضح: "واصلت الطريق يوم الجمعة 7 يوليوز إلى ألمانيا لألتقي هنالك بالعقيد (الكولونيل)

6 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي.

أمقران والفقير البصري⁷. وهكذا فإن الرجلين التقيا بفضل موعد رتبته لهما آيت قدور. لم تكن المبادرة أبدا مبادرة معزولة. إذ إن اللقاء جاء بعد أن قام وسيط باتصال بين قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية و ... أوفقيير.

وبعد وقوع ما وقع. فإن الأسباب التي تفسر الدوافع الانقلابية لأوفقيير هي تعذيب رفاقه الذين أعدموا بعد انقلاب الصخيرات الفاشل والصعود القوي للدليمي واكتشافه. ولو متأخرا. أن النظامَ نظامٌ مختلس مبتز. وبعد اتصالات سرية عديدة. حصل أوفقيير على الضوء الأخضر من الخبايا الفرنسية والأمريكية⁸.

ولا شك أنه عندما بادر كذلك إلى إخبار قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية كان غرضه أن يصبح بإمكانه التصرف بحرية. فقد أرسل ضابطا يُدعى القبطان بوجمعة. إلى فرنسا حاملا رسالة إلى الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي. وذلك شهرين قبل الانقلاب. كان الرجل قريبا من أقارب الميد. قائد شبكة رجال العبور الذي تعاون مع أحمد بنجلون بمليية. وقد مكن تدخله من تسهيل مأمورية الوسيط.

ولكن هذا الاتصال الأخير تسبب داخل الكواليس في ظهور سيناريو ثان. فقد عزم أعضاء قيادة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية الرئيسيون على أن يضربوا عصافيرين بحجر واحد. وهكذا وُلد مشروع انقلاب مزدوج الزناد: أن يترك أوفقيير يتكلف بالملك. ثم. يُضفى أوفقيير وهو الروح اللعينة لنظام ساهم في إقامته على جثته رفاقه. ولما وصل آيت قدور. يوم 7 يوليوز. إلى ألمانيا صحبة الفقيه البصري وأخيه حسن. كان ذلك من أجل ضبط حبكة وسيناريو العملية.

بدا أن العقيد (الكولونيل) أمقران والفقيه البصري متفقان متفاهمان. إذ إن كان الفقيه البصري يرى أن من الحكمة. بل من الضروري. الاعتماد على مساعدة الجيش للتحكم في محاور البلد الحيوية والحساسية. فإنه كان متحفظا فيما يخص قدرة أمقران على تصفية الملك. كان يرى أن العملية بالغة الحساسية. ومن ثمة وجب عدم إسنادها إلى جنود محترفين يحترمون أوامر رؤسائهم أكثر مما يحترمون مثلاً سياسية عليا. وهو يحتفظ في ذاكرته بتفاصيل فشل انقلاب الصخيرات. قبل سنة من ذلك. وهو الفشل الذي كان يرجع إلى تطبيقي رافقته الصدفة وإلى تدبير غير منظم في الوقت نفسه. وكذا وعلى وجه الخصوص إلى جيوش لم يكن التحكم فيها تاما: فقد تراجع الجنود التلاميذ في اللحظة التي كان فيها الحسن الثاني على مرمى من بنادقهم. عوض جنود أمقران. كان الفقيه البصري يفضل رجاله هو. وهم مناضلون اكتسبتهم القضية الثورية ومستعدون للتضحية بأنفسهم. على الجيش

7 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور. وهناك خوامم على جواز السفر تشهد بصحة التواريخ.

8 حسب ستيفن سميت. فإن أوفقيير قد أخبر الأوائل خلال وجبة غداء رفقة ألكسندر دوماروشيس. المسؤول الكبير عن SDECE. بلندن. ورغم أن لا وجود لأثر حتى يومنا هذا. للمفاوضات مع الخبايا الأمريكية. فإن كون القاعدة الأمريكية في القبطرة استعملت كمركز لقيادة الانقلابيين يشهد على مواقفهم. أوفقيير. مصير مغربي. منشورات كالان ليفي. 1999.

إذن أن يسلم الحسن الثاني إلى رجاله، الذين سيتكلفون بالباقي. ويؤكد إبراهيم: "وُضِع مشروع تعطيل الطائرة الروحية الملكية. وحالما تنزل الروحية على الأرض هبوطاً اضطرارياً في مكان محدد مسبقاً، يتكلف فريق بالملك. كانت كلمة السر للعملية هي: الفيضان"⁹.

هل كانت هذه هي المهمة السرية التي تكلف بها الكوموندو البحري¹⁰؟ ومع ذلك فلا شيء يدل على أن التواطؤ بين الفقيه البصري وآيت قدور من جهة، والعقيد (الكولونيل) أمقران من جهة أخرى قد أفضى حقيقةً إلى برنامج عمل متفق عليه. بل إن آيت قدور يرفض الأمر قائلاً: "كان أمقران مريضاً. وخلال فترة نقاهته في بادن بادن، أصبح الرجل منهوك القوى ويعرف أن أيامه قد باتت معدودة. كان ينتقل متكئاً على عكازه. كيف يمكن. وحالته هاته، أن يفكر في تزعم مؤامرة وقيادتها؟"¹¹ ويتوقف آيت قدور قليلاً قبل أن ينهي كلامه بخاتمة لن يعود إليها ثانية: "لقد رَجَّح بأمقران في عملية لم تكن عملياته وعلاقاتنا كانت علاقة صداقة محضة"¹².

وعند عودة آيت قدور من المنفى بعد مرور عدة سنوات، أعاد القصة نفسها على رجال الشرطة الذين أتوا لاستنطاقه. ورغم أنه تردد بعض التردد في الحوار الثاني، فإن هذه الشهادة باتت بالنسبة إليه الرواية الرسمية. وفي سيرة ستيغن سميت عن أوفقي¹³، حدث، دون أن يركز على الأمر، عن عقيد (كولونيل) هو أمقران أنقذه أوفقي من التصفية وأصبح حليفاً في مشروع الانقلاب بعد أن تردد كثيراً. ويبدو أن بعض اليقين ينجلي من هذه الظنون والشكوك. فإن كان أوفقي هو الرجل الذي تكلف بتصفية الحسن الثاني، فإن أمقران كان في نظر الفقيه البصري هو الرجل الذي عليه تصفية أوفقي.

كان الدكتور عمر الخطابي، وهو ابن أخ البطل التاريخي عبد الكريم، ومن ثمة فهو ريفي الأصل كما هو شأن العقيد أمقران. كان معروفاً بكونه يعادي الملكية دون أن تكون له انتماءات حزبية. كلفه العقيد أمقران بربط الاتصالات السياسية لإعداد مرحلة ما بعد الحسن الثاني. ويؤكد عمر الخطابي بأن أوفقي، إن كان الوصي على الانقلاب فإنه لم يكن هو المحرض عليه. وقد كان الهدف الأخير للعقيد أمقران هو

9 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

10 تتضمن شهادة المهندي أحد أعوان دكتور. وحسب محضر محكمة القنيطرة. أمراً مُحبراً إن اعتبرنا أن السجناء يفضلون حصر تصريحاتهم فيما تعرفه السلطة مسبقاً: في يوليو من سنة 1972، أي شهراً قبل الانقلاب، أرسل المجد رسولا إلى دكتور يطلب منه الذهاب إلى الرباط من أجل التعرف على محيط بنايات تأوي المقر العام للقيادة العليا للقوات المسلحة الملكية. المصدر: قرار المحكمة العسكرية بالقنيطرة. رقم 8754/1748.

11 حسب شهادة الدكتور الخطابي، الذي اعتُقل وحُكِم بحسب علاقاته مع أمقران والكويبة. وهما منفذاً انقلاب 16 غشت من سنة 1972 والذي كان طبيبهما. فإن أمقران كان يعاني من مرض في الكلى لا يُشفى. وكان يعلم، منذ سنة 1972، أن أيامه أصبحت معدودة. بل وخلال إقامته في المستشفى في يونيو من سنة 1972 بفرنسا، كان حسب طبيبه، في حالة موت سريري. تقارير صحافية.

12 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

13 أوفقي. مصير مغربي. منشورات كلان ليفي. 1999.

تصفية الحسن الثاني وكذا أوفقيير نفسه. وأما فيما يخص عملية اتفاق عليها العقيد أمقران والفقير البصري. فإن عمر الخطابي يبدو جازما في رأيه: "كان الفقير البصري على علم بالأمور التي يتم الإعداد لها. كما كان شأن زعماء آخرين لأحزاب سياسية. ولكنه لم يسأهم في شيء في الإعداد للأمر¹⁴".

وهاهو مقطع يحكيه إبراهيم يرفع جانباً آخر من الحجاب الذي يلف المسألة. ففي يوليو من سنة 1972. التقى الفقير البصري في باريس. بمحطة القطار الشرقية. عبر الرجلان شارع ستراسبورغ ذات صباح صيفي جميل وهادئ ومشمش. كان على إبراهيم أن يرحل إلى طرابلس في اليوم الموالي. أخذ يعدد المشاكل التنظيمية التي لاقاها في ليبيا واحدة تلو أخرى. ولكن الفقير البصري لم يكن يصغي تمام الإصغاء إلى المشاكل التي تعلق إبراهيم. كان فكره شاردة. ولما أحس بأن إبراهيم قد انتهى من حديثه. أخبره بأن هناك انقلابا يتم الإعداد له في المغرب. وهو قد أخبر إبراهيم بالسر. لأن الليبيين يعلمون به كذلك. ولما سأل إبراهيم عن مدبري الانقلاب. نطق الفقير البصري باسم أوفقيير. كان الرد عفويا. عاريا من التعابير الملائمة التي يكون القصد منها عادة هو تلطيف إحساس بعدم تصديق ما قيل أو عداء شخص غير متقبل للأمور. ذلك أن الفقير البصري. وكما هو شأن قادة الحزب. لم يكن يرى من الضروري تبرير الأوامر التي تُعطى للمناضلين الذين من المفروض فيهم أن يتميزوا بالخصلة الأولى وهي التفاني الذي لا يساوره الشك. بقي إبراهيم مبهورا مندهشا. فإن كانت لا تزال بعض الأوهام تسكنه. فإن كلام الفقير البصري قد زعزعها إلى الأبد.

ولما رجع الفقير البصري من ألمانيا حيث ودع العقيد أمقران. كان قد عقد عشية ذلك اليوم اجتماعا لقيادته العليا في باريس. وهاهو إبراهيم يوضح: "كنت قد حضرت اجتماعا في موارتر. كان الهدف من هذا الاجتماع هو تعبئة القيادات العليا السياسية في أفق حدوث الانقلاب. ولكنني كنت أجهل تفاصيل العملية¹⁵". كل شيء يدل إذن على أن القيادة العليا للتنظيم. إن كانت تعلم بالسر فإنها لم تكن تساند مشروع الانقلاب. هل وافق عليه محمود؟ من يعرف إيمانه الثوري. يمكنه أن يشك في الأمر. فقد اعتاد أن يردد للمقربين منه: "إن قصدا ليس هو قطع بضعة رؤوس. ولكن قصدا هو تحقيق الثورة¹⁶". ومن ثمة. فإن أي تواطؤ مع أوفقيير ولو كان تكنيكيا. لا يمكن أن يوافق عليه محمود إلا بصعوبة بالغة. فقد كان الرجل في نظره يجسد منتوجا استعماريًا من الدرجة الثانية. ويجسد في الآن نفسه جلادا. وقبل ذلك. وغداة أول انقلاب عسكري. حذر محمود من خطر "استبدال نظام فاسد بآخر".

14 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي. سوف يعترف في المحاكمة بالقنيطرة بأن الفقير البصري كان قد قدمه له أيت فدور في القاهرة. وربما سلمت وثيقة إلى أمقران من أجل تسليمها إلى أوفقيير. بغرض التحضير للقاء به. وهو يُذكر بأن أمقران كان قد جرح في الصخيرات وأنه أصيب بصدمة نفسية وأنه يرى أن أوفقيير قد استطاع إرجاع الثقة إلى صفوف الجيش.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

16 حوار للمؤلف مع حميد بن عمار.

وبوم 30 يوليوز من سنة 1972، اجتمع أعضاء الحزب الأشد عزمًا في لجنة صغيرة في الرباط. حضر الاجتماع عمر بنجلون وعبد الرحيم بوعبيد واليازغي والخصاصي. هل كان الغرض هو تنقية الحزب بإزاحة الزعماء القدماء قبل إطلاق أول رصاصة؟ إن السياق المشحون في تلك الفترة يسبغ على هذا الاجتماع أجواءً لجنة للإنقاذ العام، والتي سُميت نظراً لغياب تسمية أفضل "الاتحاد الوطني للقوات الشعبية-اللجنة المركزية". سوف يتولد عنها بعد مرور الوقت الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية¹⁷. ساند هذا الديوان المصغر مبادرة التنظيم المسلحة وهو يواصل تعزيز الصورة المظمنة لحزب إصلاحى ودستوري. وأمام الطريق السياسي المسدود الذي ما فتئ يتجه نحو خطر مجابهة عسكرية. بات التنظيم، وهو المكون السري للحزب، يجسد الجناح المتحرك الذي من المفروض فيه أن يأتي بالتغيير.

ولئن كان الفقيه البصري يدعي بأنه هو صاحب المبادرة، فإن عبد الرحمن اليوسفي وعبد الرحيم بوعبيد، ورغم أنهما يحتاطان فيما يخص الأمور العسكرية، لا ينكران أبوتهما السياسية لهذه المبادرة. وقد قال عبد الرحمن اليوسفي لإبراهيم الذي كان يتحدث معه يوماً في مشاكل التسليح قولاً معبراً: "لا يهمني الكسكس، ما يهمني هو الخضر التي تتوج الطبق"¹⁸.

الأربعاء 16 غشت من سنة 1972

حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال، تعرضت طائرة بوينغ 727، التي كانت عائدة لحسن الثاني وحاشيته إلى الرباط بعد زيارة إلى فرنسا، تعرضت لإطلاق النار من قبل طائرات مطاردة ف5 نورثروب ظهرت فجأة في الأفق فوق سماء تطوان بمجرد دخلت الطائرة الفضاء الجوي المغربي. وبعد هبوط طائرة البوينغ هبوطاً اضطرارياً في مطار الرباط، أفلعت طائرات أخرى من قاعدة القنيطرة واتجهت إلى مطار الرباط، حيث قصفت القاعدة الشرقية وأطلقت قنابل على القصر الملكي. وقد التفت القائد تكومندان) كويبر، الذي كان يقود سرية الطائرات في عرض مياه الرباط، وأما العقيد عفران، والذي كان يقود العمليات من برج المراقبة بالقاعدة العسكرية بالقنيطرة، منه قفز داخل طائرة مروحية صحبة الملازم الأول (ليوتنان) الميداوي، ولجأ إلى جبل عرق. وفي اليوم الموالي، أعلنت الإذاعة انتحار الجنرال أوفقيير، وزير الدفاع ورئيس القيادة لعباً للقوات المسلحة الملكية.

¹⁷ من هذه اللحظة، انقسم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى قسمين: فرع في الدار البيضاء يقوده عبد الله إبراهيم عميد س. الصديق، الكاتب العام للاتحاد المغربي للشغل، وفرع الرباط، يقوده عبد الرحيم بوعبيد، وكان الفرعان يتهم الواحد سبب الآخر بالخيانة.

¹⁸ هو ما معناه: إنني أترك لك مسألة اختيار الوصفة، المهم عندي هو أن يكون الطبق موفقاً!

وهكذا فشل الانقلاب الثاني بفعل تظافر مدهش للظروف. وهو الأمر الذي أسال بعد ذلك مدادا كثيرا. أرادت الرواية شبه الرسمية أن يكون العقيد أمقران هو الذي وَشَى بأوفقيير مباشرة بعد دخوله جبل طارق. وهو السيناريو الممكن إن تذكرنا تواطؤه المفترض مع الفقيه البصري. وكما كان شأن أحمد بنجلون وسعيد بونعيلات سنة 1970. فإن العقيد أمقران والملازم الأول الميداوي سوف يُسلمان إلى جلاديهما. وفي هذه المرة. كان الداعي هو المصلحة العليا البريطانية بدل الإسبانية.

وأما القصر. فقد شك من جهته شكاً كبيراً في طبيعة الانقلاب الثاني. عذب العقيد أمقران طيلة ليالٍ لَتُنَزَع منه اعترافات عن توطئه مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وخاصة مع البازغي وعمر بنجلون. ومن باب الوفاء بعد الموت. حاول العقيد أمقران خذيرهما بواسطة المحامين لحظات قبل أن يسقط تحت رصاص الإعدام يوم 13 يناير من سنة 1973. صادف الأمر. ولكن دون أن يكون ذلك مجرد مصادفة. تعرض البازغي وعمر بنجلون في اليوم نفسه لمحاولة اغتيال بواسطة طرد ملغوم.

الإدارة برأسين

بعد فشل الانقلاب الثاني. تخندق كل واحد وراء مواقفه. بين "الخط الإصلاحى". الذي كان ينتمي إليه عبد الرحيم بوعبيد. و"الخط الثورى". الذي كان ينادي به الفقيه البصري. بين هذا وذاك. كان الاتحاد الوطني للقوات الشعبية يبحث عن طريقه. كان تكتيك عبد الرحيم بوعبيد هو التلويح بشبح انتفاضة مسلحة من أجل تلبين موقف القصر ودفعه إلى القبول باتفاق سياسي. وفي هذا الحين. كان الفقيه البصري. كما هو شأن دوغول في المنفى عندما نادى بعدم التعاون مع العدو. يراهن على تزايد القمع الذي سوف يغذي في الآن نفسه نزيف المناضلين ويخصب ضمائرهم الثورية.

فكما كان دوغول يملك موجته الإذاعية. كان الفقيه البصري كذلك يملك موجته الإذاعية. وفي هذا الجو الذي تزايد فيه التوتر سرعان ما أصبحت هذه الموجة حجر الزاوية. فالقصر. بعد أن أخذ العبر من فشل الانقلاب الثاني. دعا عبد الرحيم بوعبيد إلى التفاوض. فبدأت فكرة حكومة اتحاد وطني تختمر. زد على ذلك. أن إدارة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بدأت في إدخال شباب الحزب إلى الساحة والاحتفاظ في الصفوف الخلفية بالقدماء. والحال أن هذه المناورة لم تكن تفيد في شيء نوايا الفقيه البصري.

وفي شتنبر من سنة 1972. كتب صحفي راديو ليبيا من طرابلس افتتاحية حارقة ضد عبد الرحيم بوعبيد. ووافق إبراهيم الذي كان حينها في أوروبا على الأمر. ولم يكن ذلك ليُرضي عبد الرحمن اليوسفي. المسؤول عن العلاقات الدولية للحزب.

والذي كان المؤهل بهذه الصفة للتقرير فيما يخص خط الافتتاحية على أمواج راديو ليبيا. وبعد أسبوع من ذلك، استدعى الكل إلى طرابلس. لم يُبدِ الفقيه البصري ومحمود وإبراهيم وصاحب النقد اللاذع الندم على ما قاموا به رغم تأنيب عبد الرحمن اليوسفي. أحس محمود بالغضب ينتابه، فوقف وقال لعبد الرحمن اليوسفي: — في جميع الحالات، ليس أحمد (وهو لقب إبراهيم) الذي أعطى الأوامر بالتعرض لعبد الرحيم بوعبيد¹⁹.

وكان عبد الرحمن اليوسفي ينتظر هذه اللحظة، فقال بهدوءه الاعتيادي: — بالنسبة إلي، ليس هناك سوى مسؤول واحد عن راديو ليبيا، وهو بنونة (الاسم العائلي المستعار لإبراهيم).

ولكن لا شيء بسيط في المغرب، وسوف تقدم تصريحات عبد الرحيم بوعبيد أمام محكمة القنيطرة، بعد سنة من ذلك²⁰، إنارة جديدة لطبيعة تلك المصالحات السرية مع الحسن الثاني. فقد رد على القاضي الذي كان يؤاخذ بعض المتهمين على مجرد اتصاليهم بالفقيه البصري، بأن الحسن الثاني نفسه كان يتفاوض مع الفقيه البصري بوساطة منه²¹.

أكتوبر من سنة 1972: تدريب في ليبيا

ومع توافر الظروف، أُقيم معسكر للتدريب في ليبيا بدايةً خريف سنة 1972. تابعت بانتظام أفواجٌ عديدة من مجموعات المناضلين تتكون من خمسة إلى عشرة أعضاء، منهم من استقطبتهم الخلايا السرية ومنهم من اجتذبتهم أمواج راديو ليبيا. كانوا يأتون من أوروبا ومن الجزائر ومن الشرق الأوسط ومن المغرب. كانوا في أغليبتهم عمالاً مهاجرين وطلبة، بل إن إبراهيم يتذكر سينمائياً كان من بينهم، وطبعاً كان من بينهم كذلك رجال البوليس، ويتذكر إبراهيم أن "الطلبة كانوا على وجه العموم طوباويين يريدون الشروع في العمل على وجه السرعة. في حين كان المناضلون واللاجؤون في الغالب يعصون الأوامر"²². فإن كان عبد الغني بوسنة طالباً سابقاً في غرنوبل، ثم أصبح مهندساً في الآلية الصناعية، غادر منصبه كمدير لسدود جنوب

19 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوصلح.

20 فقد قال في مرافعة سوف تحتفظ بها كتب التاريخ بالمغرب إن "الملك كان يفكر في العفو عن الفقيه البصري والسماح بعودته إلى المغرب سنة 1971 و1972". ويتحدث بوعبيد عن خيبة الأمل التي تولدت عن فشل هذه المفاوضات واختطاف المهدي بركة والعراقيل السياسية واليأس الذي تولد عن الفجع. فبالنسبة إليه، كان العنف-المضاد رد فعل شرعياً. ومع ذلك فهو يدين العنف-المضاد، كما يدين التدخلات الخارجية ويؤكد بأن الحزب يجب أن يتخذ موقفاً، خلال مؤتمر، فيما يخص مصير الفقيه البصري. وصرح كذلك بأنه مستعد للمشاركة في الحكومة من أجل الإعداد لانتخابات حرة ونزيهة، وملكية دستورية وديمقراطية حقيقية. ليموند (العالم)، 9 غشت 1973.

21 أنظر جبل بيرة، صديقنا للملك، منشورات غاليمار، 1985.

22 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوصلح.

المغرب ليلتحق بصفوف الثوار. فإن العديد من المناضلين الآخرين تخلوا كذلك عن متابعة دراستهم ليلتحقوا بصفوف الكفاح المسلح. وهذا إلى درجة أن النوايا الحسنة لم تكن دائماً مصحوبة بكفاءات حقيقية. فوسط اندفاعهم الحماسي، تسرع العديد منهم بعض التسرع عندما حولوا حُبهم للعدالة إلى موهبة ثورية. لقد كانت ثورتهم صادقة ولكن تكوينهم كان يحتاج إلى أن يُشجّد أكثر.

كان على خالد أن يصنع من هؤلاء الرجال، الذين كانوا يميلون إلى البطولة أكثر مما يميلون إلى الانضباط، أطراً مناضلة فعالة وجديرة بالثقة. يعوض وعيها السياسي ودرايتها العسكرية الأوهام الشعاعية الأولى. ويقول إبراهيم، الذي أطلق عليه المناضلون لقب كولومبو في إحالة إلى شَعْرهُ الأشعث وإلى معطفه المدعوك الذي لا يفارقه: "كان الكتمان فيما يخص الهوية مطلقاً ولما كنت أعرف الهوية الحقيقية للمناضلين"، ويواصل قائلاً: "ولكن كان هناك اتفاق ضمني فيما يخص المسائل الإيديولوجية". إنه تعبير ملطف. إذ إن المناضلين المتدربين يجمعون على هدف واحد مشترك: الإطاحة بالنظام الملكي. وأما فيما يخص الباقي، فإن إبراهيم كان يجد نفسه أمام مسائل حساسة. ولكنها كانت تدل على ظروف العيش التي تتصف بها إقامة المناضلين، كما هو شأن تعايش عناصر تصوم شهر رمضان وأخرى لا تصوم.

ويوضح خالد بأن "التدريب بدأ في السواني، وهو معسكر أُنشِئ في غابة تبعد مسافة ثلاثين كيلومتراً عن طرابلس"²³. وكان التكوين يدوم ما بين 45 و50 يوماً. يتم خلالها تعلم التقنيات التي وُضعت في سوريا والتي جُرِبت منذ ذلك الحين على أرض الواقع. والحاصل هو أن مائتي مناضل كانوا يتدربون على حرب العصابات في ليبيا تحت قيادة خالد.

كان الليبيون يزودون بالسلاح والمال. ولكن مساعدتهم هاته، رغم أنها كانت ثمينة، فإنها لم تكن مُسرّفة مُفرطة: 17 جنيهاً (أي حوالي خمسين دولاراً، في ذلك العهد) لليوم الواحد والحوالي عشرة مقاتلين. تنضاف إليها مساعدات إضافية، منها عربات نقل أو تذاكر طائرة. في ذلك العهد، لم تكن ليبيا قد وضعت يدها على جميع آبار البترول التي سوف تَحوّل بعد ذلك نزعاً مسيرها الانعزالية الحساسة. وكانت مختلف القنوات الثورية الدولية، وخاصة منها قناة الفلسطينيين، تشكل مصدراً آخر لتمويل التنظيم.

وهكذا ساهم الدعم اللوجستيكي والمالي الذي سهرت عليه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة ياسر عرفات فتح، ساهم بنصيب وافر في تعزيز مصاريف التنظيم. وأما السلاح، فإنه كان هو نفسه الذي يُستعمل في سوريا، ولكن بعد أن

23 ح. م. م. مع محمد التوزاني المعروف بخالد.

عرف بعض التحسينات. وأحياناً. كانت بعض الآلات البالغة التطور. كما هو شأن الرشاش ستيرن المزود بكاتم للصوت. تثير إعجاب المدعويين عندما يحل مساءً لا يكفي فيه التحليل الايديولوجي ليبقى تركيزهم متنبها.

نقل الأسلحة

في المغرب بدأ قياديو خلايا التنظيم. أمدّة والنمري وسيدي حمو في الجبال. ودهكون في المدن. يطالبون بالحاح بالأسلحة والذخيرة. ذلك أنه رغم أن السبيل الذي دبره الحسين المانوزي قد أبان عن فعاليته. فإن الحمولات كانت قليلة والكميات محدودة.

وسوف يطلق على الطريق التي كان يتم عبّرها نقل الأسلحة "طريق إبراهيم المانوزي" في ذكرى المعبّد الذي أعدم في شهر يوليوز من سنة 1971. وتشبيها لها بطريق هو شي منع التي كانت تزود الخطوط الأولى لفبيت كونغ. وهاهو أحد ناقلي الأسلحة الرئيسيين يتذكر: "كنا نأخذ مسارّين لربط وهران. مسارّ أول عبر تونس. طوله 1500 كيلومتر. والثاني كان يتجنب تونس وطوله 2400 كيلومتر. كانت الرحلة تدوم ما بين ثلاثة أيام وعشرة أيام. ذلك لأن المتاعب الميكانيكية لم تكن قليلة"²⁴. كانت العربات المخصصة لنقل الأسلحة. وهي شاحنات صغيرة في حالة متواضعة. تُستقدم على وجه العموم من إيطاليا أو بلجيكا. وكانت قنابل اللدائن والآلات التفجير تُستقدم داخل حقائب. غالبا ما ينقلها مناضلون جُنّدوا داخل أوساط المهاجرين المغاربة ويجهلون محتوى الطرود. لقد كان هذا الحل غير الأنيق لازما وضروريا لضمان سلامة أعضاء التنظيم. زد على ذلك أن حسين المانوزي كان يُنشط خلية من مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في ليبيا لهذا الغرض.

ويذكر عباس. وهو المحامي المدرب الذي استقطبه دهكون. والذي أصبح مراسل التنظيم من داخل المغرب: "في شهر أكتوبر من سنة 1972. وفي اليوم الأول من شهر رمضان. ذهبت إلى باريس. وكانت ذريعتي هي التسجيل في جامعة السربون من أجل الدراسة بالسلك الثالث حقوق. وكان اسمي المستعار هو البراك"²⁵. إنه أول اسم مستعار من لائحة طويلة. كانت بمثابة بطاقات زيارة عابرة تدوم دوام المهمة الواحدة. في باريس. التقى الفقيه البصري. كان الغرض من اللقاء هو تنظيم تسرب مجموعة من المقاتلين المسلحين. بدأ عباس سلسلة من الشكاوى استهلها بالمؤهلات المهنية للرجال المعنيين. وأنهاها بنوع السلاح المطلوب. وأما الفقيه البصري. الذي لم يكن

24 حوار للمؤلف مع بوجمعة الحاج. المعروف بسعد.

25 حوار للمؤلف مع مبارك بوردقة. المعروف بعباس.

من عاداته الاهتمام بالجزئيات التقنية. فإنه اكتفى بأن أكد على أن كل شيء تم توقعه. ودعا عباس إلى الالتحاق بطرابلس لوضع اللمسات الأخيرة. وغداة اليوم الموالي. رحل عباس إلى روما ومنها استقل الطائرة إلى طرابلس. وعند وصوله. استقبله إبراهيم.

كان التنظيم حينها يتصرف في العديد من الفيلات والشقق بالعاصمة الليبية. وكانت إحداها تأوي هيئة التحرير براديو ليبيا. والأخريات كان يقطنها المناضلون عند مرورهم من ليبيا. ودون أن يعلم عباس بالأمر أمضى الليلة ضحية أعضاء الفريق المتكون من الغواصين الأربعة الذين تكونوا في العراق. وقد جاء هو بالضبط خصيصا لترتيب تسريحهم. وهم كذلك كانوا يجهلون سبب مجيء عباس. إنها خاصية من خصوصيات العمل السري الذي يجعل أقدارا متضامنة يجهل بعضها بعضاً تتواجد جنباً إلى جنب.

درس إبراهيم العملية مع الهوني الذي دعا إلى اللقاء الرائد (الكوماندان) عبد الرحمن سعيد. قائد القوات المسلحة البحرية الليبية. فاتفقوا على إنزال الكوموندو برجاله وعتاده. في شاطئ على ساحل البحر الأبيض المتوسط في نواحي تطوان. وأما عباس. فإنه خطط لكيفية إيواء الفريق بعد الإنزال. درس كل شيء بعناية انطلاقاً من بطاقات التعريف المزورة التي سلمها لهم قاض عضو في التنظيم. إلى تحديد قدرات عربات النقل التي سوف توضع عليها الحملة. كان من المفروض أن يتم إجاز العملية في ليلة مقمرة ويوم سبت حتى يتسنى لقائد السلطة بالمنطقة. وهو متواطئ مع التنظيم. أن يحول اهتمام حرس السواحل بتنظيم سهرة تنشيطها راقصات. كان كل شيء قد تم إعداده وترتيبه إلا مسألة جزئية واحدة. لم تكن مهمة ولكنها كانت مصيرية. وهي التي أفشلت العملية. فبما أنه كان من المستحيل استعمال بارجة عسكرية ليبية. فقد تم اللجوء إلى باخرة تجارية. وبعد معاينة الباخرة تبين أنها لا يمكنها أن تُبحر إلا بحمولة ثلاثة أطنان على الأقل. والحال أن هذه الحملة تتجاوز قدرة العريات التي سوف تستقبل الفريق ومتاعه.

هل كان الأمر ذريعة مغلوطة تُخفي وراءها الرفض؟ هذه الفرضية غير أكيدة عندما نكون على دراية بمستوى الرجال عند الليبيين. فهم إن كانوا لا ينضّبون عندما يتعلق الأمر بالتغني بأمجاد الثورة. فإنه لم يكن من النادر أن يبقوا مكتوفي الأيدي والألسن عندما يحدث مشكل تقني. كان من اللازم إعادة العملية. وبعد مرور بضعة أيام. دعا الهوني إبراهيم. واقترح عليه إنزالاً من الجو. ولكن الاقتراح كانت فيه مخاطرة كبيرة: ذلك أن أعضاء الخلية السرية سوف يكون عليهم أن يتحركوا دون غطاء.

كان أغلب اللاجئين الذين وصلوا إلى باريس مزمقين بين تيه الماضي والواقع الصعب الذي يعيشونه والحلم بِقَد مُشرق. فكانوا يواسون أنفسهم بعمل حركي نشيط جامح. وهامو أحدهم يتذكر: "كُنْتُ مسؤولاً عن شبيبة الحزب براكش وكان لي الحظ بأن أتواجد في الدار البيضاء لحظة حملة الاعتقالات في دجنبر من سنة 1969. إذ هكذا استطعتُ الهروب من البوليس واللجوء إلى فرنسا²⁶". ولا شك أن وجهه الطيب وابتسامته المرحّة هي أحسن غطاء يتخفى وراءه هذا المنفي الجديد. وحالما وصل إلى باريس، عوض المناضل السابق الذي انكشف أمره عند إنزال الشرطة في شقة شارع سان دومينيك واعتقال النمري²⁷. ولأنه أصبح رجل اتصال التنظيم في فرنسا، وجد أن عليه أن يعمل كل شيء: يكتري الشقق ويحجز الغرف في الفنادق متخفياً وراء هويات مختلفة ويحجز تذاكر الطائرة ويزود بالسيارات ويرتب صناديق البريد، وكذا وعلى وجه الخصوص، يخبئ الوثائق والأموال وأحياناً السلاح. كان الرجل يجمع بين روح العمل التطبيقي ونزوع فطري إلى السرية والتكتم، فكانت له علاقات عابرة مع مسيري التنظيم.

كان الفقيه البصري ومحمود ودهكون والنمري يلتقونه لقاءً عابراً على ساحة بلدية باريس أو فوق جسر نوبي أو داخل المترو. ذلك لأن باريس، المدينة ذات المسارات الرومانسية، كانت تُعتبر أرضاً معادية في خرائط التنظيم. إنه واقع يقلل من الإحساس بالحرية الذي ينتاب المناضل السري حال خروجه من المغرب. لقد كان لسابقة حملة الاعتقال البوليسي التي داهمت شارع سان دومينيك وقعٌ تربوي تعليمي. فهو يُذكر المناضلين بأنهم في باريس يوجدون في مدينةٍ تعج بالبوليس السري. وقد أدى المهدي بن بركة وأحمد بنجلون وسعيد بونعيلات ثمن تعاون لصيق بين البوليس السياسي المغربي ومصالح المخابرات التابعة للأوصياء الاستعماريين سابقاً.

وكان هاجس عملية اختطاف ينفذها الأمن المغربي يفرض العديد من إجراءات الاحتياط. فغدا القدر اليومي للمناضلين هو تدريب ذكرائهم على حفظ لوائح كاملة بأرقام الهواتف والعناوين. والانفلات من المطاردات، غدا هذا هو القدر اليومي للمناضلين الرسميين الذين يمرون من باريس. ولكن الصداقة الحميمة الناجمة عن خطرٍ محقق مشترك لا توجد في العمل السري. فالمناضلون السريون إن كان يحدهم الأمل نفسه والتخوفات ذاتها، فإنهم ينغمسون في الوحدة التي يفرضها عليهم حذرهم

26 حوار للمؤلف مع أحمد الطليبي.

27 أنظر فصل التنظيم.

الذي لا ينطفئ فتيله. ويتذكر عباس قائلاً: "عند وصولي إلى باريس في شهر مارس من سنة 1973، سمعت من أخبرني باعتقالي أنا شخصياً²⁸". ولئن كان الخبر غير صحيح فإنه يدل على الأقل أن الانغلاق قد أبان عن فعاليته. فقد كان المناضل الذي أخبره بالاعتقال يجهل بكل وضوح مخاطبته. في هذا الجو المليء بالشك العام والذي يتحول أحياناً إلى حالة من الذهان العصبي، أصبحت باريس الأرضية التي يعاد انطلاقاً منها توجيه أعضاء الشبكة والسلاح والمال.

بيد أن التجربة بينت أن الحذر يفرض نفسه حتى على التراب الذي يفترض فيه أنه "آمن". فقد أرسل أوفقيير العديد من المخبرين إلى طرابلس ليحاولوا التسرب داخل التنظيم. أكيد أن أعضاء التنظيم كانوا قد اعتادوا على الشك في أمور التحدي ودعوات الترحاب، وخاصة تلك التي تأتي من الأوساط المغربية المستقرة في ليبيا. ولكن، من بين هؤلاء، استطاع مقال. يدعى إدريس آدمون. أن يراوغ حيلة وحذر حسين المانوزي. كان يسير مقاولاً ناجحة للنقل. وبلغت صداقته بالحسين المانوزي من القوة إلى حد أن العديد من عربات المقاول كانت تستعمل في نقل السلاح إلى الجزائر. ولما ذهب إبراهيم إلى فرنسا في شهر أكتوبر من سنة 1972، قرر الحسين المانوزي قضاء بضعة أيام في بلجيكا. ولهذا الغرض. قرر أن يتوقف في تونس من أجل زيارة صديقه آدمون الذي ينزل بها هو كذلك أحياناً. وهاهو إبراهيم يتذكر: "في الفترة نفسها حذرني متعاطف مغربي له علاقات نافذة في طرابلس من تصرفات آدمون؛ فعند مروره من تونس، كان قد اندهش من تغيبات آدمون الغريبة والمتكررة خلال مواعيده ومن التصنع والتكلف اللذين يظهران عليه عندما يستفسره عن تغيباته المتكررة²⁹". لقد كانت ملابس غير كافية في نظر الحسين المانوزي، حتى تصبح حقيقة تؤخذ بعين الاعتبار. فأني مصداقية يمكن أن تعطى لرأي متعاطف يجهل أنشطته السرية؟ هل كان الأمر بسبب البلادة أم بسبب ثقة عمياء؟ لن نعرف ذلك أبداً. سافر الحسين المانوزي إذن إلى تونس، وكانت آخر علامة على أنه لا يزال على قيد الحياة هي برقية بعث بها مؤرخة بـ 29 أكتوبر من سنة 1972: "لقد وصلتُ توقيع: غاسبار.

كان غاسبار هو اسم السر. وهي إحالة إلى شخصية رسوم متحركة كانت مشهورة في ذلك العهد. وغاسبار يتميز بكونه صغير الحجم قوي البنية. دق انفجار الانقلاب الثاني وكأنه تنبؤ. وزاد من الإحساس بضرورة التعجيل بالأمور إحساساً يمتزج بعدم اليقين. وهو الشعور الذي استحوذ على محمود ورفاقه. ولأن الضعف التنظيمي أبقاهم في حالة انتظار، فإنهم شهدوا النظام الشنيع بتأرجح فوق قواعده مرة ثانية. ولأنهم كانوا يبحثون عن أمور توجد قريبة منهم. ألم يكن يتهددهم خطر التيه والضياح؟

28 حوار للمؤلف مع مبارك بودرق. المعروف بعباس.

29 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوصلح.

كواليس الثورة (1972 — 1973)

الشبكة الحضرية

من الدار البيضاء إلى الرباط، ازدادت الشبكة السرية التي أنشأها دهكون أهميةً وفعاليةً. كان الغطاء هو: قارئ القرآن في إحدى مقابر الدار البيضاء. وهكذا كان دهكون الذي أصبح اسمه الفقيه الميلودي، يتجول في اطمئنان مرتدياً جلباباً ومرسلاً حية طويلة وواضعا على عينيه نظارات شمسية وعلى رأسه طربوشاً، ولكن تحت جلبابه كان يخبئ مسدساً. كان يبدو بمظهره الصارم بارعا في فن التجسس براعة لا شك أنها كانت ستثير إعجاب أطر المخابرات الروسية والأمريكية. من ذا الذي كان يمكن أن يشك في أن هذا الفقيه يُسير عدة خلايا، من وزارة الداخلية إلى قياد المناطق (يعادلون مساعد والي الشرطة)¹؟ كانت هذه الشبكة تخبره بأعمال وحركات لائحة من الشخصيات التي كان محمود قد طلب منه مراقبتها مراقبةً لصيقة. ورغم أن دهكون لم يكن يحترم إلا جزئياً مبدأ الحيطة والحذر فإنه أقنع رجاله بضرورة الاحتياط أيًا كانت الظروف. كانت شبكته تتمحور حول العديد من الأطر الثورية التي تكونَ جلها في سوريا، والذين كانوا منتشرين في أهم مدن البلاد: الدار البيضاء والرباط وسلا ووجدة أساساً. كان كل إطار يؤطر خلية سرية تضم ما بين خمسة مناضلين ثوريين وعشرة².

وهاهو عباس يصرح: "إضافةً إلى منصبي في ديوان عبد الرحيم بوعبيد، كنت الكاتب العام لغرفة التجارة بالرباط وهو الأمر الذي كان يمكنني من التواجد داخل الدوائر السياسية والاقتصادية"³. وهكذا كان يعرف كل شخصيات عالم السياسة وعالم الأعمال. كانت تقنية عباس بسيطة ولكنها فعالة: كان يتكلف هو نفسه بتنظيم

1 ثلاثة من رجال القوات المساعدة سوف يحاكمون إلى جانب دهكون في القنيطرة: محمد أرزاق (مت تبرئته) ومروان بن الجبالي (مت تبرئته) والمختبر حسن (حكم عليه بالوفاة). المصدر: قرار محكمة مكناس، رقم 761 130.

2 رؤساء الخلايا الرئيسيين هم: المهدي ويوس مصطفى وبوحما بالدار البيضاء والملياني بسلا. والجدايني بوجدة. وعباس بالرباط.

3 حوار للمؤلف مع مبارك بودرفة. المعروف بعباس.

اللقاءات. ففي شقيقته. كان يلتقي رجال الأعمال الذين يبحثون عن بعض خبايا الأمور. وموظفون جتذبهم بعض النساء وعسكريون لهم طموحات. لكنها طموحات مقلوبة أو بالأحرى. خاملون. ومن ثمة مبالون إلى التأمير.

في مغرب بداية السبعينيات. كان رجال السلطة يشتركون في الوعي بأن وضعهم هش غير قار. ولهذا فإنهم يسارعون إلى جمع الثروات احتياطاً من أيام عصية. وبينما كان المترددون على صالون عباس يستعرضون أمامه استخفافهم ووقاحتهم. كان عباس ينظر إلى عالم الامتيازات نظرة عابرة خاطفة. فهذا العالم يعكس أمام عينيه صورة أماله الجريحة. كلهم هنا من أجل ترويح الخبر المثير وتبادل الابتسامات المتواطئة. ولأن معرفة ما يقوم به الملك ومحيطه كانت هي ميزة رجل الحاشية المتعلق. فإن ضيوف عباس لم يكونوا يدخلون بالبوح بهذه الأسرار. غير أن رجال السلطة لا يقدمون خدمات بدون مقابل: فقد كان على عباس أن يقدم لهم العديد من الخدمات الصغيرة من أجل تخدير حذرهم ومن أجل جعلهم مدينين له متساهلين. بل ومتواطئين.

ولأن عباس كان يعرف كيف يجعل الآخرين غير قادرين على الاستغناء عنه. فإنه لم يكن يتوانى في وضع شقيقته رهن إشارة عقيد (كولونيل) ليلتقي فيها بعشيقته. وقد كان هذا العقيد مسؤولاً في المكتب الثاني. وهو من المكاتب الرئيسية في المخابرات العامة. ومنذ ذلك الحين. فإنه لم يكن يمانع في أن تستخدم بعض سيارات الوظيفة في قضاء "حاجات صغيرة". إنها ليست إلا حالة من بين حالات أخرى لضباط أو موظفين سامين أصبحوا ممنونين لعباس بعد أن استفادوا من خدماته. وقد زاد هذا التصرف المتقلب لهؤلاء الأعيان المتقززين المتساهلين أكثر بما هم متفانون في عملهم. زاد من قناعة عباس بأن ميولاتهم الانتهازية سوف تدفعهم في اللحظة المواتية إلى تبديل معسكرهم الحالي بآخر. وكانت إدانتهم للمنظومة لا تتعدى الحكم المبدئي. ولكن كل شيء في موقفهم كان يدل على رغبتهم في الولاء للمرشد الذي يعرف كيف يعيد البريق إلى أوهامهم الضائعة.

واستطاعت شبكة دهكون. بفضل التأميرات والتواطؤات. أن تنسرب إلى محيط الرجال الثلاثة الأكثر رهبة في البلد: العقيد الديلمي والجنرال أوفير والملك الحسن الثاني نفسه. ولكن المدى الحقيقي لهذا التواطؤ يبقى إلى حد اليوم أمراً مجهولاً. فقد رفض عباس دائماً إرسال بعض الرجال ليتكفوا في الخارج كما كانت تطلب منه ذلك خليفة باريس. وهكذا فإن العديد من المتواطئين لم يتعرف عليهم أبداً عميلو المخابرات الذين تسربوا إلى التنظيم. وقد أسر لي عباس بعد مرور أقل من ثلاثة عقود على ذلك: "اليوم. أصبح هؤلاء الأعضاء مسؤولين عن حركة حقوق الإنسان. وأصبح بعضهم نواباً برلمانيين أو موظفين سامين في الدولة"⁴.

4 حوار للمؤلف مع مبارك بودرفة. المعروف بعباس.

جئسس-مضاد أو مؤامرة؟

بعد فشل عملية سنة 1969، عاد المبد. رجل العبور في مليلية، إلى أعماله في فرنسا. ويلخص الأمر قائلا: "كنت أدير فندقا وبعض حوانيت البقالة"⁵. بيد أن الفيلما التي كان يملكها في بوندي. بالضاحية الشمالية-الغربية لبأريس. واصلت استقبالها للعديد من أطر التنظيم. كان ينزل بها أحيانا الفقيه البصري وبوراس والنمري. وأما البشير الفيكيكي. الذي كانت علاقته بالحزب متوترة، فإنه كان ينزل بها عن طبيب خاطر. فقد كان. كما هو شأن المبد. من أصل فيكيكي. إلا أن التشابه بين الرجلين كان يتوقف هاهنا. فقد كان للبشير الفيكيكي دور مبهم غير واضح. فهو مقاوم سابق تحول إلى ميدان الأعمال وتبع مسارا ملتويا يتيه في الجوانب المظلمة من المشهد السياسي المغربي.

اعتقل سنة 1963 لتواطئه مع الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في حين أنه كان قد أبعد عن الحزب. فحاول في نهاية المطاف الالتحاق بتيارات سياسية أخرى. ومنذ ذلك العهد. كانت لهذا الطالب الأبدى في لندن والذي أصبح يهتم بالأعمال. كانت له اتصالات مع المخابرات الأمريكية والمخابرات المغربية عبر وساطة مكتب غريب للاستشارة بالدار البيضاء. ولكن التضامن كان هو الطابع المميز لأهل فيكيك. وهكذا كان المبد بسبب رد فعل قبلي وبسبب الانتهازية. لا يتخلى عن شركائه. إنه أمر جزئي وغريب ذاك الذي لامس المناضلين القلائل الذين علموا بالسر ولكن دون أن يثير أي رد فعل لديهم. ذلك أن ضرورة الكتمان كانت قد أغرقت هؤلاء في بحر من عدم اليقين حيث خنق الأسئلة لأنها لم تطرح.

ولأن الفقيه البصري كان معتادا على خفايا السرايا. فإنه لم يكن يجهل شيئا عن النقاشات التي تدور في صالون باريس. بل وأكثر من ذلك. فإنه كان يشجع هذه اللقاءات حتى يتسنى له الاتصال بانتظام بمحيط الجيش ووزارة الداخلية. ولما استقطب بوراس المبد سنة 1969. أي أحد أهل فيكيك. فإن بوراس رأى في الأمر بكل تأكيد وسيلة لمواصلة التحكم في العمليات الجارية. ولكن كان ذلك دون أن تؤخذ بعين الاعتبار مهارة المناورة عند الفقيه البصري الذي سوف يعرف كيف يقلب الوضع لصالحه.

لقد سهل المبد تسرب الأطر الثورية إلى المغرب. ثم كان وسيط رسول أوفقيير خلال الإعداد للانقلاب الثاني. وكانت كلها "خدمات" تعطي مصداقية لفكرة الحفاظ على وسيلة تواصل مع جهاز البوليس والجيش التابع لوزارة الداخلية. وهكذا. استقبلت فيلا بوندي اتفاقات من نوع خاص لا علاقة لها باجتماعات القيادة العليا للتنظيم. يقول المبد⁶: "عند الإعلان عن انقلاب الصخيرات. كان الفقيه البصري وبشير الفيكيكي عندي ببوندي".

5 حوار للمؤلف مع أحمد خير. المعروف بالمبد.

6 حوار مع المؤلف.

عبر بنحبي عن شكوكه. بعد مُضي عديد من السنوات. ولكي يُنسي سوابقه. جُول بعض الوقت مظهره غير المبالي داخل أروقة كليات باريس. حيث تفرغ لتحضير شهادة السلك الثالث في الهندسة. "في ذلك العهد. كنت ألعب دور الوسيط إذ كنت على اتصال بالفقيه البصري ومحمود. كانت كميات كبيرة من الأموال تُصرف بدعوى تنظيم أمور متنوعة. وأحيانا. كان بارو يخبرني بمواعيد للفقيه البصري في جونييف دون أن أعرف مع من. لم أعرف إلا فيما بعد بأن بارو. المدير السابق لمعسكر أوواطا. قد سبق وأن كان كذلك مقربا من أوفقيير. فتحدثت في الأمر مع محمود الذي كان يشاطرني تخوفاتي⁷."

أو كان الأمر محض صدفة؟ فعند مرور محمود من باريس كان يمضي من الوقت عند عباس سباطة أكثر مما كان يمضيه في بوندي. كان الساعدُ الأمين السابق للفقيه البصري ورفيقُ دربه أحدُ أصدقاء محمود المقربين القلائل. كان كل شيء يجمع بينهما. كل شيء عدا علاقتهما بالفقيه البصري. فقد كان الخلط المحير بين النزعة القبلية والمحسوبية الذي يلف علاقات الفقيه البصري قد خيب منذ زمن بعيد آمال عباس سباطة. فتراجع خطوات إلى الخلف. وأما محمود. ومن خلال نقذه الذاتي. فقد تيقن أن اللحظة التي سوف يكتب فيها الشعبُ تاريخه قد غدت وشيكة مع الفقيه البصري أو بدونه. بيد أن هناك اختلافا كبيرا بين الرجلين. إذ إن كانت الثورة في ذهن محمود هي العنصر الذي سوف يُشعل فتيل غضب طالما بقي حبيسا. فإن عليها أن تكون أكثر من نهاية مصطنعة. من المفروض أنها سوف تلهم تحريرا كاملا داخل وضع جديد. ويبدو أن هذا الهم لم يكن يساور الفقيه البصري.

السلاح. المزيد من السلاح !

عاد عباس إلى باريس في شهر نونبر من سنة 1972 بعد أن ألح على ذلك دهبكون الذي كان يطالب بالمزيد من السلاح. ضرب له موعدٌ مع الفقيه البصري في الشقة الصغيرة بشارع الكوميرس (التجارة). في الدائرة 15. كان اللقاء متوترا. فقد انفعل رجل الاتصالات الشاب أمام الفقيه البصري الذي ذهل من الأمر. لأمه على عدم مسؤوليته بإعطائه أوامر للمناضلين قد يتعرضون بالداخل إلى مخاطر مجانية. إذ إنهم قد ينكشفون في أي لحظة فيُسَلَّمون إلى برائن الشرطة السياسية. ما معنى هذا الخلل في نقل السلاح والمناضلين؟ لماذا يُطلب من محام متدرب أن يكثر من تنقلاته إلى باريس ويُعرض إلى خطر أن يتنبه إليه البوليس؟ ما الذي يفعله حتى ذلك الحين دهبكون في المغرب؟ والفقيه البصري ما فتئ يؤجل الأمور إذ لم يكن يهتم إلا نادرا بأمر التدبير. وافق الفقيه البصري عباس على رأيه ولكنه قدم شروحات تتذرع بالظروف. كان الغرض منها مواساة المناضل المتقزز أكثر مما كان الغرض هو توضيح الموقف.

7 حوار للمؤلف مع محمد بنحبي.

بعد هذه المقدمة، علم عباس أن حمولة أسلحة قد تم إعدادها في بلجيكا. ولم يتبق سوى نقلها بالسيارة. تبذرت شيئا ما ظنون عباس. فركب القطار إلى بروكسيل، مصحوبا بإطار عسكري متخصص في السلاح والسيارات جاء من طرابلس. فتكلف يتمويه السيارة حتى لا تثير الانتباه. وفي بروكسيل ظهر مشكل آخر لم يكن في الحسبان. كان لابد من تسجيل السيارة باسم السائق لتفادي شكوك رجال الجمارك. غير أنه في سنة 1972، كان وجود شاب محام متدرب عمره 24 سنة على متن سيارة أوبل جديدة وبخمس أبواب تساوي قيمتها عدة سنوات من أجره الزهيد. كان أمرا يدخل في باب الفخفة والاستعراض. رفض عباس. وبعد نقاشات عديدة، اتفق على أن يقود مناضل آخر السيارة. وقبل أن يغادر عباس بروكسيل، ضرب موعدا للرجل في ساحة محمد الخامس بالرباط. وبما أن تاريخ وصول المناضل الذي ينقل الحمولة غير مضبوط مسبقا، فإنهما اتفقا على أن يكون الموعد كما يلي: الأول في الصباح والثاني في المساء. ثلاثة أيام في الأسبوع. وكانت كلمة السر تشبه ما يحدث في الروايات البوليسية من فئة باء : "هل لديك قطع خبز بروكسيل المدهونة بالزبدة؟"

وعند رجوع عباس إلى الرباط، ذهب عدة مرات من مكتبه إلى ساحة محمد الخامس، لكن المناضل ناقل الأسلحة لم يظهر إلا في شهر دجنبر. فقد تم تسلم السيارة وأفرغت من حمولتها دون أن يتصل المناضل ناقل السلاح الذي جاء من بلجيكا بالشبكة. وخبئت الحمولة: 22 مسدسا ورشاشين اثنين و5000 شحنة بارود ومتفجرات، في بيت عضو من الخلية السرية بالرباط. في اليوم الموالي، التقى عباس بالمناضل ناقل السلاح ليتفق معه على المكان والساعة التي يستعيد فيهما السيارة. فحدث أمر لم يكن متوقعا مرة أخرى. إذ توصل هذا الأخير بأمر بأن يعود مباشرة بالطائرة دون استرجاع السيارة. وهو الأمر الذي لم يكن قد اتفق عليه من قبل. تلت ذلك مناقشة صاخبة.

لا شك أن دهب كان معتادا على هذا النوع من الصدف، فقد تكلف بحل المشكل وأخفى السيارة.

الرجوع إلى الجزائر

توجه الفقيه البصري ثانية بنظره إلى الجزائر. فدعوة بومدين، ولو أنها كانت بغرض الاستنفاع، فقد كانت نعمة وخيرا. إذ إنها تعني العودة إلى حظوة وعناية الجزائريين. زد على ذلك، وحتى يُسرّع الفقيه البصري بهذه العودة، فإنه بعث رسلا يتحسسون الطريق إلى الجزائر العاصمة: إذ إن مناضلين يُفترض أن لهم اتصالات داخل محيط بومدين تعود إلى أيام المقاومة قد زاروا الجزائر العاصمة عدة مرات منذ سنة 1971.

ويتذكر الميد قائلا: "التقيت محمود بوهـران لأول مرة. كان يتحدث قليلا ويقرأ كثيرا"⁸. وتعليمات من الفقيه البصري، الذي كان عازما على مواصلة البادرة. تكلف الميد بربط الاتصال بالخلايا الموجودة في المغرب. فبعد أن كان الميد رجل عبور في مليبية، ارتقى ليتسلم زمام القيادة بعد أن بقي المكان فارغا بسبب الاعتقالات العديدة التي جرت منذ ثلاث سنوات. وكان يوزع وقته بين باريس ووهـران والجزائر العاصمة. مازجا مزجا بين الأعمال والأنشطة السرية والاتصالات بالخبايا- المضادة الجزائرية وأحيانا المغربية.

وعند نهاية سنة 1972، حذا حذوه آيت قدور بالعاصمة الجزائرية. "غادرت باريس غداة الانقلاب وذهبت إلى طرابلس ما بين 17 و 20 غشت. قدمني الفقيه البصري على أنني الرجل الذي حرك الجيش ونظم لي جولة شرفية في ليبيا. وبين حصص المناقشات السياسية وبرنامج الذبائح، التقيت الهوني الذي أعطاني أموالا لأسلمها للفقيه البصري"⁹. وكانت المرحلة الموالية هي الجزائر العاصمة يوم 16 شتنبر. وحسب آيت قدور، فقد كان السيناريو هو نفسه : تقديم "رجل الجيش" للسلطات وجمع الأموال. ويواصل آيت قدور : "ويوم 4 نونبر من سنة 1972، عدت إلى الجزائر العاصمة. كان الفقيه البصري ينوي إنشاء قاعدته العامة بها وكلفني بتحضير وصوله".

ولكن في وهران، اعترض الميد. إذ سرعان ما أفصح الجزائريون عن الرجل الذي يفضلونه: الميد. قيل آيت قدور بالأمر دون انزعاج. فعلى كل حال، هو واحد من أعضاء المنظمة الدائمة الترحال. فهو يوجد في الجزائر العاصمة دون أن يكون فيها حقا. وحدثت صدفة في التوقيت، إذ في بداية شهر دجنبر، قام مدير الأمن الترابي، أحد أهم مصالح الخبايا المغربية، بزيارة خاطفة للعاصمة الجزائرية. كان يحمل في حقيبته طلبا من الحسن الثاني موجهاً إلى بومدين. كان ملك المغرب يطلب تدخلا ضد مخزن للسلاح للتنظيم يوجد بعين تورك. تعرفت على مكانه مصالح الخبايا المغربية. كان مصدر تسرب هذه المعلومة غير أكيد. تحدث البعض عن اعترافات انتزعت من الحسين المانوزي، وربط البعض الآخر، كما هو شأن خالد، الأمر باعتقال ناقل سلاح بوجدة يسمى بولفارش. وهو مهاجر في ألمانيا تكون في ليبيا. وخلال عملية البوليس التي قادها الأمن الجزائري، اعتقل بضعة رجال وهرب آخرون. لم يلحق حيز السلاح سوى أضرارا بسيطة بالشبكة التي احتفظت بالجزء الأكبر من ترسانتها العسكرية الموزعة بين طرابلس ووهـران والجزائر العاصمة والمغرب. بيد أن هذه العملية كان لها وقع الإنذار. والغريب أن السلطة الجزائرية تبرر هذا التدخل العنيف بذريعة واهية: هي أن معارضي بومدين لربما يستفيدون من الجهاز اللوجستيكي للتنظيم.

8 حوار للمؤلف مع أحمد خير المعروف بالميد.

9 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

ويقول بنحيتي: "أرسلني الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة للتفاوض مع دراعيا (المسؤول الكبير عن الأمن الجزائري منذ سنة 1965) في أمر إطلاق سراح آيت عمي وصبري وأسكور. الذين كانوا حينها في قبضة المخابرات منذ اعتقالهم بعين تورك¹⁰". وسوف يدعي الميد بأنه قام بالمهمة نفسها : "ذهبت للقاء دراعيا ليعمل على تحرير رفاقنا¹¹".

ولكن وبما أن الفقيه البصري كان يحسن الاستفادة من هذا النوع من المواقف. فإن الحادث سوف يسهل. وهنا المفارقة. عودته إلى العاصمة الجزائرية لتستأنف المفاوضات مع بومدين.

اجتماع باريس: نهاية سنة 1972

اعتاد هونري كيريل¹². وهو الخبير في الأمر. أن يقول: "العمل السري سرعان ما يُنهك". هل هو التوسع الكبير الذي أصبحت تعرفه المنظمة. أم التفريق المتزايد بين المهام أم. وبكل بساطة. إنهاك الزمن؟ ويتذكر آيت قدور¹³ أن الواحد "يصبح موضع شك بدون سبب. فيُشك فيه بأنه من البوليس: كانت التقارير كثيرة وفيرة". العمل السري خصب فيما يخص الإشاعات والشكوك حسب الخلافات التي سرعان ما تحول إلى اتهامات. تزايد الحصار. والقيادة تبخل بتقديم الشروحات وعمل ذكي من قبل المخابرات المغربية وأحيانا الجزائرية لإدخال المرض. كلها أمور غدت وشجعت إحساسا جماعيا بالذهان الهذيان.

لا شك أن العمل السري يمنح الإحساس بطعم تلك الحرية التي يطمح إليها المناضلون. ولكنها حرية مصحوبة بسلسلة طويلة من الاكراهات باسم ضرورة الأمن. المشي ساعات طوال على الأقدام في الشوارع والأزقة للانفلات من مطاردة. وتفتيش مكان الموعد عدة مرات. وحفظ لائحة طويلة وطويلة من الأسماء المستعارة. وانتظار أمر مفترض طيلة أيام وأيام. والعيش بين مخبأ وآخر. وخاصة .. الحيلة من أذان تُفترط في الإنصات لأنها ليست صدفة. كل هذا إضافة إلى الخطر الدائم والحاضر في كل الأذهان بأن يتم الاعتقال والموت المحتمل إن لم يكن أكيدا في نهاية المطاف. إن المصادفات خلال العمل السري الذي لا يعرف المرء دوافعه ولا مقاصده تنخر الأعصاب وتزعزع القناعات. باسم ماذا اعتقل رفيق؟ هل كان لتضحيت ما يبررها؟ إن الشك يخنق الضمائر. فكيف إذن يجابه المرء الموت عندما يغيب الأمل؟

10 حوار للمؤلف مع محمد بنحيتي.

11 حوار للمؤلف مع أحمد خير. المعروف بالميد.

12 "رجل فريد متميز. هكذا كان هونري كيريل". جيل بيرو. كتاب الجيب. 1984.

13 حوار مع المؤلف.

ولهذا ليس من النادر أن يحاول المناضلون التعرف على المسؤولين عن فشل هذه العملية أو تلك. وعلى رأس الهرم. كانت الأمور تُترجم دائما بالسيناريو نفسه: خلايا أزمة وشروحات وقرارات. وفي القاعدة. كان هذا يخلق إحساسا محبطا بضرورة العودة إلى نقطة الصفر.

وهذا ما حدث نهاية سنة 1972.

وبما أن تحذيرات محمود للفقير البصري لم يكن لها أي وقع. فقد دعا إلى اجتماع في باريس. وكان غرض خلية الأزمة هاته. والتي تم استدعاؤها على وجه السرعة. هو القضاء على هذا المسلسل الثابت الذي أخذ يشنت الحركة. انعقد الاجتماع في بيت صغير بفيل جوفيف. في الضاحية الجنوبية بباريس. شاركت فيه الأطر الرئيسية للتنظيم. إبراهيم وآيت قدور وعجول ومحمود¹⁴. التحق بهم بنحى الذي كان يُعالج في باريس من داء السل. أرسل الفقيه البصري الذي كان غائبا أخاه حسن كملاحظ. غضب محمود لكون حسن البصري يلعب دور النائب عن أخيه. وتلقى محمود الضربة في صمته. احتفظ بهدوئه ولكن ابتسامته المعروفة لم تعد تنذر سوى بتدهور العلاقات الداخلية. وبعد التحيات والجماعات الاعتيادية. تواتت التقارير. اتفق الحاضرون على أن ترأب أنشطة التنظيم مراقبة أفضل. وتم توزيع المهام من جديد.

وها قد ظهرت البوادر الأولى لتطهير المنظمة. ولأن محمود كان رجل سياسة متمرسا. فإنه تعرف -وكتابات تشهد على ذلك- على خطر له علاقة بأنشطة الفقيه البصري الموازية. وهو يعرف كذلك أن الميد هو الحجرة الرئيسية. ويتذكر إبراهيم قائلا: "عندما رجع محمود من وهران. كان يشتكي من الميد. قال لي: إن أعمال الميد في وهران تمثل الفوضى العارمة بعينها"¹⁵. وأمام ساعة. أدلى محمود بملاحظة أكثر بلاغة وتعبيرا ما كانت عليه سالفتها: "عندنا. كل شيء يُشتري"¹⁶.

كان لمحمود الوقت الكافي للوقوف على عدم كفاءة رجل الفقيه البصري هذا الذي يتكلف بكل شيء. فيما يخص تلك الأمور البسيطة التي يمكنها أحيانا أن تنقذ أرواحا. ولكنه كان يخشى ما هو أدهى. أي انعدام كفاءة يمزج بطموحات خطيرة تتخفى وراء بلاغة الميد الخطابية المتباهية الكبيرة؟ كان الميد يتكلم بتلك الثقة التي يكتسبها المرء من معرفته بالأسرار الخفية. أكيد أن محمود كان معتادا على جحود بعض الأطر الناكرة للجميل وعلى تباھيها. ولكن وفي هذه الحالة بالضبط. أحس محمود إحساسا مخالفا. لم يكن قادرا على تمييزه بوضوح. فمنذ أن أطلق الميد الرصاصات الأولى خلال المقاومة. ومساره الملتوي عبارة عن عشرين سنة من الحسابات

14 حدث بنحى عن وجود الميد والطالبي وعمر زاهير.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

16 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة المعروف بساعة.

والطموحات غير الواضحة. فهو قادر على مناورة غير مضمونة من أجل تحقيق أغراض شخصية: بحسد الرفاق الذين قد يملكون بعض المال، إنه رجل خطير لأن شأنه صغير. ومع ذلك، فإن كانت الآراء جُمِعَ على ضيق أفقه الفكري وعلى ميله المرّضي إلى المال، فإنها تختلف فيما يخص تواطؤه المفترض مع المخابرات الغربية. ولأن محمود كان يعرف بأن شبكة الميد تقوم على خالفات قَبَلِيّة وجهوية فإنه شك في كونه، ولهذا السبب، قد سُرِبَ تسريباً.

وفي اليوم الموالي، وقبل أن يغادر محمود باريس، التقى ثانية بآيت قدور في مقهى في ساحة إيطاليا. جلس الرجلان إلى طاولة وتبادلا انطباعاتهما عن اجتماع الأمس. كانت باريس غارقة في كآبة ظهيرة خريف في أواخر أيامه. كان الجو ثقيلاً، محملاً بعاصفة مترددة، فزاد الأمر من جلال اللحظة وخطرها.

حذر محمود آيت قدور: "إن أهدافنا الثورية أصبحت متفاوتة مقارنة مع إمكانياتنا". وافق آيت قدور على الأمر بحركة من رأسه دون أن ينبس بكلمة. واصل محمود: — إن كان الفقيه البصري يريد أن يعتمد على الميد فهذا شأنه. وعندما يحين وقت الرجوع، سوف نرجع ولكن لن أقبل بأن يُطَلَبَ مني أن أقدم ثمرة عملنا على طبق¹⁷.

كان لبنيجي كذلك حوار على هامش الاجتماع مع محمود: "أخبرني بتحفظاته فيما يخص الميد، وهو الأمر الذي كنت اتفق معه عليه. وبعد ذلك، تحدث عن تخوفاته فيما يخص تطور الوضع السياسي. وفي الأخير، أخبرني بأن الفقيه البصري قد ربط العلاقات ثانية مع الجزائريين¹⁸". في تلك اللحظة، لم يُثر هذا الخبر الأخير أي تعليق. بيد أن بقية الأحداث سوف تسبغ عليه دوراً حاسماً.

طرابلس، نونبر سنة 1972

كانت كل الأمور عادية عندما أخذ محمود بنبرته الهادئة يعدد لائحة حاجاته لإبراهيم. فهو قد وصل عشية ذلك اليوم إلى طرابلس، وهماو يسأل كما هي عادته عن آخر التطورات في ليبيا. دون أن يهمل أي تفصيل من التفاصيل. ولكنه لم يخبر إبراهيم بدخوله المقلب إلى المغرب إلا بعد أن انفرد به في غرفة بفيلا ابن عاشور. ولأن إبراهيم كان صلة الوصل مع الليبيين، فقد كان عليه أن يلبي الحاجيات من الأسلحة على المدى الطويل. كان محمود يطالب بأسلحة كلاشنيكوف وقاذفات للقنابل ر.ب.ج. ومدافع هاون خفيفة من صنع إنجليزي. على أن يتم نقل هذه الأسلحة إلى المغرب حسب برنامج موضوع سلفاً. وفيما يخص النقل، قدم الليبيون مساعدة طائرات

17 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

18 حوار للمؤلف مع محمود بنيجي.

ناقلة للبضائع. إذ بات الليبيون يملكون طائرات ناقلة كبيرة يمكنها أن تزود مباشرة دون ضرورة التوقف في الجزائر. وكان طيارون يوغسلافيون. قادرون على الإنزال على علو منخفض. يعملون منذ زمن قصير في القواعد الليبية.

خُصصت إذن اللحظات الأخيرة من اتصالهما على انفراد لوضع شفرة اتصال وفق أبجدية تشتغل حسب وظائف حسابية بسيطة. وباتت الإذاعة الليبية هي وسيلة التواصل مع الجماعات الثورية بعد أن كانت حتى ذلك العهد أداة للدعاية. بعد أن انتهيا من هذه الإعدادات. ركب محمود وإبراهيم سيارة دجيب للذهاب إلى معسكر التدريب. وهاهو إبراهيم يعيد تركيب الحوار من جديد. سأل محمود:

— كيف هو حال “التلميذ” (الهنوي). هل يتعلم جيدا دروسه؟

فقال إبراهيم:

— لقد توقف. نظرا لضيق الوقت أو فتور في العزيمة. فأنت تعرف بأنه لا يستيقظ باكرا في الصباح. كان يريد أن يبدأ دروسه في اللغة الفرنسية على الساعة الثامنة صباحا. وكان قد رتب كل شيء من أجل تحقيق هدفه. فمعاونوه وضعوا سبورة كبيرة في قاعة الاجتماعات. ولكن صبره دام خمسة أيام. ثم عاد ثانية ليصبح رجل الصحراء. لا يضبط المواعيد.

— لقد فقدت إذن الاتصال الشخصي؟

— ليس تماما. ما زال “التلميذ” يزورني بعد قيلولته. يُحضر معه الجرائد الفرنسية. نشرب القهوة وأترجم له المقالات.

فقال محمود لإبراهيم مؤكدا:

— عليك أن تحافظ على الاتصال.

— نعم. يا محمود. ولكن أذكّر أنني في قضية العقيد (الكولونيل) أمقران في جبل طارق. وجدت صعوبة في الاتصال به. ورغم نداءات ملحة. فإنه لم يكن يجيب.

فهقه محمود ضاحكا. ثم توقف وقال:

— لا شك أنه كان في حاجة إلى أن يتشاور.

كانت البناءات الأخيرة في جنزور. وهي ضاحية من ضواحي طرابلس. تمتد حتى الأفق. ولم تكن قاعدة التدريب بالسواني سوى على بعد بضعة كيلومترات. مرت سيارة الدجيب بسلسلة من المنعرجات لتنفادي الأخاديد والحفر التي تتخلل الطريق. لاحظ محمود قائلا: “إنك تحسن قيادة هذه السيارة”. ثم وفجأة. ولأنه قلق بسبب غياب الرجل الذي يستأجر هاته العربات المحملة بالسلاح عبر الصحراء. قال بصوت ساوَره الشك:

— بالمناسبة. ما هي أخبار الحسين المانوزي؟

— لا خبر عنه. منذ وصلت برقيته الموقعة باسم “غاسبار”.

قطع صمت طويل حوارهما. كان الجزء السفلي من الطريق يمر أمام عيني محمود. عن قريب. تكون عشرة أيام قد مرت. ولم يظهر أي أثر لحسين المانوزي. ودون أن يعترف بالأمر حتى لنفسه هو. شك في كون الرجل قد سقط في أيدي البوليس السياسي المغربي. فقد أصبح قتل الرجل. كما هو شأنه هو نفسه. أمراً مطلوباً منذ محاكمة مراكش. وبعد أن ابتلعت السيارة كيلومتراً واحداً وهما صامتان صمتاً مطبقاً. عاود إبراهيم النقاش.

— وأنت في وهران. هل هناك من تقدم؟

فتنهده محمود وقال :

— لا. تطاردنا مخابرات دراعيا. وقد انضاف إليها اليوم الأمن العسكري الذي بدأ

يتدخل في الأمر.

— ومناضلونا؟

— هنا. وعلى العكس. يجب أن نتقدم. أن نمشي إلى الأمام. فإن الانتظار قد أصبح خطراً.

— لا شك أن سي محمد (الفقيه البصري) طلب مني لهذا السبب أن أرجع لكي

أنسق العمل بين بوعرفة وفيكيك.

استدار محمود مندهشاً مذهولاً:

— ومَن الذي سوف يتكلف بليبيا؟

— المسؤول عن التنظيم في سوريا.

فأجاب محمود:

— لا أبداً. أنت تبقى في طرابلس. فنحن نحتاجك في طرابلس... وقد اعترف إبراهيم

فيما بعد : "دون أن ينتبه محمود إلى الأمر. فإنه كان قد أنقذ حياتي"¹⁹.

عندما وصل محمود إلى السواني. استقبله رفاق الزيداني استقبالا حاراً. كان حماسهم يتناقض مع اندهاش المجندين الجدد الذين يرون محمود لأول مرة. فهم يعبرون عن عاطفة تتجاوز كثيراً العلاقات غير المشخصة التي تجمع الرفاق الثوار. منذ تجربة حرب العصابات الفلسطينية. التي تقاسمها هؤلاء الرجال على طول ضفتي نهر الأردن. وهم متعلقون بمحمود تعلقاً لا تشوبه شائبة. واليوم. فإن مجيئه يخرجهم من عزلة ولدها غياب العمل وغياب الخطر المشترك. وعند الانتهاء من تعابير الفرحة باللقاء وتبادل العناق. انفرد محمود بحوالي خمسة عشر رجلاً كان قد كلف بهم خصيصاً مدرباً عسكرياً ليبيا.

وأما إبراهيم فقد ارجل حلقة (دائرة تكوين)؛ كان محور النقاش فيها هو موضوع

سياسي من وحي الظرف الراهن.

ويحتفظ أيضاً خالد. وهو مسؤول في المعسكر. بذكرى دقيقة عن هذه اللحظات.

وخاصة ذكرى اجتماع دام ثلاثة أيام متواصلة بإقامة ابن عاشور حضره محمود وآيت قدور والميد والفقيه البصري. كان الجو متوتراً. إذ كان آيت قدور والفقيه البصري

صامتَيْن متكتَمَيْن كما هو شأنُ عليّة القوم عَشِيّة مؤامرة. كان الميد منفعلًا. ورغم أن محمود كان يبدو هادئًا، فإنه كان فريسة غليان داخلي قوي. مع الفقيه البصري ومحمود وآيت قدور كانت قيادة الثورة مجتمعة.

وكان حضور الميد. وهو المكلف بالتدبير واللوجستيك، يدفع إلى الاعتقاد بأن مضمون المناقشات سوف ينصب على المسائل التقنية والتنظيمية. وكان خالد قد دُعِيَ إلى حضور جزء من النقاشات. علم عندها أن مجموع الجهاز قد استُعْرض في اللقاء: الوضع السياسي والحلّيا المحلية ومخابئ الأسلحة والمواصلات والتزويد. قسم التراب إلى ست مناطق عملية، منطقتين في الشمال، ومنطقتين في الوسط، ومنطقتين في الجنوب. كان من المفترض أن كل منطقة تمّ تحديدها ستستقبل بؤرة ثورية تتكون من مناضلين مستعدين للقتال. ومن مصدرٍ مُنْتَظَمٍ للتزود ومن وسائل التواصل ومن قاعدة للتراجع.

توجه محمود إلى خالد وأخبره بأنه سوف يتقاسم قيادة منطقة الشمال مع الميد. وذكر أسماء أربعة أطر سوف تساعد في هذه المهمة. فعبد السلام العالي. فيكيكي الأصل. تخرج مثله من الأكاديمية العسكرية السورية سوف يساعد فيما يتعلق بالجانب العسكري²⁰ وهو يوجد سلفًا في المغرب. إنه مستخدم في البريد بوجدة. وسوف تحمل ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تدريبًا في ليبيا مسؤولية الإدارة السياسية²¹. كانت البنية التنظيمية مستوحاة من نظريات حرب العصابات الفيتنامية إلى جانب قيادة سياسية-عسكرية على مستويين. كان من المفترض أن هذا النمط من التنظيم سوف يعوض الضياع المحتمل لأحد المسيرين بفضل قيادة نائمة مستعدة لمواصلة الطريق.

اعترض خالد موضحًا بأنه لا يعرف عن منطقة الريف شيئًا. فرغم أن اسمه العائلي ريفي الأصل، فإن علاقاته بالمنطقة قد انقطعت منذ سنين. وافق الفقيه البصري بحركة من رأسه ولاحظ ببساطة أن الأصل لا يهم كثيرًا. وعلى كل حال فإن محمود، الذي أصله من الرباط، سوف يعمل في قلب الأطلس. اقتنع خالد جزئيًا. وسأل عن رفاق الدرب مستقبلاً. فهو يعرف معرفة جيدة العالي، الذي تخرج مثله ضابطًا من الجيش السوري. ولكن الآخرين من هم؟ ما هي الوسائل التي تمتلكها شبكات منطقة الريف؟ كم هو عدد المناضلين المستعدين للقتال والقادرين عليه؟ وعند كل سؤال كان الفقيه البصري يترك الكلمة للميد الذي كان يجيب بنبرة المتأكد المتفوق المتحمس:

— لقد تمّ تهيين كل شيء.

20 حُكِمَ عليه بالحبس عشرين سنة في محاكمة القنيطرة سنة 1973.

21 بهم الأمر. حسب شهادة خالد. عمر الزاهري وأحمد كرم وأحمد أوباري. وهم ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وخالد يعرف أحمد أوباري لأنه سبق وأن التقاه في دمشق داخل أوساط الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

لم يكن خالد يعرف المبدأ. إنها أول مرة يراه فيها. فحاول جاهدا أن لا تظهر عليه أي علامة، فلم يُظهِرُ أدنى شك، وذلك رضوخا منه لروح الانضباط أكثر ما كان عن اقتناع. فقد بدا له الرجل معتادا أكثر على التعابير الرائجة في مجال السياسة. تلك العبارات الملساء والغامضة، أكثر ما هو معتاد على تعقيدات الأمور العسكرية. انهش خالد انهشاً شديداً، فاستفسر بنظرة محمود، ثم سأله:

— إن ما تطلبه مني يخلو من الخيطة والحذر. أن أرجع ومعني ثلاثة أسلحة كلاشنيكوف للرجل الواحد هو، وبكل بساطة، ضرب من الانتحار. من الأفضل أن تسبق الأسلحة دخولنا²².

فيما بعد سوف يفهم خالد السبب العميق الذي دفع محمود إلى اتخاذ مثل هذا القرار، مهما كانت فيه من مخاطرة.

وكما هو شأن خالد، مرت أطر أخرى أمام القيادة المجتمعة في المجلس. وذلك من أجل أن يبلغوا بتعيينهم. من بينهم مصطفى الوالي: كان الوالي رياضي الهيئة، ذا بشرة دبغتها الشمس، كان يثير انتباه كل من يراه. جنده محمود في وهران في شتبر من سنة 1972. إنه مناضل نشيط في الإتحاد الوطني لطلبة المغرب بالرباط. كان معروفا برفضه ومعارضته. فغادر سرا البلد بمساعدة الخصاصي. ولما وصل إلى طرابلس، جنده الفقيه البصري. إذ سبق أن كان أبوه مقاتلا في صفوف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. إنها مؤهل له قيمته في نظر المقاوم السابق. يقول إبراهيم: "خصصت للوالي وقتا في الإذاعة ليتحدث أسبوعيا في برنامج باللهجة الحسانية، وهي لهجة ساكنة الصحراء أيام الإسبان²³". وهي المهمة التي قبلها الوالي دون تردد. ولكن سرعان ما اكتشف محمود والفقيه البصري في الوالي خصال قائد قادر على فتح جبهة ثالثة في الجنوب²⁴.

ساعة الاختيار

يتذكر خالد أن "محمود والفقيه البصري لم يعودا يتبادلان الحديث". فقد خول عدم الاتفاق السياسي إلى نزاع شخصي. دفع هذا التنافس الكامن كل واحد منهما إلى البحث عن تضامن المقربين منه أو من يفترض فيهم ذلك. لم يكن محمود رجلا يبوح بالأسرار. بيد أنه، وعند نهاية أحد تأملاته الطويلة التي كانت تجلب أفكارا يفضل المرء أن يتقاسم ثقلها مع غيره، اعترف بقلقه. فأمام باب فيلا ابن عاشور حيث ودع خالد. باح له محمود بما يخالجه. ويوضح خالد قائلا: "كان اليوم يوم ثلاثاء، يوم رجيل الطائرة إلى الجزائر العاصمة". كانت كلمات محمود تفيض مرارة :

22 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

23 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشليح.

24 أسس مصطفى الوالي البوليزاريو يوم 10 ماي من سنة 1973. ومات في هجوم على نواكشوط يوم 9 يونيو من سنة 1976.

— لاشيء صلب وقوي داخل المنظمة، إنها ضعيفة واهنة القوى لا تستطيع أن تنجز شيئاً جدياً. بقي خالد مندهشاً مبهوراً، فواصل محمود الحديث قائلاً:
— حسب معلوماتي، فإن كلام الميد عن الشبكات في الداخل كلام مغلوط، وحدها الاتصالات بالسلطات الجهوية والنقط الاستراتيجية عملية. أما الأسلحة والإمكانات البشرية فإنها ناقصة ومؤطرة تأطيراً رديئاً. وسأل خالد قلقاً:
— ولكن لِمَ المرور إلى العمل في هذه الظروف؟“ جاء الجواب وكأنه صوت البداية التي لا غموض فيها:

— نحن وسط النار، يجب أن نتحرك. الآن. إما الحصول على كل شيء وإما عدم الحصول على أي شيء²⁵.

بدا محمود وكأنه مسكونٌ بهاجس الضرورة التاريخية لشن عمل واسع. فهو يعرف أن النصر الثوري يدين لتضحيات الشجعان النبلاء، وهو مستعد ليدفع الثمن. عازم على أن يسلك الطريق الوعر الذي يعج بالخوف والخيانة والتهاون. على أي شيء يستند هذا الاختيار؟ على تواطؤ موضوعي مع تاريخ يسير ويتقدم؟ على عجز يشل السلطة؟ ولكن أَلَمْ يكن القصدُ من خروقات النظام هو إثارة تنظيم غير مرئي ودفعه لكي يُفصح عن نفسه؟ لِمَ البحث عن جواب؟ فقد اقتنع محمود بأنه، وفي غياب التناسق والكفاءة، سرعان ما سوف ينكشف أن ادعاءات التنظيم الثورية ليست سوى ضرب من المغامرة. فقد جعلته ممارسته للتنظيم يقيس أضرار غياب الحركة الذي سقطت فيها إدارته. كم من المناضلين ضحى بهم، وكم من فرص أهدرت ومن استنفاقات جاءت متأخرة؟ إن العجز والانتهازية والمنافسات الداخلية قد شلت قدرة التنظيم على الحركة. أي مصداقية لمن يرغبون في الوصول إلى السلطة والذين يسيرون حركةً كما يدبر المرء خصاماً بين الجيران؟ كان محمود فزعاً مرعوباً عندما وقف على أن وراء قرار البصري الاستعراضي، هناك فراغ تنظيمي وسياسي، غُلف بعتامة الإيديولوجية، إنه يكره الاتفاقات السرية، حيث يكون التفاوض حول السلط والامتيازات هو الاستراتيجية. إن رداءة الإدارة تساوي خيانة في نظره. فهي تخون المناضلين المستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل القضية، والأدهى من ذلك هو أنها جعلهم يشكون في عدالة كفاحهم. والحال أن الإيمان هو سلاح الثورة الأساسي. بتعليم الضعفاء والمحرومين الإيمان، يستطيع الثوري أن يغير مجرى التاريخ. تقاسم محمود ورفاقه العديد من لحظات السهر ليلاً داخل الخيمات. فهو يعرف ظموحاتهم وتخوفاتهم وخاصة غضبهم لكثرة ما حاول تهدئتهم وإرشادهم وتعليمهم الصبر وروح التضحية التي تتطلبها كفاحهم. كل شيء بهمهم غدا يرتكز على هذا التفهم الذي يشد بعضهم إلى بعض. هذا التفاهم الذي يعجز اللسان عن وصفه والذي يصنعه كفاح يومي ضد الحن والظروف المناكفة. لا شك أنه

25 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

يجب البحث هاهنا عن أحد الأسباب التي كانت وراء اختيار محمود. فقد كانت الثقة التي وضعها فيه هؤلاء الرجال والتي كان يقرأها في عيونهم ونظراتهم. هي الداعي إلى إنجاز عمل تحريري. وأمام الطريق المسدود. كان ولا شك دافعه الأساسي. أكثر من أي وقت مضى. هو الأمل في أن ينهض عهد جديد. أمل يتقاسمه جيل بكامله. اختار القيام بالعمل الذي يمكنه من أن يخلق كل شيء أو ألا يخلق شيء البتة.

ولأنه لم يستطع إعادة هيكلة التنظيم هيكلة تمكنه من أن يجعل منه أداة ثورية فعالة. فقد كان يحتاج إلى رجال ثقة ومتمرسين. قادرين على تعويض النقص في التنظيم. كانت المعلومات التي تصله من الداخل ترسم صورة غير منتظمة عن الوضع؛ فالحزب. الذي كان في طور إعادة هيكلة منذ محاولتي الانقلابيتين. لا يقدم أي قاعدة عملية يمكن الاستناد عليها. وقياديوه تراقبهم الشرطة مراقبة لصيقة. وهكذا فإن لجأ محمود رهين. وفي الآن نفسه. بقيمة الرجال الذين سوف يرافقه وبقدراتهم على التحرك في إطار الاكتفاء الذاتي.

انتزعت ضرورة العمل خالد من الانهيار البطيء الذي أخذت تعرفه المنظمة. ليستعيد التحكم في قدراته. هذه الضرورة نفخت في قناعاته طاقة جديدة. فمنذ العملية الفاشلة لسنة 1969. كان قلبه يتأرجح بين المرارة التي توحى بها شساعة الخسارة الخيفة والحماس الذي زرعه الغليان السياسي الذي يزعزع المغرب. وكأنه يريد التخلص من الحمل الثقيل. حمل مرعب. أجاب دون تردد:

— أنا معك. فتابع محمود قائلاً:

— في هذه الحالة. سوف تتبعني إلى الجزائر العاصمة وستذهب عند الساهر في وهران حيث ستجد أوامري مكتوبة²⁶.

كانت منطقة الريف مراقبة عن قرب شديد منذ محاولتي الانقلابين العسكريين. كان إذن على خالد ورجاله أن يقيموا بها أقل وقت ممكن. أي أن يتم تسريب الأسلحة والمقاتلين إليها بضعة أيام قبل انطلاق العمليات. سوف تكون الأسلحة مهيأة على الحدود الجزائرية والرجال يأتون مباشرة من معسكر التدريب الليبي. كان محمود يتوقع أن الأمر لن يكون انتفاضة منظمة من قبيل تلك التي كان يتوقعها في الأطلس ولكنها سوف تكون عبارة عن غارة. ففي ذهنه. بمقدور ضربة قوية ومفاجئة أن تعيد التعبئة التي كانت قد بدأت على المستوى الوطني والتي أهملتها قيادة أراها مشتتة. فيما يخص مصير الثورة.

كان الاختيار وليد تفكير طويل. كان محمود يعرف عن الفقيه البصري ما يجعله يعتقد أنه رغم خلافاتهما. سوف يجاريه ليبقى هو الزعيم على الأقل.

غادر محمود خالد بعد عناق قصير. إنه عناق لا يعبر طويلاً عن العواطف حتى يكون تشجيعاً صامتاً. فطريقاهما. إن التقيتا ثانية. فسيكون ذلك عند اشتداد وطيس الكفاح التحريري الذي وهبا له حياتهما.

وهاهو بوراس الذي زار محمود في دمشق بضعة أسابيع من قبل، قد احتفظ في ذاكرته بالحجج التي استند إليها محمود: "كان مقتنعا بأن الظروف التاريخية الاستثنائية التي تولدت عن الانقلابين الفاشلين لن تتكرر. فبعد ثلاث سنوات من غياب الحركة، جاء الوقت في نظره للمرور إلى مرحلة العمل. غير مهم إن كان التنظيم لا يزال غير مستعد". وكان يكرر لي بـ "أنه يكفي أن تكون قواعد ثورية". قبل أن يضيف "أنه عندما تنهض هذه القواعد، ومساعدة الظروف الموضوعية، فإن الثورة سوف تستمر رغم الأخطاء الذاتية سواء ارتكبها الفقيه البصري أم هو نفسه". قبل أن يضيف موضحاً: "استشارني محمود في خصوصيات منطقة فيكيك والزناغا. فحذرت حينذاك من كل محاولة تسرب انطلاقاً من هذين التجمعين"²⁷.

وتتذكر إلك، زوجة محمود، وأمي، ذلك التناقض بين عزمه والإهمال الظاهر الذي كان يحيط به: "في دمشق، صُدمت بطريقة عيش بعض من رفاق محمود الذين يزعمون بأنهم ثوريون. ولكنه كان يكتفي برفع كتفيه [غير مكترثاً]²⁸". فبعض أطر التنظيم التي دخلت في وقت مبكر في هذا الكسل المريح الذي تتفهمه الأوهام البرجوازية، كانوا يرون في العيش الرغيد على أنه تجربة ثورية. ذلك أن عدوى العادات تنتقل بسرعة أكبر مما تنتقل عدوى الشجاعة. وهاهم يفضلون أن يترددوا على صالونات عليّة القوم ويستنكرون في الوقت نفسه بقناعة مدهشة، عادات الأغنياء، وذلك دون أن يتخلوا عن الكلام اللامع الذي يُبقيهم دائماً في مرتبة النجوم في نظر المناضلين. كان طموح محمود الشخصي متواضعاً، إذ إن الأمر بالنسبة إليه مسألة أخلاق سياسية. بل كان يتسامح مع إفراط بعض الرفاق، سوف تتعرف الثورة على أبنائها ... وتواصل إلك: "آخر مرة رأيته فيها كانت في القاهرة صيف سنة 1972. بعد أن مروقت قصير على عودتي من فرانكفورت. حدثت عملية شهر شتبر من سنة 1972 ضد الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ. كانت الشرطة الألمانية في حالة استنفار، وكانت المراقبة على الحدود على أشدها. في هذه الظروف، كان يستحيل عليه الانتقال إلى فرانكفورت". ثم تضيف موضحةً وكلها بأس: "آخر رسالةٍ جاءتني منه حمل تاريخ 11 نونبر من سنة 1972"²⁹.

السبت 20 يناير من سنة 1973، طريق مكناس

غادرت سيارةً رينو 10 الرباط وأجهت نحو الشمال في يوم مطر. كان على متنها ثلاثة رجال توجهوا إلى مدينة مكناس. يركب السيارة ثلاثة رجال، عباس خلف المقود، وإلى جانبه يجلس دهكون بجلبابه ولحيته اللذين لم يبرحهما منذ ثلاثة شهور إنه المظهر الذي بات يتخفى به، فيُظهره أكبر من سنه (37 سنة) : لقد بات وكأنه أبٌ برفقة ابنه.

²⁷ حوّل للمؤلف مع إلك بنونة.

²⁸ حوّل للمؤلف مع إلك بنونة.

في الخلف، جلس المهدي، من شبكة الدار البيضاء. تَكَوَّن المهدي وهو شاب في التاسعة والعشرين من عمره في معسكر الزيداني. إنه شاب مندفع يكاد يكون غير مكترث بشيء. إنه "جيمس بوند" كما يقول عنه خالد عندما يتذكر جموحه الذي لا يتناسب مع الصرامة العسكرية. كانت للمهدي نظرة رومانسية عن الثورة. فهي بالنسبة إليه لعبة، طريقة في مواصلة أحلام الطفولة في عالم الكبار القاسي. ففي السنة السابقة، في شهر أكتوبر من سنة 1971، كان ضمن مدبري عمليات لإحياء ذكرى اغتيال المهدي بن بركة. ومنذ ذلك الحين، قام برحلتين إلى الخارج، واحدة إلى باريس والثانية إلى الجزائر العاصمة. وذلك من أجل تنسيق نقل السلاح لحساب دهكون. فعندما لا يكون حاضرا في اجتماعات خليفته السرية في الدار البيضاء أو لا يطارِد أحدا أو لا يراقب مكانا، فإنه يعمل أمين وكالة النقل الحضري بالدار البيضاء.

وبعد مكناس، تزايدت مراقبة البوليس. كان القطار أكثر وسائل النقل أمانا. ترك عباس السيارة في مرأب بيته العائلي بكناس. وودع عائلته مدعيا أنه ذاهب لحضور حفل زفاف أحد أصدقائه. ومن مكناس، وصل إلى وجدة على متن القطار صحبة المهدي. في حين عاد دهكون إلى الدار البيضاء. وبعد أن أمضى المهدي وعباس ليلة داخل القطار، استقبلهما الجداني في وجدة. وما قد تشكل ثلاثي التلاميذ السابقين بالمدرسة الثانوية الذين كانوا يقومون بالجولات الليلية للكتابة على حيطان مدينة سلا. ولكن تحولت الألعاب غير المبالية إبان أيام شبابهم إلى كفاح لا رحمة فيه من أجل الحرية. ذلك أن الجداني، الذي أصبح مدرسا في الثانوي وعضوا نشيطا في الحزب، درب في سوريا، وغدا الرجل المفتاح للتنظيم في وجدة.

فبعد أن عمل الجداني على عبور المهدي وعباس الحدود الجزائرية، أوصلهما إلى وهران عند ساهر الذي استقبلهم بوجبة غداء ضخمة. قدم عباس نفسه قائلا:

— اسمي البراك. وهناك من ينتظرني.

بعد نهاية الوجبة، جاء شاب إلى بيت ساهر وطلب منهما أن يصحبا على بُعد. قاد عباس والمهدي إلى شقة في الطابق الرابع عشر من عمارة وسط وهران. كان عباس يتوقع أن يلتقي الفقيه البصري، وهاهو الميد يستقبله. ففي غرفة تتوسط المنزل، كان رجل ينتظر. إنه محمود. المهدي يعرفه. فقد تدربا معا في الزيداني. وبينما محمود والمهدي يتبادلان الحديث في الصالون، أدخل الميد عباس إلى غرفة مجاورة.

ما كادا يجلسان حتى انهالت أسئلة الميد:

— كم عددكم؟ أين وصلت استعداداتكم؟

انتاب عباس إحساس بأن هناك خطرا يكمن وراء هذه الأسئلة. لم يستطع الميد. وهو يتظاهر باللامبالاة والعزم. أن يبذل إحساس عباس. فاحتاط عباس ولم يدل بكل التفاصيل:

— ليس هناك تنظيم. هناك عناصر فقط. إلى حد الآن. نحن ما زلنا نحتاج إلى مقاتلين قادرين على التحرك في استقلالية داخل المجتمع.

شعر عباس شعورا واضحا بأن الميد أخذ يفقد صبره. فعباس لن يعرقل مهما كان الثمن. العمل السري المتأني والدؤوب الذي أنجز منذ حوالي السنة. بيد أن الأحداث تسارعت. فقد انفجرت عدة ثورات في المغرب. فضاعفت من بؤر التوتر. خمن عباس اللحظة الحاسمة. ظهر أن الميد يريد الانتقال إلى العمل بسرعة. فقال دون مراوغة: “هنا. نحن مستعدون”.

وحتى يَظْهَرِ بِظَهَرٍ لا تُقَرَّبُ. أضاف: “بإمكاننا أن نقدم لكم الدعم اللوجستيكي الذي نحتاجونه”.

وأما عباس. الذي بقي حذرا محتاطا. فقد تشبث بموقفه:

— أقول لك إننا لسنا مستعدين بعد.

وحسب عباس. فإن النقاش توقف هاهنا. رفض دعوة الميد له بأن يقضي الليلة في وهران. متذعرا بأن عليه أن يدلي بمرافعة في اليوم الموالي بحكمة الرباط. وكان الانطباع الذي خرج به من هذا اللقاء. ودون أن يجزو على التعبير بصراحة عن رأيه. انطبعا سوف يتقاسمه العديد من المناضلين: هذا الرجل لا يملك طينة مَن يمكنه أن يتحمل هذه المسؤوليات.

دام اللقاء بين الميد والمهتدي نصف ساعة. وخلالها. تبادل عباس ومحمود. الذي كان لا يزال داخل الغرفة الوسطى. انطباعات عامة. وكما هي العادة دائما. فإن النقاش في هذا النوع من اللقاءات يكون عاما فضفاضا. إذ يتم تجنب التفاصيل الشخصية والتنظيمية بعناية. بيد أن عباس خرج من هذا اللقاء بالقليل من الرضى. فبعد غضب الميد. جاءت قوة محمود الهادئة لتمنحه شيئا يشبه المواساة. إنه الحوار الوحيد الذي كان لعباس مع محمود.

وكما كان الشأن خلال رحلة الذهاب. كانت العودة إلى وجدة تحت الأمطار. لم يتكلم أحد. كان صوت العجلات على إسفلت الطريق اللامع يؤثث الصمت. اليوم يوم أحد. عاد الجدائني إلى وجدة. والمهتدي إلى الدار البيضاء. وعباس مباشرة إلى محكمة الرباط بعد ليلة من السفر.

بعد مرور ثلاثة أيام. أي يوم الأربعاء 24 يناير 1973. منع وزير الداخلية الإخاد الوطني لطلبة المغرب.

الأطلس (1973)

السبت 27 يناير

كانت سيارة بوجو 404 في المقدمة، تتبعها شاحنة. انطلق الموكب من فيكيك وعبر هضبة تافيلالت على علو يفوق الألف متر، وتوجه نحو كلميمة : حوالي خمس مائة كيلومتر من الطريق غير المعبّد. وفي شهر يناير، كانت الليالي باردة قارسة في الأطلس. التصق الرجال الخمسة عشر بعضهم ببعض، كانوا يلبسون لباس القتال، ومكدسين في خلفية الشاحنة. فوق لباسهم ذي اللون الكاكي، وضعوا جلبابا من وبر الجمال. كانت الأيدي التي تشد على السلاح متجمدة من البرد. الاهتزازات المتتالية خدد إيقاع الرحلة التي تغوص في الليل الصامت، فيتزايد الإحساس بحجم الخطر كلما اهتزت الشاحنة اهتزازات ما فتئت تتزايد وتكبر.

دخل محمود ورجاله التراب المغربي منذ ثلاثة أيام. إذ قادهم الفرشي وساهر والميد حتى الحدود. فدخلوا عبر حمدان بوعزة بلباس مدني. مساء يوم الخميس 25 يناير عند إطفاء الأضواء. وكما فعل الفرشي قبل سنة من ذلك عندما ودع النمري، هاهو يودع محمود بعناق طويل وحر. وكأنه يريد أن يمرر له تلك القوة التي جمعتها في كفاحهما والتي ستحسم اليوم في مسألة نهايتها.

في الجهة الأخرى من الحدود. كان ينتظره ساعة. وهو المسؤول المحلي عن التنظيم. إنها لحظة حاسمة تلك التي يلتقي فيها مسار هؤلاء الرجال الذين كانوا يختلفون اختلافا خلال بداياتهم. يلتقي هذا المسار ليذوب داخل مصير مشترك. رافق رجال مسلحون محمود ورجاله حتى فيكيك: إنهم رجال شرطة يحرسون الحدود ومتعاطفون مع التنظيم.

في ذلك التجمع الصحراوي، تسلموا العتاد من الخبأ الموجود في عين المكان: سلاح وذخيرة ولباس عسكري وجلابيب وأدوية: ثم واصلوا الطريق حتى واد الهاسي. على بعد 16 كيلومترا غرب فيكيك. كانت المنطقة وبأعجوبة هادئة ومهجورة. لم تكن هناك أي مفرزة عسكرية. كانت مدينة فيكيك بكاملها.

من الفلاح إلى رجل القوات المساعدة. تساند قضيتهم. وكم كانت دهشتهم حين زار المقدم (وهو ممثل وزارة الداخلية على صعيد الدوار) رجال محمود. كاد فضولُه يودي بحياته. ذلك أن أوامر محمود كانت واضحة: إطلاق النار على أي رجل من رجال الأمن قد يظهر. وهكذا. كان بعض رجال محمود يستعدون جادين لإطلاق النار على المقدم. وهو مدين بحياته إلى إلحاح ساعة الذي أخبرهم بأنه عضو من أعضاء شبكته.

كان من المفترض أن يكون اللقاء مع مناضلي كلميمة في مفترق طرق يُدعى المسكي على بعد 80 كيلومترا من فيكيك. ولكن، وفي المكان المحدد، لم يأت أحد. لا في الموعد الأول. ولا في الموعد الثاني الذي ضرب في حالة تأخر غير متوقع. ولأنه لم يعد بالإمكان الرجوع إلى الخلف. قرر محمود مواصلة السير تحت قيادة ساعة، ما دام الرجل قد سبق وكان مساعداً قائد السلطة بكلميمة.

عبر الموكب مدينة قصر السوق دون أن يتوقف. بعد ثلاث ساعات من الطريق. وصل إلى كلميمة فجر يوم الأحد 28 يناير من سنة 1973. كان الجو باردا. كانت أولى علامات الشفق قد أخذت تتراءى خلف القمم المغطاة بالثلوج التي تطوق المدينة النائمة. فكلميمة. وسط واحة النخيل الفاخرة. ومنازلها الحمراء القائمة داخل علبتها الخضراء. كانت تبدو وكأنها مراكش صغيرة. في الجهة الغربية. تقف شامخةً جبال الأطلس الكبير. ومن جهة الشرق. تعلوا أولى تضاريس الأطلس الصغير. وفي قعر هذه الحلبة الجبلية. تمتد. في اتجاه الجنوب. هضبة صحراوية تتخللها الواحات. إنه موقع جغرافي أكسب كلميمة لقب باب الصحراء.

توقف صوت الشاحنة أمام محطة بنزين عند مدخل المدينة. إنها محطة يملكها اللوزي. الممثل المحلي للتنظيم¹. وبينما الرجال يزودون الشاحنة بالبنزين. خرج ساعة لإخبار مناضلي من مناضلي التنظيم يسكن على بعد خطوتين من هناك. كان هذا المناضل نائماً أو يكاد. فأيقظه ساعة وهو يشتمه. وتذكر الرجل أن: "وصول الموكب كان منتظرا غدا. إنه قد وصل قبل الموعد بيوم²". إذن فاللقاء الذي لم يتم في المسكي سببه خطأ في تواريخ الموعد.

وبسرعة. اقتيد محمود ورجاله إلى بيت صحراوي في قلب واحة النخيل التي تمتد على جوانب كلميمة. ولما علم المسؤولون المحليون بالأمر. جاءوا على وجه السرعة³.

1 حدو اللوزي نُوفي سنة 1997 بمدينة الرباط.

2 حوار للمؤلف مع الحسين الخياط. المعروف بطام.

3 الجزء الأساسي من تفاصيل أحداث الأطلس مأخوذ من تقارير كتبها سنة 1973. يطلب من قيادة التنظيم. ثلاثة مساعدين لمحمود. لجوا من المعارك ولجنا إلى الجزائر: سي إبراهيم والنجار والصغير. هذه الشهادات الثلاث التي تتطابق فيما بينها. قورنت بعد ذلك بشهادات جمعت بين سنتي 1996 و2000 خلال تحقيقات مختلفة في الأطلس.

كلمية

يتذكر مرزوق⁴ ما حدث وكأنه وقع بالأمس القريب. فهو قد عرف ولد النصارا. وهو شاب من الرباط كان يناضل لصالح المقاومة الجزائرية نهاية الخمسينيات. ولكنه لم يكن يظن أن محمود الذي يتراسل معه بواسطة رسول هو الرجل نفسه الذي كان أمامه. كان مرزوق حينها فلاحا قوي البنية. سنه 40 سنة. وينحدر من عائلة من ملاكين صغار للأراضي شبه فيوداليين من قبيلة آيت عطا. كان حفيد شيخ من قبيلة آيت حديدو. وقد مكّنه نسبه المتميز هذا من أن يصبح الكاتب الأول للفرع الجهوي للحزب. ولكن وفي ذلك الصباح. استقبل محمود ورجاله بصفته عضواً في التنظيم. استقبلهم استقبالا حاراً مما يشهد على الأهمية القصوى التي تكتسبها هذه اللحظة بالنسبة إليه.

ويحكي مسؤول محلي آخر عن التنظيم: “كنت قد وصلت من تنغير عشية ذلك اليوم صحبة سيدي حمو واثنين من رجاله. كنا نستعد لقدم الأطر الثورية عندما أخبرنا بأنهم قد وصلوا⁵”. وكان سيدي حمو. ثائر الأطلس. فعلاً ضمن القياديين المحليين الذين حضروا لاستقبال محمود. كان الجهل يقلص من مستوى الوعي السياسي عند الساكنة المحلية. ومن ثمة فإن حالة قادة التنظيم وهيبتهم سوف يكون لهما الدور الحاسم في تعيين هؤلاء السكان من أجل خوض الكفاح. كان سيدي حمو سلطة معنوية معترفاً بها في تنغير. يُهاب ويُحترم. وكان اللوزي. وهو شخصية ذكية ونافذة. يملك محطة البنزين الوحيدة في كلمية وكان له أصدقاء كثيرون متواطؤون داخل السلطة الجهوية. كان الآخرون⁶ شيوخا. يملكون حالة المقاومين. كان مناضلو الخلايا السرية التي أنشئوها في المنطقة قد تدربوا داخل الحزب. إذ كانت ثقافتهم التعليمية وحدها كافية لتجعل منهم أعياناً. وبعد أن تردد اللوزي طويلاً بين جلال اللحظة والحماس الذي يحركه من أعماقه. لم يستطع أن يكبح اندفاعه وفرحته. فصرح: “إن السلطة المركزية لم يعد لها نفوذ ولا سلطة في المنطقة”.

لقد كان حرمان السكان وقهرهم قد بلغ أوجه وأصبح غضبهم محسوساً ملموساً مهدداً. والقوات المساعدة مستعدة لتنظم إلى معسكر الثورة. ولأن اللوزي تعايش سنوات مع البؤس. فإنه يعرف الشعور الذي يوجد خلف خمول الدواوير المحيطة. إلى جانبه. حرك القياديون المحليون الآخرون رؤوسهم دلالة على أنهم متفقون. كانت سنوات من الغضب تعبر عن نفسها. وكذا سنوات من الصبر. منذ خمس سنوات.

4 مات في حادثة في شهر يوليوز من سنة 2001.

5 حوار للمؤلف مع توريكي عدي.

6 إضاعة إلى الحسن مرزوق وحدو اللوزي. حضر كذلك سي حمو علا. شيخ تاديفوست. وسعيد أوداز وحسين آيت زابد وتوريكي عدي.

أرسلوا جماعات من المناضلين ليتكفونوا في الجزائر. توصلوا بالسلاح وخبأوه وشهدوا سيدي حمو والنمري يأتیان على التوالي. ولهذا فإن الكل رأى في وصول محمود ورجاله الحدث الهام.

بعد أن لبى محمود ورجاله نداء شهيتهم من الطعام، أمر محمود رجاله بتنظيف السلاح الذي تسلموه في فيكيك. وأن يتوزعوا إلى مجموعات تتكون من أربعة أفراد، دون صَحْب. وأما الآخرون فكان عليهم أن يبقوا حذرين متيقظين. نفذوا الأوامر بحركات فيها من العناية ما يُذكر بإجّاز طقس غريب. ففي هذه اللحظة، وحده الزمن الحاضر هو الذي يهمهم. كانت الحركات قصيرة واللحظة حاسمة. وأثناء ذلك وزع محمود المجموعات والأدوات.

كانت المجموعة الأولى تتكون من أسكور وصبري، وهما من قدماء سنة 1969. فقد رافقا اليزيد في رحلته الفاشلة إلى تارودانت، وآيت عمي، وهو عضو سابق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والباعمراني والناصري، وهما ضابطا صف سابقان في القوات المسلحة الملكية. هذه المجموعة سوف تتوجه إلى خنيفرة لتعزيز النمري وأمدة.

وأما المجموعة الثانية فتتكون من العثماني وبوزيان، وهما على التوالي ملازم سابق في القوات المسلحة الملكية ومقدم سابق بأسفي، وهما كذلك من قدماء سنة 1969. كانا ضمن الناجين من مجموعة الفرشي والملكي النائر المبكر والجزار ودحمان سعيد، وهما جنديان سابقان. سوف يتدخل هؤلاء الرجال [بالسلاح] في تنغير خت قيادة سيدي حمو.

وأما المجموعة الثالثة فتضم سليمان العلوي وفريكس، الجندي غير النظامي، وثلاثة أعضاء آخرين من الكوموندو البحري: سي إبراهيم والنجار والصغير. وستبقى هذه المجموعة في منطقة كلميم لتأطير خلايا اللوزي. وسوف يكون محمود إلى جانبهم لتنسيق حركات فرق الكومندو.

كل مجموعة تشكلت كانت تضم، كما هو شأن قوات النخبة، رجالا أكفاء في مجال التسليح والقنابل والاتصال عن بعد. لم يكن أحدٌ من هؤلاء الرجال مبتدئا. عمرهم في المتوسط 35 سنة. تكونوا في الزيداني وعرفوا صرامة وقساوة معسكر أوواطا في الجزائر. قاوموا في صفوف الفدائيين الفلسطينيين وجأوا من الاعتقالات التي ذهبت بالرفاق. إنها اختبارات رمتهم في قرار أنفسهم هم بالذات. في ذلك المكان الذي يُجابه فيه الضميرُ القناعات والقدرات على المقاومة، ليخرج منه وقد تغير بكل تأكيد.

في نهاية هذا المسار، احتفظوا بميلهم إلى الثورة سالما، في الوقت الذي قد يميل فيه معاصروهم، الذين تخضعهم الحن والظروف الصعبة، إلى القبول بأوزار الطاعة

والإنعان. لقد جعلت منهم جُريتهم النواة الصلبة لنخبة ثورية عزُمها لا تشوبه شائبة. اجتمعت فيهم خصال قلما جتمع في فرد واحد: إنكار الذات والشجاعة والنزاهة. وبالنسبة إليهم، غدا التخفي طبعاً ثانياً والجَلَد قوة لا يساور فيها الشك. وباختصار، فإن محمود قد اختار من بين أعضاء جيشه أفضلهم ليخوضوا كفاحاً في مستوى تضحياتهم.

وبعد يوم من الراحة، طلب محمود من المجموعات أن تستعد للرجيل. وذكر مرة أخرى مسؤولي الجهات بتعليماته:

— كونوا على استعداد للهجوم يوم 3 مارس، يوم عيد العرش.

بَرَمَج محمود شهراً ليعيد تنظيم الخلايا. وتكوين المناضلين المحليين وتدريبهم على القتال ووضع جهاز للهجوم. وهكذا فقد كان في نيته أن يشعل فتيل الانتفاضة مباشرة بعد ذوبان الثلوج وكفايةً قبل أولى لفحات حر فصل الصيف.

غادرت المجموعة الأولى كلميمة على الساعة الواحدة صباحاً لتتوجه إلى خنيفرة تحت قيادة موحى أو الحاج. الرجل النافذ والنشيط في اخنيفرة. ومعهم رجاله. وأما الثانية فلم تتوجه إلى تنغير إلا في اليوم الموالي، يوم 29 يناير، على الساعة الثانية عشر ليلاً. وأما محمود والرجال الباقون فقد غادروا الملجأ بعد ساعتين من رحيل المجموعة الثانية. ركبوا الشاحنة لتوصلهم إلى قرية صغيرة توجد على بعد عشرين كيلومتراً غرب كلميمة. أسفل سلسلة جبال الأطلس الكبير: قرية تاديغوست.

تاديغوست

المنطقة متوحشة، أرض خلاء طبيعية، تنتشر فيها قصور متفرقة، والقصور هنا تُطلق على حصون من العصور الوسطى. تشهد على ماضٍ هائج صاخب وعلى حاضرٍ استقر في سِلْم نسبي. كان الجبل العاري، الذي يشرف في جلالٍ على الهضبة، يتباهى بقممته التي تَكْسوها الثلوج. لقد شكلت قساوة ووعورة الطبيعة والمشهد طابعَ السكان. فقد كانت الحياة ثمرة كفاح يومي ضد طبيعة قاسية وعرة. خلقت تخوم هذه الجبال القاحلة، لأنها ربت ساكنتها على التقشف والزهد، مواهب نبيلة ومقاتلة كثيراً ما وقفت في وجه فساد السلطة المركزية. ولا شك أن هذا السبب هو نفسه الذي دفع حكام المغرب المتتاليين، من ذوي السلطة المعنوية المتذبذبة، إلى أن يخصصوا هذه المنطقة بدورٍ بئيس: فجعلوا منها قبلةً للنفي والاعتقالات السرية: أغبالو زمن الحماية، والسجن الشهير ببؤسه، تازمامارت. وقلعة نكردوس في عهد الحسن الثاني. كل قصر من تلك القصور يأوي بداخله ثواراً واعين أو كامنين. إنهم رجال ونساء يشتغلون خمس عشرة ساعة في اليوم منذ طفولتهم. وعزاؤهم الوحيد هو بضع

ويتذكر الميد قائلا: "التقيت محمود بوهـران لأول مرة. كان يتحدث قليلا ويقرأ كثيرا"⁸. وبتعليمات من الفقيه البصري، الذي كان عازما على مواصلة المبادرة، تكلف الميد بربط الاتصال بالخلايا الموجودة في المغرب. فبعد أن كان الميد رجل عبور في مليبية، ارتقى ليتسلم زمام القيادة بعد أن بقي المكان فارغا بسبب الاعتقالات العديدة التي جرت منذ ثلاث سنوات. وكان يوزع وقته بين باريس ووهـران والجزائر العاصمة. مازجا مزجا بين الأعمال والأنشطة السرية والاتصالات بالخبايا- المضادة الجزائرية وأحيانا المغربية.

وعند نهاية سنة 1972، حذا حذوه آيت قدور بالعاصمة الجزائرية. "غادرت باريس غداة الانقلاب وذهبت إلى طرابلس ما بين 17 و 20 غشت. قدمني الفقيه البصري على أنني الرجل الذي حرك الجيش ونظم لي جولة شرفية في ليبيا. وبين حصص المناقشات السياسية وبرنامج الذبائح، التقيت الهوني الذي أعطاني أموالا لأسلمها للفقيه البصري"⁹. وكانت المرحلة الموالية هي الجزائر العاصمة يوم 16 شتنبر. وحسب آيت قدور، فقد كان السيناريو هو نفسه : تقديم "رجل الجيش" للسلطات وجمع الأموال. ويواصل آيت قدور : "ويوم 4 نونبر من سنة 1972، عدت إلى الجزائر العاصمة. كان الفقيه البصري ينوي إنشاء قاعدته العامة بها وكلفني بتحضير وصوله".

ولكن في وهران، اعترض الميد. إذ سرعان ما أفصح الجزائريون عن الرجل الذي يفضلونه: الميد. قيل آيت قدور بالأمر دون انزعاج. فعلى كل حال، هو واحد من أعضاء المنظمة الدائمة الترحال. فهو يوجد في الجزائر العاصمة دون أن يكون فيها حقا. وحدثت صدفة في التوقيت، إذ في بداية شهر دجنبر، قام مدير الأمن الترابي، أحد أهم مصالح الخبايا المغربية، بزيارة خاطفة للعاصمة الجزائرية. كان يحمل في حقيبته طلبا من الحسن الثاني موجهاً إلى بومدين. كان ملك المغرب يطلب تدخلا ضد مخزن للسلاح للتنظيم يوجد بعين تورك. تعرفت على مكانه مصالح الخبايا المغربية. كان مصدر تسرب هذه المعلومة غير أكيد. تحدث البعض عن اعترافات انتزعت من الحسين المانوزي، وربط البعض الآخر، كما هو شأن خالد، الأمر باعتقال ناقل سلاح بوجدة يسمى بولفارش. وهو مهاجر في ألمانيا تكون في ليبيا. وخلال عملية البوليس التي قادها الأمن الجزائري، اعتقل بضعة رجال وهرب آخرون. لم يلحق حيز السلاح سوى أضرارا بسيطة بالشبكة التي احتفظت بالجزء الأكبر من ترسانتها العسكرية الموزعة بين طرابلس ووهـران والجزائر العاصمة والمغرب. بيد أن هذه العملية كان لها وقع الإنذار. والغريب أن السلطة الجزائرية تبرر هذا التدخل العنيف بذريعة واهية: هي أن معارضي بومدين لربما يستفيدون من الجهاز اللوجستيكي للتنظيم.

8 حوار للمؤلف مع أحمد خير المعروف بالميد.

9 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

ويقول بنحجي: "أرسلني الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة للتفاوض مع دراعيا (المسؤول الكبير عن الأمن الجزائري منذ سنة 1965) في أمر إطلاق سراح آيت عمي وصبري وأسكور. الذين كانوا حينها في قبضة المخابرات منذ اعتقالهم بعين تورك¹⁰". وسوف يدعي الميد بأنه قام بالمهمة نفسها : "ذهبت للآلة دراعيا ليعمل على تحرير رفاقنا¹¹".

ولكن وبما أن الفقيه البصري كان يحسن الاستفادة من هذا النوع من المواقف. فإن الحادث سوف يسهل. وهنا المفارقة. عودته إلى العاصمة الجزائرية لتستأنف المفاوضات مع بومدين.

اجتماع باريس: نهاية سنة 1972

اعتاد هونري كيريل¹². وهو الخبير في الأمر. أن يقول: "العمل السري سرعان ما يُنهك". هل هو التوسع الكبير الذي أصبحت تعرفه المنظمة. أم التفريق المتزايد بين المهام أم. وبكل بساطة. إنهاك الزمن؟ ويتذكر آيت قدور¹³ أن الواحد "يصبح موضع شك بدون سبب. فيُشك فيه بأنه من البوليس: كانت التقارير كثيرة وفيرة". العمل السري خصب فيما يخص الإشاعات والشكوك حسب الخلافات التي سرعان ما تحول إلى اتهامات. تزايد الحصار. والقيادة تبخل بتقديم الشروحات وعمل ذكي من قبل المخابرات المغربية وأحيانا الجزائرية لإدخال المرض. كلها أمور غدت وشجعت إحساسا جماعيا بالذهان الهذيان.

لا شك أن العمل السري يمنح الإحساس بطعم تلك الحرية التي يطمح إليها المناضلون. ولكنها حرية مصحوبة بسلسلة طويلة من الاكراهات باسم ضرورة الأمن. المشي ساعات طوال على الأقدام في الشوارع والأزقة للانفلات من مطاردة. وتفتيش مكان الموعد عدة مرات. وحفظ لائحة طويلة وطويلة من الأسماء المستعارة. وانتظار أمر مفترض طيلة أيام وأيام. والعيش بين مخبأ وآخر. وخاصة .. الحيلة من أذان تُفترط في الإنصات لأنها ليست صدفة. كل هذا إضافة إلى الخطر الدائم والحاضر في كل الأذهان بأن يتم الاعتقال والموت المحتمل إن لم يكن أكيدا في نهاية المطاف. إن المصادفات خلال العمل السري الذي لا يعرف المرء دوافعه ولا مقاصده تنخر الأعصاب وتزعزع القناعات. باسم ماذا اعتقل رفيق؟ هل كان لتضحيت ما يبررها؟ إن الشك يخنق الضمائر. فكيف إذن يجابه المرء الموت عندما يغيب الأمل؟

10 حوار للمؤلف مع محمد بنحجي.

11 حوار للمؤلف مع أحمد خير. المعروف بالميد.

12 "رجل فريد متميز. هكذا كان هونري كيريل". جيل بيرو. كتاب الجيب. 1984.

13 حوار مع المؤلف.

ولهذا ليس من النادر أن يحاول المناضلون التعرف على المسؤولين عن فشل هذه العملية أو تلك. وعلى رأس الهرم. كانت الأمور تُترجم دائما بالسيناريو نفسه: خلايا أزمة وشروحات وقرارات. وفي القاعدة. كان هذا يخلق إحساسا محبطا بضرورة العودة إلى نقطة الصفر.

وهذا ما حدث نهاية سنة 1972.

وبما أن تحذيرات محمود للفقير البصري لم يكن لها أي وقع. فقد دعا إلى اجتماع في باريس. وكان غرض خلية الأزمة هاته. والتي تم استدعاؤها على وجه السرعة. هو القضاء على هذا المسلسل الثابت الذي أخذ يشنت الحركة. انعقد الاجتماع في بيت صغير بفيل جوفيف. في الضاحية الجنوبية بباريس. شاركت فيه الأطر الرئيسية للتنظيم. إبراهيم وآيت قدور وعجول ومحمود¹⁴. التحق بهم بنحى الذي كان يُعالج في باريس من داء السل. أرسل الفقيه البصري الذي كان غائبا أخاه حسن كملاحظ. غضب محمود لكون حسن البصري يلعب دور النائب عن أخيه. وتلقى محمود الضربة في صمته. احتفظ بهدوئه ولكن ابتسامته المعروفة لم تعد تنذر سوى بتدهور العلاقات الداخلية. وبعد التحيات والجماعات الاعتيادية. تواتت التقارير. اتفق الحاضرون على أن ترأب أنشطة التنظيم مراقبة أفضل. وتم توزيع المهام من جديد.

وها قد ظهرت البوادر الأولى لتطهير المنظمة. ولأن محمود كان رجل سياسة متمرسا. فإنه تعرف -وكتابات تشهد على ذلك- على خطر له علاقة بأنشطة الفقيه البصري الموازية. وهو يعرف كذلك أن الميد هو الحجرة الرئيسية. ويتذكر إبراهيم قائلا: "عندما رجع محمود من وهران. كان يشتكي من الميد. قال لي: إن أعمال الميد في وهران تمثل الفوضى العارمة بعينها"¹⁵. وأمام ساعة. أدلى محمود بملاحظة أكثر بلاغة وتعبيرا ما كانت عليه سالفتها: "عندنا. كل شيء يُشتري"¹⁶.

كان لمحمود الوقت الكافي للوقوف على عدم كفاءة رجل الفقيه البصري هذا الذي يتكلف بكل شيء. فيما يخص تلك الأمور البسيطة التي يمكنها أحيانا أن تنقذ أرواحا. ولكنه كان يخشى ما هو أدهى. أي انعدام كفاءة يمزج بطموحات خطيرة تتخفى وراء بلاغة الميد الخطابية المتباهية الكبيرة؟ كان الميد يتكلم بتلك الثقة التي يكتسبها المرء من معرفته بالأسرار الخفية. أكيد أن محمود كان معتادا على جحود بعض الأطر الناكرة للجميل وعلى تبايها. ولكن وفي هذه الحالة بالضبط. أحس محمود إحساسا مخالفا. لم يكن قادرا على تمييزه بوضوح. فمنذ أن أطلق الميد الرصاصات الأولى خلال المقاومة. ومساره الملتوي عبارة عن عشرين سنة من الحسابات

14 حدث بنحى عن وجود الميد والطالبي وعمر زاهير.

15 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشلح.

16 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة المعروف بساعة.

والطموحات غير الواضحة. فهو قادر على مناورة غير مضمونة من أجل تحقيق أغراض شخصية: بحسد الرفاق الذين قد يملكون بعض المال، إنه رجل خطير لأن شأنه صغير. ومع ذلك، فإن كانت الآراء جُمِعَ على ضيق أفقه الفكري وعلى ميله المرّضي إلى المال، فإنها تختلف فيما يخص تواطؤه المفترض مع المخابرات الغربية. ولأن محمود كان يعرف بأن شبكة الميد تقوم على خالفات قَبَلِيّة وجهوية فإنه شك في كونه، ولهذا السبب، قد سُرِبَ تسريباً.

وفي اليوم الموالي، وقبل أن يغادر محمود باريس، التقى ثانية بآيت قدور في مقهى في ساحة إيطاليا. جلس الرجلان إلى طاولة وتبادلا انطباعاتهما عن اجتماع الأمس. كانت باريس غارقة في كآبة ظهيرة خريف في أواخر أيامه. كان الجو ثقيلاً، محملاً بعاصفة مترددة، فزاد الأمر من جلال اللحظة وخطرها.

حذر محمود آيت قدور: "إن أهدافنا الثورية أصبحت متفاوتة مقارنة مع إمكانياتنا". وافق آيت قدور على الأمر بحركة من رأسه دون أن ينبس بكلمة. واصل محمود: — إن كان الفقيه البصري يريد أن يعتمد على الميد فهذا شأنه. وعندما يحين وقت الرجوع، سوف نرجع ولكن لن أقبل بأن يُطَلَبَ مني أن أقدم ثمرة عملنا على طبق¹⁷.

كان لبنيجي كذلك حوار على هامش الاجتماع مع محمود: "أخبرني بتحفظاته فيما يخص الميد، وهو الأمر الذي كنت اتفق معه عليه. وبعد ذلك، تحدث عن تخوفاته فيما يخص تطور الوضع السياسي. وفي الأخير، أخبرني بأن الفقيه البصري قد ربط العلاقات ثانية مع الجزائريين¹⁸". في تلك اللحظة، لم يُثر هذا الخبر الأخير أي تعليق. بيد أن بقية الأحداث سوف تسبغ عليه دوراً حاسماً.

طرابلس، نونبر سنة 1972

كانت كل الأمور عادية عندما أخذ محمود بنبرته الهادئة يعدد لائحة حاجاته لإبراهيم. فهو قد وصل عشية ذلك اليوم إلى طرابلس، وهماو يسأل كما هي عادته عن آخر التطورات في ليبيا. دون أن يهمل أي تفصيل من التفاصيل. ولكنه لم يخبر إبراهيم بدخوله المقلب إلى المغرب إلا بعد أن انفرد به في غرفة بفيلا ابن عاشور. ولأن إبراهيم كان صلة الوصل مع الليبيين، فقد كان عليه أن يلبي الحاجيات من الأسلحة على المدى الطويل. كان محمود يطالب بأسلحة كلاشنيكوف وقاذفات للقنابل ر.ب.ج. ومدافع هاون خفيفة من صنع إنجليزي. على أن يتم نقل هذه الأسلحة إلى المغرب حسب برنامج موضوع سلفاً. وفيما يخص النقل، قدم الليبيون مساعدة طائرات

17 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

18 حوار للمؤلف مع محمود بنيجي.

ناقلة للبضائع. إذ بات الليبيون يملكون طائرات ناقلة كبيرة يمكنها أن تزود مباشرة دون ضرورة التوقف في الجزائر. وكان طيارون يوغسلافيون. قادرون على الإنزال على علو منخفض. يعملون منذ زمن قصير في القواعد الليبية.

خُصصت إذن اللحظات الأخيرة من اتصالهما على انفراد لوضع شفرة اتصال وفق أبجدية تشتغل حسب وظائف حسابية بسيطة. وباتت الإذاعة الليبية هي وسيلة التواصل مع الجماعات الثورية بعد أن كانت حتى ذلك العهد أداة للدعاية. بعد أن انتهيا من هذه الإعدادات. ركب محمود وإبراهيم سيارة دجيب للذهاب إلى معسكر التدريب. وهاهو إبراهيم يعيد تركيب الحوار من جديد. سأل محمود:

— كيف هو حال “التلميذ” (الهنوي). هل يتعلم جيدا دروسه؟

فقال إبراهيم:

— لقد توقف. نظرا لضيق الوقت أو فتور في العزيمة. فأنت تعرف بأنه لا يستيقظ باكرا في الصباح. كان يريد أن يبدأ دروسه في اللغة الفرنسية على الساعة الثامنة صباحا. وكان قد رتب كل شيء من أجل تحقيق هدفه. فمعاونوه وضعوا سبورة كبيرة في قاعة الاجتماعات. ولكن صبره دام خمسة أيام. ثم عاد ثانية ليصبح رجل الصحراء. لا يضبط المواعيد.

— لقد فقدت إذن الاتصال الشخصي؟

— ليس تماما. ما زال “التلميذ” يزورني بعد قيلولته. يُحضر معه الجرائد الفرنسية. نشرب القهوة وأترجم له المقالات.

فقال محمود لإبراهيم مؤكدا:

— عليك أن تحافظ على الاتصال.

— نعم. يا محمود. ولكن أذكّر أنني في قضية العقيد (الكولونيل) أمقران في جبل طارق. وجدت صعوبة في الاتصال به. ورغم نداءات ملحة. فإنه لم يكن يجيب.

فهقه محمود ضاحكا. ثم توقف وقال:

— لا شك أنه كان في حاجة إلى أن يتشاور.

كانت البناءات الأخيرة في جنزور. وهي ضاحية من ضواحي طرابلس. تمتد حتى الأفق. ولم تكن قاعدة التدريب بالسواني سوى على بعد بضعة كيلومترات. مرت سيارة الدجيب بسلسلة من المنعرجات لتنفادي الأخاديد والحفر التي تتخلل الطريق. لاحظ محمود قائلا: “إنك تحسن قيادة هذه السيارة”. ثم وفجأة. ولأنه قلق بسبب غياب الرجل الذي يستأجر هاته العربات المحملة بالسلاح عبر الصحراء. قال بصوت ساوَره الشك:

— بالمناسبة. ما هي أخبار الحسين المانوزي؟

— لا خبر عنه. منذ وصلت برقيته الموقعة باسم “غاسبار”.

قطع صمت طويل حوارهما. كان الجزء السفلي من الطريق يمر أمام عيني محمود. عن قريب. تكون عشرة أيام قد مرت. ولم يظهر أي أثر لحسين المانوزي. ودون أن يعترف بالأمر حتى لنفسه هو. شك في كون الرجل قد سقط في أيدي البوليس السياسي المغربي. فقد أصبح قتل الرجل. كما هو شأنه هو نفسه. أمراً مطلوباً منذ محاكمة مراكش. وبعد أن ابتلعت السيارة كيلومتراً واحداً وهما صامتان صمتاً مطبقاً. عاود إبراهيم النقاش.

— وأنت في وهران. هل هناك من تقدم؟

فتنهده محمود وقال :

— لا. تطاردنا مخابرات دراعيا. وقد انضاف إليها اليوم الأمن العسكري الذي بدأ

يتدخل في الأمر.

— ومناضلونا؟

— هنا. وعلى العكس. يجب أن نتقدم. أن نمشي إلى الأمام. فإن الانتظار قد أصبح خطراً.

— لا شك أن سي محمد (الفقيه البصري) طلب مني لهذا السبب أن أرجع لكي

أنسق العمل بين بوعرفة وفيكيك.

استدار محمود مندهشاً مذهولاً:

— ومن الذي سوف يتكلف بليبيا؟

— المسؤول عن التنظيم في سوريا.

فأجاب محمود:

— لا أبداً. أنت تبقى في طرابلس. فنحن نحتاجك في طرابلس... وقد اعترف إبراهيم

فيما بعد : "دون أن ينتبه محمود إلى الأمر. فإنه كان قد أنقذ حياتي"¹⁹.

عندما وصل محمود إلى السواني. استقبله رفاق الزيداني استقبالا حاراً. كان

حماسهم يتناقض مع اندهاش المجندين الجدد الذين يرون محمود لأول مرة. فهم يعبرون

عن عاطفة تتجاوز كثيراً العلاقات غير المشخصة التي تجمع الرفاق الثوار. منذ تجربة

حرب العصابات الفلسطينية. التي تقاسمها هؤلاء الرجال على طول ضفتي نهر

الأردن. وهم متعلقون بمحمود تعلقاً لا تشوبه شائبة. واليوم. فإن مجيئه يخرجهم

من عزلة ولدها غياب العمل وغياب الخطر المشترك. وعند الانتهاء من تعابير الفرحة

باللقاء وتبادل العناق. انفرد محمود بحوالي خمسة عشر رجلاً كان قد كلف بهم

خصيصاً مدرباً عسكرياً ليبيا.

وأما إبراهيم فقد ارجل حلقة (دائرة تكوين)؛ كان محور النقاش فيها هو موضوع

سياسي من وحي الظرف الراهن.

ويحتفظ أيضاً خالد. وهو مسؤول في المعسكر. بذكرى دقيقة عن هذه اللحظات.

وخاصة ذكرى اجتماع دام ثلاثة أيام متواصلة بإقامة ابن عاشور حضره محمود وآيت

قدور والميد والفقيه البصري. كان الجو متوتراً. إذ كان آيت قدور والفقيه البصري

صامتين متكتمين كما هو شأن عليّة القوم عَشية مؤامرة. كان الميد منفعلًا. ورغم أن محمود كان يبدو هادئًا، فإنه كان فريسة غليان داخلي قوي. مع الفقيه البصري ومحمود وآيت قدور كانت قيادة الثورة مجتمعة.

وكان حضور الميد. وهو المكلف بالتدبير واللوجستيك، يدفع إلى الاعتقاد بأن مضمون المناقشات سوف ينصب على المسائل التقنية والتنظيمية. وكان خالد قد دُعي إلى حضور جزء من المناقشات. علم عندها أن مجموع الجهاز قد استعرض في اللقاء: الوضع السياسي والحلّيا المحلية ومخابئ الأسلحة والمواصلات والتزويد. قسم التراب إلى ست مناطق عملية، منطقتين في الشمال، ومنطقتين في الوسط، ومنطقتين في الجنوب. كان من المفترض أن كل منطقة تمّ حديدها ستستقبل بؤرة ثورية تتكون من مناضلين مستعدين للقتال. ومن مصدرٍ مُنْتَظَمٍ للتزود ومن وسائل التواصل ومن قاعدة للتراجع.

توجه محمود إلى خالد وأخبره بأنه سوف يتقاسم قيادة منطقة الشمال مع الميد. وذكر أسماء أربعة أطر سوف تساعد في هذه المهمة. فبعد السلام العالي. فيكيكي الأصل. تخرج مثله من الأكاديمية العسكرية السورية سوف يساعد فيهما يتعلق بالجانب العسكري²⁰ وهو يوجد سلفًا في المغرب. إنه مستخدم في البريد بوجدة. وسوف تحمل ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب تدرت في ليبيا مسؤولية الإدارة السياسية²¹. كانت البنية التنظيمية مستوحاة من نظريات حرب العصابات الفيتنامية إلى جانب قيادة سياسية-عسكرية على مستويين. كان من المفترض أن هذا النمط من التنظيم سوف يعوض الضياع المحتمل لأحد المسيرين بفضل قيادة نائمة مستعدة لمواصلة الطريق.

اعترض خالد موضحًا بأنه لا يعرف عن منطقة الريف شيئًا. فرغم أن اسمه العائلي ريفي الأصل، فإن علاقاته بالمنطقة قد انقطعت منذ سنين. وافق الفقيه البصري بحركة من رأسه ولاحظ ببساطة أن الأصل لا يهم كثيرًا. وعلى كل حال فإن محمود، الذي أصله من الرباط، سوف يعمل في قلب الأطلس. اقتنع خالد جزئيًا. وسأل عن رفاق الدرب مستقبلاً. فهو يعرف معرفة جيدة العالي، الذي تخرج مثله ضابطاً من الجيش السوري. ولكن الآخرين من هم؟ ما هي الوسائل التي تمتلكها شبكات منطقة الريف؟ كم هو عدد المناضلين المستعدين للقتال والقادرين عليه؟ وعند كل سؤال كان الفقيه البصري يترك الكلمة للميد الذي كان يجيب بنبرة المتأكد المتفوق المتحمس:

— لقد تمّ تهيين كل شيء.

20 حُكِمَ عليه بالحبس عشرين سنة في محاكمة القنيطرة سنة 1973.

21 بهم الأمر. حسب شهادة خالد. عمر الزاهري وأحمد كرم وأحمد أوباري. وهم ثلاثة أطر من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. وخالد يعرف أحمد أوباري لأنه سبق وأن التقاه في دمشق داخل أوساط الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

لم يكن خالد يعرف الميد. إنها أول مرة يراه فيها. فحاول جاهدا أن لا تظهر عليه أي علامة، فلم يُظهِرُ أدنى شك، وذلك رضوخا منه لروح الانضباط أكثر ما كان عن اقتناع. فقد بدا له الرجل معتادا أكثر على التعابير الرائجة في مجال السياسة. تلك العبارات الملساء والغامضة، أكثر ما هو معتاد على تعقيدات الأمور العسكرية. اندهش خالد اندهاشا شديدا، فاستفسر بنظره محمود، ثم سأله:

— إن ما تطلبه مني يخلو من الخيطة والحذر. أن أرجع ومعني ثلاثة أسلحة كلاشنيكوف للرجل الواحد هو، وبكل بساطة، ضرب من الانتحار. من الأفضل أن تسبق الأسلحة دخولنا²².

فيما بعد سوف يفهم خالد السبب العميق الذي دفع محمود إلى اتخاذ مثل هذا القرار، مهما كانت فيه من مخاطرة.

وكما هو شأن خالد، مرت أطر أخرى أمام القيادة المجتمعة في المجلس. وذلك من أجل أن يبلغوا بتعيينهم. من بينهم مصطفى الوالي: كان الوالي رياضي الهيئة، ذا بشرة دبغتها الشمس، كان يثير انتباه كل من يراه. جنده محمود في وهران في شتبر من سنة 1972. إنه مناضل نشيط في الإخاد الوطني لطلبة المغرب بالرباط. كان معروفا برفضه ومعارضته. فغادر سرا البلد بمساعدة الخصاصي. ولما وصل إلى طرابلس، جنده الفقيه البصري. إذ سبق أن كان أبوه مقاتلا في صفوف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. إنها مؤهل له قيمته في نظر المقاوم السابق. يقول إبراهيم: "خصصت للوالي وقتا في الإذاعة ليتحدث أسبوعيا في برنامج باللهجة الحسانية، وهي لهجة ساكنة الصحراء أيام الإسبان²³". وهي المهمة التي قبلها الوالي دون تردد. ولكن سرعان ما اكتشف محمود والفقيه البصري في الوالي خصال قائد قادر على فتح جبهة ثالثة في الجنوب²⁴.

ساعة الاختيار

يتذكر خالد أن "محمود والفقيه البصري لم يعودا يتبادلان الحديث". فقد خول عدم الاتفاق السياسي إلى نزاع شخصي. دفع هذا التنافس الكامن كل واحد منهما إلى البحث عن تضامن المقربين منه أو من يفترض فيهم ذلك. لم يكن محمود رجلا يبوح بالأسرار. بيد أنه، وعند نهاية أحد تأملاته الطويلة التي كانت تجلب أفكارا يفضل المرء أن يتقاسم ثقلها مع غيره، اعترف بقلقه. فأمام باب فيلا ابن عاشور حيث ودع خالد. باح له محمود بما يخالجه. ويوضح خالد قائلا: "كان اليوم يوم ثلاثاء، يوم رجيل الطائرة إلى الجزائر العاصمة". كانت كلمات محمود تفيض مرارة :

22 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

23 حوار للمؤلف مع إبراهيم أوشليح.

24 أسس مصطفى الوالي البوليزاريو يوم 10 ماي من سنة 1973. ومات في هجوم على نواكشوط يوم 9 يونيو من سنة 1976.

— لاشيء صلب وقوي داخل المنظمة، إنها ضعيفة واهنة القوى لا تستطيع أن تنجز شيئاً جدياً. بقي خالد مندهشاً مبهوراً، فواصل محمود الحديث قائلاً:

— حسب معلوماتي، فإن كلام الميد عن الشبكات في الداخل كلام مغلوط، وحدها الاتصالات بالسلطات الجهوية والنقط الاستراتيجية عملية. أما الأسلحة والإمكانات البشرية فإنها ناقصة ومؤطرة تأطيراً رديئاً. وسأل خالد قلقاً:

— ولكن لِمَ المرور إلى العمل في هذه الظروف؟“ جاء الجواب وكأنه صوت البداية التي لا غموض فيها:

— نحن وسط النار، يجب أن نتحرك. الآن. إما الحصول على كل شيء وإما عدم الحصول على أي شيء²⁵.

بدا محمود وكأنه مسكونٌ بهاجس الضرورة التاريخية لشن عمل واسع. فهو يعرف أن النصر الثوري يدين لتضحيات الشجعان النبلاء، وهو مستعد ليدفع الثمن. عازم على أن يسلك الطريق الوعر الذي يعج بالخوف والخيانة والتهاون. على أي شيء يستند هذا الاختيار؟ على تواطؤ موضوعي مع تاريخ يسير ويتقدم؟ على عجز يشل السلطة؟ ولكن أَلَمْ يكن القصد من خروقات النظام هو إثارة تنظيم غير مرئي ودفعه لكي يُفصح عن نفسه؟ لِمَ البحث عن جواب؟ فقد اقتنع محمود بأنه، وفي غياب التناسق والكفاءة، سرعان ما سوف ينكشف أن ادعاءات التنظيم الثورية ليست سوى ضرب من المغامرة. فقد جعلته ممارسته للتنظيم يقيس أضرار غياب الحركة الذي سقطت فيها إدارته. كم من المناضلين ضحى بهم، وكم من فرص أهدرت ومن استفاقات جاءت متأخرة؟ إن العجز والانتهازية والمنافسات الداخلية قد شلت قدرة التنظيم على الحركة. أي مصداقية لمن يرغبون في الوصول إلى السلطة والذين يسيرون حركةً كما يدبر المرء خصاماً بين الجيران؟ كان محمود فزعاً مرعوباً عندما وقف على أن وراء قرار البصري الاستعراضي، هناك فراغ تنظيمي وسياسي، غُلف بعتامة الإيديولوجية، إنه يكره الاتفاقات السرية، حيث يكون التفاوض حول السلط والامتيازات هو الاستراتيجية. إن رداءة الإدارة تساوي خيانة في نظره. فهي تخون المناضلين المستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل القضية، والأدهى من ذلك هو أنها جعلهم يشكون في عدالة كفاحهم. والحال أن الإيمان هو سلاح الثورة الأساسي. بتعليم الضعفاء والمحرومين الإيمان، يستطيع الثوري أن يغير مجرى التاريخ. تقاسم محمود ورفاقه العديد من لحظات السهر ليلاً داخل الخيمات. فهو يعرف ظموحاتهم وتخوفاتهم وخاصة غضبهم لكثرة ما حاول تهدئتهم وإرشادهم وتعليمهم الصبر وروح التضحية التي تتطلبها كفاحهم. كل شيء بهمهم غدا يرتكز على هذا التفهم الذي يشد بعضهم إلى بعض. هذا التفاهم الذي يعجز اللسان عن وصفه والذي يصنعه كفاح يومي ضد الحن والظروف المناكفة. لا شك أنه

25 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

يجب البحث هاهنا عن أحد الأسباب التي كانت وراء اختيار محمود. فقد كانت الثقة التي وضعها فيه هؤلاء الرجال والتي كان يقرأها في عيونهم ونظراتهم، هي الداعي إلى إنجاز عمل تحريري. وأمام الطريق المسدود، كان ولا شك دافعه الأساسي، أكثر من أي وقت مضى، هو الأمل في أن ينهض عهد جديد. أمل يتقاسمه جيل بكامله، اختار القيام بالعمل الذي يمكنه من أن يخلق كل شيء أو ألا يخلق شيء البتة.

ولأنه لم يستطع إعادة هيكلة التنظيم هيكلة تمكنه من أن يجعل منه أداة ثورية فعالة، فقد كان يحتاج إلى رجال ثقة ومتمرسين، قادرين على تعويض النقص في التنظيم. كانت المعلومات التي تصله من الداخل ترسم صورة غير منتظمة عن الوضع؛ فالحزب، الذي كان في طور إعادة هيكلة منذ محاولتي الانقلابيتين، لا يقدم أي قاعدة عملية يمكن الاستناد عليها، وقياديوه تراقبهم الشرطة مراقبة لصيقة. وهكذا فإن لجّاح محمود رهين، وفي الآن نفسه، بقيمة الرجال الذين سوف يرافقه ويقدراتهم على التحرك في إطار الاكتفاء الذاتي.

انتزعت ضرورة العمل خالد من الانهيار البطيء الذي أخذت تعرفه المنظمة، ليستعيد التحكم في قدراته. هذه الضرورة نفخت في قناعاته طاقة جديدة. فمنذ العملية الفاشلة لسنة 1969، كان قلبه يتأرجح بين المرارة التي توحى بها شساعة الخسارة الخيفة والحماس الذي زرعه الغليان السياسي الذي يزعزع المغرب. وكأنه يريد التخلص من الحمل الثقيل، حمل مرعب، أجاب دون تردد:

— أنا معك، فتابع محمود قائلاً:

— في هذه الحالة، سوف تتبعني إلى الجزائر العاصمة وستذهب عند الساهر في وهران حيث ستجد أوامري مكتوبة²⁶.

كانت منطقة الريف مراقبة عن قرب شديد منذ محاولتي الانقلابين العسكريين. كان إذن على خالد ورجاله أن يقيموا بها أقل وقت ممكن. أي أن يتم تسريب الأسلحة والمقاتلين إليها بضعة أيام قبل انطلاق العمليات. سوف تكون الأسلحة مهيأة على الحدود الجزائرية والرجال يأتون مباشرة من معسكر التدريب الليبي. كان محمود يتوقع أن الأمر لن يكون انتفاضة منظمة من قبيل تلك التي كان يتوقعها في الأطلس ولكنها سوف تكون عبارة عن غارة، ففي ذهنه، بمقدور ضربة قوية ومفاجئة أن تعيد التعبئة التي كانت قد بدأت على المستوى الوطني والتي أهملتها قيادة أراها مشتتة، فيما يخص مصير الثورة.

كان الاختيار وليد تفكير طويل. كان محمود يعرف عن الفقيه البصري ما يجعله يعتقد أنه رغم خلافاتهما، سوف يجاريه ليبقى هو الزعيم على الأقل.

غادر محمود خالد بعد عناق قصير. إنه عناق لا يعبر طويلاً عن العواطف حتى يكون تشجيعاً صامتاً. فطريقاهما، إن التقيتا ثانية، فسيكون ذلك عند اشتداد وطيس الكفاح التحريري الذي وهبا له حياتهما.

26 حوار للمؤلف مع بواراس الفبيكي.

وهاهو بوراس الذي زار محمود في دمشق بضعة أسابيع من قبل، قد احتفظ في ذاكرته بالحجج التي استند إليها محمود: "كان مقتنعا بأن الظروف التاريخية الاستثنائية التي تولدت عن الانقلابين الفاشلين لن تتكرر. فبعد ثلاث سنوات من غياب الحركة، جاء الوقت في نظره للمرور إلى مرحلة العمل. غير مهم إن كان التنظيم لا يزال غير مستعد". وكان يكرر لي بـ "أنه يكفي أن تكون قواعد ثورية". قبل أن يضيف "أنه عندما تنهض هذه القواعد، ومساعدة الظروف الموضوعية، فإن الثورة سوف تستمر رغم الأخطاء الذاتية سواء ارتكبها الفقيه البصري أم هو نفسه". قبل أن يضيف موضحاً: "استشارني محمود في خصوصيات منطقة فيكيك والزناغا. فحذرت حينذاك من كل محاولة تسرب انطلاقاً من هذين التجمعين"²⁷.

وتتذكر إلك، زوجة محمود، وأمي، ذلك التناقض بين عزمه والإهمال الظاهر الذي كان يحيط به: "في دمشق، صُدمت بطريقة عيش بعض من رفاق محمود الذين يزعمون بأنهم ثوريون. ولكنه كان يكتفي برفع كتفيه [غير مكترثاً]²⁸". فبعض أطر التنظيم التي دخلت في وقت مبكر في هذا الكسل المريح الذي تتفهمه الأوهام البرجوازية، كانوا يرون في العيش الرغيد على أنه تجربة ثورية. ذلك أن عدوى العادات تنتقل بسرعة أكبر مما تنتقل عدوى الشجاعة. وهاهم يفضلون أن يترددوا على صالونات عليّة القوم ويستنكرون في الوقت نفسه بقناعة مدهشة، عادات الأغنياء، وذلك دون أن يتخلوا عن الكلام اللامع الذي يُبقيهم دائماً في مرتبة النجوم في نظر المناضلين. كان طموح محمود الشخصي متواضعاً، إذ إن الأمر بالنسبة إليه مسألة أخلاق سياسية. بل كان يتسامح مع إفراط بعض الرفاق، سوف تتعرف الثورة على أبنائها ... وتواصل إلك: "آخر مرة رأيته فيها كانت في القاهرة صيف سنة 1972. بعد أن مروقت قصير على عودتي من فرانكفورت. حدثت عملية شهر شتبر من سنة 1972 ضد الرياضيين الإسرائيليين في ميونيخ. كانت الشرطة الألمانية في حالة استنفار، وكانت المراقبة على الحدود على أشدها. في هذه الظروف، كان يستحيل عليه الانتقال إلى فرانكفورت". ثم تضيف موضحةً وكلها بأس: "آخر رسالةٍ جاءتني منه حمل تاريخ 11 نونبر من سنة 1972"²⁹.

السبت 20 يناير من سنة 1973، طريق مكناس

غادرت سيارة رونو 10 الرباط وأجهت نحو الشمال في يوم مطر. كان على متنها ثلاثة رجال توجهوا إلى مدينة مكناس. يركب السيارة ثلاثة رجال، عباس خلف المقود، وإلى جانبه يجلس دهكون بجلبابه ولحيته اللذين لم يبرحهما منذ ثلاثة شهور إنه المظهر الذي بات يتخفى به، فيُظهره أكبر من سنه (37 سنة)؛ لقد بات وكأنه أبٌ برفقة ابنه.

²⁷ حوّل للمؤلف مع إلك بنونة.

²⁸ حوّل للمؤلف مع إلك بنونة.

في الخلف، جلس المهدي، من شبكة الدار البيضاء. تَكَوَّن المهدي وهو شاب في التاسعة والعشرين من عمره في معسكر الزيداني. إنه شاب مندفع يكاد يكون غير مكترث بشيء. إنه "جيمس بوند" كما يقول عنه خالد عندما يتذكر جموحه الذي لا يتناسب مع الصرامة العسكرية. كانت للمهدي نظرة رومانسية عن الثورة. فهي بالنسبة إليه لعبة، طريقة في مواصلة أحلام الطفولة في عالم الكبار القاسي. ففي السنة السابقة، في شهر أكتوبر من سنة 1971، كان ضمن مدبري عمليات لإحياء ذكرى اغتيال المهدي بن بركة. ومنذ ذلك الحين، قام برحلتين إلى الخارج، واحدة إلى باريس والثانية إلى الجزائر العاصمة. وذلك من أجل تنسيق نقل السلاح لحساب دهبكون. فعندما لا يكون حاضرا في اجتماعات خليفته السرية في الدار البيضاء أو لا يطارِد أحدا أو لا يراقب مكانا، فإنه يعمل أمين وكالة النقل الحضري بالدار البيضاء.

وبعد مكناس، تزايدت مراقبة البوليس. كان القطار أكثر وسائل النقل أمانا. ترك عباس السيارة في مرأب بيته العائلي بكناس. وودع عائلته مدعيا أنه ذاهب لحضور حفل زفاف أحد أصدقائه. ومن مكناس، وصل إلى وجدة على متن القطار صحبة المهدي. في حين عاد دهبكون إلى الدار البيضاء. وبعد أن أمضى المهدي وعباس ليلة داخل القطار، استقبلهما الجداني في وجدة. وما قد تشكل ثلاثي التلاميذ السابقين بالمدرسة الثانوية الذين كانوا يقومون بالجولات الليلية للكتابة على حيطان مدينة سلا. ولكن تحولت الألعاب غير المبالية إبان أيام شبابهم إلى كفاح لا رحمة فيه من أجل الحرية. ذلك أن الجداني، الذي أصبح مدرسا في الثانوي وعضوا نشيطا في الحزب، درب في سوريا، وغدا الرجل المفتاح للتنظيم في وجدة.

فبعد أن عمل الجداني على عبور المهدي وعباس الحدود الجزائرية، أوصلهما إلى وهران عند ساهر الذي استقبلهم بوجبة غداء ضخمة. قدم عباس نفسه قائلا:

— اسمي البراك. وهناك من ينتظرني.

بعد نهاية الوجبة، جاء شاب إلى بيت ساهر وطلب منهما أن يصحباه على بُعد. قاد عباس والمهدي إلى شقة في الطابق الرابع عشر من عمارة وسط وهران. كان عباس يتوقع أن يلتقي الفقيه البصري، وهاهو الميد يستقبله. ففي غرفة تتوسط المنزل، كان رجل ينتظر. إنه محمود. المهدي يعرفه. فقد تدربا معا في الزيداني. وبينما محمود والمهدي يتبادلان الحديث في الصالون، أدخل الميد عباس إلى غرفة مجاورة.

ما كادا يجلسان حتى انهالت أسئلة الميد:

— كم عددكم؟ أين وصلت استعداداتكم؟

انتاب عباس إحساس بأن هناك خطرا يكمن وراء هذه الأسئلة. لم يستطع الميد. وهو يتظاهر باللامبالاة والعزم. أن يبذل إحساس عباس. فاحتاط عباس ولم يدل بكل التفاصيل:

— ليس هناك تنظيم. هناك عناصر فقط. إلى حد الآن. نحن ما زلنا نحتاج إلى مقاتلين قادرين على التحرك في استقلالية داخل المجتمع.

شعر عباس شعورا واضحا بأن الميد أخذ يفقد صبره. فعباس لن يعرقل مهما كان الثمن. العمل السري المتأني والدؤوب الذي أنجز منذ حوالي السنة. بيد أن الأحداث تسارعت. فقد انفجرت عدة ثورات في المغرب. فضاعت من يؤر التوتر. خمن عباس اللحظة الحاسمة. ظهر أن الميد يريد الانتقال إلى العمل بسرعة. فقال دون مراوغة: “هنا. نحن مستعدون”.

وحتى يَظْهَرِ بِظَهَرٍ لائق. أضاف: “بإمكاننا أن نقدم لكم الدعم اللوجستيكي الذي نحتاجونه”.

وأما عباس. الذي بقي حذرا محتاطا. فقد تشبث بموقفه:

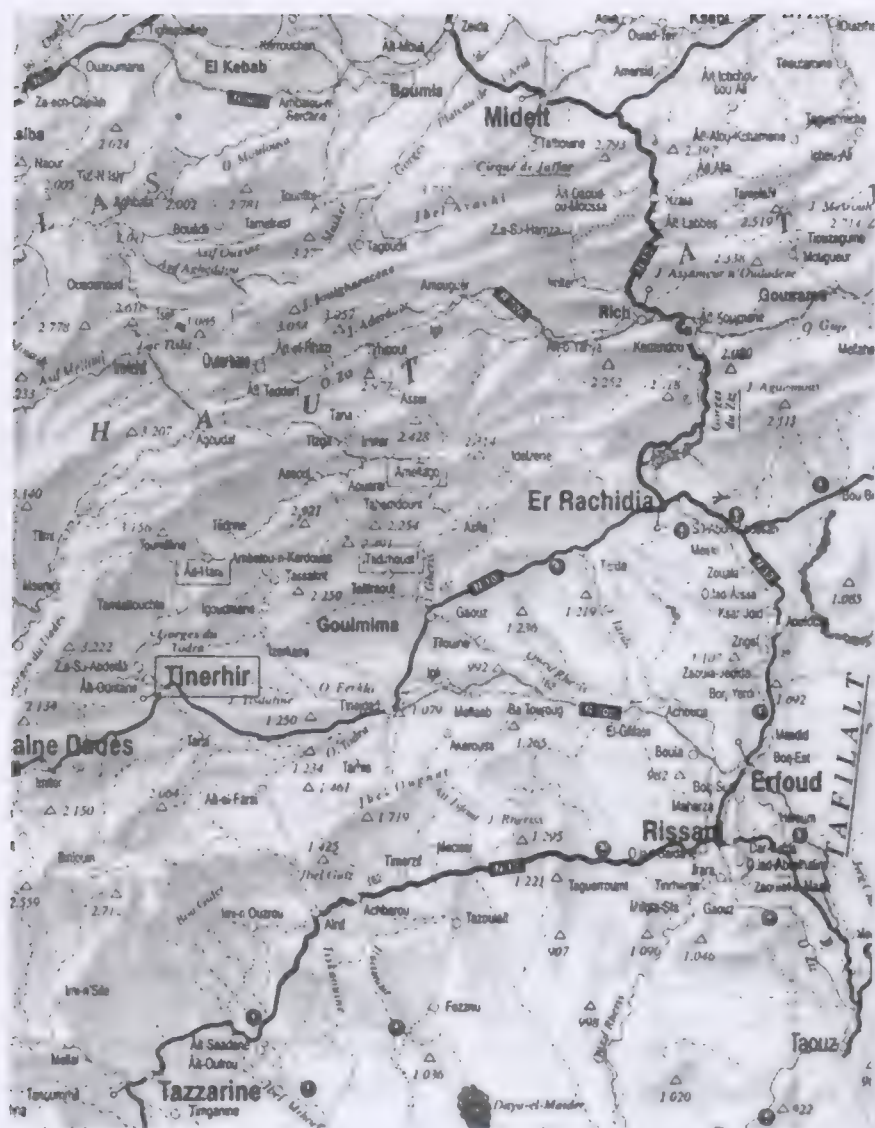
— أقول لك إننا لسنا مستعدين بعد.

وحسب عباس. فإن النقاش توقف هاهنا. رفض دعوة الميد له بأن يقضي الليلة في وهران. متذعرا بأن عليه أن يدلي بمرافعة في اليوم الموالي بحكمة الرباط. وكان الانطباع الذي خرج به من هذا اللقاء. ودون أن يجزؤ على التعبير بصراحة عن رأيه. انطبعا سوف يتقاسمه العديد من المناضلين: هذا الرجل لا يملك طينة مَن يمكنه أن يتحمل هذه المسؤوليات.

دام اللقاء بين الميد والمهتدي نصف ساعة. وخلالها. تبادل عباس ومحمود. الذي كان لا يزال داخل الغرفة الوسطى. انطباعات عامة. وكما هي العادة دائما. فإن النقاش في هذا النوع من اللقاءات يكون عاما فضفاضا. إذ يتم تجنب التفاصيل الشخصية والتنظيمية بعناية. بيد أن عباس خرج من هذا اللقاء بالقليل من الرضى. فبعد غضب الميد. جاءت قوة محمود الهادئة لتمنحه شيئا يشبه المواساة. إنه الحوار الوحيد الذي كان لعباس مع محمود.

وكما كان الشأن خلال رحلة الذهاب. كانت العودة إلى وجدة تحت الأمطار. لم يتكلم أحد. كان صوت العجلات على إسفلت الطريق اللامع يؤثث الصمت. اليوم يوم أحد. عاد الجدائني إلى وجدة. والمهتدي إلى الدار البيضاء. وعباس مباشرة إلى محكمة الرباط بعد ليلة من السفر.

بعد مرور ثلاثة أيام. أي يوم الأربعاء 24 يناير 1973. منع وزير الداخلية الإخاد الوطني لطلبة المغرب.



الأطلس (1973)

السبت 27 يناير

كانت سيارة بوجو 404 في المقدمة، تتبعها شاحنة. انطلق الموكب من فيكيك وعبر هضبة تافيلالت على علو يفوق الألف متر، وتوجه نحو كلميمة : حوالي خمس مائة كيلومتر من الطريق غير المعبد. وفي شهر يناير، كانت الليالي باردة قارسة في الأطلس. التصق الرجال الخمسة عشر بعضهم ببعض، كانوا يلبسون لباس القتال، ومكدسين في خلفية الشاحنة. فوق لباسهم ذي اللون الكاكي، وضعوا جلبابا من وبر الجمال. كانت الأيدي التي تشد على السلاح متجمدة من البرد. الاهتزازات المتتالية خدد إيقاع الرحلة التي تغوص في الليل الصامت، فيتزايد الإحساس بحجم الخطر كلما اهتزت الشاحنة اهتزازات ما فتئت تتزايد وتكبر.

دخل محمود ورجاله التراب المغربي منذ ثلاثة أيام. إذ قادهم الفرشي وساهر والميد حتى الحدود. فدخلوا عبر حمدان بوعزة بلباس مدني. مساء يوم الخميس 25 يناير عند إطفاء الأضواء. وكما فعل الفرشي قبل سنة من ذلك عندما ودع النمري، هاهو يودع محمود بعناق طويل وحر. وكأنه يريد أن يمرر له تلك القوة التي جمعتهما في كفاحهما والتي ستحسم اليوم في مسألة نهايتها.

في الجهة الأخرى من الحدود. كان ينتظره ساعة. وهو المسؤول المحلي عن التنظيم. إنها لحظة حاسمة تلك التي يلتقي فيها مسار هؤلاء الرجال الذين كانوا يختلفون اختلافا خلال بداياتهم. يلتقي هذا المسار ليزوب داخل مصير مشترك. رافق رجال مسلحون محمود ورجاله حتى فيكيك: إنهم رجال شرطة يحرسون الحدود ومتعاطفون مع التنظيم.

في ذلك التجمع الصحراوي، تسلموا العتاد من الخبأ الموجود في عين المكان: سلاح وذخيرة ولباس عسكري وجلابيب وأدوية: ثم واصلوا الطريق حتى واد الهاسي. على بعد 16 كيلومترا غرب فيكيك. كانت المنطقة وبأعجوبة هادئة ومهجورة. لم تكن هناك أي مفرزة عسكرية. كانت مدينة فيكيك بكاملها.

من الفلاح إلى رجل القوات المساعدة. تساند قضيتهم. وكم كانت دهشتهم حين زار المقدم (وهو مثل وزارة الداخلية على صعيد الدوار) رجال محمود. كاد فضولُه يودي بحياته. ذلك أن أوامر محمود كانت واضحة: إطلاق النار على أي رجل من رجال الأمن قد يظهر. وهكذا. كان بعض رجال محمود يستعدون جادين لإطلاق النار على المقدم. وهو مدين بحياته إلى إلحاح ساعة الذي أخبرهم بأنه عضو من أعضاء شبكته.

كان من المفترض أن يكون اللقاء مع مناضلي كلميمة في مفترق طرق يُدعى المسكي على بعد 80 كيلومترا من فيكيك. ولكن، وفي المكان المحدد، لم يأت أحد. لا في الموعد الأول. ولا في الموعد الثاني الذي ضرب في حالة تأخر غير متوقع. ولأنه لم يعد بالإمكان الرجوع إلى الخلف. قرر محمود مواصلة السير تحت قيادة ساعة، ما دام الرجل قد سبق وكان مساعداً قائد السلطة بكلميمة.

عبر الموكب مدينة قصر السوق دون أن يتوقف. بعد ثلاث ساعات من الطريق. وصل إلى كلميمة فجر يوم الأحد 28 يناير من سنة 1973. كان الجو باردا. كانت أولى علامات الشفق قد أخذت تتراءى خلف القمم المغطاة بالثلوج التي تطوق المدينة النائمة. فكلميمة. وسط واحة النخيل الفاخرة. ومنازلها الحمراء القائمة داخل علبتها الخضراء. كانت تبدو وكأنها مراكش صغيرة. في الجهة الغربية. تقف شامخةً جبال الأطلس الكبير. ومن جهة الشرق. تعلوا أولى تضاريس الأطلس الصغير. وفي قعر هذه الحلبة الجبلية. تمتد. في اتجاه الجنوب. هضبة صحراوية تتخللها الواحات. إنه موقع جغرافي أكسب كلميمة لقب باب الصحراء.

توقف صوت الشاحنة أمام محطة بنزين عند مدخل المدينة. إنها محطة يملكها اللوزي. الممثل المحلي للتنظيم¹. وبينما الرجال يزودون الشاحنة بالبنزين. خرج ساعة لإخبار مناضلي من مناضلي التنظيم يسكن على بعد خطوتين من هناك. كان هذا المناضل نائماً أو يكاد. فأيقظه ساعة وهو يشتمه. وتذكر الرجل أن: "وصول الموكب كان منتظراً غداً. إنه قد وصل قبل الموعد بيوم²". إذن فاللقاء الذي لم يتم في المسكي سببه خطأ في تواريخ الموعد.

وبسرعة. اقتيد محمود ورجاله إلى بيت صحراوي في قلب واحة النخيل التي تمتد على جوانب كلميمة. ولما علم المسؤولون المحليون بالأمر. جاءوا على وجه السرعة³.

1 حدو اللوزي نُوفي سنة 1997 بمدينة الرباط.

2 حوار للمؤلف مع الحسين الخياط. المعروف بطام.

3 الجزء الأساسي من تفاصيل أحداث الأطلس مأخوذ من تقارير كتبها سنة 1973. يطلب من قيادة التنظيم. ثلاثة مساعدين لمحمود. نجوا من المعارك ولجئوا إلى الجزائر: سي إبراهيم والنجار والصغير. هذه الشهادات الثلاث التي تتطابق فيما بينها. قورنت بعد ذلك بشهادات جمعت بين سنتي 1996 و2000 خلال تحقيقات مختلفة في الأطلس.

كلمية

يتذكر مرزوق⁴ ما حدث وكأنه وقع بالأمس القريب. فهو قد عرف ولد النصارا. وهو شاب من الرباط كان يناضل لصالح المقاومة الجزائرية نهاية الخمسينيات. ولكنه لم يكن يظن أن محمود الذي يتراسل معه بواسطة رسول هو الرجل نفسه الذي كان أمامه. كان مرزوق حينها فلاحا قوي البنية. سنه 40 سنة. وينحدر من عائلة من ملاكين صغار للأراضي شبه فيوداليين من قبيلة آيت عطا. كان حفيد شيخ من قبيلة آيت حديدو. وقد مكّنه نسبه المتميز هذا من أن يصبح الكاتب الأول للفرع الجهوي للحزب. ولكن وفي ذلك الصباح. استقبل محمود ورجاله بصفته عضواً في التنظيم. استقبلهم استقبالا حاراً مما يشهد على الأهمية القصوى التي تكتسبها هذه اللحظة بالنسبة إليه.

ويحكي مسؤول محلي آخر عن التنظيم: “كنت قد وصلت من تنغير عشية ذلك اليوم صحبة سيدي حمو واثنين من رجاله. كنا نستعد لقدم الأطر الثورية عندما أخبرنا بأنهم قد وصلوا⁵”. وكان سيدي حمو. ثائر الأطلس. فعلاً ضمن القياديين المحليين الذين حضروا لاستقبال محمود. كان الجهل يقلص من مستوى الوعي السياسي عند الساكنة المحلية. ومن ثمة فإن حالة قادة التنظيم وهيبتهم سوف يكون لهما الدور الحاسم في تعيين هؤلاء السكان من أجل خوض الكفاح. كان سيدي حمو سلطة معنوية معترفاً بها في تنغير. يُهاب ويُحترم. وكان اللوزي. وهو شخصية ذكية ونافذة. يملك محطة البنزين الوحيدة في كلمية وكان له أصدقاء كثيرون متواطؤون داخل السلطة الجهوية. كان الآخرون⁶ شيوخا. يملكون حالة المقاومين. كان مناضلوا الخلايا السرية التي أنشئوها في المنطقة قد تدربوا داخل الحزب. إذ كانت ثقافتهم التعليمية وحدها كافية لتجعل منهم أعياناً. وبعد أن تردد اللوزي طويلاً بين جلال اللحظة والحماس الذي يحركه من أعماقه. لم يستطع أن يكبح اندفاعه وفرحته. فصرح: “إن السلطة المركزية لم يعد لها نفوذ ولا سلطة في المنطقة”.

لقد كان حرمان السكان وقهرهم قد بلغ أوجه وأصبح غضبهم محسوساً ملموساً مهدداً. والقوات المساعدة مستعدة لتنظم إلى معسكر الثورة. ولأن اللوزي تعايش سنوات مع البؤس. فإنه يعرف الشعور الذي يوجد خلف خمول الدواوير المحيطة. إلى جانبه. حرك القياديون المحليون الآخرون رؤوسهم دلالة على أنهم متفقون. كانت سنوات من الغضب تعبر عن نفسها. وكذا سنوات من الصبر. منذ خمس سنوات.

4 مات في حادثة في شهر يوليوز من سنة 2001.

5 حوار للمؤلف مع توريكي عدي.

6 إضاعة إلى الحسن مرزوق وحدو اللوزي. حضر كذلك سي حمو علا. شيخ تاديفوست. وسعيد أوداز وحسين آيت زابد وتوريكي عدي.

أرسلوا جماعات من المناضلين ليتكفونوا في الجزائر. توصلوا بالسلاح وخبأوه وشهدوا سيدي حمو والنمري يأتیان على التوالي. ولهذا فإن الكل رأى في وصول محمود ورجاله الحدث الهام.

بعد أن لبى محمود ورجاله نداء شهيتهم من الطعام، أمر محمود رجاله بتنظيف السلاح الذي تسلموه في فيكيك. وأن يتوزعوا إلى مجموعات تتكون من أربعة أفراد، دون صَحْب. وأما الآخرون فكان عليهم أن يبقوا حذرين متيقظين. نفذوا الأوامر بحركات فيها من العناية ما يُذكر بإجّاز طقس غريب. ففي هذه اللحظة، وحده الزمن الحاضر هو الذي يهمهم. كانت الحركات قصيرة واللحظة حاسمة. وأثناء ذلك وزع محمود المجموعات والأدوات.

كانت المجموعة الأولى تتكون من أسكور وصبري، وهما من قدماء سنة 1969. فقد رافقا اليزيد في رحلته الفاشلة إلى تارودانت، وآيت عمي، وهو عضو سابق في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والباعمراني والناصري، وهما ضابطا صف سابقان في القوات المسلحة الملكية. هذه المجموعة سوف تتوجه إلى خنيفرة لتعزيز النمري وأمدة.

وأما المجموعة الثانية فتتكون من العثماني وبوزيان، وهما على التوالي ملازم سابق في القوات المسلحة الملكية ومقدم سابق بأسفي، وهما كذلك من قدماء سنة 1969. كانا ضمن الناجين من مجموعة الفرشي والملكي النائر المبكر والجزار ودحمان سعيد، وهما جنديان سابقان. سوف يتدخل هؤلاء الرجال [بالسلاح] في تنغير تحت قيادة سيدي حمو.

وأما المجموعة الثالثة فتضم سليمان العلوي وفريكس، الجندي غير النظامي، وثلاثة أعضاء آخرين من الكوموندو البحري: سي إبراهيم والنجار والصغير. وستبقى هذه المجموعة في منطقة كلميم لتأطير خلايا اللوزي. وسوف يكون محمود إلى جانبهم لتنسيق حركات فرق الكومندو.

كل مجموعة تشكلت كانت تضم، كما هو شأن قوات النخبة، رجالا أكفاء في مجال التسليح والقنابل والاتصال عن بعد. لم يكن أحدٌ من هؤلاء الرجال مبتدئا. عمرهم في المتوسط 35 سنة. تكونوا في الزيداني وعرفوا صرامة وقساوة معسكر أوواطا في الجزائر. قاوموا في صفوف الفدائيين الفلسطينيين وجأوا من الاعتقالات التي ذهبت بالرفاق. إنها اختبارات رمتهم في قرار أنفسهم هم بالذات. في ذلك المكان الذي يُجابه فيه الضميرُ القناعات والقدرات على المقاومة، ليخرج منه وقد تغير بكل تأكيد.

في نهاية هذا المسار، احتفظوا بميلهم إلى الثورة سالما، في الوقت الذي قد يميل فيه معاصروهم، الذين تخضعهم الحن والظروف الصعبة، إلى القبول بأوزار الطاعة

والإنعان. لقد جعلت منهم جُريتهم النواة الصلبة لنخبة ثورية عزُمها لا تشوبه شائبة. اجتمعت فيهم خصال قلما جتمع في فرد واحد: إنكار الذات والشجاعة والنزاهة. وبالنسبة إليهم، غدا التخفي طبعاً ثانياً والجَلَد قوة لا يساور فيها الشك. وباختصار، فإن محمود قد اختار من بين أعضاء جيشه أفضلهم ليخوضوا كفاحاً في مستوى تضحياتهم.

وبعد يوم من الراحة، طلب محمود من المجموعات أن تستعد للرجيل. وذكر مرة أخرى مسؤولي الجهات بتعليماته:

— كونوا على استعداد للهجوم يوم 3 مارس. يوم عيد العرش.

بَرَمَج محمود شهراً ليعيد تنظيم الخلايا. وتكوين المناضلين المحليين وتدريبهم على القتال ووضع جهاز للهجوم. وهكذا فقد كان في نيته أن يشعل فتيل الانتفاضة مباشرة بعد ذوبان الثلوج وكفايةً قبل أولى لفحات حر فصل الصيف.

غادرت المجموعة الأولى كلميمة على الساعة الواحدة صباحاً لتتوجه إلى خنيفرة تحت قيادة موحى أو الحاج. الرجل النافذ والنشيط في اخنيفرة. ومعهم رجاله. وأما الثانية فلم تتوجه إلى تنغير إلا في اليوم الموالي. يوم 29 يناير. على الساعة الثانية عشر ليلاً. وأما محمود والرجال الباقون فقد غادروا الملجأ بعد ساعتين من رحيل المجموعة الثانية. ركبوا الشاحنة لتوصلهم إلى قرية صغيرة توجد على بعد عشرين كيلومتراً غرب كلميمة. أسفل سلسلة جبال الأطلس الكبير: قرية تاديغوست.

تاديغوست

المنطقة متوحشة. أرض خلاء طبيعية. تنتشر فيها قصور متفرقة. والقصور هنا تُطلق على حصون من العصور الوسطى. تشهد على ماضٍ هائج صاخب وعلى حاضرٍ استقر في سِلْم نسبي. كان الجبل العاري. الذي يشرف في جلالٍ على الهضبة. يتباهى بقممته التي تَكْسوها الثلوج. لقد شكلت قساوة ووعورة الطبيعة والمشهد طابعَ السكان. فقد كانت الحياة ثمرة كفاح يومي ضد طبيعة قاسية وعرة. خلقت تخوم هذه الجبال القاحلة. لأنها ربت ساكنتها على التقشف والزهد. مواهب نبيلة ومقاتلة كثيراً ما وقفت في وجه فساد السلطة المركزية. ولا شك أن هذا السبب هو نفسه الذي دفع حكام المغرب المتتاليين. من ذوي السلطة المعنوية المتذبذبة. إلى أن يخصصوا هذه المنطقة بدورٍ بئيس: فجعلوا منها قبلةً للنفي والاعتقالات السرية: أغبالو زمن الحماية. والسجن الشهير ببؤسه. تازمامارت. وقلعة نكردوس في عهد الحسن الثاني. كل قصر من تلك القصور يأوي بداخله ثواراً واعين أو كامنين. إنهم رجال ونساء يشتغلون خمس عشرة ساعة في اليوم منذ طفولتهم. وعزائهم الوحيد هو بضع

لحظات من الراحة داخل أكواخ غير صحية يتكدس فيها أبناءهم الذين لا مستقبل لهم. إنه شعب تائه وسط هذه المناطق المعزولة النائية حيث لا وجود للزمن، إنهم يعيشون عيشة ينخرهم فيها البؤس والإسهال والجوع. إنه شعب مستعد ليرفع راية غضبه الشديد. فالثورة ستولد من الجوع والبؤس.

سوف تزود الثورة سكان هذه الأماكن المعونة من المملكة بالأسلحة الضرورية ليكسبوا الخبز والكرامة. سوف تلتقي مجموعات حرب العصابات في الأطلس الكبير انطلاقاً من كلميمة وتغير وإملشيل. عند انطلاق العملية، سوف يتم الدخول إلى المراكز الثلاث وسوف توضع النقاط الاستراتيجية تحت المراقبة. وسوف تجري عملية أخرى بتزامن مع الأولى في عمالة خنيفرة على بعد 300 كلم من هناك، وعلى بعد ساعتين من الرباط.

وكما كان سيفعل محمود لو أراد إضرام نار، فإنه توقع أن يشعل فتيل الانتفاضة في أماكن مختلفة وفي وقت واحد. لقد اختيرت ميادين العمليات والأهداف ودرست بعناية شديدة. فمنذ محاولتي الانقلابين، وضع الحسن الثاني ترسانة القوات المسلحة الملكية تحت مراقبة الدرك الملكي. التابع للقصر الملكي. كانت العديد من مخازن الأسلحة توجد في الأطلس. وهي تشكل هدفاً أولوياً لعناصر حرب العصابات.

كان الرسل والوسطاء يخبرون محمود بتقديم الاستعدادات. وكان قادة الخلايا يلتقونه بانتظام ليلاً. كم عدد مخبري محمود الذين كانوا يذهبون حينها إلى المراكز الإدارية، متذرعين بطلب، فكانوا يشربون الشاي ويتحدثون ثم ينصرفون وفي رأسهم تصميم البناء وأحسن مواقع إطلاق النار؟ كان محمود يؤكد على أن يبقى وجود أطر الثورة أمراً سرياً. كان على المناضلين، المنظمين داخل خلايا سرية، أن يكونوا مستعدين لكل الاحتمالات. ولكنهم كانوا يجهلون تفاصيل الإعدادات الجارية. فبعد أن يتم تكوينهم وتأطيرهم، سوف يُشكلون قوة ضاربة موزعة إلى مجموعات.

كان البيت الذي يأوي محمود ورجاله مَسْكناً مصنوعاً من تراب مدكوك لونه أمغر. يوجد وسط واحة كثيفة على سفح هضبة. للوصول إليه، كان لا بد من الخروج عن الطريق الذي يؤدي إلى تاديغوست، والميل جهة اليمين مباشرة قبل الوصول إلى القصر. إذن فهذا البيت يوجد بعيداً كفاية عن القرية ليشكل مخبأً لا يثير الفضول. بين الفينة والأخرى، كان صياح الأطفال أو نباح الكلاب يذكران بقرب القصر. كان محمود ورجاله يعيشون وسط قطيع من المعز الهزيل أسكنه رب البيت في بهو المنزل الضيق. كما هو شأن رعاة المنطقة. لقد كانوا يتقاسمون هناك الحياة الخشنة لفلاحى الجبال. وهو نموذج للبطاسة والصبر والتحمل.

كان مضيفهم رجلاً دائم الابتسامة ودائم الاحترام والتقدير. يبدو أفضل من يمكنه أن يضمن لهم عدم مبالاة رجال السلطة المحلية. وزيادة في الاحتياط وحتى

لا يثير الشكوك، فإنه أصبح يدخن، علماً أنه لم يدخن قط في حياته. فقد كان من اللازم تبرير رائحة التبغ التي اكتسحت بيته منذ وصول محمود ورجاله. ولكن خلف هذا الاحترام وهذا التأدب، كان الرجل يُخفي روح مقاتل. فقد حارب الفرنسيين داخل صفوف المقاومة. وكان يعرف معرفة جيدة سليمان العلوي، أحد ضيوفه السريين. لأنه قاسمه محنة النار والرصاص. سوف يتذكر الرجل بعد مرور السنين بأي براعة ومهارة. كان محمود يصلح البنادق التي كان يأتي بها مناضلو التنظيم المحليين: "كان يستعمل أضلاع البقر للبنادق. وكان بملا قارورات صغيرة بالحمض 44 ثم يصقلها بالكبريت والسكر. وكان يشرح لي بأن القارورة عندما تتكسر، فإن الحمض ينفجر عندما يختلط بالكبريت"⁷.

تنغير

أنزلت سيارة بوجو 204، مُثَقَلَة ومحملة، المجموعة الثانية في تيزغيرت، وهي زاوية توجد فوق جبل يطل على تنغير. أخرج الرجال الثمانية الذين غادروا العربة عشرة بنادق-رشاشة والعديد من الكيلوغرامات من الأدوات. مرت الرحلة من كلميمة إلى تنغير تحت قيادة سيدي حمو بسلام. لم يكن هناك أي حاجز لرجال البوليس. كان سيدي حمو شيخاً محترماً كل الاحترام في المنطقة. ومن ثمة فهو يتمتع بهيبة وهالة تُشع حتى فيما وراء تنغير. وتمكنه سلطته المعنوية إضافةً إلى علاقته القبلية من تعبئة قبيلتي آيت حديدو وآيت ميرابط، وهما قبيلتان معروفتان بنزعة قتالية ميالة إلى الحرب. كان البحث عنه شديداً منذ سنتين. ولكنه يتمتع بتواطؤات وصداقات مكنته. إضافةً إلى النجاح في ضمان أمنه، مكنته من الاستفادة من تسهيلات وخدمات يقدمها له أولئك الذين يُفترض فيهم هم أنفسهم أنهم سيعتقلونه. من تنغير إلى مسمير، وضع شبكةً من الخلايا السرية يرجع الفضل في فعاليتها إلى تواطؤ العديد من رجال السلطة.

وقد كان رجال السلطة هؤلاء يشكلون حلقة مهمة في خطة الهجوم التي وضعها محمود. فكما هو الشأن في تاديغوست، كان عشرات المناضلين ينتظرون في تنغير أن يتعلموا استعمال السلاح وتقنيات حرب العصابات. وهاهو أحدهم يتذكر: "كنت مكلفاً بالمؤونة. ذهبت عند جَار كلميمة لشراء المؤونة الضرورية. ولتبرير الكميات الكبيرة، ادّعت بأنني مقتصدُ شركة تنقيب عن المعادن في المنطقة. بعد يومين انتشر الخبر، فأخذ كل أرباب العائلات الذين يودون تشغيل أبنائهم يتقربون مني. فلم يبق لي سوى أن أطلب منهم الانتظار"⁸.

7 حوار للمؤلف مع موحى أولجو.

8 حوار للمؤلف مع نوركي عدي.

ولكن الأسرار في الجبال سرعان ما تنكشف. وهكذا، التحق مناضلٌ بالمقاتلين التحاقا يكاد يكون محض الصدفة، إذ إنه فطن لكميات الأكياس التي تنتقل إلى الجبل: فواكه وخضر وسجائر بكميات كبيرة. فعقد المقاتلون على وجه السرعة جلسة تشاور. ما الذي يجب عمله بالمناضل المتطفل؟ ولأنهم كانوا يعرفون بأنه قريب أحد قياديين خلية للتخطيط، فإن أحدا لم يفكر في تصفيته الجسدية. وحسم قائد الخلية الأمر قائلا: "أعطوه سلاحا واجعلوه هو كذلك ضالعا في الأمر. وهكذا فإنه لن يخوننا"⁹.

اخنيفرة

حول اخنيفرة تمتد منطقة متوحشة من تلال تغطيها الغابات وجبال وعرة. ما يشكل أرضا مثالية لحرب تقوم على نصب الكمائن. لطالما كانت هذه المنطقة الخضراء معقل لصيود وتخفي بسمعتها على أنها أرض لا ترحب بالزوار. فسكانها يقولون "اشرب واهرب". إنها نصيحة لكل زائر قد يتبادر إلى ذهنه أن يمضي بعض الوقت قرب منبع ماء يعتقد بأنه يرحب به.

وأما وصول المجموعة الثالثة إلى اخنيفرة فلم يكن دون مشاكل. إذ أوقفهم حاجز لرجال الدرك في ميدلت. وكاد رجال محمود أن يطلقوا النار على رجال الدرك. ودون أن يبدو على موحى أوالحاج أي تردد، أخرج رخصة ملكية لا تفارقه أبدا عند قضاء أغراضه التجارية. وها هي الوثيقة تقضي كذلك أغراض المقاتلين.

وعند وصولهم إلى خنيفرة، قادهم موحى أوالحاج إلى بيت معزول وسط غابة كثيفة. في منطقة وعرة، قرب أكلموس حيث كان ينتظرهم أمدة والنمري. الممر الوحيد إلى هذا الملجأ المنعزل يتم عبر طريق غير معبدة طولها 15 كيلومترا انطلاقا من أكلموس. كان المكان منعزلا كفايةً ليشكل قاعدة خلفية آمنة ومكانا خفيا لإجراء التدريبات.

عند وصول رجال محمود، شعروا بأنهم في أرض صديقة : المنطقة تطوقها شبكة من الخلايا السرية، التي وضعها أمدة والنمري ويؤطرانها. وفي المجموع كان هناك عشرات الرجال يعلمون بالسر. منهم حوالي ستة من ضباط الجيش مستعدون لتلبية النداء.

ينتمي الرجال الذين يرافقون موحى أوالحاج إلى الجنوب: من بينهم أسكور وصبري اللذان سبق وحوالا سنة 1970، إلى جانب بنححي واليزيد ودهكون، إنشاء قاعدة ثورية في منطقة تارودانت، والتي لاقت النجاح الذي نعرف. إن مهمتهم في خنيفرة هي وبالضبط دعم أمدة ليستولي على مخازن الأسلحة والذخيرة المتفرقة في

9 حوار للمؤلف مع باسو.

المنطقة. ولكنهم. بعد توزيع السلاح على المناضلين السريين. فإنهم سوف يواصلون الطريق مع النمرى إلى الجنوب.

السبت 10 فبراير

مساء يوم السبت 10 فبراير من سنة 1973. عبر محمود على متن دراجة نارية صغيرة العشرين كيلومترا التي تفصل تاديغوست عن كلميمة. كان يرتدي لباس فلاح من المنطقة: جلباب أبيض على الكتفين وشاشية ملفوفة على رأسه. كان مرزوق يقود الدراجة النارية. وكان مخبران يوجدان على طول الطريق للإخبار عن كل ما يُشبه فيه. عند وصولهما إلى كلميمة. رافق مرزوق محمود عند مناضل من التنظيم. حيث كانت تنتظرهما وجبة عشاء. وسط وجبة الطعام. دخل رجل فجأة:

— لقد وصل ساعة. إنه ينتظرك عند اللوزي.

وبينما مرزوق يتمم ما تبقى من الطعام. رافق المناضل محمود حتى عتبة بيت. على بعد بضعة عشرات الأمتار من هناك. ثم انصرف ليتركه على انفراد مع اللوزي وساعة. دخلا الغرفة الشهيرة المعروفة بغرفة "سيدي حمو". والتي سُميت بها الاسم منذ استقبلت الهارب الشهير.

سلم ساعة إلى محمود كيس مال: ثلاثة ملايين سنتيم. ولكن الأخبار التي كان يحملها دفعت محمود إلى التفكير:

— لم أتوصل بأي إشارة من الجزائر. ولم يعبر أحد الحدود. فأسر له محمود:

— يجب استعجال الأمور. عليك أن تذهب إلى وهران لتنشيط العمليات. نتلاقى بعد أسبوعين¹⁰.

بعد مرور نصف ساعة. أخذت سيارة يقودها أحد المناضلين السريين. أخذت محمود واللوزي إلى تنغير. فقد وضع بها موحى أوالحاج منتجعه الصيفي حيث يتعاطى لرياضته المفضلة: القنص. وبهذه المناسبة. نظم .. حفلة على شرف المقاتلين. إذ سواء كانت الثورة أم لم تكن. فموحى أوالحاج لم يكن بالرجل الذي يعيش في الظل. لم تعجب جرأته التي لا تصدق محمود الذي كان يفضل الفعالية والتكتم على البهرجة. ولكن مثل هذه الدعاية والمزاح يعطي صورة عن التعاطفات التي كان يتمتع بها التنظيم في المنطقة. وهاهو المناضل السري الذي أخذ محمود واللوزي إلى تنغير ومهنته ممرض. هاهو يتذكر: "أزلتها في مكان محدد على جانب الطريق. قبل تنغير بكيلومترات قليلة. ومن هناك. واصل السير راجلين وسط الصحراء. مررت بذلك المسار ثلاث مرات. بأمر من التنظيم. دون أن أعرف أبدا من الذي كان يرافق اللوزي¹¹".

10 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة. المعروف بساعة.

11 حوار للمؤلف مع علي الزواغي.

بعد انطفاء مصباح الجيب. غاصت في الظلام وجوه الرجال الذين اصطفوا على الأريكة التي تمتد على طول الخيمة. تقدم محمود واللوزي على أرض غير مستوية تغطيها الزرابي. وجلسا بعد التحيات الاعتيادية، والتي تقلصت. نظرا للظروف الخاصة. إلى حدها الأدنى. من بين الحاضرين الصامتين. كانت هيئة موحى أوالحاج وسيدي حمو الأليفتان تتميزان وسط الظل. كان الضوء المتحرك الذي ينبعث من المصباح الغازي يرسم ظلالا مترددة فوق رؤوس المدعويين كاشفا عن قسَمات وجوههم. خيمت على المشهد عصبية مُكبوتة.

كان محمود محاطا بقيادبي المنطقة الثلاثة : اللوزي وسيدي حمو وموحى أوالحاج. فأعاد تعداد القوات الموظفة. كانت حرب العصابات تستلزم وسائل لوجيستكية تنقص على جميع المستويات : احتياطي الطعام والسلاح والذخيرة والنقل وما إلى ذلك. كان عدد الرجال المستعدين للقتال يناهز البضع مئات. إضافة إلى آخر الأسلحة تطورا وبعض البنادق المتوفرة في مختلف الخلایا السرية. أحضر محمود معه 30 بندقية-رشاشة والنمري حوالي العشرة. وقد سبقتهم بندق-رشاشة أخرى. كانت بحوزة حسين آيت زايد. وفي المجموع. كانوا يملكون ما يمكن من تسليح 80 رجلا تسليحا معقولا. كل واحد يمتلك تسعين خرطوشة. وسوف يمكن الهجوم على مخازن الأسلحة بتتغير وأمبلاغو وإملشيل ومولاي بوعزة من جمع عدة مئات من بنادق الهجوم وعدد مهم من المسدسات.

ولكن تبين أن الذخيرة غير كافية. وكان محمود يخشى أن يؤدي نقص الوسائل إلى الحد من استقلالية العمل. فهو قد تعود على العمل السري كفاية ليكون على علم بأن نقص الإمكانيات يزيد من خطر الانزلاقات. إذ إن العملية. إن عجزت عن مراقبة جنودها. تتحول إلى فتنة جموع غير مسلحة. وسرعان ما تَقَمَع قمعا دمويا. كما كان شأن العديد من الانتفاضات السالفة. ولضمان سرية الإعدادات ومراقبة العمليات. لا بد من وسائل إضافية. لقد وجه رسالة مُشفرة بهذا الغرض إلى القيادة العليا في الجزائر العاصمة. بعثها مع مرزوق. قبل ذلك ببضع ساعات بكلمية: "تنقص الحبوب في السوق".

زد على ذلك أن محمود. وكى يتواصل مع كلمية وتتغير. لا يملك سوى جهاز إرسال بالراديو يغطي 60 كيلومترا. وهو يطلب من محاوريه العمل على وضع جهاز لاقط يمكن من الاتصال بالخارج. وتدريبيا أخذت الأمور البيديهية تفرض نفسها على ذهنه. إن لم يتم ملء هذه الفراغات في الوقت المناسب. فإن إشعال الانتفاضة يجب أن يؤجل إلى ما بعد يوم ثالث مارس. وهو الموعد الذي حُد من قبل. سوف يؤثر هذا القرار على مجرى الأحداث الموالية.

كان العمل على عدم خدش شعور القادة المحليين وصلاحياتهم عملا يستلزم دبلوماسية عليا. فإن كان محمود يضع نفسه فوق الفروقات والانتماءات القبلية. فإنه مع ذلك لم يكن يجهل ثقلها بالنسبة إلى اشتغال التنظيم في الأطلس وتنظيمه. ولكن يبدو أن محمود يلقي خارج البلد المقاومات الأقوى. ويحتفظ مرزوق. المسؤول عن كلميمة. في ذاكرته بالرسالة التي بعثتها القيادة العليا في الجزائر العاصمة إلى اللوزي : "أنصتوا إلى محمود ولكن هددوه. إنه جذري لا يتفاهم". وأما بقية الرسالة فإنها أوضح من هذا بكثير : "إن بدأن قبل التوصل بالأوامر. فتحملوا مسؤولياتكم ولا تنتظروا مناشيتنا"¹².

في انتظار الشفق

في تاديغست. كان هدوء وسكينة المكان يتناقضان مع حدة الأحاسيس التي كانت تخالج محمود ورفاقه. كانت الأيام تمتد وتطول فتتحول إلى أسابيع. بدأ بعض القلق يتسلل إلى صفوف الحارين. وكان تدريبهم يطول ويطول والرجال مرغمون على الانتظار بدون يقين. كل مساء. كانوا يتساءلون إن كانوا في اليوم الموالي سوف يحققون ما لم يحققوه في اليوم السابق. فتملكت أشدهم جرأة وتهورا الرغبة في أن يُنْهوا الأمر وهم لم يبدؤوه بعد. وأما الآخرون. فإن ضرورة القيام بعمل وشيك قريب. تسيير حياتهم اليومية في اتجاهه. كانت تذوب داخل الانتظار وتغرقهم في حياة مبهمة حيث بدأ الانضباط يتراخي شيئا فشيئا.

كان رفاق محمود مقاتلون جيدين. فقد تعلموا القتال على جميع الحلبات وبأنواع مختلفة من الأسلحة. وتدريبوا على العيش وسط الأعداء. ولكن الآن. أصبح الوضع مختلفا عن ذلك الذي عرفوه في معسكرات سوريا أو ليبيا. لقد عادوا إلى الأرض التي وُلدوا فيها. وهم عازمون على تحريرها من نير العبودية. وراء الحيطان. على بعد بضعة خطوات. ما زال إخوانهم وأخواتهم وأباؤهم وأمهاتهم يعانون إهانات أعيان السلطة المحليين. لم يعمل الانتظار سوى على إثارة تلهفهم وأغرقهم في خليط من الملل والقلق لا يمكن أن يطفئه سوى الانتقال إلى مرحلة العمل. كان محمود يعرف أن الرغبة في العمل التي أخذت تستولي على رجاله قد تخفف من حيظتهم وحذرهم. فوظف كل قوته في إقناعهم من أجل تهدئة حماسهم واندفاعهم: إن القتال ضد الملل هو جزء من قتال الثوار. يجب أن نعرف كيف نبقي على أهبة الاستعداد خلال أسابيع طويلة دون أي تذبذب. وأما الجولة التي كان قد عزم على القيام بها في المنطقة عامل منطقة قصر السوق. مصحوبا بالقائد الممتاز ومساعد القائد. فقد أذكت ثائبة الاضطراب والعصبية:

12 حوار للمؤلف مع الحسن مرزوق.

— ماداموا سوف يمرون من تاديغوست لحضور احتفالات عيد العرش. لِمَ لا يُنصب لهم كمين؟
فرد محمود قائلا:

— الأمر فيه الكثير من المغامرة. إن عملية من هذا النوع. سوف تعزلنا وتمنع عنا كل قاعدة للتراجع.

ومحمود نفسه. الذي كان يعرف كيف يبقى هادئاً في كل الظروف. كان عليه هذه المرة أن يبدل مجهوداً حتى يحافظ على هدوئه هو كذلك. كانت خطته مضبوطة ولا تقبل أي عملية مرجلة:

— إن هدفنا هو أن نشعل بداية انتفاضة عامة. ولهذا الغرض. علينا أن نهاجم مخازن الأسلحة ونفرغها. وأن نوزع السلاح على المناضلين الذين نثق فيهم وأن نعبئ المنطقة بكاملها وراء كفاحنا¹³.

الثلاثاء 27 فبراير

كما جرت العادة في المنطقة. فإن مسؤول التنظيم بتاديغوست جمع حول مائدة عشاء. قياديي الخلايا العاملة في الأطلس الكبير. وبالفعل فإن التنظيم كان يملك عدة خلايا سرية في هذه التخوم. وخاصة لهرون وأملاغو وأغبالو وأسول وإملشيل. أجاب الدعوة زهاء عشرة أفراد. كان الحضور يتكون أساساً من مقدمين وشيوخ وعناصر من القوات المساعدة. فبدأ الأمر وكأنه جلسة السلطات الإدارية أكثر مما هو اجتماع سري¹⁴. عند نهاية الوجبة. أخبرهم مضيفهم نفسه عن سبب التجمع.

— إن الأطر الثورية موجودة في تاديغوست. سوف تُرحلهم إلى لهرون. ومن ثمة سوف يذهبون إلى دوار كل واحد منكم ليقوموا هناك بالتأطير العسكري للمناضلين¹⁵.

ما كاد المدعوون يغادرون المكان ليهضمو الطعام ويهضموا كذلك شروحات مضيفهم. حتى أخذ هذا الأخير يعطي تعليماته إلى أعضاء خلية كليمية وتاديغوست. تسلم أحد المناضلين السريين بخلية كليمية مسدساً ولائحة بأسماء أشخاص يسكنون تاديغوست. ففسر له قائده الأمر:

— عندما أعطيك الأمر بذلك. سوف تصفي الخونة الذين توجد أسماؤهم في هذه اللائحة¹⁶.

13 شهادة كتبها محمد بلقاضي. المعروف بالصغير.

14 عقد الاجتماع في بيت سعيد أوداز بكليمية ببدء من سيدي حمو علا. حضر الاجتماع عدي شان. مقدم أملاغو. وسكو عقار. مقدم لهرون. وسعيد أوخويا. من القوات المساعدة بإملشيل. وعلي أوسكونتي. شيخ أسول. وأومهرير. ضابط أملاغو. وباسو أوتعنوت من أغبالو نكردوس. ومولاي محمد من تافاسو. وعلي أوكيري وحده أوفديل (اعتبر هذا الأخير مفقوداً).

15 حوار للمؤلف مع عدي شان.

16 حوار للمؤلف مع حسين الحباب. المعروف بطام.

ولما انتصف الليل، غادر تاديغوست صفان من المناضلين وتوجهوا نحو لهرون. على بعد عشرين كيلومترا، كانت البغال محملة بالبنادق-الرشاشة والقنابل اليدوية والألبسة العسكرية. كانت المجموعتان تسيران كل واحدة من جهتها. تلتوي الطريق غير المعبدة والتي تتخللها الحفر وسط وادٍ مليء بالحفر، على جانبيه جرفان حادان. في جوف الوادي يجري نهر الرئيس. وهو نهر صغير يجري أسفل صخرة من طين. كان من الصعب التقدم وسط الظلام والطريق المليء بالحفر. لم يكن القمر يضيء سوى قليلا هذه الصخور الشامخة، والتي كانت قممها واضحة بادية في السماء.

بعد ساعتين من المشي، دارت المجموعتان داخل وادٍ جانبي صغير. كان الطريق الصغير المليء بالأحجار يسلك وسط ممر جبلي ضيق ومحفّر. كان هذا الوادي الصغير يفضي إلى تاحمدونت، وهي قرية صغيرة عالقة على الجانب الصخري على مدخل الممر. على بُعد بضعة كيلومترات، انفتح الوادي الصغير على منفذ آخر يحرسه قصر لهرون. كان المكان يتوسط تاديغوست وأمبلاغو. لا مياه صالحة للشرب ولا طاقة كهربائية في هذا المكان النائي.

وصلت المجموعتان على التوالي إلى لهرون عند الفجر. أخبر مقدم القصر الذي كان يرافق المجموعة الأولى الشيخ، وهو أيضا عضو في التنظيم.

استغل الحاربون يوم 28 فبراير للاستراحة، في حين أن محمود جمع قادة الخلايا. لم يخف هؤلاء حماسهم. في أمبلاغو وأغبالو ولهرون، بدأ جنيد المناضلين. كان زهاء الثلاثين رجلا من الأوفياء المتمرسين. على أهبة الاستعداد. وكانت الأسلحة التي دخلت عبر الجزائر في مكان آمن. وكانت مرابط المؤونة والاتصالات عملية. زد على ذلك أن بعض قياديي الخلايا الذين كانوا يستغلون السلطة التي أكسبتها لهم وظيفتهم بصفتهم ممثلين للدولة، لم يكونوا يترددون في أن يصرحوا بأنهم يضمنون وفاء سكان قصورهم. ولا شك أن قياديي خلية قصر أسفلا كانا الأشد حماسا:

— سكان قصر أسفلا يساندون كلهم قضية الثوار¹⁷.

وأما قياديو إملشيل وأسول، حيث أعدت مخابئ السلاح والذخيرة منذ سنة، فقد كان كلامهم يفيض تشجيعا. كانت حفاوة الاستقبال الذي خص به محمود عند وصوله يدل على أن مجيء أطر حرب العصابات كان منتظرا منذ زمن طويل. وهاهو مناضل سري من إملشيل يشهد: "كان بعض الرجال يأتون لملاقاتنا. عمي وأنا. بتارباننت قرب أسول. كانوا يأتون دائما ليلا ويعلنون قدومهم بحجر يرمونه في الساحة. وفي يوم من الأيام، طلبوا منا أن نكون مستعدين للتدريب. فإن هناك أسلحة قادمة. وساعة الانتفاضة قد اقتربت"¹⁸.

17 اعتقل كل رجال القصر سنة 1973. ثم رُحِلوا إلى مركز الاعتقال السري في كوراما حتى سنة 1975.

18 حوار للمؤلف مع أممون ميمون.

وقد كان عضو في خلية سرية في أسول. هو كذلك شاهدا على مثل هذه الإعدادات في قصر مجاور لقصره: "ذهبت في ليلة من ليالي نهاية شهر فبراير إلى جنازة عم توفي في قصر آيت بويزني قرب أميلاغو. هناك، وجدت نفسي وجها لوجه مع شيخ أسفلا وشيخ لهرون. لم يكن هناك من حاجة عليهما قضاؤهما في ذلك المكان. رأيتهما يغادران بيتا مر به العديد من رجال القصر. فبدا لي واضحا أن هذا البيت كان يأوي اجتماعا سريا من نوع تلك الاجتماعات التي تنعقد عندما يتعلق الأمر بتجنيد مناضلين جدد"¹⁹.

كان كلام مسؤولي الأطلس الكبير تتخلله عبارات تقنية وحربية. فكان يترك مكانا فسيحا للحلم. منذ شهور. وبالنسبة إلى البعض منذ سنوات. كانت جهودهم تصب في هدف واحد: أن يصبحوا أحرارا. فقد أذكت حياة يومية بنيسة ثقيلة رتيبة لا أمل فيها. أذكت طموحهم الذي أصبح العلة الوحيدة لوجودهم. ولأن محمود وسّمه عذاب وآلام الصراعات السابقة، فإنه ما زال يحتفظ بتبصر يهدئ من الحماس الذي يحيط به. في هذه المناطق النائية. كان للتضامات القبلية حدودٌ يصعب أحيانا التعرف عليها. كان محمود يعرف أنه لإجّاح العملية، عليه أن يضمن وقع المفاجأة. وهكذا. وحتى يتجنب خطر اللقاءات والمعاشرات. كان يناشد القياديين المحليين أن يلزموا أقصى ما يمكن من الخطة والحذر. فالجموعات المكلفة بضرب الخصم ومفاجأته. والتي ستشكل الصف الأول. سوف تُكوّن وتؤطر في عزلة عن الآخرين ودون أن تختلط بهم. ولن يتم الدمج فيما بينها إلا عند انطلاق العمليات. عندما يتسلمون الأسلحة. واكتشف مقدم أميلاغو. وكذا رفاقه. وهم ينصتون إلى محمود يقدم تعليماته. المخطط الذي وضعته قيادة التنظيم.

فتساءل المقدم :

— متى سوف نتسلم السلاح من أجل القتال؟

ففسر له محمود الأمر قائلا:

— نحن هنا من أجل تكوين المناضلين وتأطيرهم. سوف تبدأ العمليات عندما نتوصل بإشارة من أعلى.

وكانت ملاحظة محمود المركزة التي أعادها وأعادها على مسامعهم منذ أسابيع. تستقبل بحركة من رؤوسهم يعبرون بها عن موافقتهم. إنها حركات آلية ينفذها الحاضرون ليؤكدوا انخراطهم التام. في الوقت نفسه الذي يتفكرون ويتأملون فيه التعليمات. بان على وجه مقدم أميلاغو فضول لم يستطع إخفاؤه:

— من أي نوع سوف تكون هذه الإشارة؟

فأسر له محمود بتجرد ودون أن ينوي الإطالة في الموضوع:

— سوف تكون الإشارة هي انطلاق إضراب في المعامل²⁰. على قدر ما كانت معرفة الخلايا بالأمور قبلية. على قدر ما تكون الأمور أفضل. وبما أن الانتفاضة يجب أن تشتعل في البلد بأكمله. فإن الأوامر-المضادة تلت الأوامر. وذلك كلما ظهرت أمورٌ غير متوقعة. وحده هو والقيادة العليا في الجزائر العاصمة. والذآن لهما اتصال بباقي الخلايا السرية في المغرب. بإمكانهما تقييم الوضع.

بعد استعراض الجهاز. عيّن محمود ثلاثة من مساعديه. النجار والصغير وسي إبراهيم. لتكوين مناضلي إملشيل وتأييدهم. وأما فريكس وسليمان العلوي وهو نفسه. فقد تكلّفوا بخلايا لهرّون وأمّيلاجو. ولكن أحد مسؤولي إملشيل. المكلف بإحضار البغال التي سوف تستعمل لنقل السلاح. تأخر. إذ إن الثلوج تساقطت بكثافة فأقفلت المعبر الذي يفصل وادي الريس عن وادي إملشيل. يمكن أن يطول الانتظار. وزيادة في الاحتياط. قرر محمود الذهاب إلى الجبل مع رجاله لانتظار وصول الرجل الذي تأخر عن الموعد.

وفي ليلةٍ فاتحٍ مارس. وصل المحاربون إلى جبل تاباستي. على بعد ثلاث ساعات مشياً. فوق لهرّون. نزلوا في مغارةٍ فجرَ يوم ثاني مارس. كان الوادي كله يمتد أمام أعينهم. وبينما كانت التداريب قد بدأت. أسر مقدّم أمّيلاجو لمحمود بتحفظاته فيما يخص أحد المجندين الجدد:

— أومهرير عنصرٌ فيه خطر. فهو قد سبق وقتل بريئاً وأخلاقه مشكوكٌ فيها. اعتقد محمود في قرارة نفسه أن الأمر لا يعدو أن يكون قصةً قديمةً من قصص العداوات القبّلية القديمة. وبالفعل. فإن أب أحد المحاربين. وهو قائد من الخزن وزعيم قبلي له هيئته عند قبيلة آيت موعغاد. كان قد أعدم الأخ الأكبر لأومهرير. الذي كان يشك بأنه كان يتعاون مع الفرنسيين. ألم يضمن له مسؤول التنظيم بتاديغوست. الذي كان قد أدى خدمته العسكرية مع أومهرير. بأن الرجل شجاعٌ ووفي؟ فقال المقدم:

— دعني أتصرف وسوف أصفّي أومهرير.

فرد عليه محمود:

— أومهرير مناضل ائتمنّا عليه مسؤول التنظيم المحلي. ليس من عادتنا أن نصفّي الرفاق. أن تكون أنت الذي تقيض السلاح في يدك لا يعني أنك أنت القاضي. كان محمود لا يتسامح ولا يتساهل في الأمور التي قد تؤدي إلى انزلاقات:

— الأول الذي يطلق النار على مواطن. سوف أتكلّف به أنا شخصياً. نحن هنا من أجل تحرير المقهورين. عدونا الوحيد هو الخزن.

إنه تخذير سبق لمحمود أن وجهه مرارا لمساعديه. فقد كان مقتنعاً بأن انزلاقاً إجرامياً قد يصرف عنهم بكل تأكيد مساندة السكان. يجب على

20 حوار للمؤلف مع عدي شان.

وجه الخصوص عدم الخطأ في تحديد مَنْ هو العدو. إن الأمر أكثر من هَمٍّ تكتيكي. إنه العلامة الدالة على أن الرجل رجل مبادئ.

ثورة أم انقلاب؟

الجزائر العاصمة، رأس الجسر المؤدي إلى الثورة

في منتصف شهر فبراير من سنة 1973، وصل الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة. نزل بفيلا بالبيار، وهو حي إقامة على مرتفعات الجزائر العاصمة. وفي اليوم الموالي، طلب الفقيه البصري لقاءً مع بومدين، الذي كان البصري يظنه من حلفائه. وهكذا، التقى بومدين رجلاً لا يساوره الشك في نجاحه مستقبلاً. كان الفقيه البصري قد غادر الجزائر العاصمة سرا سنة 1968. وها قد أصبح نفوذه اليوم يمتد حتى دوائر المسيرين في العالم العربي، حيث استطاع أن يفتنهم بخطبه وقدرته على التكيف مع الظروف. إنه الآن سينتقم لنفسه، وبالنسبة إليه فإن عودته إعلانٌ عن بداية عهد جديد.

في المغرب، أصبح الوضع راديكالياً. فالعديد من النقابيين العمال قد اعتقلوا¹. ومنذ شهر يناير، توالى الإضرابات والمظاهرات داخل البنايات الجامعية بمدينة الرباط. وبينما البوليس يفرق بخشونة مناضلي الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تم الهجوم على مقر نقابة الطلبة بالرباط يوم 11 يناير واعتُقل أهم مسيريه². ويوم 24 يناير منعت الحكومة الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

وفي الوقت نفسه الذي كان يدل فيه هذا الهيجان على أن التوتر متزايد، فإنه يؤكد صعوداً وتنامي اليسار الماركسي وتأثيره على الطلبة. ها قد حلت ساعة الثورة. فأخذت تستولي على القلوب وتلهب العقول. فالنقابيون والطلبة والعمال ينادون بالكفاح المسلح الذي لا يمكن أن ينبعث إلا من الرجة الاجتماعية والسياسية. إنها كلمات تنطق بعنف عام غامض مستعد للانفجار. لقد أصبحت الحجج والخطب بدون

1 من بينهم، يوم 15 دجنبر من سنة 1972، نوبير الأموي، الكاتب العام مستقبلاً للكونفدرالية الديمقراطية للشغل (ك.د.ش.). وهي النقابة المرتبطة بالاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية مستقبلاً. الحزب الذي حل محل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

2 منهم رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، عبد العزيز المنهي، الذي اعتُقل يوم 8 يناير ونائب الرئيس، عبد الواحد بلكبكر، يوم 12 يناير من سنة 1973.

جدوى ولا ضرورة. وعبد الرحيم بوعبيد قد تحدث من قبل مع الفقيه البصري عن خطر هيجان من جهة اليسار: فقد كان مكتبه يدافع عن المناضلين اليساريين السريين الذين اعتقلتهم الشرطة جماعات جماعات. وخلال هذا الوقت، لم يعد بعض الضباط السامين يخبئون ما يخالفهم. وبدأ قادة (كومندارات) الجهات يُحَادِثُونَ التنظيم علناً. ولهذا، أصبحت فكرة عملية مسلحة قادرة على دفع الجناح اليساري إلى العمل وتعبئة القوات المسلحة الملكية تختمر منذ بعض الوقت في ذهن الفقيه البصري. وعززت المحاولات الانقلابية المتتالية والنشاط الحركي السري في الجامعات مشروعه العازم على الانتفاضة.

بدأ الرجال بدافع هذه الظرفية يأتون من المغرب وفرنسا وبلجيكا وألمانيا. كانوا جميعهم يعلنون أنهم مستعدون للقتال. وحدها مبادرة مسلحة يمكنها أن تجمع ما بين القوى الثورية المشتتة. وهاهو أحد المناضلين المجهولين المنفيين تلبيةً لحاجة القضية الثورية. هاهو يتذكر حتى اليوم تلك الحقبة حيث كانت الآمال تبدو ممكنة التحقيق: “جَدَنِي الخاص في وهران. كان سني عندما وصلت إلى طرابلس في بداية سنة 1973. اثنين وعشرين سنة. بعد ثلاثة أيام من الإجماعات بالعاصمة الليبية تسلمت فيها التعليمات. التحقت بمعسكر التدريب. وعند انتهاء تدريبي، اقترحني المسؤول الذي كان مكلفاً بالتأطير العسكري للالتحاق بشمال المغرب³.”

وكان رد النظام هو الزيادة في عمليات القمع. وفي فجر يوم 13 يناير من سنة 1973، نُفِذَ حُكْمُ الإعدام في الطيارين الأحد عشر الذين حكمت عليهم به محكمة القنيطرة. وقبل أن يسقط العقيد (الكولونيل) أمقران تحت رصاص منفذي حكم الإعدام، حذر أحد محاميه الذين حضروا تنفيذ الحكم: “حذر عمر بنجلون واليازغي وعمر الخطاب، قل لهم بأننا آسفون⁴.”

بعد أن انتزع هو والرائد (لكومندان) كويرة من زنزانتهما في سجن القنيطرة، اقتيدا إلى مركز التعذيب بدار المقرري. تواصلت حصص التعذيب بوحشية مضاعفة، انتهت بالانتصار على مقاومتهما. وبات الحسن الثاني يعرف بأن أوقفير لم يكن سوى سِتَاراً في محاولة انقلاب الطيارين. بعد ساعات من ذلك، توصل كل من اليازغي وعمر بنجلون. وهما الرجلان اللذان حاول الكولونيل أمقران إنذارهما. توصلا بطربين ملغومين. جَرِحَ اليازغي جرحاً خطيراً في وجهه. وأما عمر بنجلون، الذي بقي حذراً، فإنه اكتشف الحيلة وأوقف مفعول القنبلة الخبأة داخل كتاب. وأما عمر الخطاب فقد اختطف.

3 حوار للمؤلف مع المحمدي

4 حوار للمؤلف مع عمر الخطاب

بعد أن انتظر ساعة بدون جدوى إشارة من وهران. قرر أن يرحل إلى الجزائر. إذ كان موعده مع محمود في كلميمة قد اقترب. والحال أن الرجال والوسائل المنتظرة لم يصلوا بعد إلى فيكيك. استقبله الميد:

— الرجال؟ إنهم ما زالوا في ليبيا.

— السلاح؟ إنه في الطريق.

— أجهزة الراديو؟ غير مهيأة بعد⁵.

اختلطت الأمور. قَمَعَ ساعة رغبته في الاحتجاج. وتردد في الموقف الذي عليه أن يتخذه. ونظرا لحذره فقد اكتفى بالعودة إلى فيكيك. لأن الأمور كانت تجري هنالك على أية حال. أمّا ما كان يجهله فهو أن يوم ثالث فبراير وبأمر من الميد⁶. كان الجديني قد سبق الكل إلى وجدة. هاجمت مجموعته مركز الدرك في الدائرة الثانية بوجدة. فقتلت الشرطي الذي كان يحرس المركز. واستحوذت على الترسانة. فباتت جميع خلايا وجدة بفضل هذه الترسانة وبفضل السلاح الذي سبق أن أوصله الميد مسلحة تسليحا كاملا وغدت في حالة انتظار.

ما كاد ساعة يرحل حتى قام البشير الفيكيكي بزيارة الميد. كان الرجلان يعرفان بعضهما. لم يكن وجود البشير الفيكيكي في الجزائر محض صدفة. فالرجل يبدو وكأنه أرسل في مهمة. وقد جاء يستفسر عن ضعف محتمل في الإرادة المسلحة ظهر عند الفقيه البصري. كان من البديهي أن هذه المعلومات مهمة ولو أنها غير تامة.

يبدو أن البشير الفيكيكي قد أحس بضيق في دوره كعميل مزدوج. وهاهو ذا البشير الفيكيكي يقدم لي رواية أخرى إذ قال لي فيما بعد: "كنت قد علمت من صديق من رجال الشرطة أن محمود قد عاد إلى المغرب وأنه تحت المراقبة. وقد كان مقهّ في الدار البيضاء هو مكان مواعيده. حاولت أن أنذره بواسطة أخيه عبد الواحد في الرباط وعباس سباطة في باريس⁷". وخلف هذه الأقوال المتفق عليها سلفا، والتي أوحى بها ازدواجية العمل السياسي. ظهرت حقيقة مرعبة. سوف تمضي سنوات عديدة لتبرز أمام أعين المناضلين الصادقين. ولكن الذين عجنتهم يقينيات إيديولوجية.

5 حوار للمؤلف مع محمد بن عمار. المعروف بساعة.

6 الميد. إن كان ينسب إلى نفسه الأمر الذي أعطي. فإنه يقدم رواية أخرى مغايرة لتلك التي سُجلت في محضر محكمة الغنيطرة: "لم يكن الجديني هو الذي قام بالعملية. ولكن الذين قاموا بها هم رجال سربوا من الجزائر زد على ذلك أن الهدف لم يكن الهجوم ولكن جمع السلاح. وموت الشرطي ليس سوى انزلاق للعملية".

7 حوار للمؤلف مع البشير الفيكيكي.

ورغم أن البشير الفيكيكي والميد كانا متعارضين سياسيا، فإنهما كانا يتقاسمان الأصل القَبلي نفسه والطموحات الانقلابية ذاتها. ولأن البشير كان قد لاحظ طيش الميد وميوله إلى الارتشاء، فإنه كان يعرف أن الميد يميل إلى المصلحة الشخصية أكثر مما يميل إلى قَسَم الإيمان بالثورة. وحسب الفرشي: "أتصل بي الميد من أجل أن أرافقه هو والبشير إلى الجزائر العاصمة⁸". وفي الجزائر العاصمة، التقى كذلك آيت قدور بالبشير الفيكيكي. وهما هو يتذكر: "دون أي اضطراب، تحدث معي بنبرة ملؤها الثقة في النفس وكأنه هو الذي يقود العمليات، بل إنه أمرني بأن لا أجاوز الأمور الإدارية⁹". وهما هو آيت قدور يخفي اندهائشه ويمثل للأوامر. ومع ذلك، ونظرا للحسابات والطموحات الخفية، فإن الحديث لا يخلو من معنى. وبالفعل، فإن الفقيه البصري، الذي كان يخشى تأثير مجموعة الفيكيكيين وتأثير الميد، قد أرسل ولا شك آيت قدور إلى الجزائر العاصمة من أجل أن يشكل ثقلا مضادا. ولكن آيت قدور لن يكون الوحيد الذي التقى بالبشير الفيكيكي الذي عزم على القيام بجولة في العاصمة الجزائرية¹⁰.

إن هذه الزيارة الغربية التي قام بها رجل من السلطة إلى الثوار المستقرين في الجزائر العاصمة، تثير التساؤل عن مدى شساعة اللعبة المزدوجة.

إلى أي حد تعلم بعض مكونات السلطة في الرباط وتترك مع ذلك الأمور تجري على راحتها؟ إلى أي حد يستعمل الفقيه البصري هذه التسريبات ليؤثر على الجيش وعلى قوات أمن وزارة الداخلية؟ أهى تبادل معلومات وخدمات وفق تواطؤات لتحقيق مصالح ظرفية؟

كانت الثورة تسبح داخل المياه العكرة للمخابرات المضادة. وبواسطة البشير الفيكيكي، كان الدليمي يتفاوض مع الميد الذي كان يتصرف بأوامر الفقيه البصري. والميد يؤكد الأمر قائلا: "طلب مني الفقيه البصري أن أحضر البشير الفيكيكي إلى الجزائر العاصمة". ويقول المعني بالأمر موضحا: "دعاني الفقيه البصري إلى الجزائر العاصمة ليطلب مني أن ألتحق بمنظمته¹¹".

ما هو محتوى اللقاء الذي تم رأسا لرأس بين الفقيه البصري والبشير الفيكيكي، وهو اللقاء الذي تم في الجزائر العاصمة حسب زعم الميد؟ ألا تعدو الثورة أن تكون مناورة لتحويل الانتباه حتى يبقى الدليمي حرا في تصرفه؟ هل وراء الثورة مشروع جديد لانقلاب قادم في الطريق؟ ألا يتعلق الأمر بانقلاب فارغ وصدفوي، الهدف منه هو إثارة جيشٍ يُعتبر مَبَالِغا في خوفه وفزعته؟

8 حوار للمؤلف مع عمر الناصر المعروف بالفرشي.

9 حوار للمؤلف مع محمد آيت قدور.

10 التقى كذلك بينيجي ومحمد الباهي، كان الباهي صحافيا وصديقا لليوسفي، توفي، بعد مرض، في الغرب سنة 1996 في الوقت الذي أصبح فيه مدير جريدة الأخاد الاشتراكي.

11 حوار للمؤلف مع البشير الفيكيكي.

عندما نعرف تواطؤات الدليمي والطليعة الجديدة المقرية من بومدين. يمكن أن نخمن أن البشير الفيكيكي كان يستفيد في الجزائر العاصمة من مباركة المخابرات الجزائرية. وقد أبان قاصدي مرياح¹² والدراعيا بل ووزير الشؤون الخارجية بوتفليقة. أبانوا عدة مرات عن تعاطفهم مع بعض عناصر الجيش المغربي. بدءاً من الدليمي الذي يعتبره أعيان السلطة في الجزائر واحداً منهم. وينسبون إليه مساعدة سرية ولكنها فعالة للقواعد الخلفية لجهة التحرير الوطني بالمغرب خلال حرب الجزائر. هل انتبه الفقيه البصري إلى أن ترحيب النظام الجزائري هو ترحيب تكتيكي ليس إلا؟ لقد أفصح الجزائريون عمن يفضلون. إذ بما أن بومدين قد أزهقته النزعة التدخلية للقذافي. فإنه التقى به يوم الجمعة 2 فبراير من سنة 1973 وسط الصحراء وكانت الرسالة واضحة:

— أنت تتكلف بالشرق. وأنا سوف أنكلف بالغرب.

وفيما يخص الغرب. كان بومدين يفضل نظاما أيا. أي حكومة عسكرية. وحده الدليمي يبدو القادر على تحقيق هذا الهدف. في هذه المرحلة. كان الدليمي. شريك موحى أو الحاج خلال رحلات الصيد. يوجد أكثر من أي وقت مضى في ظل التنظيم.

12 بقي قاصدي مرياح لمدة طويلة رئيس المخابرات السرية الجزائرية. ثم أصبح وزيرا أولا سنة 1988. ليموت مقتولا في شهر غشت من سنة 1993. بعد مفاوضات سرية مع جبهة الإنقاذ الإسلامية في سويسرا.

مارس 1973

الخميس فاتح مارس 1973

كان التعب باديا على رسول خنيفرة عندما وصل يوم فاتح مارس عند الفجر إلى كلميمة. لقد عَبَرَ ليلا المسافة التي تفصل خنيفرة عن كلميمة لِيُسَلِّمَ إلى موحى أوالحاج رسالة شفوية:

— سوف تنطلق العمليات خلال احتفالات عيد العرش. يوم السبت ثالث مارس. ومن كلميمة تم تعويض الرسول برسول آخر ليواصل الطريق إلى تنغير عند سيدي حمو. ثم أملاكو عند محمود. ووصل في المساء نفسه جواب سيدي حمو:

— أخبر موحى أوالحاج بأن يوقف كل شيء. وبأن ينتظر الأوامر¹.

في ذلك اليوم، غادر عباس مكتبه مبكرا على غير عادته. التحق بدهكون في الدار البيضاء. عند نهاية العشيّة، يتراخى هرج المدينة، ويتسرب إليها الخمول في شيء من السكينة الليلية. الليل يأتي باكرا في هذه الفترة من السنة. الجو هادئ ولا يندر بالاستعدادات للمأساة القادمة. كان هذا التناقض ملاما لعباس قلقا. هو الذي كان يعرف بأنه يعيش اليوم الذي يسبق مساء كبيرا. في قرارة أعماقه. كان يحس إحساسا غريزيا بأن الأيام التي سوف تتوالى لن تشبه أبدا الأيام التي سبقت.

منذ بضعة أيام، ضاعف الميد من الاتصالات الهاتفية من باريس. وذلك حتى حدود اليوم السابق حين صرح لدهكون:

— أرسلوا لي سراويل. فقط بعض السراويل لإرضاء زيناتي. يجب أن أتوصل بها يوم ثالث مارس².

كان دهكون ينتظر هذه الرسالة منذ زمن طويل. ومع ذلك، فإن الاعتدال الذي يبدو أن الميد يطلبه قد أدهشه: "فقط بعض السراويل؟؟". بدا على عباس عدم الرضى والندم. فكشف عن خفظه. إنه غير راض على أن يستعمل شبكته "فقط" لإحداث بعض الضوضاء. كما يبدو أن الميد يطالب بذلك. أما دهكون من جهته. والذي لم يكن في مرحلة الاختبار والتدريب. فقد انصاع للأمر. فبعد أن اشترى عباس ساعات لصنع نظام مَوْقِنَة لتفجير القنابل. تبع دهكون إلى شقة حيث كان ينتظرهما المهندي واثنان من رجاله. كانوا يَدْخُلون مادة ت.ن.ت. المتفجرة مع الرمل في أسطوانة. وهي حركات اعتادوا عليها لأنهم لطالما كرروها. لا شيء يميز هذا التمرين عن حصص التدريب. اللهم بعض الاضطراب والعصبية الداخليين.

1 حبرٌ أكدته شهادات التوركي عدي وسيدي حمو واللوزي (جمعها أحمد ويحمان).

2 حوار مؤلف مع مبارك بوردقة. المعروف بعباس.

كانت المقادير تقاس بعناية لتجنب الجرحى. وبعد الداولة. اتفق دهبون ورجاله على تفجير أربعة مواقع: موقعين في الرباط. وموقعين في الدار البيضاء. فالغرض من العملية هو غرض رمزي ليس إلا. بل إن دهبون ذهب إلى حد كتابة رسائل على القنابل: "هدية إلى الحسن".

وقبل أن يذهب دهبون. سلم المهدي جزءاً من الأسلحة التي تسلمها عباس في الرباط. وفي اليوم الموالي. وفي العاصمة. وُضعت قنبلة في المركز الثقافي الأمريكي وقنبلة ثانية في مدخل ثانوي لمسرح محمد الخامس حيث كانت ستجري في اليوم الموالي الاحتفالات بعيد العرش. وكان الشأن نفسه في الدار البيضاء: وُضعت قنبلة أولى داخل سيارة القنصل العام الأمريكي. والثانية في الطابق الأول من دار أمريكا. ووجهً بلاغ يعلن وضع القنابل إلى وكالة رويترز³.

الجمعة 2 مارس، اخنيفرة

عند عودته إلى اخنيفرة. مساء يوم 2 مارس. قدم رسول موحى أوالحاج تقريراً عن الأمر-المضاد الذي توصل به في كلميمة. ارتبك موحى أوالحاج وامتنع لونه. فهو قد أخبر منذ قليل النمري بالأمر الذي كان ينتظره منذ شهور ليتابع السير إلى الجنوب ويعاود إنجازاته أيام جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب.

— هاجموا مركز القوات المساعدة بمولاي بوعزة واستولوا على مخزون السلاح! غضب أمدة واحتد النقاش. وبعد أن تحدث موحى أوالحاج وأمدة بصوت مرتفع. اتفقا على الذهاب حالا إلى مولاي بوعزة. وبعد احتساب الوقت الذي تستلزمه الرحلة. تبين أنه بالإمكان الوصول قبل إطلاق الرصاص الأولى. تكذب موحى أوالحاج وأمدة وثلاثة رجال داخل سيارة بوجو انطلقت بسرعة كبيرة. بعد ساعة. وصلوا إلى قرية مولاي بوعزة الصغيرة. كان كل شيء هادئاً. لا شيء يوحي بإمكانية حدوث هجوم. وهاهو أحد الرجال الذين ركبوا السيارة يحكي: "لأننا لم نجد النمري ورجاله. استتجننا أنهم لم يصلوا بعد. سرنا بضعة كيلومترات في اتجاه اخنيفرة. ثم أوقف موحى أوالحاج السيارة على قمة جبل يطل على التلال المجاورة. أسكت محرك السيارة وأطلق إشارات بضوء السيارة في الوجهة التي كان من المفروض أن يظهر منها الفريق المسلح"⁴.

3 لن تنفجر أي قنبلة. وحسب عباس. فإن الطاقة التي استعملت في الجهاز الفجر كانت ضعيفة لا تستطيع إشعال النار. وفي جلسة محكمة القنيطرة. سوف يقول دهبون إن خيوط نظام إشعال النار كانت قد قطعت عن قصد. وهذه الرواية تعطي مصداقية للفكرة القائلة بأن الشرطة كانت على علم بالعمليات المسلحة. أنظر العلم. 30 يونيو 1973.

4 حوار للمؤلف مع أحمد بويقبا.

وأما بقية الأحداث فتسلسلت تسلسلاً مأساوياً محتوماً. وهاهو أحد رجال الفريق الذي يسيره النمري يحكي عن تتابع الأحداث: "كنا ستة عشر⁵ مسلحون ببنادق- رشاشة. نجوب في عز الليل الثلاثين كيلومترا التي كانت تفصلنا عن مولاي بوعزة. وعشية ذلك اليوم. كان النمري قد جمع الرجال في بيتي حول مائدة عشاء. وعند نهاية الطعام. أخبرنا بنيتة في الهجوم على مولاي بوعزة في تلك الليلة نفسها وحدد لكل واحد منا مهمته". ويواصل المحارب السابق: "وعلى بعد كيلومتر واحد أو اثنين من مولاي بوعزة. رأينا أضواء السيارة وسط الظلام. كانت تتجه إلى اخنيفرة. ولأننا كنا جُهل بأنها سيارة موحى أوالحاج. فإننا اختبأنا. وبعد أن اختفت السيارة. واصلنا السير حتى مولاي بوعزة. وهناك انقسم الفريق إلى ثلاث مجموعات. تموضعت مجموعة أولى على المنافذ. وقطعت مجموعة ثانية الاتصالات الهاتفية. وطوقت مجموعة ثالثة مركز القوات المساعدة. وحسب معلوماتنا. كانت الأسلحة موضوعة في مخزن آخر. كان علينا أن نعتقل العريف المكلف بالحراسة لتتعرف على المكان. كان للمركز بابان. واحد من جهة الأمام. والآخر من جهة الخلف. ضرب النمري على الباب. ولأن أحداً لم يجِب فإنه أطلق النار على المزلاج لتكسيه. وأما الرجال الذين كانوا يراقبون الباب الثاني. فقد تبادر إلى ذهنهم بأن إطلاق النار إنما هو رد فعل حرس المركز. وعندما فتح العريف المذعور الباب الثاني الذي يقابل البناية وحاول الهروب. أرداه آيت عمي قتيلا⁶".

ولأن العريف قد مات. أخذ النمري ورجاله يفتشون المكان في عصبية بحثاً عن مخزن السلاح. ولكن دون جدوى. كان الفجر قد اقترب. أعطى النمري الأمر بالتراجع. وفي اللحظة نفسها. انفجرت قنبلتان في خنيفرة. ولكن المناشير بقيت داخل الصناديق بسبب أمر-مضاد ولا شك. وهكذا كانت حصيلة هجوم مولاي بوعزة خلال الليلة من ثاني إلى ثالث مارس... عملية فاشلة.

السبت 3 مارس، أملاكو

يوم ثالث مارس. اجتمع محمود ورجاله حول خروف مشوي في بيتٍ مقدم أميلاغو. وهو تجمعٌ من القصور على سفح مرتفع من طين. ولأنهم علموا عشية ذلك اليوم بوصول قائد الخلية المتأخرة قادماً من إملشيل. غادروا مأواهم الجبلي.

5 يتعلق الأمر بعلي أمزيان (صاحب الشهادة) ونعشابني (محمد الواحي). تَكون في سوريا. وحديدو ومحمد علي (موحي أو علي) ومحمد بن صالح (عفي بن صالح) وأوجا بن رقية وموحي أو عفي وأحمد بن صالح ومهروق (أمهروق أمزيان). كان كذلك النمري وخمسة من رجال محمود: صبري وأسكور والناصري وآيت عمي وبا العمزاني. المصدر: قرار محكمة مكناس. رقم 76/ 130.

6 حوار للمؤلف مع علي أمزيان.

تناقش المحاربون مع قادة الخلايا في موضوع خصائص ميدان المعركة حتى يضعوا التقنيات المناسبة للحرب. توقف نقاشهم عند دخول أحد الحرس معلنا قدوم رسول. فخلافا للأوامر. وصل الرجل نهارا. ومن الطريق الرئيسية. مثل هذا التصرف ينذر بأن الأمر مستعجل. أذهل الخبر محمود:

— إن النمري يستعد للشرع في العمل.

والمشهد التالي وصفه المقدم الذي استقبل في بيته الثوار. وهو مشهد يشبه إلى حد كبير استذكارا من وحي الإنجيل. كان محمود واثنا عشر رجلا من رجاله قد اجتمعوا لتناول وجبة العشاء⁷. ووسط دائرة المجتمعين. كانت تفوح رائحة الخروف المشوي بمناسبة عيد العرش. ضمن هؤلاء الرجال. كان يوجد خائن. لم تكن الوجبة قد انتهت بعد عندما أعلن الراديو الهجوم على مولاي بوغزة. جمّد الخبر الحاضرين في صمت يملؤه الهول. بقي الرجال مشدوهين. ومحمود [نفسه] بقي مذهولا. وأما ابتسامته البريئة. وهي الشاهد المطمئن على حماسه الرحب. فقد تجمدت في وقار وصرامة مفاجئين. أجهت إليه أنظار الحاضرين. يتطلعون إلى وجهه ليعرفوا باقي الأخبار. كانت نظرات طويلة ملؤها مزيج من الاستنكار ومن الخوف لم تعد الأفواه قادرة على الإفصاح عنه.

إن هذه الانطلاقة المعزولة تَوَرط التخطيطات التي وُضعت بصبر وتؤدة منذ شهور. ولأن محمود عليه أن يَقْبَلِ بَتِيَعَات هذه الخماقة. فإنه حاول أن يقيس مداها. منذ بضعة أسابيع. كان قد بدأ عملية إعادة تنظيم الخلايا السرية والتجنيد والموارد والتسلح. وهي العملية التي لم تنته بعد. فإن كان يجب على خلايا أميلاجو أن تَكُون عملية بعد بضع أيام. فإن خلايا إملشيل سوف تحتاج وقتا أطول قبل أن تهضم مبادئ حرب العصابات.

أكيد أنهم يعرفون أدق تفاصيل الميدان: مواقع القوات المساعدة وعددها ولائحة الأسلحة وتفاصيل البناية التي تأوي مساعد قائد السلطة ومقر الإذاعة ... ولكنهم أضاعوا الأمر الأهم: مفعول المفاجأة. فقد بات عدد حرس مخازن الأسلحة بكل تأكيد ضعف ما كان عليه. وبدأت كذلك مطاردة المحاربين.

سأله النجار بصوت محايد كسر الصمت الذي كانت تؤثته طقطقة المذياع. التي أصبحت فجأة بعيدة بعيدة: "ماذا سنفعل الآن؟" أجهت نظرات الضيوف نحو محمود في إلحاح. وتشبثت بجوابه فقال وهو ينهض ببطء:

7 الحاضرون هم رجاله الذين دخلوا. كما هو شأنه. من الجزائر: سي إبراهيم والصغير والنجار وفريكس وسليمان العلوي. ومسبرو خلابة المنطقة: عدي شان وأومهرير وسكو عقادر وأوسكونتي وسعيد أوكويا وموحي أومو وسي حمو علا.

— يجب أن نبقى هادئين وأن ننتظر حتى تهدأ الأمور. من غير المجدي أن نورط مخططاتنا أكثر مما كان. ومع شيء من الحظ. فإن رد فعل السلطة سوف يبقى مركزاً على اخنيفة⁸.

أجاب محمود ببطء. بكلمات واضحة. وهو ينظر إلى كل واحد من المدعويين الحاضرين وكأنه يريد أن يوصل إلى كل واحد منهم قراره الذي لا جدال فيه. ردت حركات متتابعة من الرأس على كلماته. وبما أن مضيفهم كان هو مقدم أملاكو. أي الممثل المحلي لوزارة الداخلية. فإن السلطات لن تشك في كون بيته يأوي المحاربين. ولكن مقدم أملاكو يحكي بأن محمود. عندما انفرد به. اعترف له بغيظه منهما نفسه بالإهمال:

— ضاع كل شيء. إنها غلطتي. كان علي أن لا أدع المجال حراً لحركة معزولة⁹.
حام صمت ثقيل على بقية الطعام. إن كان لابد لهم من الموت. فعلى الأقل يجب أن لا يكون ذلك مجاناً.

أرسل محمود اثنين من رجاله المكلفين بالاتصال لجمع السلاح الذي بقي في الجبل وإخفائه في مكان آمن عند شيخ لهرون. ثم أمر النجار بأن يستعد للرحيل إلى إملشيل في الليلة نفسها. النجار من الأوفياء. وقد اختاره محمود نظراً لقدراته على البقاء ولحماسه المتيقظ دائماً. والآن. فإنه ينتظر منه أن يعطي أقصى ما يمكن. ولهذا وبجلال ووقار خاصين. حدثه عما يجب وضعه في إملشيل.

وفي منتصف الليل. غادر النجار والصغير وسي إبراهيم منزلَ المقدم يقودهم قائداً خلية إملشيل. تبعتهما بغال محملة بالسلاح وبالقنابل اليدوية والذخيرة. ساروا على طول الهضبة التي تضيئها أضواء القرية. ثم اختفوا. بعد أن غطاهم الظلام. كان البرد المفاجئ يملأ الجو الصافي حيث تلمع النجوم في السماء. كانت الأسلحة والذخيرة تبطئ سيرهم. الطريق طويلة والبرد القارس يَكْنِسُ الثلوج. وهذه الأخيرة. عندما ترفعها الرياح. تُضَعِفُ القدرة على الإيصار وتأخذ صوت تنفس النجار ورفاقه المتسارع وغير المنتظم. وبعد بضع كيلومترات. توقفت الرياح لتبدأ ليلة من صمت مطيق.

عندما فاجأتهم أول أضواء الفجر. بعد أن أخذوا يحسون بعناء التعب. اختبأوا داخل مرتفعات جبل أسول. وخلال هذا الوقت. ابتعد أحد مرشديهم ليظهر ثانية محملاً بالخبز الذي أحضره من مريط. وفي الليلة الثانية. وصل النجار ورفاقه إلى نواحي تانا. ثم وصلوا أخيراً إلى هدفهم عند نهاية ليلة ثالثة من المشي.

8 حوار للمؤلف مع عدي شان.

9 حوار للمؤلف مع عدي شان.

الأحد 4 مارس، أملاكو

أَجَزَ رَجُلًا الاتصال. اللذان أرسلهما محمود لجمع السلاح الذي بقي في المغارة. مهمتهما. وهاهو أحدهما يحكي: "عندما وصلت إلى لهرون. طلب مني الشيخ أن أذهب إلى كلميمة من أجل أخذ تجهيزات تنفع في الجبال العالية. وفي الوقت نفسه. أرسل الرفيق الآخر ليحضر له منظارا مقربا وجهاز راديو بقيا في المغارة"¹⁰.

إنها اللحظة التي تتأرجح فيها المواهب المترددة بين الوفاء والخيانة. عند أومهرير. وهو رجل الاتصال الثاني الذي أرسله محمود. أخذ العزم الذي أبان عنه في اللحظات الأولى يتراجع : فقد غزت ذهنه الحسابات التي يوحى بها الخوف لذوي الطباع المتقلبة. عبّر حدود الجبن. ومحمود. ومن قبيل الاحتياط والحذر. كان دائما يبعث المناضلين السريين في جماعة تتشكل من فردين. فقد كان حذرهما المتبادل ضامنا قويا. وأما شيخ لهرون. الذي كان ولا شك يثق أكثر في فضائل التضامن القبلي. فقد ارتأى أن هذا الاحتياط غير ضروري. ولأن أومهرير بعث منفردا. فإنه ذهب مباشرة عند مساعد قائد السلطة بأملاكو. ووضع سلاحه مُعْتَرِفاً:

— لقد أرسلوني لقتلك. إنهم في بيت المقدم.

انتاب الفرع مساعد قائد السلطة. فالتصل في الحال بالقائد الممتاز لكلميمة ليطلب منه تدخل فرقة مسلحة. ولأن هذا الأخير لم يكن يملك العدد اللازم. فإنه اتصل بعامل قصر السوق. الذي كان في حالة استنفار بسبب الهجوم على مخزن الأسلحة بمولاي بوعزة. فأرسل له. على وجه السرعة. مَفَرَّةً من القوات المساعدة المتواجدة في الريش.

ويواصل رجل الاتصال الأول الذي أرسله محمود: "عندما وصلت عند مناضل سري بكلميمة. قدم لي هذا الأخير رفيقا من قلعة نكدوس سلمني أكياسا تحتوي على جلابيب وأحزمة وحفائب عسكرية. غادرت كلميمة يوم 4 مارس مساءً"¹¹. لن يصل رجل الاتصال إلى أملاكو. فقد تجاوزته في منتصف الطريق قافلة عسكرية. وعلى بعد أمتار من هناك. قطعت عليه سيارة دجيب بعد أن أطفأت أضواءها ومحركها. وُجِهَتْ إليه البنادق وسُئِل. تذرع بسوق الجمعة الأسبوعي ليبرر حملته. ولكن. وفي اللحظة التي كان يستعد فيها لركوب بغله. خائنه المنشورات الخبأة في طربوش جلابيه.

10 حوار للمؤلف مع علي أوسكونتي.

11 حوار للمؤلف مع علي أوسكونتي.

الاثنين 5 مارس. فيكيك

عند عودة ساعة إلى فيكيك. زاره يوم ثاني مارس رسول من الميد : "يريد الميد أن يراك. إنه ينتظرك في وهران".

ولأن موعد ساعة مع محمود كان مرتقبا بعد اليوم الموالي. فإنه قرر تأجيل رحيله إلى وهران. قال في نفسه إنه. ولو كانت الأسلحة والرجال على أهبة الاستعداد للدخول. فإن عليه أن يعيد ثانية الوقوف على الوضع في مجمله مع محمود. ولكن في اليوم الموالي. صدمه خبر الهجوم على مولاي بوعزة. وزاره شخصا في بيته ضابط متعاطف من القوات المسلحة الملكية ليحذره : "أخرج الرجال قبل فوات الأوان".

وفي خضم هذه الحيرة والارتباك. أرسل ساعة ضابطا آخر من القوات المسلحة الملكية¹². وهو عضو نشيط في التنظيم. إلى خنيفرة ليستفسر عن الوضع. ثم. أرسل رجلين ليتأكدوا من وضع المراقبة على الحدود. أفنعتهم المعلومات التي بلغته والتي تنذر بالخطر بضرورة إخبار القيادة العليا في الجزائر.

وحالما التقى ساعة الميد في وهران. عرض عليه الوقائع في عصبية :

— يجب العبور من طاولس. الحدود في فيكيك أصبحت خطيرة.

ولكن الميد لم يهتم كثيرا بوضع نقط العبور.

— أبلغني رسول من الرباط بأنك أصبحت مبحوثا عنك وعليك أن تغادر البلد.

حير هذا الطلب المفاجئ ساعة. فحاول أن يفهم. ورغم الأحاسيس المتناقضة التي استولت عليه. حاول أن يعالج الأمور الأكثر استعجالا:

— يجب الآن تأجيل العمليات الجارية لتفادي خطر الانزلاقات¹³.

اجتاح إحساس بعدم اليقين ساعة. فرجع إلى فيكيك في اليوم الموالي. خامس مارس. ليكتشف أن المنطقة غدت مطوقة والحدود مراقبة عن قرب. دخلت القوات المساعدة ووحدات الدرك الخاصة فيكيك وقلبت الأرض بالمجرفات لتكتشف العديد من مخابئ السلاح. تم حجز 39 سلاحا أوتوماتيكيا. منها 17 بندقية-رشاشة وعدة أكياس من الذخيرة. سوف يتعرف ساعة وسط ضباط الدرك على رجل لا يناسبه اللباس الرسمي لرجال الدرك. إنه رجل اتصال. أرسله قبل شهرين من ذلك اللوزي ليتعرف على الأماكن قبل دخول محمود ورجاله. الرجل عميل مزدوج. فهو قد أُنذر السلطات بدخول الثوار. وأما الموعد الذي لم يتم مع المسكي والذي اعتبر محمود أن سببه هو خطأ في ضبط التواريخ. فقد كان في الواقع محاولة أولى لإفشال العملية. بل إن ساعة يعرف الرجل. إذ في بيته وُضع جزء من حمولة الأسلحة التي أحضرها ساعة إلى الأطلس أيام كان مساعدا لقائد السلطة بكلميمة. ولكن الرجل الذي

12 الوزان بلقاسم. اعتُبر مختفيا منذ ذلك الحين.

13 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة. المعروف بساعة.

خُبِنَتْ عنده الأسلحة كان يملك من روح التجارة أكثر مما يملك من روح حب الوطن. فقد قاibus الأسلحة. بندقية مقابل عنزة. فأصبح يملك قطيعا من الماشية.

استشهاد ثوري

بعد أن حل الليل محل المساء، وصل الملازم أوعرجي إلى أميلاجو على رأس مفرزته. عند بداية الساعات الأولى من يوم 5 مارس. كان الملازم أحد قدماء جيش الاستعمار. وقد زادت رتبته في صفوف القوات المساعدة. وكما هو الشأن في فيكيك، كانت الوحدات التي أرسلت وحدات من القوات المساعدة ومن الوحدات الخاصة في الدرك. كان بيت المقدم بأملكو يجاور مكاناً صغيراً للحفر كان يتواجد به محمود ورفاقه. طُوق المكان في الحال. أخرج صوت أحذية الجنود المقدم من نومه. اعتقد بأنه يسمع صوت رجلي الاتصال اللذين ذهبا إلى المغارة. واللذين كان ينتظر رجوعهما منذ اليوم السابق. قام من فراشه وخرج. ما كاد يعبر عتبة منزله. حتى طوقه الجنود واقتادوه وأطلقت زوجة المقدم التي أيقظها الصوت الإنذار. وداخل البناية. كان يوجد محمود واثنان من رفاقه. سليمان العلوي وفريكس. استعد الرجال الثلاثة على التو لإطلاق النار. وفي رمشة عين. انتهوا للوضع. هناك من خانهم. وهم الآن قد وقعوا في فخ. لم يعد أمامهم أي منفذ ممكن. إن هؤلاء الرجال الذين تدربوا على الحرب والمستعدين للموت دفاعاً عن قناعاتهم. قد اكتشفوا الطاقة التي يأتي بها اليأس.

استمر القتال مع القوات المساعدة خمس ساعات قبل أن يُحسَم الموقف. ولأن الملازم أوعرجي كان يخشى هذا الموقف. فإنه حاول في البداية تجنب مواجهة مباشرة وذلك بتكليفه مستشارا في الجماعة. وهو مقاوم سابق. بأن يتفاوض مع المقاتلين كي يستسلموا. لم ينته الرجل بعد من سلسلة من الصيغ والتعابير التي تهدئ النفوس مُقرّة بها. حتى سدد نحوه محمود بندقيته :

— لديك عشر ثوان لتخرج من هنا إن كنت تريد البقاء حياً.

وما كاد المستشار الجماعي يدير ظهره حتى أطلق الحاربون النار على المهاجمين الذين فروا مبتعدين. فأمر عندها الملازم أوعرجي رجاله بأن يردوا في الحين على إطلاق النار. كان صوت البنادق-الرشاشة يمزق صمت الصباح. ويرفع سحابة من الغبار. بدأت الأشعة الأولى تضيء ذلك الصباح داخل ساحة الدار.

أصيب جندي إصابة مباشرة فسقط. رأسه أولاً. داخل الساقية (وهي قناة للري). جرح فريكس في ساقه. تزايد إطلاق النار وتصاعد دخان من داخل بيت المقدم: إذ بأمر من محمود. أشعلت زوجة المقدم النار في حقيبة من المال وفي الوثائق التي أعطتها لها.

وبينما الدخان ينفرج، فهم الملازم أوعرجي أن الجابهة المباشرة ستفشل لا محالة. كان فريكس متخندقا وراء نافذة في البناية. وكان يحمي رَفِيقَيْهِ، المتمرّكزيْن في شكل كمين في الخارج. فيمنع كل محاولة لتطويقهما. وبما أن الملازم ورجاله أصبحوا أمام ضربات قاتلة يسدها لهم محمود وسليمان العلوي، فإنه أحس بأن جنوده، الذين بدأت أعدادهم تتناقص، سيتعرضون لجزرة. ولأنه كان عازما على إنهاء المعركة قبل وصول المساعدات، فإنه حاول ضربَ المحاصرين من الخلف، فأمر رجاله بتسليق الحائط من الخلف. ولكن المحاولة فشلت. فقد تعرض رجاله إلى طلقات محمود وسليمان العلوي. ولما وقف الملازم على الخسائر التي تعرض لها، فهم أنه من الأفضل أن يُهدئ الموقف وأن يقتصد في الجهد. استغل محمود وسليمان فترة الراحة هذه، فرجعا إلى البيت. وما أن احتميا داخل البيت حتى ناشد محمود زوجةَ المقدم:

— نحن سوف نموت، ولكن أنتِ يجب أن تعيشي لأبنائك. خذي طفليكَ واخرجي، لن يحدث لك شيء.

وليتأكد محمود بأن المرأة فهمته فهما جيدا، طلب من سليمان العلوي أن يترجم لها هذا الكلام إلى اللغة الأمازيغية: إنها فترة توقف لن تدوم طويلا، فلما الآن وإلا فلن نكون هناك فرصة أخرى.. ترددت المرأة وغطت طفليها بيديها ووقفت أمام عتبة الدار. أمرها صوتٌ من الخارج بأن تتقدم نحوه. ولما وصلت إلى مستوى الرجل الذي كان يصبح فيها، وجدت أمامها جنديا شابا دلهما على الملازم أوعرجي بإصبعه:

— يريد أن يتكلم معك.

ولما اقتربت منه المرأة، سألتها مرهقا:

— كم عددهم في الداخل؟

فأجابته المرأة:

— رأيت منهم ثلاثة.

وبحركة بادية الضجر، أشار الملازم إلى جندي بأن يرافق المرأة حتى مكتب القائد المساعد. وهاهي زوجة المقدم تتذكر: "عندما دخلت المكتب، تواصل إطلاق النار". وفي السجن، وقبل تنفيذ حكم الإعدام في فريكس، حكى للمقدم آخر لحظات رفاقه. "على الساعة العاشرة، استجمع الملازم رجاله وهاجم ثاينة المنزل. تمركز محمود وسليمان العلوي خارج الدار. الأول شكّل كميناً وراء البئر، والثاني تموضع في خندق صغير. وأنا، ولأن ساقبي الجريحة كانت تمنعني من الحركة، فإنني كنت أعطيتهما بعد أن تمركزت خلف نافذة. جرح الملازم وكذا العديد من رجاله. وبعد ساعة، أصيب محمود إصابة قاتلة وسقط وراء البئر. جره سليمان العلوي إلى داخل البيت. ولأنه أصيب عدة إصابات، فقد مات بعد بضع دقائق عند مدخل المنزل. ولأن ذخيرتي نفذت لم يعد لي من سبيل للدفاع. فقبضوا أخيرا علي¹⁴".

عَبَّرَ الرجالُ من سكان القصر لجمع الجرحى والموتى. قُتِلَ خمسةُ جنود على الأقل. وَجُرِحَ زهاء الخمسة عشر¹⁵. ويتذكر أحد الجنود أن "عنف الاشتباك الثاني كان من القوة بحيث إن قائد (كومندان) القوات المساعدة قرر أن يرسل طائرات مروحية إلى أملاكو للهجوم على الحياً جوا. مما دفع الملازم أوعرجي. الذي رأى أن كرامته تفرض عليه أن يقضي على محمود قبل التدخل الجوي. أن يشن الهجوم الثاني أمراً بأن تُطْلَقَ النارُ بسخاء كبير¹⁶". ويتذكر التلاميذ القدماء بالمدرسة الابتدائية بأملاكو : كانت جثتا محمود وسليمان العلوي ممدتين لا تتحركان داخل قاعة الدرس الوحيدة. وعليهما غطاء. وفريكس. اتكأ على جانب آخر. تحت حراسة جندي. وقد نَزَفَ دمه. كان ينظر نظرةً فارغةً إلى الأفق. إلى ما وراء فتحة الباب الصغيرة.

نيران المنحدر

إن كان يمكن تصور الرحة. فإن آيت قدور وبنحبي والميد والفقيه البصري. وكلهم كانوا موجودين في الجزائر العاصمة. يمكنهم أن يشهدوا بذلك: اختلطت الشجاعة بالأنانية. واختلط الحلم بالعدالة بالانتهازية. والرؤية السياسية بالعمى الإيديولوجي. فأدى هذا كله إلى حركة وانتفاضة غير منظمة. يدل هذا الاندفاع على غياب تام للتنسيق. وصل عبد الرحيم بوعبيد. من جهته إلى باريس عند إطلاق أول رصاصة واستقر في بيت صغير في شارع موفطار قرب بيت المهدي العلوي. ويتذكر بنحبي أنه حَزَرَ في باريس بلاغا. بموافقة عبد الرحمن اليوسفي. يتبنى انطلاق العمليات باسم مجموعة ليست هي الحزب: "التقيت الطيب بناني على رصيف مهقى على هضبة مونمارتر. وحررنا معا بلاغا من بضعة أسطر. أُرْسِلَ على التو بالتليفراف إلى راديو طرابلس¹⁷". والنص الذي كان يحمل تاريخا سابقا والذي يحمل عنوان "بلاغ من مكناس". يعلن تبني العمليات باسم الجبهة الوطنية للتحرير. وبعد ذلك بقليل. استقل بنحبي الطائرة إلى الجزائر العاصمة.

وفي الجزائر العاصمة. كانت الساعة ساعَةَ الفرحة العارمة. وكما هي عادة الفقيه البصري دائما. فإنه وضع علاماته حتى تتوافق العملية مع أهدافه. فقد أرسل مبعوثين إلى مختلف العواصم العربية الصديقة ليطلب منها أن تجعل من مساندتها السياسية مساندةً ملموسة. ويتذكر شاهدٌ أن "البعض بدأ النقاش حول العلم الوطني والنشيد الوطني". لقد تحولت الثورة إلى استعراض حيث البراعة هي أن يسلك المرء الطريق حتى الصف الأول. ثم جلب الأسلحة والذخيرة مباشرة إلى الجزائر

15 لن تعترف السلطات سوى بقتيل واحد وثلاثة جرحى من جانب قوات النظام. العلم. 26 يونيو 1973.

16 حوار للمؤلف مع شاهد فضل عدم ذكر اسمه.

17 حوار للمؤلف مع محمد بنحبي.

العاصمة. وهاهو خالد يشهد: "لما وصلتُ من ليبيا يوم 6 مارس، وجدت نفسي في شقة وسط الجزائر العاصمة مع العديد من الرجال. كانوا كلهم قد تدربوا في ليبيا وكان الغرض من وجودهم هو تشكيل القوة الضاربة فيما يخص عمليات المنطقة الشمالية. كان هناك رجال آخرون نزلوا في إقامة بهيدرا. كان علينا جميعا الحفاظ على السر¹⁸".

وفيما يخص التعليمات التي تركها محمود عند ساهر، فإن خالد زارّه الميد وبنحى وأيت قدور. لم يعودوا يتحدثون عن ثورة وإنما عن عمل جريء بوجدة. تعددت اللقاءات بين خالد والفقير البصري. لم يخمد حماس خالد. ففي رأيه، لم تكن عملية معينة في وجدة يتبعها تراجع داخل التراب الجزائري إلا ضريبا من الحماقة الصرفة. وكما هو الشأن غالبا في مثل هذه الظروف، فإن القيادة، التي جرفت قوة الكلام، يستحوذ عليها إحساس أبله بالنصر فتستسهل الصعوبات التقنية. لم يكن حماسهم ليقبل بأن تقلل منه بعض الإشاعات المتشائمة التي تدق ناقوس الخطر. تحول قادة التنظيم في الجزائر العاصمة إلى مهربين للأخبار المغلوطة وقرروا مجزرة وهم يحلمون بالثورة.

ورغم أن خالد لم يكن بوسعته أن يُقيم الأوضاع على الميدان، إلا أنه كان يملك من الخبرة ما يكفي ليفهم بأن تسربا إلى التراب المغربي يستلزم قاعدة للتراجع في عين المكان لا في الجزائر. وإلا فإن القوات المسلحة الملكية لن يكون عليها سوى إغلاق الحدود بمساعدة الجزائريين لتوقع هؤلاء الرجال في الشراك. أكيد أن خالد رجل منضبط، ولكن الأوامر التي توصل بها من القيادة العليا لم تُرض الإيمان العميق الذي كان قد جعل منه ثوريا.

وأما ساعة، الذي تراجع إلى وهران، فقد طُلب منه هو كذلك المشاركة وذلك بتقديم تصاميم مفصلة عن مخابئ الأسلحة ونقط العبور. وهاهو يقول: "كنت أقول لهم وأكرر بأن المنظمة داخل البلد قد تسرب إليها المحبسون، وبأن الجيش بات على علم، ولكن دون جدوى¹⁹".

يبدو أن الأوامر كانت مختلطة مبهمة. مما يشهد على أن القيادة مزقة وميؤوس منها. ولأن ما تبقى من قيادة الثورة هذه تنقصه الوسائل الحقيقية، فإنه أصبح يبني ويشيد الأوهام. وبعد شهرٍ من انتظار غير مجدٍ، أخذ الرجال يشدون الرحال ويعودون إلى أوروبا.

وأما الهجوم على مدينة وجدة فلم يقع.

18 حوار للمؤلف مع محمد التوزاني. المعروف بخالد.

19 حوار للمؤلف مع محمد بن عمارة. المعروف بساعة.

الثلاثاء 6 مارس، سوننتات

لحق الفجر مجموعة النجار في نواحي سوننتات. بدأ الشفق يظهر في خجل. ينير ضباب الصباح الخفيف الذي يغطي الهضبة. وحولها. أخذت تضاريس الجبال غير الواضحة والمتغيرة تستعيد وضوحها كلما تلاشت آخر أشلاء الضباب. بعد أن سار سيرا سريعا النجار والصغير وسي إبراهيم وقائدا التنظيم في إملشيل وأحسوا بالتعب والإرهاق. فرحوا عندما بلغوا الهدف.

يوجد قصر سوننتات على جانب هضبة على علو يزيد عن 2500 متر. إنه واد واسع يتجه مصبه إلى إملشيل. وبعد أن أوى أحد المسؤولين المحليين رفاقه في بيته البسيط المتواضع. خرج ليتفقد الأمور. مرت ساعة. وعندما عاد ثانية قاد رفاقه إلى منزل آخر حيث كان ينتظرهم مناضلون سريون. عدّ النجار رجاله والأسلحة المتوفرة. ثم قرر أن يلتحق بالجبل الذي يعلو مركز إملشيل الإداري. إذ من ثمة. يمكنهم أن يتعرفوا على الميدان وينظموا المناضلين في فرق. وبينما المحاربون يتناقشون حول الهدف الذي يجب ضربه. (مركز القوات المساعدة بإملشيل). انتابت القصر بعض الحركة غير العادية. أرسل قائد الخلية أحد المناضلين الحاضرين ليستفسر عن السبب. رجع الشاب بعد دقائق :

— القوات المساعدة تبحث عنا.

انتابه رعب شديد ففر هاربا وتبعه العديد من الرجال الحاضرين. تموقع النجار ورفاقه لمجابهة كل هجوم وأرسلوا زوجة أحد المناضلين لتزودهم بأخبار أدق. عادت بعد وقت قصير لتخبرهم بأن اشتباكا قد وقع في أملاكو. قتل العديد من الرجال. واعتقل آخرون. لا شك أنهم باحوا بالأمر وأفصحوا عن وجودهم بإملشيل. كانت الزوجة خائفة مرعوبة. وبعد أن استوضح الصغير كلامها ببضع أسئلة بسيطة ودقيقة. حاول طمأنتها وأرسلها لتتحري حركات قوات النظام. وعند عودتها. وصفت لهم الأوضاع وصفا لا يبشر بالخير:

— عبأ مساعد قائد السلطة القوات المساعدة. وهو يستعد لتفتيش قرية سوننتات بعد أن فتش تنغيغاشت تفتيشا دقيقا. وقد تم اعتقال العديد من الرجال.

إن بقي المحاربون في سوننتات فلربما تم تطويقهم. وسوف تؤدي مواجهة داخل القرية إلى إهدار دماء كثيرة. قرر النجار أن يتراجع إلى الجبل. ولحسن الحظ. كان البيت الذي يوجدون به على طرف القرية. انسل النجار ورفاقه من باب خلفي. وخت شمس الظهيرة. أجهوا نحو الجبل. ما كادوا يسيرون كيلومترا واحداً حتى اقتفت القوات المساعدة أثرهم. ومن بعيد. أمرهم مقدم بالاستسلام :

— سلموا أنفسكم. نحن نطبق الأوامر رغما عنا.

إنها مفرزة من رجال القوات المساعدة المحلية، الذين كانوا على علم كاف بالتنظيم، فكانوا بذلك متواطئين معه رغما عنهم. ولكن النجار ورفاقه أطلقوا النار، فوجئ رجال القوات المساعدة فتفرقوا وكأنهم الجراد. كانوا مسلحين ببنادق بسيطة، مما كان يحد من قدرتهم على الدفاع والرد. مكنت دهشتهم وانكسارهم الفريق من الوصول إلى أعالي جبل أمالو سونتات.

ولكن الهدنة لم تدم طويلا.

وابتداءً من الساعة الرابعة زوالا، ظهر سربٌ من الطائرات المروحية في السماء الصافية معلنا وصول الإمدادات. وبعد بضع دقائق، حطت الطائرات في شكل نصف دائرة أسفل الجبل. ونزلت منها جماعاتٌ وجماعات من جنود قوات التدخل الخاصة، التي جاءت من قصر السوق ومن الريش.

وخلال ذلك الوقت، واصل النجار ورفاقه تسلق الجبل إلى أن بلغوا قمته، على علو يزيد عن 3000 متر. ومن هناك، باتوا يراقبون الوادي وكل جوانب الجبل. وعند نهاية النهار، بدأت الوحدات الخاصة هجومها بينما الطائرات المروحية خلق فوق المنطقة. ولكن كان من المستحيل إخراج النجار ورجاله من موقعهم. حاول الجنود عدة مرات الهجوم ولكن دون جدوى. فكان الثمن خسائر ثقيلة. كان سعيد أوتاما، وهو من أعيان السلطة المحليين، كان متواجدا حتى في زمن الحماية، هو الذي يقود عمليات القمع باعتباره مستبدا على علم بالأمور. ولكن، ولأنه طواع حماسه ونزوعه إلى القمع، استبق قدره ليلقى الموت على أيدي الثوار.

عندما بدأت الشمس نزولها خلف قمة الجبل، كانت مجموعة النجار لا تزال تواصل المقاومة، وهو الأمر الذي لم يكن متوقعا. أحس الصغير بأن هناك محاولة لتطويقهم، فاقترح مغادرة المكان. وحتى يكون لتراجعهم حظ من النجاح، كان عليهم أن ينتظروا حتى يحل الظلام وأن يقتصدوا في الذخيرة. وافق الثوار وكلفوا الصغير بأن يغطي بنيران رصاصه فجوة من الجبل تمكنهم من الوصول إلى واد جانبي. كان الجبل سلسلة من الأودية جعل كل إمكانية للبحث مكلفة ومرهقة، وبقليل من الحظ، يمكنهم الوصول إلى نقطة تراجع في المنطقة.

بيد أنه، ولحظة إخلاء المكان، لم يعد يُسمع أي شيء يدل على أن الصغير مازال على قيد الحياة. بحث عنه النجار بنظره، لم يعد يرى. اعتقد بأنه جريح، فزحف اتجاهه، لم يجده. وزيادة في الحيلة، قرر النجار ورفاقه الذهاب في الاتجاه المعاكس. عبروا ليلة باردة قارسة، مشوا حتى الفجر يلويهم البرد والجوع والعطش. وبعبدا، كانت صواريخ مضينة تطلق شهبا تضيء الجبل.

باتت المنطقة محاصرة. أخذت امدادات أخرى تتوجه إلى المنطقة انطلاقا من مراكش ووارزازات. عندما لاحت أولى أشعة الفجر على قمة الجبل، كان النجار ورفاقه

قد عبروا حوالي الثلاثين كيلومترا. خيم الصمت على مشهد طبيعي قهري يغلفه ضوء باهت، يبدو فيه أن الزمن قد توقف. لجأ المحاربون المنكسرون إلى كَفْرِ رُعاةٍ في مصب مرتفعات أمالو. اسم الدوار تاغيغاشت.

الجمعة 9 مارس، تنغير

زعزع خبر موت محمود الأطر الحارية بتنغير. إذ باختفائه. اختفى مصمّم مخططات الهجوم التي كانت تُكرر وتُعاد بصير وأناة منذ أسابيع. تراجع الثوار إلى تضاريس شِعَب التودرا منذ إعلان الهجوم على مَوَلاي بوعزة. وانتابتهم لحظة اختلطت فيها الأمور. كانت الثلوج تكسوا الجبل بكامله فغدا معزولا. لم يظهر سيدي حمو منذ ثلاثة أيام. وأما حسين آيت زايد. ساعده الأيمن، فإنه لجأ إلى مغارة مع عدة أفراد من قبيلته.

وهاهو أحد قادة الخلايا يتذكر: "أرسلوا رجلهم في الاتصال لتتفق على موعد في الجبل خلال الليل. أخذتُ سلاحِي والتحقّت بهم في المكان المحدد. كان الجو باردا ورطبا. وكانت الرياح قوية. كان ترتبٌ معين للأحجار على جانب الطريق يدل على وجودهم. أطلقتُ صغبرا فظهروا²⁰".

تبع ذلك نقاشٌ صاخب. كان بوزيان والعثماني. اثنين من رجال محمود. متحمسين للعمل في أقرب وقت. وأما رئيس الخلية، والذي كان يعرف أن عملا معزولا يمكن أن يتسبب في عمليات قمع. فقد عارض. وسانده في ذلك دحمان سعيد والجزار. وهما إطاران آخران من أطر حرب العصابات. كاد الخلاف ينقلب إلى مواجهة. فقد بوزيان والعثماني صبرهما. لم يعد الوقت وقت مناقشات ومشاورات. فحسّمت الأمر بقية الأحداث. ويشهد أحد المناضلين قائلا: "أخبرني فيما بعد أحد أقربائي الذي كان يساهم في عمليات البوليس بأن مفرزة من قوات النظام قد أجرت عدة إنزالات بتنغير دون أن جد أحدا. كان مصدر معلوماتهم الوحيد هو أومهرير. الخائن بأملأكو. والذي استفاد من بعض الأسرار التي باح بها اللوزي. وعلى إثر ذلك. جاء أمر من القيادة العليا من الرباط بإجاز عملية تفتيش أخيرة والعودة إلى عين شير لمراقبة الحدود. وخلال هذا التفتيش الأخير عثروا على آثار حسين آيت زايد وأخوين اثنين من إخوانه²¹".

وفي اليوم الموالي. أي يوم 10 مارس. على الساعة الخامسة صباحا. طوقت القوات النظامية المغارة. تبع ذلك اشتباك عنيف. انتهى بأن أصيب العربي. أحد أخوي الحسين آيت زايد. وأحد المهاجمين. إصابة مميتة. ألقى القبض أخيرا على الحسين آيت زايد في

20 حوار للمؤلف مع التوركي عدي.

21 حوار للمؤلف مع توركي عدي.

حين أن عمر. أخاه الثاني. استطاع الفرار. ولكن لم تدم الهدنة طويلاً: فقد لحق به مطارده بعد أسبوع من ذلك اليوم²².

وفي اليوم نفسه، التقى سيدي حمو ثانيةً بشعَب التودرا الحاربين الذين أصبحوا فريسةً اختلافاتهم. وبعد مداوَلات، اتفقوا على أن يذهب دحمان سعيد والجزار إلى أزيلال ليُكوَّنَا هناك فرقةً من المناضلين المحليين. وسوف يفعل الشيء نفسه بوزيان والعثماني والملكي وسيدي حمو نفسه فوق تنغير. وضرب موعدٌ بعد ستة أيامٍ للتحام الجميع.

وفي اليوم الموعد، اتصل رسولٌ من المجموعة الثانية بسيدي حمو. وبينما سيدي حمو ورجاله في طريقهم إلى المكان المتفق عليه عند نهاية النهار، مزق الجوُّ دويّ بِنادقٍ-رشاشة. إنه كمين. ارتدى سيدي حمو وبوزيان اللذان كانا يمشيان في المقدمة، ارتميا أرضاً فتفاديا وإبل الرصاص الذي هطل دون تمييز على طريق تكسوها الحجارة. رد الملكي والعثماني اللذان كانا في الخلف رداً آلياً. أصيب جنديٌّ كان مختبئاً إصابةً مباشرة. فسقط من على الجرف، انسل سيدي حمو وبوزيان من الجانبين ليتلقى المهاجمون النار من جهتين فيخففوا من قبضتهم. دام الاشتباك حوالي العشرين دقيقة، وفي النهاية انكسر رجال القوات المساعدة. قتل الضابط الذي يُسير القوات التي نظمت الكمين خلال تبادل النار، ففضل الجنودُ، الذين غدوا بدون قائدهم، التراجع. استغل سيدي حمو ورجاله هذا التقدم على الخصم، ففروا ولجؤوا إلى الجبال.

22 سوف يُحكَّم عليه بعشرين سنةً سجنًا في محاكمة القنيطرة.

الخارجون على القانون

الثورة اليتيمة

كان موحى أوالحاج أول ضحية لحماسة واندفاعه. إذ بما أنه لم يستطع إيقاف هجوم مولاي بوعزة الذي تسبب في انطلاقه قبل الأوان. فقد نزلت تبعات ذلك متسلسلة تسلسلا محتوما. إذ إن النداءات المتواصلة التي كان يوجهها بضوء السيارة لإنذار مجموعة النمري. أفرغت بطارية السيارة فتعطل محركها. جعله سوء حظه هذا يواجه واقعا معاديا لم يكن بعد يقيس مدى خطورته. وهاهو أحد رفاق ضربة الحظ العائر هذه يحكي: "عدت أنا وأمدة ورجلين من رجاله مشيا على الأقدام في حين أن موحى أوالحاج قرر أن يبقى في عين المكان ليمضي الليلة عند شيخ قرية مجاورة. كان ينوي إصلاح السيارة في اليوم الموالي"¹.

وعند عودة موحى أوالحاج يوم ثالث مارس إلى خنيفرة. كانت الأحداث على ما يبدو قد تجاوزته. وهاهو أحد المسؤولين المحليين يتذكر: "جاء عندي وحكى لي عن الهجوم على مولاي بوعزة ووضح لي بأن لا شيء تم العثور عليه. توسلت إليه أن يرحل ويختبئ في الجبال"². اعتقل موحى أوالحاج بعد يومين من ذلك عند الفجر.

عندما تفقد الثورة قيادتها تسقط وتنهار وسط ملحمة دموية غير منتظمة. يشهد أحد المحاربين قائلا: "بعد أن التحقنا بالنمري ورجاله. عدنا إلى الجبل بأكلموس نعمي. بالنسبة إلينا. كان كل شيء لا يزال ممكنا. ولم نعلم بموت محمود إلا بعد أن وصلنا إلى هذا المكان. صدمنا الخبر. غدونا وكأن الشلل أصابنا"³.

حل فجرٌ تسمه أجواء الجنازة على الجبل. بدا الموت الدامي لمحمود وسليمان العلوي بدايةً نهائيةً مأساوية. أصاب موت محمود الرجال في مصدر قوتهم. فقد كان محمود الشخص الذي عرف كيف يبعث فيهم الشجاعة والمثابرة.

كان على رفاق آخرين أن يؤدوا أغلى الثمن. ويضيف المحارب الذي لجأ من المغامرة: "كنا قد قررنا أن نتنقل إلى مرحلة العمل. نزل النمري ورجلان إلى خنيفرة وانتقموا قتلنا

1 حوار للمؤلف مع أحمد بويقيا.

2 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

3 حوار للمؤلف مع علي أمزيان.

من الشيخ النهماني. وجرحوا شرطيّين عند عودتهم. كان الرجل عميلاً محلياً للمخابرات التابعة لوزارة الداخلية. ولهذا كان اسمه يوجد على رأس لائحة بأسماء الخونة الذين كان من الواجب قتلهم توقعاً لقيام الانتفاضة⁴. ويوم عشرين مارس. انفجرت أربع قنابل بوجدة مستهدفةً بنايات إدارية. ثم تلاها في اليوم الموالي انفجاران بالناصور. إنها عملياتٌ تعبر عن التحدي. عمليات يائسة.

ناهت الثورة اليتيمة في الإرهاب. مع قتل الشيخ النهماني انفجر غضبُ العاصمة الرباط. فأرسلت على وجه السرعة وحدات من المظليين إلى اخنيفرة لتكثيف عمليات البحث. تضاعفت الاعتقالات. باتت أدنى وشاية أو شك كافيين لتختفي الضحية في سرايب مراكز الاعتقال التي أصبحت تعج بالمعتقلين. النمري وأمدة يتقاسمهما الأمل والشك وهما يترقبان علامات انتفاضة كان من المتوقع انطلاقها في المناطق الأخرى من البلد. ولكن كانت السلطة تنظم ردها وجوابها في كل مكان.

بدأ الرد في فيكيك بسبب وشاية عميل مزدوج. فاجتاحت المدينة وحدات خاصة جاءت من الريش لتدارك التواطؤ السلبي أو النشاط لعناصر القوات المساعدة المحلية؛ فاختطف عدة ضباطٍ بفيكيك. وبعد اخنيفرة وكلميمة وتغير ثم وجدة. سرعان ما أصبح البلد بكامله يطوقه الجيش والدرك. اللذان كانا في حالة استنفار قصوى.

الخميس 22 مارس، الدار البيضاء

يوم 19 مارس مساءً. اعتقل المهدي بالدار البيضاء. اعتماداً على أي معلومات؟ لا أحد يعلم⁴. دخل الرهان كذلك مصير رجل آخر. مصير رجل يصارع جلاديه. أنذر حركي سري. رأى المهدي قبيل اعتقاله بقليل. دهكون بالهاتف. فأمره هذا الأخير بجمع الأسلحة التي كانت في حوزة المهدي ووضعها في مكان آمن بعين السبع عند أحد أعضاء الخلية لا يعرفه المهدي. ولكن الخيانة لم تتوقف عند هذا الحد. وذهبت الجهود من أجل احتواء اعترافات المهدي المحتملة أدرّاج الرياح.

اعتقل دهكون يوم الخميس 22 مارس عند الفجر. لم يدخر الدليمي وسيلةً من أجل القبض على ذاك الذي يتحدى شرطته منذ أربع سنوات. أقفلت الشارع فرقة كاملة من رجال الشرطة وداهمت الشقة. ففاجأت القائد الثوري. وقد باح لي عباس⁵ بأن "دهكون اعتقل بالمفاجأة. لأنه كان مسلحاً وكان عازماً على أن لا يُعتقل حياً".

4 كان من اللازم انتظار شهر مارس من سنة 2002. ومع ظهور كتاب أحمد البوخاري السر (مطبوعات ميشيل لافون) لتصلنا رواية لربما كان هذا الاعتقال يرجع إلى مخبر تسرب إلى إحدى الخلايا. يدعى موحى. لربما اعتقل المهدي يوم ثاني مارس وأطلق سراحه بعد أن باح بكل أسرارهِ للشرطة التي أوقفت فيما بعد مفعول القنابل. ولربما وقع اعتقال المهدي نهائياً بعد أن استطاعت الشرطة تخديع مكان دهكون.

5 حوار مع المؤلف.

ويوم 22 مارس. وضع عباس تذكرة الطائرة داخل جيبه. فمِنذ يوم الخامس عشر من شهر مارس. كان من المفروض أن يذهب إلى باريس. وهاهو يوضح: "كنا نريد أن نطلب من القيادة تعليق كل عملية جديدة لأن خلايانا لم تكن بعد عملية".

كان عباس يجهل كل شيء عن اعتقال دهكون والمهتدي. وبما أنه رافع في الصباح في الرباط. فقد التحق بالدار البيضاء عند بداية الظهر. وقبل أن يواصل الطريق إلى المطار. حاول أن يتصل بدهكون: "ذهبت إلى شقة كنا نستعملها مقرا للنزول ومخبأ للأسلحة. بعد أن أرسلت ولدا ليتأكد بأن الطريق آمن. لاحظت بأن لا أحد يوجد داخل الشقة ولا أحد يراقبها".

فالشرطة لم تكن تعلم بعد بوجودها. وفي المطار. أخبر عباس شرطيا كان من رجال الاتصال بالتنظيم. تعرف عليه عباس لأن هذا الشرطي سلمه هو نفسه ظرفا من قبل الفقيه البصري بالمحطة الطرقية بالرباط منذ بضعة أسابيع. اقترب منه عباس وقال بصوت منخفض دون أن يدبر رأسه: "إن تم اعتقاله عند عبوري الحدود. أخبر باريس بذلك".

ولكن العبور مر بسلام. إذ لم تتسلم شرطة الحدود الإشعار بالبحث عن عباس إلا في اليوم الموالي. وفي هذا اليوم بالذات. تم اعتقال العديد من مساعدي دهكون بالدار البيضاء ووجدة. من بينهم الجدايني.

فبعد يومين من الزيارة الخاطفة التي قام بها الجدايني إلى وهران. يوم 9 مارس. توصل بحمولة من السلاح أرسلها الميد وكان يستعد للقيام بسلسلة من العمليات. ولكن الخيانة عملت عملها الحزب في صفوف الثوار. فقد تم اعتقال المناضلين الذين كانوا مستعدين للهجوم بالمئات. في وجدة والرباط والدار البيضاء وآسفي. حجز البوليس عشرات الكيلوغرامات من المتفجرات وأسلحة أوتوماتيكية وجوازات سفر بيضاء وآلاف المنشورات تدعو إلى الكفاح المسلح. لقد بات فشل الثورة أمرا لا جدال فيه.

السبت 24 مارس، مطار الجزائر العاصمة

من باريس. واصل عباس الطريق إلى الجزائر العاصمة ليصل إليها يوم 24 مارس. هو الذي أقسم على أن لا يصبح يوما منفيًا سياسيًا. ها هو في ذلك اليوم يبدشن منفيًا سوف يدوم عدة عقود. وفي مطار الجزائر العاصمة. كان له شرف أن تستقبله لجنة. إنها القيادة العليا التي كان خالد لا يزال صامدا في وجهها انطلاقا من شقته في الجزائر العاصمة. تتكون اللجنة من الميد وبنححي وآيت قدور.

كان الميد يملك رخصة مرور. فعبر حاجز الجمارك ليلتقي بعباس. ولكن هذا الأخير انتبه إلى إشارة بالرأس وجهها له آيت قدور وبنححي اللذان كانا وراء الحاجز الزجاجي

الذي يفصل الجمارك عن ردهة الاستقبال. أمام إصرار الميد لتحية عباس واستقباله. على غير عادته: تظاهر عباس بأنه لم يلحظ هذا الإصرار. وكذا وأبل الأسئلة التي بادره بها. لاذ عباس بالصمت. في الحقيقة، لم تكن الإشارة الخفية التي وجهها له آيت قدور وبنحجي هي الدافع الحقيقي لموقف عباس. فقد كان من طبعه أن يلزم الحيلة والحذر. بل بالعكس، كانت هذه الإشارة دلالة على بداية الخلافات في الجزائر العاصمة.

انطلاقاً من المطار، وطول الطريق التي قادت الجماعة إلى المكان المنشود، واصل الميد تحقيقه غير المجدي. وهاهو عباس يتذكر: "في المساء، التقينا حول مائدة عشاء بفيلا الفقيه البصري بالبيار. إلى جانب الفقيه البصري، كان هناك آيت قدور وبنحجي. لم يكن الميد حاضراً⁶".

وخلال وجبة العشاء، رن جرس الهاتف. على الطرف الآخر من الخط، عضوٌ من التنظيم في وهران يخبر باعتقال دهكون واعتقال عباس. فقد أعلنت عن هذين الاعتقالين وزارة الداخلية المغربية. كل الأنظار توجهت نحو عباس، تنتظر جوابه: — ما الذي سوف تفعله الآن؟

لم يكن السؤال البتة اعترافاً بالعجز بل هو تشجيع على مواصلة الكفاح. إذ لم تستطع الأوضاع الخطيرة على الميدان، والتي قلما كانت تصل عنها أشلاء أخبار إلى الجزائر العاصمة، ولا سداجة أوامر القيادة العليا التي كانت تعمي بصرها يقينيات. لم تستطع أن تقلل من النشوة التي كانت تحرك الثوار. بل على العكس، فإن هذه الأمور لم تكن تزيد الثوار إلا عزمًا على أن يواصلوا المشوار تجاه احتضار مجهول.

بيد أن وزير الداخلية في المغرب نشر في وسائل الإعلام صورة محمود حتى يبين لأنصار محمود أن قائدهم قد مات. مُنِعَ الاتحاد الوطني للقوات الشعبية-الرباط في اليوم الموالي للهجوم على مولاي بوعزة. واعتُقل كل أعضاء اللجنة المسيرة. اعتُقل ثلاثة عشر محامياً منهم اليازغي وعمر بنجلون والسيء الحظ توفيق الإدريسي الذي سبق أن برأته منذ وقت قصير محكمة مراكش. وحده عبد الرحيم بوعبيد، الذي غادر المغرب في الوقت المناسب، أخذ ينتظر بقية الأحداث من باريس.

ولكن النصر، في نظر المتواجدين بالجزائر العاصمة، كان أقرب من أي وقت مضى. كانت مجموعات مسلحة أخرى على أهبة الاستعداد للدخول إلى المغرب. بعد أن هُدم روع عباس عندما غدا متيقناً بأن النصر سيتحقق في آخر المطاف، عاد إلى باريس متخفياً بهوية جديدة. ومن فرنسا، أرسل بعض الأموال إلى شبكته في الرباط. ثم رحل إلى ليبيا ليتلقى تدريباً عسكرياً.

تاغيغاشت

دخل فريق النجار إلى تاغيغاشت يوم 9 مارس عند الفجر. استقبل السكان المحاربين بحماس يشوبه بعض الخوف. فقد عبّر خبر اشتباكهم الوادي. اجتاحت الساكنة فرحة عامة عندما علموا بموت ذاك الذي يسمونه "الخائن"، سعيد أوتاما. ولكن كانت الفرحة قصيرة. ففرحة الفلاح في هذه المناطق النائية، لكثرة ما اعتاد على التعب والحزن. لا تدوم طويلا. كان الانطباع في هذا التجمع السكاني الجبلي الصغير. وكأن به شيئا لا ينتمي إلى الواقع. وكأن الزمن توقف. وعَلِقَ بقدرٍ متردد. أوى السكان المقاتلين وأطعموهم.

انفجرت كبرى بنات أحد المقاتلين. وزوجة ابن رب البيت. انفجرت باكياً عندما رأت أباها. فقالت له وصوتها يخنقه الخوف:

— مَنْ الذي سوف يعتني بنا إن أنت قُتلت؟ يجب أن تضع سلاحك الآن.

وأما المحارب الذي حدث إليه ابنته. والذي تميز بشجاعة في القتال لا تشوبها شائبة. فلم يقاوم إلا جاهدة خوف ابنته وقلقها. فتكلم أحد الرفاق بدل الأب المحارب الذي كان يشعر باضطراب شديد منعه من الكلام. شرح بكل هدوء للفتاة الشابة بأن الوطن هو كذلك عائلتها. إنها عائلة كبيرة يجب حمايتها من الاستبداد والبؤس. واستشهد في سياق حديثه بشجاعة نساء الفيتنام البطولية. بدا أن الحديث الذي يفيض إيمانا قد فعل فعله. إذ تراجعت الفتاة الشابة. ثم استسلمت للأمر في صمت.

بيد أنه أخذ النجار ورفاقه يستوعبون تدريجيا صعوبة وضعهم. فقد منع عنهم اشتباك سونترات التواصل مع قواعدهم اللوجستكية وباتوا لا يعرفون شيئا عن الصغير. بل إنهم بعد القضاء على مجموعة محمود. باتوا بدون قائد. وخلال هذا الوقت. كانت القوات المسلحة الملكية معززة بالوحدات الخاصة التابعة للقوات المساعدة والدرك الملكي. كانت جوب المنطقة. عبأ الشيوخ والمقدمون المحليون السكان ووعدوهم بالهدايا والجزاء. فنظموا المطاردة. ولأن الجيش علم بمدى تسلح المحاربين وبعزمهم. فإنه تفادى المواجهة وأرسل السكان المدنيين جاعلا منهم دروعا بشرية. أكيد أن العديد من هؤلاء تظاهروا بالبحث والتفتيش. ولكنهم يُحوّلون أنظارهم في اللحظة المواتية. بل إن منهم مَن كان يخرج مساءً لتموين المحاربين بعد أن تظاهر بالتفتيش عنهم نهارا. ولكن ومع مرور الوقت. انتصرت أكياس المساعدة الأمريكية من الدقيق وعروض الحج والتمدرس. انتصرت على ساكنة كانت حتى ذلك الحين. إن لم نقل متعاطفة. فإنها كانت على الأقل غير مبالية.

إن فقر تلك الساكنة ماديا جعلها رهينة طيعة للسلطات العسكرية. إنهم أناس لا يمانعون في القيام بأشد الأعمال صعوبة وعناء. فكانوا بذلك أفضل الجنود المنذرين للموت.

أوقف الدخول المفاجئ لإحدى بنات رب البيت ما كان يخالغ النجار من أفكار.
قالت دفعةً واحدة :

— وصلت شاحنة مملوءة بالجنود إلى القرية. هم يفتشون كل البيوت ويعتقلون
مناضلي الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

وبحركة واحدة، أخذ المقاتلون أسلحتهم واستعدوا لإطلاق النار. وفي الوقت
نفسه، طلب النجار من سكان المنزل أن يتصرفوا كعادتهم يومياً. دام الانتظار ثلاث
ساعات. لم يحدث شيء. فالمنزل الذي يسكنونه لم يداهم الجنود لسبب بسيط هو
أن مضيفهم ليس عضواً في الحزب.

وهذا معناه أن وجبة العشاء كانت إحدى أذى الوجبات وأمتعتها. فقد هُنت
أحر التهاني تلك الفتاة الشجاعة التي أنذرت بالخطر. فالسمن كان مذاقه
لذيذاً. لم تكن الوجبة وليمة ضخمة. ولكن بالنسبة إلى النجار ورفاقه، كان
الأمر أقرب إلى الوليمة. وبعد الانتهاء من الوجبة، اتفق المحاربون على التراجع
إلى أزغار.

توسط أزغار الطريق إلى أغبالو، وبها قاعدة لوجستكية تابعة للتنظيم وكذا
مالٌ ومعدات. وبعد أن جمعوا الطعام الذي يكفي لحاجتهم خلال الطريق، غادروا
تاغيغاست على الساعة الثامنة مساءً قَبِيلَ حظر التجول بقليل. وصلوا بعد اليوم
الموالي إلى أزغار بفضل تواطؤ بعض سكان المنطقة. وعلموا أن المسؤول المحلي عن
التنظيم، سعيد أميدو، قد قُتل في بيته انتقاماً للجنود الذين قُتلوا في سونتات.
شن الجيش غزواً حقيقياً على الساكنة. فتعرضت زوجته وأطفاله والعديد من سكان
القصر إلى الاغتصاب والتعذيب.

بعد الاستحواذ على أزغار، اضطر المحاربون إلى مواصلة السير حتى بلغوا
أيت هاني. قادتهم أقدامهم التي أعياها الجهد إلى أبواب قرية منكوبة. تراءت لهم
الحوانيت مقفلة والأزقة مهجورة يكسوها بؤس صامت. كان الخوف يخيم على
المكان.

اعتقل جل الرجال وكانت الأبواب توضع عند اقترابهم. ولأن المحاربين فقدوا الضيافة
التي كانت تلقاهم حتى ذلك الحين، فإنهم ساروا في طرق خفية، ضاع وقع خطوهم
وسط الوديان، تاهوا وسط لامبالاة المكان.

معاينة الفشل

عند وصول النجار ورفاقه إلى تنغير، بعد مرور ستة أيام، وبعد سير لا هوادة فيه،
علموا بأن شبكة التنظيم قد تلقت ضربات مفاجئة. لم يعد بالإمكان العثور على

سيدي حمو. والمناضلون. وحتى عائلاتهم. كانوا يُعْتَقَلُونَ بالمئات. كان النجار ورجاله يشعرون بإنهاك شديد. كان البرد القارس يمزق أرجلهم ويجمد أعضائهم. كانوا يحسون بعطش شديد. فقرروا أخذ قسط من الراحة في الجبال فوق تنغير متسترين بالأشجار عساها تصد عنهم عمليات التفتيش التي يقوم بها الجيش وجولات الطائرات المروحية. سلمهم متواطؤون من تنغير عشر كيلوغرامات من الدقيق. وأربع كيلوغرامات من التمر وبعض السكر. بالنسبة إلى المحاربين الذين لم يعيشوا حتى ذلك الحين إلا على قَصَمِ النباتات القليلة في الأطلس الكبير. فإن ما توصلوا به يساوي وليمة.

بين الفينة والأخرى. كان اثنان منهم ينزلان إلى الوادي قرب النهر الصغير لِيَحْضِرَا الخَبَرَ وليأتيا بالماء لإعداد الشاي. لا تُشْعَلُ النار إلا عند طلوع الشمس وعند غروبها. عندما تُصْفَى أشلاء الضباب ضوء الشمس. فلا تُرى إلا أشكال غير واضحة. وزيادة في الاحتياط. كانت النار تُشْعَلُ عند الفجر بأخشاب يابسة لا تنفث إلا دخانا قليلا. وبخشب رطب في المساء حتى لا يخرق ضوء النار ظلام الليل.

ولكن المقام في الجبال وتعداد ساعات انتظار لا يقين فيها لا يمكن أن يدوم. إن النجار ورجاله تكونوا على تحقيق المستحيل. ولكنهم لم يكونوا حتى تلك اللحظة قادرين على الاعتراف بحقيقة الأمر. إلا أنهم بدأوا يحسون ولو إحساسا غامضا. بأنهم قد بلغوا الحدود الحاسمة لما يمكن أن يتحقق. وها هو الموت الذي لم يعد بعيدا يجابههم بقدرهم المؤلم. بل أصبح واقعا أنيا محسوسا. إنه تعسفي حكمي. يقرر مصير كل واحد ولا يأبه بالعلاقات التي تجمع بينهم. ظهر الألم المتمزج بالغضب في شكل اشمزاز عميق. مع رحيل محمود. رحل جزء منهم هم أنفسهم. لم تعد هناك ابتسامته المواسية التي كانت تعرف كيف تطرد التخوفات. لقد نضب ذاك اليقين الهادئ الذي عرف كيف يلقيه لهم. إن الأشياء البسيطة التي يتشبث بها المرء عادة حتى يستطيع حَمْلُ الاضطراب والقلق. قد تاهت وسط ظلام الليل في ذلك المكان الذي تستحوذ فيه العزلة المعنوية على العقول.

ما الذي يستطيع أن يفعله احتقار الخطر عندما تنجرف القناعات؟ أحس المحاربون بأن ثقتهم بدأت تنزعزع بعد أن أخذ الشك يخنقها. كانت الأمسيات الطويلة تخصص لتحليل وضعهم تحليلا سياسيا: إنه تعبير لطيف قليل أمام معاينة بديهية. إذ بما أنهم فقدوا مفعول المفاجأة. فإن هجوما ولو غير منظم على مخابئ السلاح محكوم عليه سلفا بالفشل. وأما المناضلو الخلايا السرية الذين انتظروا أسلحتهم. إن لم جرفهم حملة الاعتقالات. فقد اختبأوا تحت التراب. كما هو شأن ساكنة استسلمت إلى الخوف. كانت الجبال مطوقة بجولات دائمة لطائرات الهليكوبتر. والطرق داخل الوادي تعج بالحواجز العسكرية.

فأينما شك الجيش والقوات المساعدة في وجودهم إلا وعبأوا الساكنة لتفتيش

الجبال المجاورة. فيصبح المحاربون بدون سلاح وبدون رجال. يلويهم البرد والجوع والأمر القاطع بعدم إطلاق النار على المدنيين. يصبحون رجالا مطاردين. فبعد أن كانوا ثوارا، أصبحوا خارجين على القانون. نجاتهم في هروبهم. على بعد عشرات الكيلومترات من هناك. فرضت المعايضة نفسها ذاتها على أمدّة والنمري وسيدي حمو.

استشهاد رجل رَفَضَ الخضوع

وكما هو شأن سيدي حمو فوق تنغير. سقط فريقا النمري وأمدّة في كمين. فقد اعترف أحد رسلهم بعد اعتقاله وتعذيبه بمكان قاعدة للتموين. كان الاشتباك عنيفا. ولكن القوات المساعدة التي كانت لها معلومات خاطئة عن مستوى تسليح الثوار وعن عددهم. فوجئت. مات العديد من الجنود. في حين أن المحاربين فقدوا رجلا واحدا وهو نشابي الذي قتل نفسه بعد أن جرح حتى لا يقع حيا في أيدي القوات المساعدة. أصبح المحاربون في انخيفرة مرغمين على الاكتفاء بالدفاع. فأخذوا يفكرون في منفذ. اتفقوا جميعا على أن يعبر النمري إلى الجزائر للحصول على الدعم والذخيرة. وسوف ينتظر أمدّة عودته في الجبال مع حوالي الخمسة عشر رجلا. وبالنسبة إلى النمري ورجاله وهم صبري وأسكور وآيت عمي وبالعمراني وبعض من الرجال الأوفياء. فقد بدأت بالنسبة إليهم رحلة دموية مأساوية. دخلوا في اشتباك ثان يوم 6 ماي بأجدير. فأصبحوا مطوّقين وقلت ذخيرتهم. فلم يستطع النمري ورجاله رغم شجاعته أن يفعلوا شيئا لمواجهة وحدات القوات المساعدة الكثيرة العدد. ولكن. وكما كان الشأن في أملاكو وأسول. فإن الوحدات الخاصة اصطدمت بعزم المحاربين : ضحى أسكور بنفسه من أجل أن يغطي هروب رفاقه. تم تطويقهم. وقاوم مقاومة عنيفة. تقدّم الجنود. وألحق بهم خسائر ثقيلة. وبعد أن نفذت ذخيرته. شرب سم الزنيخ فمات. وبينما رفاقه يبتعدون. عاد الصمت ثانية وفق إيقاع نفسه الذي أخذ يخفت شيئا فشيئا ليتوقف عند بداية غروب جديد. وهكذا لفظ أنفاسه الأخيرة. وعندما اقتربت من مخبئه خطوات المهاجمين. الذين حيرهم أمر هذا التوقف المفاجئ في إطلاق النار. كانت الشمس تنهي غروبها في الأفق لتختبئ هي كذلك. تاركة الظلام يغطي آثار تراجع النمري ورجاله.

وهاهو أحد المحاربين الذي وقع بين أيدي القوات النظامية في اليوم السابق يتذكر: "في اليوم الموالي لاعتقالي. عرض علي جسد أسكور". فسأله ضابط في القوات المساعدة وألح في السؤال كاشفا عن اندهائه من هذه الشجاعة الاستثنائية لهذا المحارب: "هل تعرف هذا الرجل؟" ويتذكر أخوه في السلاح الذي كان رهن الاعتقال: "لم

تكن عليه أية علامة لإطلاق النار ولم تكن أنارَ على وجهه“.

بعد تضحية أسكور بقليل، لحق بالنمري ومجموعته مطاردهم قرب أميسور. في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه لبلوغ الحدود. ويتذكر السجين السابق قائلا: “يومان بعد أن عرض علينا الضابط جثة أسكور. كان هذا الضابط يقول فرحا: — لقد ألقينا القبض على الحاج (لقب النمري). سوف يدلي لنا بكل ما لا تريد أنت أن نقوله⁷.

وبالفعل فقد أُلْقِيَ القبضُ على النمري وصبري. ولكن كلاهما كان يحتضر. فكما هو شأن أسكور. شربا سم الزرنيخ الذي كانا يحتفظان به معهما توقعنا لمثل هذه اللحظة البئيسة. كان النمري بين الحياة والموت. عندما حطت به طائرة مروحية بمستشفى اخيفرة. فواصل معركته الأخيرة. كانت نظرته القوية الكثيفة تتبدل تدريجيا كلما غادر بريق الحياة عينيه لتتجمدا بعد أن اصفرنا وهما خدقان في الفراغ. مات النمري قبل هبوط الطائرة. في حين أن صبري. الذي كان مصرا على الموت هو كذلك. كان بالإمكان إنقاذه بعد أن غسِلت معدته. لم تكن العملية عملية إنقاذ. بل كان الهدف منها تمديد مدة احتضاره تمديدا وحشيا. وهذا بالضبط ما كان صبري يريد الانفلات منه.

بعد أسبوعين من ذلك. قُبِضَ على آيت عمي وبالعمراني. العضوين الأخيرين في رحلة النمري اليائسة. بعد أن أنهكت قواهما. قُبِضَ عليهما في تالسينت. على بعد أربعين كيلومترا من الحدود الجزائرية.

شريف الأطلس

لحق القدر مجموعة سيدي حمو قرب تونفيت. بعد شهر من التيه في جبل تكسوه الثلوج بنواحي ميدلت. قادتهم خطواتهم إلى ما وراء سلسلة جبل المويسكر التي يغطيها الثلج. على بعد مائة وخمسين كيلومترا من تنغير. على سفح الجبل كانت توجد تونفيت. وهي قرية صغيرة توجد بين سلسلة جبلية عارية وهضبة جافة تمتد إلى ما لا نهاية له وتتحول أحيانا إلى منتجع قطعان السهل. وحدها طريق غير سالكة تربط القرية بباقي البلد. عندما لا تكسوها الثلوج كما يكون حالها عدة أشهر في السنة.

كان سيدي حمو ورجاله يوجدون في الغابة الصغيرة التي تعلو توفيت. ومن هناك شاهدوا وصول تعزيزات هامة من الجيش. مرت ثمان عشرة شاحنة أمام أعينهم. وقد سارت في الطريق الوحيدة التي تمتد أسفل المكان الذي لجأوا إليه. وفوق رؤوسهم. نبههم إلى الخطر دوي طائرات الهليكوبتر المتزايد. المروحيات خلق على علو مرتفع

فلم تنتبه لوجود الرجال تحت الأشجار. ولكن سيدي حمو ورجاله لا يستطيعون أن يفلتوا من مراقبة الجنود على الأرض. ولأن المجموعة كانت تعلم بأن الساكنة سوف تُعبأ من أجل البحث عنهم، فإنهم قرروا التراجع مستغلين الفوضى الناجمة عن الارتباك العام الذي انتاب الساكنة. خلق سيدي حمو ورجاله فجوة فانسلوا وسط الظلام يُطاردهم صوت الرصاص والأوامر بالاستسلام:

— سَلِّمُوا أَنْفُسَكُمْ !

ارتبك الملكي هو كذلك. غاص رفاقه وسط الغبار الذي تطاير بعد الاشتباك القصير فغطى سريعا القرية. تاه لأنه سبق الآخرين.

وخلال هذا الوقت، تقدم رفاقه حتى وصلوا إلى نهر بجوار القرية يجري فيه الماء بقوة. كان بوزيان والعثماني قد وصلا إلى وسط النهر، والماء يغطي صدرهما. عندما وُجِعت نحوهما أضواء مركبة على شاحنات عسكرية. وعندها كنست طلقات السلاح الأوتوماتيكي وادي النهر. أطلق سيدي حمو، الذي كان متخدقا في الضفة المقابلة، النار في اتجاه الأضواء الساطعة. أسقط على التو أربعة جنود، فانطفأت الأضواء في الحال وتراجع المهاجمون.

استغل بوزيان والعثماني تحويل الأنظار هذا، فحاولا عبور النهر من الجهة العليا. ولكن خانتهما الحظ وهما يهربان مرتبكين دون وجهة محددة. فما كادا يصلان إلى الضفة الأخرى ويسيران زهاء المائة متر، حتى وجدا نفسيهما مَطْوقين. خرج الجنود من كل الجهات في حين كان الضابط يصيح زاعقا بالأوامر. أرغم واقع الضياع والتعَب بوزيان والعثماني، اللذين أنهكت قواهما بعد فرار لا نهاية له، على وضع السلاح.

وأما سيدي حمو، فقد اختفى في الليل. إنه مَدِينٌ في بقائه حيا إلى صدفَةٍ سعيدة. خلال هروبه، لجأ إلى مجموعة من البدو الرحل. أراد أن يوهمهم بأنه شريف يطلب صدفه. كانت الخيلة واهية. تعرفَ عليه البدو الرحل، فأطعموه وآووه، ثم وضعوه تحت حمايتهم. وبفضلهم، استطاع سيدي حمو، بعد مرور بضعة أيام، أن يعثر ثانية على أثر للملكي.

لم تعد هناك أي محطة قطار أو مكتب بريد أو محطة حافلات لا يوجد بها إعلان البحث عن سيدي حمو. كانت الشرطة على أهبة الحرب. كانت تقوم بإنزالات مفاجئة في ساعات مختلفة من النهار والليل عند كل مَنْ يمكن أن يُؤويه. دون جدوى. بدأ ميلاد أسطورة. وذات مساء، وإبان إنزال مفاجئ عند زوجة سيدي حمو بتغيير فرح العميد الذي يقود العملية فرحا كبيرا؛ كانت خيط بالطاجين الساخن قطعان من الخبز في حين كانت الزوجة وحدها داخل غرفة الجلوس. صاح العميد جَدَلًا فرحًا، كما هو شأن القناص المقبل على اصطياد الفريسة:

— أين هو؟ أعرف أنه كان هنا يأكل معك.

فأجابته الزوجة بثبات:

— نعم. ألم تروا قطا أسود ينزل الدرج وأنتم صاعدون؟ فأجاب العميد. منزعجا من هذا الحديث عن قط أسود لا أهمية له كان مذعورا من دخول رجال العميد المفاجئ:

— بكل تأكيد.

فقالت الزوجة:

— إن سيدي حمو هو ذلك القط.

غذت المجهودات الفاشلة لقوات البوليس التي تلاحق سيدي حمو الكثير من الإشاعات التي انتشرت في البلد بكامله: سيدي حمو شريف له بركة التحول إلى قط. بعد مرور عدة سنوات. وعند عودته من المنفى. وعندما سألته صحافي عن صحة هذه الأسطورة. أجاب بكل بساطة: "نعم. إنها حقيقية". وعلى وجهه ابتسامة مرحة. قبل أن يوضح للصحافي الذي لم يكن يصدق: "عندما يملك المرء حب الشعب. فإن كل شيء يصبح ممكنا. زد على ذلك. أن قدرات الشريف هي قدرات تدفع كل من سولت له نفسه الخيانة".

بعد أن التقى سيدي حمو والملكى ثانية. كان أول ما فعلاه هو الالتحاق بأمدة في اخنيفرة.

كانا يمشیان ليلا. وينامان نهارا. مختبئين في بعض الأضرحة المعزولة. كانت وحدات القوات المساعدة التي تطاردهما لا تنصور أنه بالإمكان قطع هذه المسافة مشيا على الأقدام. وبما أن المنطقة بين تونيفيت واخنيفرة منطقة تعرف الغليان. فإن سيدي حمو والملكى مرا بتدالة ثم بني ملال. يعيشان عيشة الرحل ويقفان من الطعام القليل الذي يعطيه لهما فلاحون يتظاهرون بعدم التعرف عليهما.

العودة إلى بني ملال

غشي الضباب عينيه. ثم أغمي عليه. إذ نظراً لشدة الارتفاع. فقد الصغير الوعي في حماة الاشتباك بجبل أسول. عندما عاد إلى رشده. كان الليل قد حل. اجهت أول نظرة منه إلى بريق النجوم التي تضيء السماء. من حوله. كانت صواريخ مضينة تنبر القمم في الأفق. شيئا فشيئا. بدأت الأمور تتضح له. لقد بدأت المطاردة والجيش يجري وراءه. لم يعد يرى النجار ورفاقه. وبكل حيطة وحذر. غادر المكان متفاديا حركات القوات المسلحة. تلا النهار الليل. اختبأ في ملجأ حרב. وفي المساء. عندما هدأت الحركة. وانتشرت الظلال. واصل السير. عاش الصغير هكذا ثلاثة أيام دون أن يأكل شيئا. وفي اليوم الرابع. جرفته مياه النهر التي حاول أن يختبئ فيها ليصل إلى الوادي. كانت الثلوج لا زالت تغطي جزء من النهر.

بلغ الضفة الأخرى بعد جهد جهيد. وبعد أن وظف طاقةً تفوق طاقة البشر. أنهكه الجوع والتعب. فسلم أمره للأقدار. اتجه الصغير حينها إلى مسكن يتعالى منه نباح كلب. استقبله رب البيت. وآواه وقدم له طعاما. فقد مضت أربعة أيام لم يذق فيها طعاما. سألته الرجل دون إلحاح. حاول الصغير أن يرثل الإجابات. ادعى بأنه جندي لجأ من انقلاب الصخيرات ولجأ عند عمته. أعطى تفاصيل عديدة عن المنطقة التي يعرفها معرفة جيدة.

فسأله مضيفه بعد أن أنصت إليه في غير انتباه: "لماذا تخبني عني الحقيقة؟ أنت محارب. لا تخف. فلن أبلغ عنك." شعر الصغير بأنه من غير المفيد أن يواصل الإنكار. فالرجل يده بالموونة ويعطيه معلومات عن المنطقة. فاجه الصغير إلى بني ملال. غدت مدينة بني ملال نقطة تجمع الحارين المعزولين الذين أصبحوا يواجهون بدهاء فشلهم. كانوا يقطعون ليلا مئات الكيلومترات. مشيا على الأقدام. كانوا يسبرون في صمت. سرا. فالحيطة والحذر من الأمور الغريزية. يقتاتون في الطريق بفضل حيل عدة.

إن كانت الأراضي واسعة فسيحة. فإن محيطهم بخل عليهم بالموارد. إذ جعل من استضافة السكان لهم قاعدة مقدسة هي وحدها التي تضمن لهم معيشتهم. ولكن في هذه المنطقة ذات الحدود المجهولة وذات الأبعاد غير الواضحة. فقد كان الخوف من المجهول دائم الحضور. كثيرون أولئك الذين قدموا إليهم يد المعونة. ولكن عددَ الرافضين أخذ يتزايد كلما تقدموا. وأصبح بقاؤهم رهين استراتيجية التفادي والاحتجاب التي يتميز بها البدو الرحل. وغالبا ما يزعمون بأنهم من الرعاة. ولكن الاحتياط لم يعد ذا جدوى. بات فلاحو المنطقة يعرفون هويتهم. وأصبح ظلام الليل هو المتواطؤ الوحيد معهم. وغدت الظلال آخر ملاجئهم. وأما الأضواء التي كانت في السابق تبشر باستضافة جود بها الأقدار وبوجبة هادئة ساخنة. فقد أصبحت كلها علامات تدل علي شَرَك يتهددهم. وأمسى الأفق. مصدر خطر محدد. إذ يمكن أن تظهر منه فجأة مفرزة من الجنود مسلحة.

ورغم كل الاحتياطات. وقعت بعض الاشتباكات كما كان الشأن في بوزينور حيث لجأ النجار وسي إبراهيم بأعجوبة بعد تبادل دموي لإطلاق النار مما دفع مطارديهم إلى التراجع.

ماي 1973. اللقاء في بني ملال

وأما الصغير. الذي كان يمشي مترنحا. وقد جمد وجهه من الأرق ومن التعب. فقد استطاع أن يلجأ إلى آيت أقبلي قرب سوق العربة بنواحي بني ملال. تاه في مسيرته

أياما وأياما. وتاه عن الطريق مرات عديدة بسبب الثلوج. كان الرجال الذين يسألهم عن الطريق ينظرون إليه نظرة ربيّة وشك. لا شيء يفضحه أمام أعين المتطفلين اللهم هدوءه وثباته في منطقة توجد تحت حظر التجول. واستطاع الصغير، بفضل حيله الكثيرة، أن يُبقي المتطفلين والأعداء بعيدا.

حتى ذلك اليوم عندما انتهى من وجبة أكل دعي إليها رأى أنه من البلاهة رفضها. فوجد نفسه وجها لوجه مع مُقدّم يصحبه ستة من رجاله. لم يكن أمام الصغير من خيار، كان عليه أن يشرب الشاي ثانية خبة للقادمين الجدد مهما كانوا غير مرغوب فيهم. لم تتأخر الأسئلة. ولكن أجوبة الصغير كانت مهياة سلفا. لم يكن عليه إلا أن يعيد السيناريو الذي وضعه ليُقنع به مضيفه:

— أنا من إفسفاسن. وقد جئت لأسترجع المال الذي أقرضه أبي لأحد أفراد المنطقة. بيد أن الشك مهنة احترفها المقدم. سأله طويلا عن أسماء سكان إفسفاسن. وبعد أن ساوره الشك، طلب منه أن يبقى في مكانه ريثما يتأكد من أقواله. ولأن الصغير تبين بعض التردد عند محاوريه، فإنه لم يرضخ ورفض رفضا تاما. حاولوا أن يفتشوه. فرفض ثانية. وفي المقابل، ولربما كيما لا يتحول تناول الشاي إلى مطاردة ومصائد، قال لهم الصغير بأنه مستعد ليتبعهم. ما كادت المجموعة تمشي كيلومترا واحدا حتى أخرج الصغير مسدسه وسدده نحو مرافقيه. خاطبهم:

— مَن كان منكم لا يريد أن يموت، فعليه أن يغادر المكان. ولأن المقدم ورفاقه فوجئوا بالأمر، فقد هربوا وهم لا يلوون على شيء. عرف وصول مجموعة النجار إلى بني ملال اضطرابات أقل. فبعد أن غادروا تنغير يوم 31 مارس، عبروا هضاب الأطلس المتوسط العليا. وعاشوا حياة الرعاة وترحالهم. مشوا ليلا وناموا نهارا في مخابئ خربة. يأكلون العشب (الفصة) بعد أن يخلطوه ببعض الملح. وصلوا إلى الفقيه بن صالح في سيارة أجرة يوم 20 أبريل وأمضوا الليل في المقاهي الليلية، التي جاءت بها جموع الباعة المنجولين الذين حضروا لبيع بضائعهم في السوق الأسبوعي الذي يعقد في اليوم الموالي.

منذ الفجر، بدت هذه الجمهرة، التي تُذكر بأجواء حفلات الأعياد الموسمية الأوروبية التي تُنظم في الأسواق، عالما اختلطت فيه ألوان النساء والرجال وقد غطت رؤوسهم عمامات، يتسلقون الأماكن وسط صرير الثياب والبهاائم. كان الحاربون ينوون استغلال هذا الهرج الذي تعرفه أيام الأسواق ليعودوا إلى بني ملال دون أن يثيروا الانتباه. ذلك أن الجيش كان لا يزال حذرا محترسا. زد على ذلك أن في القصبة، وهي قرية توجد على بعد يوم مشيا على الأقدام من بني ملال، كان عليهم أن يغادروا الطريق ليتجنبوا حواجز عسكرية. بعد ذلك بقليل، التحق سيدي حمو والملكي بالصغير ومجموعة النجار، كانا آخر من وصل إلى بني ملال.

بعثت هذه اللقاءات بعد أسابيع من التيه. الأمل من جديد. فالثوريون. بعد أن اجتمع شملهم. تشبثوا بحماس يائس وبوهم تحرير قريب. وكأن الإشاعة بدورها أرادت أن تغذي هذا الأمل الجديد. فانتشر خبرٌ في المنطقة مفاده أن الفقيه البصري قد أرسل رجالا ليدعموا ويسندوا الباقين. أكد النجار وسيدي حمو على المسؤولين المحليين للحزب بأن يساعدوهم ليعيدوا إشعال مشعل الثورة المتردد. طالبوا بمساعدة مادية وباتصالات وبرجال ثقة يحملون السلاح. وأخذوا يُعيدون تعداد المناضلين المستعدين للقتال. علت وَجْهِي المسؤولَيْن المحليين عن الحزب اللذين تسلما طلباتهم ابتسامة حرجة. فهما يميلان إلى المبالغات التحليلية ويطنبان في الحديث عن "الآفاق". وهي جُمْلُ الهدف منها هو تقديم بديل لتردداتهما. ثم تباعدت مواعيد اللقاءات. ثم تلاشى حماس المسؤولَيْن السياسيين. تمت فعلا بعض الاتصالات. ولكن الأمور لم تتجاوز هذا الحد. ونظرا ولا شك لضيق الوقت. إذ كان المناضلون المحليون يزعمون بأنهم مشغولون بالإعداد لفاخ ماي. فإن الثورة يمكنها أن تنتظر. ووسط هذا الخضم من الكلمات الجوفاء. لمس النجار وسيدي حمو ورفاقهم بأن لا شيء مما يطلبونه سوف يتحقق. وكأنهم شعروا بأن عليهم أن يضحوا بأفضل ما يملكون. قدموا أقصى ما يمكنهم تقديمه لإتمام العمل الثوري الذي ضحى محمود من أجله بحياته. حاولوا يائسين. وفي محاولة أخيرة. حُزِرَ جمود الحزب في أقصى مناطق البلد. ولكن الخوف اجتاح الأطر السياسية ودفعها إلى اعتبار شجاعة المحاربين حماقة متجاوزة. فكانوا يباركون جُبْنَهُم على أنه الحكمة التي تقتضيها الظروف.

وبعد استنفاد جميع الوسائل. فكر المحاربون في الهروب دون أن يتركوا أثرا وانتظار الظروف المواتية. ولأنهم قبلوا بالأمر الواقع وأصبحوا مهمشين. فقد لجأوا إلى السرية الهشة. فأتت الخيانة والوشاية الباقي. أخبر واث السلطات. اعتقل العديد من المحاربين والمناضلين السريين⁸. وقع الملكي بدوره في شباك القوات المساعدة. لم يكن يملك أوراق التعريف. ادعى هوية مزورة فأطلق سراحه بأعجوبة بعد أربعة أيام من الاعتقال: كانت "حيلة" عمه سيدي حمو ما زالت سارية المفعول بعد مرور أربع سنوات. ولكن ليس طويلا. إذ اعتقل الملكي مرة ثانية في شتنبر. ذلك أنه تم التعرف عليه ونُقل إلى درب مولاي الشريف بالدار البيضاء.

استطاع سيدي حمو. صحبة سي إبراهيم والنجار والصغير. أن يفلتوا بأعجوبة. باتوا أربعتهم فارين هاربين. وأصبح بقاؤهم رهينا باستضافتهم من قبل مناضلين شجعان قليلين نجوا من اعتقالات البوليس. نجوا من مهمة مستحيلة. فانتبهوا وسط عزلة تيههم إلى أمر بديهي: "يجب العودة إلى الجزائر". باتت هذه المحاولة الملية بالصدف هي المنفذ الأخير.

8 من بينهم سعيد أوخويا وموحي أوحمو والمعطي نايت عزيز وبوكري

ثمن الهزيمة

خيار تندوف

من الجزائر العاصمة حيث يتابع الفقيه البصري الأحداث، أخذ يكتشف تدريجيا هول الكارثة. لقد فشلت المحاولة الانقلابية في الأطلس ولم يتحرك الجيش. ولكي يبلغ هدفه لم يعد أمامه سوى حل واحد: تغيير ميدان القتال. أرسل الفقيه البصري آيت قدور وبنحوي إلى موسم تندوف. كانت مهمتهما هي التعرف على مدى استعداد قبائل الجنوب التي تحضر عادةً هذا التجمع الكبير للانتفاضة. كان المشهد في تصور الفقيه البصري هو انتفاضة تنطلق ضد الأسبان، ثم تُوجه توجها غير مباشر ضد الحسن الثاني.

وهاهو آيت قدور يتذكر: "أمضيت أسبوعا في موسم تندوف متخفيا وراء شاشيتي السوداء أضعف اللقاءات مع الشيوخ وقادة القبائل الصحراوية¹". وعند عودة آيت قدور إلى الجزائر العاصمة، أكد بأن المنطقة غير محمية وبأن الجزائريين سوف يكونون أول المهتمين بالأحداث. إذ إن مساندة الجزائريين ولو كانت ضمنية فلا غنى عنها. فانطلقت المفاوضات مع السلطة الجزائرية.

كان هدف التنظيم هو الحصول في أحسن الأحوال على مساندة جزائرية. وفي أسوء الأحوال على حياد في صالح الثوار. بقي رد الجزائريين غامضا. في الواقع، وفي المرحلة الأولى، استغنى الجزائريون عن الوالي. والوالي مجند شاب جنده محمود في وهران. تكون وتدرّب في ليبيا. وكان بالفعل مقترحا داخل أوساط التنظيم ليقود العمليات العسكرية ضد المحتل الإسباني. والحال أن الجزائريين كانوا يرون أنه أقرب إلى القذافي. فكانوا يفضلون عنه إدواردو موحى. الذي قدم على أنه زعيم "حركة الرجال الزرق". ودون أن يعي الجزائريون بالأمر، ضلوا الطريق. إذ سرعان ما تبين أن إدواردو موحى كان يعمل لحساب المخابرات المغربية.

وخلال هذه المفاوضات، سرعان ما اكتشف التنظيم لعبة الجزائريين المزدوجة. ضاعف رجال المخابرات الجزائريين زياراتهم للثوار المغاربة. يحدّثونهم بإطناب عن شؤون

1 حوار مع المؤلف.

الدولة. ولكنهم وعلى وجه الخصوص، كانوا يَسْبِرُونَ خُفْيَةً أهدافهم. وحينها وقع ما لم يكن بالحسبان. فبعد غيبة طويلة عاد الدراعايا، وهو رئيس الأمن الجزائري، إلى الجزائر العاصمة. علم آيت قدور دون قصد بأنه تاه في الصحراء خلال مهمة للتعرف على الأماكن الصحراوية. وفي آخر المطاف، أُلقت عليه قوات الاستعمار الإسباني القبض وكاد الحادث يتحول إلى نزاع دبلوماسي. تحدث آيت قدور في الأمر مع الباهي، الذي كان يعرف بأنه على اتصال بالدراعايا:

— بما أن المغرب يبدو راضيا على أن يبقى الوضع كما هو عليه، فلمَ لا يساند الجزائريون أنفسهم عملية عسكرية في الصحراء؟

فكر الباهي في الاقتراح ثم أبلغ به الدراعايا. هل كان الأمر اختبارا مكيا فيليبيا أم عملا أرعن قام به الباهي؟ فارت سيرة غضب الدراعايا. إذ هاهو ذا مشروع كان يعتبره بالغ السرية. يتحدث عنه ذلك الذي كانت مهمته هي أن يوضح له نوايا الثوار المغاربة. كان الدراعايا قد اعتاد وتمرس على مناورات الكواليس. فلم يصدق لحظة بأن الأمر مجرد صدفة. ولأنه بات مقتنعا بأن خطته قد انكشفت. أخذ يلح ثم يلح ليدله الباهي على "الواشي".

ويوم 10 ماي من سنة 1973، أي بعد شهرين من اختفاء محمود، وهو التاريخ الذي يكاد يصادف تاريخ الإعلان عن موت النمري، البطل الأسطوري في صفوف جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، والذي كان يعتبره الوالي الأب الروحي، قرر الوالي أن يأخذ بزمام الأمور ويتحكم في مجرى حياته: فأسس البوليزاريو. وبعد عشرة أيام، شن أول هجوم له على مركز إسباني بالخنكا. إنها بداية قصة أخرى. فعمل الجزائريون على انبعاث التنظيم من جديد غداة هجوم المغاربة في الصحراء. ولكن دون جدوى. إذ سار التنظيم في اتجاه، وسارت الحكومة الجزائرية والبوليزاريو في اتجاه آخر. سار كل منهما في طريق تختلف عن طريق الآخر. طريقان لن تلتقيا أبدا.

الخميس 2 غشت 1973، الجزائر العاصمة

صبيحة يوم الخميس 2 غشت، اجتمع ثمانية أشخاص في فيلا حي البيار بالجزائر العاصمة: الفقيه البصري وعبد الرحمن اليوسفي وآيت قدور وإبراهيم وأحمد الطالبي وبنحيي وعباس والخصاصي. جدول الأعمال هو معاينة الفشل الذي لا يُسمى باسمه وما ترتب عن ذلك فيما يخص العلاقات المقبلة بين الحزب وجناحه المسلح. كان بروتوكول هذا اللقاء أكثر من إعادة توزيع المهام أو وضع أي خطة عمل. بل إن بروتوكول هذا الاجتماع وُضِعَ كتابة محاولة اتفاق تحسبا للخلافات المقبلة.

وكان الفقيه البصري أخذ يبحث عما يوارى به النكسة التي تتهدد عزم مناصريه. فإنه رفض أن يعلن رسمياً فشله. اعتبرت الأخطاء التي ارتكبت أخطاءً المبد. إن وقع وأجمع الفقيه البصري وآيت قدور وبنحيسى على كلمة واحدة. فإن ذلك يكون عند الحديث عن المبد. فكلهم يعتبرونه مسؤولاً عن فشل مارس من سنة 1973. لقد كان صهيرة انتهازية عند البعض. وجاسوسا عند البعض الآخر. فاعتبر المسؤول الأول والأخير. أكد الذين يدعون انهم ما زالوا مستعدين لخوض الحرب بأن الموارد من الرجال والعناد ما زالت متوفرة. يكفي في نظرهم. أن تتأتى الظروف المناسبة. ذلك أنه ضمن الحاضرين. لم يكن الفقيه البصري وحده الذي يريد أن لا يرى إلا مرحلة فيما هو في الحقيقة نهاية مأساوية.

وأما عبد الرحمن اليوسفي من جهته. فقد كان همه هو إنقاذ الحزب الذي غدا وجوده مهدداً. كان كل يوم يمر يأتي بنصيبه من الضحايا. لقد تم تعليق جناح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالرباط. فأقفلت المقرات وأدخلت الأطر السجن. وبعد نقاشات وسجلات طويلة شاقة. اتفق الحاضرون على أرضية تكون تمهيدا لـ "بلاغ مكناس" الذي كتبه على وجه السرعة. غداة ثالث مارس. بنحيسى والطيب بناني. لقد حرر "بلاغ مكناس" بمباركة من عبد الرحمن اليوسفي. وكان يتبنى العمليات المسلحة باسم "الجهة الوطنية لتحرير المغرب". وهي الجهة التي انبثقت من العدم. كانت المسألة طبعا مغالطة. الغرض منها هو حماية الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. الذي أصبح هشاً. من عمليات انتقام جديدة. كان هذا هو التنازل الذي طالب به عبد الرحمن اليوسفي وألح في الطلب. في مقابل مواصلة العمليات المسلحة.

كانت أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية ما زالت تتذكر اعتقالات دجنبر من سنة 1969 التي قضت على صفوفهم. في ذلك العهد. كان الحزب يملك ما يكفي من الموارد ليسمح لنفسه بأن يظهر مساندة لا نشوبها شائبة للمناضلين السجناء. والحال أنه في الظروف الراهنة. ورغم أن الأمر يهم الرجال أنفسهم والمنظمة نفسها والمشروع الثوري نفسه. فإن الوضع قد تغير وتدنى. بالفعل. إنه منعطف. حصل عبد الرحمن اليوسفي من الفقيه البصري على أن يتحمل مسؤولياته. إذ إن الهيئة المتميزة التي تبنت العمليات المسلحة سوف تخمي الحزب من انتقامات مكثفة لا بد وأن تتسبب فيها محاولة انتفاضة ثانية إن هي باءت بالفشل. ولكن لن تكون هناك من محاولة ثانية.

بقي الفقيه البصري متخندقا وراء آخر معاقله. لقد كان عنيدا يعرف دائما كيف يتخلص من مثل هذه الأوضاع. فقد مكنه حدسه من أن ينقذ ماء الوجه أمام عقول صارمة ومدمجة بالشواهد. كما هو شأن أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

ولكن فشل مارس 1973 كان هو نهاية النكسة. وأما باقي الأحداث فقد انتهت نهايةً حزينة. أدت آليا بضع محاولات فاشلة بغرض استعادة النشاط العسكري إلى فرار العديد من الرجال من الجيش أو طردهم منه. استقل بنحى الطائرة إلى باريس. وتبعه بعد وقت قصير آيت قدور في رد فعل يعبر به عن تمرد. وأما عبد الرحيم بوعبيد فقد غادر باريس وعاد إلى المغرب بعد شهر من الانتظار. ما كاد ينزل من الطائرة. حتى حُجز جواز سفره ووُضع رهن الإقامة الإجبارية.

إجهاض ثورة

عندما وضع رجال المخابرات الجزائرية يدهم على وثائق التنظيم. لم يصدقوا أعينهم. وهامو ساعة. الذي اعتُقل كما هو شأن آخرين. لتحقق معه الشرطة الجزائرية. يتذكر زعيمهم وذعرهم. فقد قال له العميد الجزائري وهو يطالع الوثائق المنشورة فوق مكتبه. وكأنه في حلم :

— ما يوجد في هذه الوثائق يجعل الحسن الثاني عاريا قبل أن تطلق أول رصاصة. ومع ذلك ...

بعد محاولتي الانقلاب. أصبح المغرب يعيش حالة غليان. كانت نهاية الملكيات المخلوعة تبدو قريبة. والحال أن أطر المحاربين الأكثر كفاءة والذين كان من المفترض أنهم هم الذين سيغيرون مجرى التاريخ. قد وقعوا في الفخ. وقد اندهش ضباط القوات المساعدة وقادة الوحدات الخاصة داخل صفوف الدرك الملكي. اندهشوا من نوع التجهيزات العسكرية المتطورة التي كانت بحوزة محمود ورجاله. فيطرحوا التساؤل نفسه:

— لماذا لم يبادروا إلى القيام بشيء² ؟

لما بدأ سباق السرعة. لا شك أنه كان بإمكان محمود أن يتجاوز الطوارئ التي عرفها التنظيم وأن يستغل الفرصة التاريخية التي سنحت له. ولكن هل كان الفقيه البصري ليقبل بالتنازل عن الزعامة لرجل من تلك الطينة؟ كيف يمكن تناسي التخوفات التي قد يشعر بها قائد أمام رجل من رجاله بارع وماهر أكثر مما يجب؟ أكيد أن محمود له خصائص المسير الذي تكون في إطار صرامة العمل الثوري وانضباطه. لا شيء كان يدل على أنه سوف يتحرك بحض إرادته ولوحده ليدافع عن مصالحاته. ولكن الفقيه البصري كان يعرف أن محمود غير مستعد لأن يتخلى عن قيادة التنظيم للمسيرين الإداريين للثورة. ولأنه مارس الثورة فقد كان يخشى أن تندلع ثورة داخل الثورة.

2 سوف يحكي حميد بن عمر. صديق محمود منذ الطفولة. ومهندس في خريكة خلال الأحداث. يحكي ما باح له به كولونيل في الدرك الملكي كان يجهل. على ما يبدو. مع من كان يتحدث (حوار مع المؤلف).

منذ أن عاد محمود إلى التسيير. وجد الفقيه البصري نفسه وسط فريق من الأطر الشابة. تنظم الأمور وتشارك في اتخاذ كل القرارات. وإن كان الفقيه البصري يتظاهر بالرضوخ لقواعد المنظمة، فإنه بقي وفيًا لعاداته القديمة. وفي الواقع، الفقيه البصري ينق قليلاً بالجهودات التنظيمية والحركات الشعبية العفوية. كان الفقيه البصري، وحت غطاء النضال الثوري، يمارس المخابرات-المضادة. يحده في ذلك يقينه بأن مع أول طلقة نار سوف تقوم ثورة من أعلى بخلع الملكية.

ولئن كان محمود يشك في أن التنظيم قد تم التسرب إليه على أعلى مستوى، فإن وابل الاعتقالات التي طالت مناضلين جاءوا لحضور لقاءات زعم أنها سرية في أوروبا أو الجزائر، جعله يتيقن من الأمر. وهكذا اكتشف حقيقة سوف يمضي آخرون سنوات قبل معرفتها. الفقيه البصري لا يملك استراتيجية سياسية، وإنما لديه منهجية : وهي مبدأ الإقحام. فمنذ درس الانقلاب الثاني، كان محمود يعمل على أن يتجنب المحسوبية السياسية التي كانت توجه عمل الفقيه البصري. ولأن طبعه كان يميل إلى الحيلة والحذر فإنه أحاط نفسه برجال مدربين على تقنيات حرب العصابات، استطاع أن يختبر وفاءهم وفعاليتهم على مدى خمس سنوات من الحن المشتركة. أهى إمكانية اندلاع انتفاضة شعبية غير متوقعة هي التي لم تشجع الفقيه البصري على تزويد محمود بالأسلحة والرجال الذين كان يطالب بهم؟ على أي حال، يبدو أن زيارة بشير الفيككي إلى الجزائر العاصمة هي التي سرعت قراره بأن يبدأ الهجوم. وإلا كيف يمكن تفسير انطلاق العمليات العدوانية في الدار البيضاء واخنيفرة، وهما المنطقتان اللتان لم تكونا خاضعتين لمراقبة محمود؟ أو كان هذا الأخير يعد ثورة، فما الذي كان يطمح إليه الفقيه البصري، بهذه الأعمال المتناقضة على ما يبدو، إن لم تكن انقلاباً عسكرياً؟ بموجب هذه الفرضية، كان من المفروض أن يبقى عمل محمود محدوداً قدر الإمكان، فقط ما يكفي لزراعة الإحساس بعدم الأمان، وهو الإحساس الذي يخدم دخول الجيش إلى الميدان. اتخذ محمود تدابير من أجل الحد من الإهمال والفساد داخل التنظيم. ولكنه بكل تأكيد لم يستطع أن يتوقع ما لا يمكن تصوره : صفقة مع الديلمي.³

3 إضافة إلى التواطؤ مع موحى أوالحاج وزيارة البشير الفيككي. فإن فرضية مشروع انقلاب يدبره الديلمي سنة 1973، بتواطؤ نشيط أو صامت مع الفقيه البصري تسندتها العديد من الأدلة المتراصة. سوف يشهد العديد من السجناء أن الديلمي، خلال حصص التعذيب، كان يتهدهم بأشيع ضروب التعذيب والموت الأكيد إن هم باحوا بالتواطؤين معهم في صفوف الجيش. والشهادة الأخيرة التي تتوافق مع ما سبق من حيث التاريخ هي شهادة الأخوة بوريكات، الذين لجؤا من تازمامارت، إليهم من رجال الفص، ويشهدون بأن جنرالاً تقرب منهم سنة 1973 ليخبرهم عن ميول الديلمي الانقلابية، وطلب منهم أن يحبوا الملك بالامر. وهو ما فعلوه. وبعد ذلك بأسبوع، يوم 8 يوليوز 1973، اختفوا بديعة قصة أخلاقية بليدة وأموال قدرة كما نزع بذلك حقائق الفص.

في غياهب النسيان

كانت أولى لفحات حرارة الصيف في كلميمة قيظاً شديداً. كانت المنازل تبدو وكأنها وسط المياه بفعل سراب الشمس الحارة التي تغرق التضاريس وسط بريق ولمعان يمنح الأعين من الإيصار. وكلما اقتربت الشمس من السميت. إلا ودفعت الحياة إلى أحشاء هذه الأرض الجافة الغارقة في الأضواء. وحت ظل خانق لبنانية وسَّطَ جمع سكاني. تكدس رجال جلسوا القرفصاء مكبلين. وُضعوا في صف واحد وأعينهم مغطاة. وبألسخريّة الأقدار. فقد كانت قطع القماش التي تغطي أعينهم قد قُطعت من أكياس دَقِيق كُتِبَ عليها "هبة من الشعب الأمريكي". إنها الأكياس ذاتها التي وُزعت بسخاء على السكان من أجل خميسهم أكثر على التعاون.

أغرقت الحرارة الخائفة داخل الغرفة المعتقلين في نوع من الخمول المنهك. كان صمت مخيف يسود. تتخلله أنات قليلة تكاد لا تسمع. إنه صدى الإنهاك المعنوي والجسدي لهؤلاء الرجال الذين ظهر عليهم الإحباط أمام نهايتهم الختمية. إن اللحظة أبدية. ونظرا لغياب مقر أوسع لاستقبال جموع المعتقلين. وُضعوا في ملجئ خيري خول إلى مركز للاعتقال⁴. فبينما لم يكن عدد سكان كلميمة حينها يتجاوز الستة آلاف نسمة. بلغ عدد الأشخاص الذين مروا من هذا السعير المئات. وأما رجال الشرطة بكلميمة. وأغلبهم من المتعاطفين. فإنهم عاملوا المعتقلين بلطف. أو على الأقل. فإنهم لم يعذبوهم.

ولكن منذ وصول الفرقة الخاصة التي جاءت من الرباط. بدأ الكابوس. خول مطبخ البناية إلى قاعة للتعذيب. ولتجنب الرجال الشعور بأن المناسبة مناسبة جنازة وتأبين. فإنهم كانوا يتكلمون ويحكون عن عذابهم. يتبادلون كلمات هزل وسخرية. ولكن بحذر شديد لأن الشك كان يسود طالما أن مصدر الخيانة مجهول لم يُعرف. كانت مشاهد بشاعة فظيعة تنكرر في حوالي العشرة من مراكز التعذيب الأخرى الموزعة على المملكة: اخنيفرة وفيكيك وإملشيل ووارزازات وأغادير والدار البيضاء والرباط ومكناس ووجدة. وشهادات الناجين تزيد الواحدة منها عن الأخرى في وصف الفظاعة⁵. فتنقيات التعذيب توظف العنف الجسدي والنفسي. وذلك بفعالية تدّين بالكثير لتأطير خبراء أجانب. وهاهو أحد مسؤولي التنظيم يتذكر: "بعد أن أُبقيت بدون ماء حتى أحس بعطش شديد. قدم لي ماءً فيه مواد مخدرة. ثم عُرض علي شريط

4 منذ ذلك الحين. حُول هذا الملف إلى مخفر للشرطة المركزية لكلميمة.

5 العديد من هذه الشهادات نُشرت سنة 1999. انظر الكرامة. رقم 4. يونيو 1999. منشورات المنظمة المغربية لحقوق الإنسان. أو النشرة. عدد 13. يونيو 1999. وحسب "السر". أحمد البوخاري (ميشيل لافو. باريس. 2002). فإن العنف الذي كانت تمارسه المصالح التي كان يعمل بها البخاري في حق أعضاء شبكة دهمكان كان من الوحشية بحيث إن نصف المعتقلين ماتوا تحت التعذيب.

بصور مشاهد من كلميمة وتنغير واخنيفرة مرفوقة بأصوات رفاق معتقلين، عندها فهمت بأن السائح الكندي الغريب الذي تبني في أزرو وكلميمة كان عميل المخابرات الأمريكية. والصور التي كانت تعرض أمامي أخذت بألة تصويره⁶.

ومن بين الجلادين المغاربة الأكثر تفانيا في عملهم، والذين أطرهم خبراء أجانب، تعرف الضحايا على العقيد خاتوش من كلميمة والعقيد أرزار والعميد الحمداني من الرباط. والعميد قدور اليوسفي من الدار البيضاء، وهو الذي يلقيه ستييفن سميث بـ "موزار التحقيقات"⁷. وسنة 1973، أبدى العازف الماهر براعة لا تضاهي. فبعد "التحقيق العلمي"، تم إحصاء إطار التنظيم الذي حدثنا عنه سالفا، وكُسر فكه وفقد بصره. وأما رئيس الجوقة التي تعرف هذه الفظاعة فلم يكن سوى الدليمي نفسه⁸. وأما الثمن الذي دفعه موحى أو الحاج فيتجاوز ما يمكن تخيله، إذ عذب عذابا وحشيا تحت أنظار أطفاله. ولم تكن النساء لتسلمن من التعذيب. وسوف تشهد إحداهن، أم حافظ، زوجة أحد مناضلي اخنيفرة السريين، بما لا يمكن للعقل السليم أن يتصوره: أن تلد المرأة تحت التعذيب.

وهاهو أحد مناضلي كلميمة السريين يتذكر: "كنا مكدسين داخل قاعة بمراب الطائرات بمطار أنفا. إذ هناك، تم إحضار المعتقلين مباشرة بالطائرة من مكناس ووجدة وقصر السوق ووارزازات. كانت هناك أربع قاعات متشابهة تضم مئات المعتقلين، إنها ورشات لاختبار محركات الطائرات. كانت عمليات التعذيب تجري في الأروقة. استمر الكابوس شهورا، مات العديد من رفاقي من تبعات التعذيب"⁹. وبالفعل، ورغم قوتهم البدنية، لم يغادر العديد من المناضلين أحياء هذا الجحيم. التفاصيل غريبة صادمة. ثم يواصل المناضل كلامه: "هناك اكتشفت بأن القمل يغادر الأجساد الميتة، مات رفيق وهو إلى جانبي بعد أن احتضر طويلا. غادرت الطفيليات عندها جسده الذي بات لا يتحرك وانتقلت إما نحوي وإما نحو الرفيق الذي كان يوجد من الجهة الأخرى. كان سوء تغذيتنا قد وصل درجة جعلتنا لا نتبرز إلا بعد مدد طويلة وأصبح غائطنا أصلب من روث الماعز".

ويتذكر مناضل من أغادير، اعتقل لأنه أذاع تسجيلات لراديو ليبيا، أنه جاور في درب مولاي الشريف فريكس، الذي سقط إلى جانبه محمود وسليمان العلوي: "كانت ملابسه مزقة وكان ينزف نزيفا قويا من ساقه الأيسر. وفي يوم من الأيام،

6 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

7 أوقفيين مصير مغربي، منشورات كلمان ليفي، 1999.

8 ندل شهادة الدكتور عمر الخطابي على أن هذا النوع من المعاملات كان في الغالب ضريبا من السادية: فبحركة كان يمكنها أن تكون حركة تسامح ورحمة. سلمه الدليمي مسدسا، في اللحظة التي كان فيها الرجل خائر القوى بعد أن تعرض لعدد من حصص التعذيب. فواساه بأن أعطاه فرصة للالتحار. وفي اللحظة التي ضغط فيها على الزند بعد أن وضع المسدس على صدغه، سمع الدكتور الخطابي دقة الزند. لقد كان المسدس فارغا من الرصاص.

9 حوار للمؤلف مع علي زابول.

قاده الحرس واقتلعوا منه رصاصة وهو في كامل وعيه. وعندما أرجعوه. كان خائر القوى يتصبب عرقاً¹⁰.

الاثنين 25 يونيو 1973. محكمة القنيطرة

قُدِّمَ للمحاكمة 149 متهما داخل الأجواء الرطبة والضيقة للمحكمة العسكرية بالقنيطرة: قادة الانتفاضة ومسؤولو الحزب. وسيمثل 123 متهما آخر وهم في أغلبهم مناضلون يَكُونون هيكلاً الخلايا السرية في الأطلس. والذين اعتُقلوا خلال حملات الجيش. أمام محكمة مكناس التي نطقت بالحكم يوم 20 يوليوز 1976. أي بعد مرور ثلاث سنوات على الوقائع. ولكن الأغلبية المتكونة من عدة مئات من المناضلين الذين أُلقي بهم في مراكز التعذيب. فلم يُحاكموا. وأما الذين استطاعوا البقاء أحياء فإنهم ظهروا من جديد ظهوراً غريباً. كما كان شأن اختفائهم أول مرة.

في قاعة المحكمة بالقنيطرة. كان يوجد دهكون والعديد من رفاقه. ومنهم المهدي والجدايني. جنباً إلى جنب. كان هناك كذلك زهاء العشرة من أطر حرب العصابات الذين عادوا مع محمود¹¹. لقد اعتُقلوا والسلاح في أيديهم. فلم يكونوا وأهمين فيما يخص المصير الذي ينتظرهم. إلى جانبهم تكس قادة الخلايا السرية في الأطلس¹² وأطر الحزب. عمر بنجلون واليازغي على رأسهم. وأما عبد الرحيم بوعبيد فإنه كان مطلوباً للمثول أمام المحكمة بصفته شاهداً.

لاشك أن هذا العمل كان مناورة ناجحة من مناورات القضاء بالمغرب. ما دامت هذه المناورة ستمنع عبد الرحيم بوعبيد من أن يترافع وأن يحقق النصر نفسه الذي حققه في مراكش. ثلاث سنوات قبل ذلك. كانت السلطة تنتظر منه أن يأخذ مسافته ويبتعد عن الثوار.

لم يكن الهدف من هذه المحاكمة السياسية هو محاكمة الثوار بقدر ما كان هو القضاء عليهم. وصُفِّ رفاق محمود بأنهم "أنصار العنف". وأما الحكم عليهم بالإعدام فليس استشهاده بل هو خزي وعار. فتنفيذ حكم أو العفو. يُقيمه الحكم الملكي المطلق حسب تنازل الضحية عن كرامته الإنسانية. وهكذا فإن الوكيل العام الذي كان يُجيد استعمال الخداع. طلب من كل معتقل رأيهِ في النظام الملكي. ولأن العديد من المعتقلين كانوا منهزمين منكسرين. بدءاً من أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. فإنهم لم يترددوا في أن يديروا ظهورهم للثوار. ولأنهم أصبحوا

10 حوار للمؤلف مع حافظ بكباشي.

11 بهم الأمر صابري وبنا العمراني والناصرى والعثمانى وبوزيان ودحمان سعيد وفريكس وأيت عمي والجزار.

12 لاسيما موحى أوالخاج وحديدو وعدي شان وعلي أوسكونتي وعبد الرحمن مازين وموحى أوحمو وسعيد أوخوبا وحسين أيت زايد وبوكرين وسكو أقادر وتوركى عدي.

يائسين من قضية يعتبرون أنها قد ضاعت ضياعاً لا رجعة فيه. فقد أعلنوا بيعتهم للسلطة الملكية آمليين أن ترحمهم المحكمة.

كان رفاق محمود يشهدون صامتين الخيانة الأخيرة. كانت المبادئ التي أعلنتها أطر الحزب. والتي كان الكثير منها يناشدهم القيام بالكفاح المسلح. قد تآرجحت أمام يد السلطة الممدودة. ألقى بهم هذا التنكر في عزلة حلمهم الذي لم يكتمل. هم الذين فضلوا صمت الشجاعة على هرج الجبن والذين شهدوا قائدهم يبقى وفياً لهم حتى عند ماته. قد باتوا. وكأنهم منفيون مبعدون. يتنكر لهم إخوانهم. وكانت أنظار المتهمين الآخرين. والتي لربما كان بإمكانها أن تكون رحيمة أكثر تتفادى النظر إليهم. وكأنها تريد أن تشدد على سوء حظهم.

فضل سعيد أوخويا. أحد قياديي حرب إملشيل. عزلة الفشل على نفاق العتائية والاهتمام. فصمد اعتداداً بكرامته. عندما جاء دوره. أخذ محامو الدفاع يستعدون لإعادة مراقبة متفق عليها سلفاً :

— الأسلحة؟ كانت تستعمل في تدريب المناضلين من أجل أن يلتحقوا بالشرق الأوسط ويساهموا في تحرير فلسطين.

— الرصاص الذي خرج من الرشاش؟ أطلق على طرائد صيد.

بالنسبة إلى سعيد أوخويا. فإن خط الدفاع المتفق عليه حساس وهش. كانت بندقيته فارغة لأنه قتل العديد من عناصر القوات المساعدة. لما تم تقديم سلاح سعيد أوخويا كدليل إثبات. انفجر ضاحكاً وقال:

— ماذا تعتقدون؟ هل هي عصا راع يرعى قطيع نعاج؟ لا. إنها بندقية-رشاشة من أجل تحرير بلادي من الاستبداد. ولو بقيت هناك رصاصة واحدة في بندقيتي. لما كنت هنا اليوم¹³.

أطلقت صراحة سعيد أوخويا داخل هذه المعزوفة من الكذب والتظاهر. والتي كان الغرض منها إنقاذ المظاهر موجة من الهمسات المؤيدة بين الحاضرين. أمام أنظار المحامين المندهمشين. وأما أشجعهم فقد ضحك ضحكة خفيفة محتشمة غطت بتواضع مرارة هؤلاء المحاربين الذين يتنكر لهم في تلك اللحظة أولئك أنفسهم الذين كانوا سينسبون إلى أنفسهم رفع لواء الثورة. لو أنها تكللت بالنجاح.

كانت مواجهة هؤلاء الرجال بمصيرهم تظهر ثانية وبقوة مأساة تضحيتهم المعزولة. انهيار فريكس باكبا. كان منهكا خائر القوى. وهامو أحد المتهمين الذين كانوا بجانبه يتذكر : "كان يعرف أنه سوف يموت. ولكن لم يكن شيء يواسيه في موت محمود. كان يكرر اسمه وكأنه تعزم يائس.

— لقد فقدنا محمود. لن يعرف المغرب أبداً رجلاً مثله¹⁴.

ويتذكر الناجون من حكم الإعدام جميعهم: "وحده الدكتور عمر الخطابي بقي متضامناً معنا. وكان يرفع من معنوياتنا". الدكتور الخطابي ليس رجل حزب. ولكنه

13 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

14 حوار للمؤلف مع محمد القاسمي.

رجل مبادئ، ليس عضواً في منظمة سياسية. وهو رجل كل المعارك. كان تعاطفه مع المحاربين فوراً. كان لا يزال محتفظاً في ذاكرته بالثورة التي قادها عمه عبد الكريم. إنها لحظة فريدة شهدت شعباً مستعبداً يرفع رأسه ويأخذ مصيره بيده. إن كان السلطان ابن يوسف قد انضم إلى القوات الاستعمارية الفرنسية الإسبانية لسحق ثورة الريف سحقاً دمويًا، فإن ذلك دليل. في نظره. على الدور الضار الذي تلعبه الملكية المغربية في المغرب. وبالنسبة إليه. فإن صك الاتهام لا يذكر سوى لقاء مع الفقيه البصري في القاهرة سنة 1972. وفي الحقيقة فإن القصر يريد أن يدفع ثمن تورطه في الانقلاب الفاشل لسنة 1972. وعندما جاء دوره ليتقدم أمام النيابة العامة ليعبر عن رأيه في النظام الملكي. بقي الدكتور الخطابي. رغم التعذيب الذي تعرض له والذي مزق جسده. وفي نفسه:

— إنها فعلاً أول مرة يُطرح علي فيها هذا السؤال في هذا البلد. واحتراماً للمحكمة. واحتراماً لكرامتي. لن أجيب عن هذا السؤال¹⁵.

السجن المركزي، القنيطرة

نُطق بالحكم يوم الخميس 30 غشت 1973: ستة عشر من حُكم عليهم بالإعدام يوجدون في قفص الاتهام. خمسة عشر حُكم عليهم بالمؤبد. وأما الباقون فحُكم عليهم بعدة عقود من الحبس. ويرى البعض. ولكن الحكم لم يرض السلطات العليا. وباستثناء المعتقلين المحكوم عليهم بالإعدام. أعيدت محاكمة الباقين بأكملهم. بمن فيهم أولئك الذين برأتهم المحكمة.

بقي يوم النطق بالحكم محفورا في ذاكرة أحمد بنجلون: "في ذلك اليوم. أُخرجت أنا ورفاقي الذين حُكم علينا في محاكمة مراكش من السجن المركزي بالقنيطرة. لنُخلى المكان للقادمين الجدد. قادونا إلى السجن المدني بمكناس¹⁶".

وأما الجنود الذين حُكم عليهم في قضية الانقلابين الفاشلين. والذين كانوا يتواجدون في سجن القنيطرة. فقد اقتيدوا إلى اتجاه آخر لم يكن معروفاً. بعد عشر سنوات. وبفضل نداء استغاثة انفلت جهاز مراقبة نظام سجن نضاهي وحشيتته انغلاقه وانسداده المحكمين. تبين أن المكان يحمل اسماً: تازمامارت. إنه سجن جُهر خصباً ليكون مأوى جماعياً للمحتصرين.

وأما دهكون وباقي المحكوم عليهم بالإعدام فقد كُددوا في الجهة المخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام. كل صباح. كانوا ينتظرون أن يُخرجوا من زنازنتهم ليُنْفَدَ

15 برأت المحكمة الدكتور الخطابي. حوار مع المؤلف.

16 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

فيهم حكمُ الإعدام. داخل زنزانتهم، كانوا يتفكرون ويتأملون. صامتين. المرارة المتبقية في أعماقهم. إن ما يفصلهم عن زملائهم في جهة المحكوم عليهم بالحبس أكثر من العزلة. إنه موتهم الوشيك.

لم يعودوا ينتمون إلى عالم الأحياء. حررهم الامتياز البائس بكونهم غدّوا بدون مستقبل. من كل احتمال أو عارض. لم يعد أمامهم إلا ملاء فضاء الأيام. كان فكرهم كله منهمكا في تأمل معنى عملهم ومداه. وبعد أن انقضت الشكوك الأخيرة. في أي ترابيّة يمكن أن تُصنّف أحاسيس الندم التي ذهبت بها حياتهم التي لم تكتمل؟ في الجهة الأخرى. جهة الأحياء. كان التفكير في الشكل الذي يجب إعطاؤه للكفاح ول مستقبله وجرّاه ودربه. باح العديد من المعذبين بالسر. وهاهو أحد المناضلين السريين بخنيفة يتذكر : “كانوا يواجهون الموت بعزّة وكرامة. ولكنهم كانوا يشعرون بالمرارة. كانوا يحسّون بأن هناك مَنْ غدرهم وخانهم. فهم قد قاتلوا داخل صفوف الفلسطينيين. وجّوا من معارك قاتلة. وهنا في المغرب. سوف يموتون دون أن يحاربوا. أو كُذّب عليهم؟”¹⁷

أظهر دهمون حتى النهاية ذلك العزم الذي لا يتزعزع والذي لا يشعر به سوى أولئك الذين حاولوا بكل قواهم أن يحققوا مثّلتهم الأعلى. ولأنه قاد الكفاح إلى حد التضحية بالنفس، فإنه بات يعرف أن دوام الاستبداد مدين لاستعباد الرجال الذين لا قناعة لهم. قال لعمر الخطابي الذي رأى فيه رجلا شريفا نزيها :

— أنت الذي سوف تخرج. كن شاهدا علينا. أما نحن. فإننا سوف نموت. ولكن مُسِيرنا سوف يخرجون من هنا لينهوا أيامهم في الوزارات. قل للرفاق إن العدو يوجد بيننا!¹⁸

نُفذ حكم الإعدام في دهمون فجر يوم الخميس فاتح نونبر من سنة 1973 مع أربعة عشر رفيقا من رفاقه. كان يوجد في صف واحد إلى جانبه لحظة تنفيذ حكم الإعدام :

- اثنان من رجاله. الجدايني ويوس مصطفى.

- حسين آيت زايد (قائد خلية تنغير) وحديدو (قائد خلية إملشيل) وموحي أو الحاج (قائد خلية اخنيفرة).

- تسعة من رجال محمود المقربين : دحمان سعيد والناصرى وبوزيان والعثمانى وآيت عمي وبا العمراني والجزار وصبري وفريكس.

لجأ المهتدي مؤقنا من تنفيذ حكم الإعدام. ذلك أن تصريحاته غدت بفعالية مرافعة النيابة العامة. فقرر القاضي إدراجه كشاهد إثبات مرة أخرى. خلال المحاكمة الثانية. انتهت المحاكمة الثانية يوم 18 يناير من سنة 1974 بالنطق بستة أحكام جديدة بالإعدام. وفي المجموع. كان هناك 84 حكما بالإعدام مصحوبا بعدة قرون من الحبس. وحسب حساب مشؤوم يريد أن يُبقي على التوازن بين العفو وبين الإدانة. فقد أطلق سراح سبعة محامين منهم عمر بنجلون واليازغي صباح يوم 27 غشت من

17 حوار للمؤلف مع عبد الرحمن مازين. حُكم عليه بعشرين سنة حبسا.

18 حوار للمؤلف مع عمر الخطابي.

سنة 1974، في حين أن سبعة ثوار تم إعدامهم في ذلك الصباح نفسه بالسجن العسكري بالقنيطرة.

دُفِنوا على وجه السرعة. كانت جُثَّتَي قائدين من حرب إملشيل. سعيد أُوخويا وموحي أُوحمو. وخمسة من رفاق دهكون : المهدي وجناح بوجمعة ومحمد الحجاوي وميري بوجمعة وادريس الملياني. نُفذ حكم الإعدام في آخر محكوم عليه. ادريس الملياني. وهو مدرس بسلا. فذهب برفيق سابق آخر من مدرسة النهضة بسلا.

الناجون

كان مرزوق يميل دائما إلى كفاح الثورة التحريري. ولكن هاهو أمام نوع جديد من الكفاح. الكفاح من أجل البقاء. بعد أن أصبح الهروب إلى الجزائر مليئا بالصدف والمفاجآت. قرر. لينجو من قوات التدخل الخاصة. أن يدفن نفسه حيا. كان عزمه في مستوى الخطر الذي يتهدده. بنى حوله حائطا مزدوجا في منزله. عندما وضع الحجر الأخير لبنائه. يوم 11 غشت من سنة 1973. لم يكن يعرف أنه سوف يبقى أربع عشرة سنة داخل سجنه الإرادي. أربع عشرة سنة من الانتظار. علم فيها بالحكم عليه بالإعدام غيابيا. وتنفيذ حكم الإعدام في رفاقه. وخاصة شَهِيد موكب الحياة يمر أمامه. كَبُر أبنائُه وتزوجوا. مات أبوه. حدث كل هذا وهو الحاضر الغائب.

كان سبيل الصغير الوحيد للعيش هو درايته بالمراوغة ومواصلة العيش. فاستطاع أن يصل إلى الجزائر عبر وجدة. التحق به النجار يوم سابع شتنبر 1973. ثم سيدي حمو وسي إبراهيم يوم 27 أكتوبر 1973. وفي وهران. التقوا مناضلين آخرين نجوا هم كذلك من الكارثة. كما هو شأن اللوزي. قائد التنظيم في كلميمة. كانوا كلهم يحسون بأنهم عادوا من مكان بعيد سحيق. تركوا في الأطلس رفاقهم ومعهم. أفضل ما عندهم. الأمل في إرساء الحرية.

كان انهيار حالة أجساد هؤلاء الناجين لا يساوي شيئا أمام إحباطهم المعنوي. فالإحساس الذي يلزمهم أكثر هو الإحساس الغامض بأنهم قد كَذِب عليهم. في الجبال. كانت ضرورات حرب العصابات تستحوذ على فكرهم. ولكن في المنفى. لحق بهم الواقع. واقع لا يمكن وصفه بالكلمات. فلاذوا في آخر المطاف بالصمت المطبق. ومع مرور الوقت. انتصرت الحياة. والسياسة كذلك. فتوالت الاجتماعات. ملؤها تعابير وكلمات متفق عليها سلفا : كانت أغلال الإيديولوجية تخفي المأساة التي عاشها هؤلاء الرجال الذين لم يعد لهم جسد. والذين سوف يمضون سنوات ليستعيدوا كينونتهم. آخر من التحق بالجزائر هو أمدّة. مرفوقا بثلاثة محاربين. بقوا مختبئين في الجبل ينصتون إلى جهاز الراديو في انتظار أن تصلهم إشارة تعلن عن قيام انتفاضات أخرى.

استمر الانتظار حتى .. شهر أبريل من سنة 1975.
وصل أمدة ورفاقه إلى وهران يوم 26 ماي 1975 بعد رحلة دامت خمسين يوما عبر الجبال.

الملكي. الذي وقع في شباك البوليس في شتنبر 1973 . سوف ينجوا بأعجوبة من تنفيذ حكم الإعدام فيه. فبعد سبعة شهور من الحبس السري. نُقل إلى سجن القنيطرة في أبريل من سنة 1974. الملكي. محكوم عليه بالإعدام. رقمه 18659. دخل الجهة التي مرت بها موجتان من موجات تنفيذ حكم الإعدام. كان في الزنزانة نفسها التي يوجد بها الخياري. وهو من رجال دهكون. والمحكوم عليه كذلك بالإعدام. في الجهة الأخرى. جهة المحكوم عليهم بالحبس. يتذكر أحد رفاق سيدي حمو أنه تقاسم الزنزانة مع الدكتور عمر الخطابي. وكان فلاحو الجبال. الذين بهرهم أداؤه. يقدسون شهادته وكذا سلالته الشهيرة. فكانوا ينادونه بكل تقدير واحترام "الدكتور". ولكن الدكتور الخطابي لم يكن الرجل الذي يجد متعة في الافتخار بنفسه. فأجابهم يوما :

— لا تنادوني دكتور. نادوني تراكتور (جرار). أنا لم أصنع شيئا. أنتم. رجال الجبال. أنتم الذين جُرأتم وحملتم السلاح ضد القمع والاستبداد من أجل تحرير البلاد¹⁹.
وعلى العكس. فإنه لم يكن يجد الكلمات القاسية بما يكفي لينعت بها أطر الاتحاد الوطني للقوات الشعبية:

— لكثرة ما لوى المغاربة ظهورهم خضوعاً وخنوعاً. أصبحوا لا يملكون عمودا فقريا. إن مسيركم ليسوا في مستوى تضحياتكم.

سوف يستفيد جل المحكوم عليهم بالسجن من المهلة التي سبتيها النزاع حول الصحراء. وسوف يطلق سراحهم أخيرا سنة 1980. كان من بينهم الملكي. المحكوم عليه بالإعدام. غادر سجن القنيطرة. مع ستة عشر رفيقا آخر يوم 17 يوليوز من سنة 1980. وأجاب مدير السجن الذي أخبره بإطلاق سراحه. أجابه بكل هدوء:

— الحمد لله.

فصح الموظف على وجه السرعة وهو متغطرس مزهو بنفسه:

— الحمد لله وجلالة الملك الحسن الثاني.

فهو قد لاحظ أن لا أحد من الثوار المحكوم عليهم التمس العفو الملكي. كما جرت العادة. إذ بهذا الالتماس. يكون السجين قد قبل التنازل عن آخر معالم كرامته ثمنا لحرية. ولكن الأمور سوف تجري على غير هوى مدير السجن ولا رضاه. إذ أجابه الملكي ببساطة وهو يتنسم قبل أن يوقع شهادة الخروج²⁰ :

— الحمد لله.

19 حوار للمؤلف مع نوركي عدي.
20 حوار للمؤلف مع عبد الله الملك

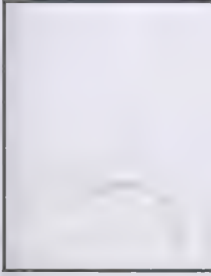


محمود. القاهرة، 1972.



منزل المقدم عدي شان بأملاغو حيث وقع الاشتباك الذي انتهى بوفاة محمود وسليمان العلوي ما زالت
نوجد أمام الساية بقايا الخائط الذي كان بأوي هي السابق النمر التي ترصد خلفها محمود وسليمان
العلوي بالعساكر.

الأطر الثورية بكلميمة



سليمان العلوي. المعروف بمولاي عمر.
توفي في ساحة المعركة بأملأغو يوم 5 مارس 1975.



عبد الله بن محزون. المعروف بفارريكس. وببهي. ومنصور.
وُلد سنة 1941. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقتيلة يوم فاتح نونبر 1973.



بشير الزين بن قدور. المعروف بالنجار. والخيراني. وموسى.
حتى حدود سنة 2002. ما زال يعيش في الرباط.



محمد نايت الهاشمي. المعروف بسبي إبراهيم.
يعيش حتى حدود سنة 2002 بوهران.

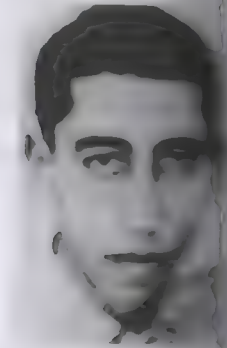


محمد بلقاضي. المعروف بالصغير.
يعيش حتى حدود سنة 2002 بليبيا.

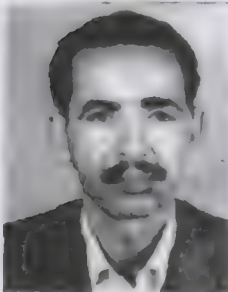
الأطر الثورية بالخنيفرة



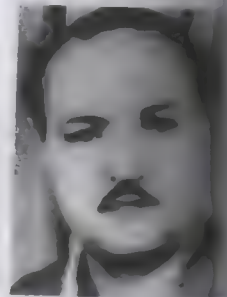
محمد أسكون المعروف بكاسترو.
توفي في ساحة المعركة يوم 6 مارس 1973 بأجدير.



حسن المعروف بصابري. وهوشي مينغ.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



برو امبارك. المعروف ببا العمراني.
وُلد سنة 1936. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



عبد فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.



حسن الإدريسي. المعروف بالناصري.
سنة 1948. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.

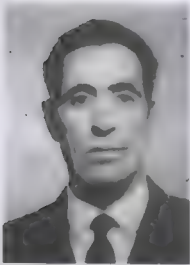
الأطر الثورية بتنغير



محمد بوشاكوك، المعروف بالعثماني. وُلد سنة 1937.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقيبطرة يوم فاخ نونبر 1973.



حسن التاركيسيتي، المعروف ببوزيان. وُلد سنة 1834.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقيبطرة يوم فاخ نونبر 1973.



دحمان سعيد بن حسن. وُلد سنة 1928.
نُفذ فيه حكم الإعدام بالقيبطرة يوم فاخ نونبر 1973.



موحا أوموح نايت بري، المعروف بالجزار.
وُلد سنة 1934. نُفذ فيه حكم الإعدام بالقيبطرة يوم فاخ نونبر 1973.



عبد الله المللكي، المعروف باختار.
مازال يعيش في الدار البيضاء حتى حدود 2002.



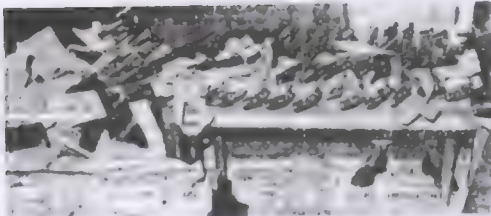
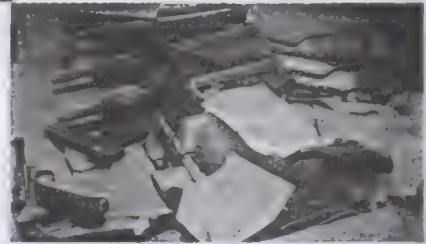
دهكون والمهندي (في الجزء العلوي من الصورة)
خلال مواجهة محكمة القنيطرة.



دهكون خلال إحدى الجلسات بمحكمة
القنيطرة.



عرض الأسلحة المحجوزة كوسائل إثبات
بمحكمة القنيطرة.



أقدار

”يموت الجبناء قبل موتهم الأخير.
أما الرجال الشجعان، فيبقون أحياء حتى بعد موتهم“.
شكسبير

لا ننجو من العقاب عندما نحرك الماضي. لا سيما عندما يقضي هذا الماضي على بعض الأساطير ويفسح المجال أمام أبطال لم يكن أحد يعرف وجودهم. استقبل البعض هذا البحث الذي وصل إلى نهايته بتردد وشك. واستقبله البعض الآخر بحماس واهتمام. ما هي الخاتمة التي يمكن أن نضعها لهذا البحث؟ الآن، بعد أن تغيرت المناهج والقناعات. يصعب ربط حبل المنطق من جديد. إن تتبعَ الذهن لمسار الفرص الضائعة تمرينٌ صعب شاق. كم هي الطموحات التي ضاعت وسط آفاق غامضة؟ كم هي الخصال البشرية التي تم إفسادها؟ ماذا تبقى من الموتى. ومن الأحياء. ومن الموتى- الأحياء؟ هل هناك من مغزى يجب الاحتفاظ به كدرس يُعلمه ذلك القدر المتناقض لهؤلاء الرجال الذين قرروا. رغم ذلك. توحيد مصيرهم؟ إلا إن كان الجواب يكمن بالضبط في الصمت العنيد الذي لطالما غطى هذا التاريخ المأساوي؟

وسط شساعة الجبل الواسعة. كان محمود بعيد ويتدرب على موته. وهو النهاية الحتمية للحمة مأساوية. كان حافزه هو طموحه الذي كان يجهل الجهد الشخصي. إنه عمل يدعو إلى كفاح يستمر حتى انحاء الذات نفسها.

ولكن التاريخ يتقن نسج الأقدار التي لا تكتمل والطموحات الخفية. انضاف محمود إلى لائحة طويلة من شهداء الحرية. بموته في سن الخامسة والثلاثين. أصبح أحد الرجال الذين يضع اختفاؤهم خاتماً على مصير أوسع من مصيره هو وحده.

هو من الرجال القلائل الشجعان. من ذوي القناعات الذين يحلمون بانعتاق رعايا يخدمون. أو فرض عليهم أن يخدموا دكتاتورية مقدسة. إن القبول الذي اعتاد الانحاء والطاعة قد أبان عن حدوده. إذ إنه بعد أن أعياه هذا الكم الهائل من الاستعباد. عمل على إرساء مغربٍ حر حيث يمكن للفرد من الرعاية أن يصبح مواطناً. فضل محمود إذن خيار السلاح للقضاء على سيادة الرعب الذي يدين له حكم الملكية المغربية

المطلق بعمره المديد. والذي كان محمد أوفقيير وأحمد الدليمي وإدريس البصري رجاله الذين يثيرون الرعب والناجعين الفعالين في الآن نفسه. اختار محمود هذا الإختيار بصدق وإخلاص.

لا شك أن محمود من خلال قراءاته العديدة. اكتسب القناعة بأن الحضارات تمر وأن الأحلام الطوباوية تفشل. كان يعرف أن كل نصر هو نصر عابر وأن الزمن يستبدل الإيديولوجيات الواحدة بالأخرى. ولكن لا تهم التقسيمات والتميزات داخل المجتمع عندما ينحني شعب بكامله. أبقى عليه بائسا جاهلا خاضعا خانعا أمام سلطة مطلقة تدوس عليه وهي تتجبح؟ إنه أمر جميل بالنسبة إلى المؤرخين. وحدها ثورة يمكنها أن تختصر الطريق تجاه مجتمع أكثر عدلا وأوفر كرامة. أن يكون المرء ثوريا. يعني أنه انتصر على شكوكه ليختصر عدة عقود من الإهانة والخنوع في التوسل كيما يتصدق عليه بحرية. وهكذا قرر محمود أن يدفع بأخر الشجعان إلى عمل يمكنه أن يحقق كل شيء أو لا شيء.

قدر أمة

والمفارقة هي أن عمله كان بداية مسار تطبيع سياسي طويل ومكلف. هل سمع القصر ناقوس المعركة الأخيرة يدق؟ كل الأمور توحى بذلك. ذلك أنه وفي هذه المرة. لم يأت ناقوس الإنذار بالخطر من "جنود يبحثون عن مصائر وطنية". بل من أعماق الشعب. ويحتفظ التاريخ بعد مرور بضع سنوات بكون صفحة "سنوات الحديد والنار" قد طويت. وفضل القصر عندها الفساد على القمع.

بدأ تعلم الديمقراطية الذي يدينه التوريط. عوضت الانتهازية الخوف. فأخذت أطر الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية تنغني جماعة بالحب القديم الذي عاد ثانية. الحب بين القصر والمعارضة. لقد أصبح الزمن زمن التنكرات والصمت وغيرهما من الإنحطاطات. إنها معزوفة من مديح يتجاوب تجاوبا غريبا مع ترتيب فرنسي يستملح على وجه الخصوص عبارات المجاملة والجمل القصيرة التي تتظاهر بالتفكير العميق والتي كان ينطق بها ملك يتقن توزيع أمارات رضاه توزيعا أنيقا. فكانوا يحبون فيه صانع مغرب تشتت فيه رائحة الاستعمار.

وحفاظا على المظاهر. لم يمنع القصر نفسه من أن ينسب إلى نفسه الكفاح من أجل تحرير فلسطين. ففي اللحظة التي كان فيها رجال محمود. رفاق الفدائيين الفلسطينيين في السلاح. يعدمون رميا بالرصاص. كانت مفرزة من القوات المسلحة الملكية تشد الرحال إلى الجولان تحت قيادة اللواء (الجنرال) الصفريوي.

بيد أنه وراء الشعارات. كان الواقع عنيدا. ذلك أن موعد اللقاء بين المغرب وتاريخه. وهو اللقاء الذي لم يحدث. دشن مآسي المستقبل. في يوم 10 ماي من سنة 1973. وبعد أن استخلص مصطفى الوالي الدروس من الفشل. أخذ مصيره بيده وأسس البوليزاريو. وفي يوم 18 دجنبر من سنة 1975. سقط عمر بنجلون برصاص فريق مسلح وَقَعَ بالدم صعودَ مذهبٍ جديد: الإسلاموية. إن فشل ثورةٍ آخرِ فرصةٍ هذه قد زج بالبلد في صراع مع خروجٍ غير تام للاستعمار ومع إفلاس اجتماعي سوف يغذيان على التوالي حربا دامت ثلاثين سنة وإسلاموية زاحفة. سوف يُضي المغرب عقودا وعقودا من أجل اختتام فشل الاختيار الثوري.

قدر قائد

لم يغير الحدا والالَم اللذان يتخللان مسيرة الفقيه البصري من سيرته شيئا. فرغم عودة الحظوة والعناية للفقيه البصري. فإنه سوف يحلُم حتى النهاية بالمساء الموعد الذي سوف يبتلع نظاما غاص في الغلط ليُجعل غداً جديداً يحل. إن همه سوف يبقى دائما هو الثأر المستحيل. تكسو مَسَارَه سلسلةً من الأعمال الفاشلة. التي كانت عديدة وفيرة ما جعل البعض. من انتابهم الشك. يقولون بأن هذا الفشل لم يكن محض صدفة.

وفي خريف حياة الفقيه البصري. ثاب الرجل وأخذ يطالب بالشرعية التاريخية ما دام لم يستطع أن يوجه مستقبل هذا التاريخ. إن حَرَسَ الذاكرة قد بدأوا وضع رواياتهم الخاصة بلأحم الغد؟ وقد جاء هذا في حينه. إذ إن الفقيه البصري لا يرفض هذه الصفحات البطولية التي تَطْعَمُ رواية حياة حتى تأخذ طابعا أكثر مأساوية. عندما عاد إلى بلده. كانت له حظوة وسائل الإعلام وتحدث بإطناب بعبارة مغلفة أنيقة عن دوام الروابط المتينة التي تربط العرش بالشعب المغربي. وهو الخطاب الذي يرتنه ارتهانا بظروف اللحظة.

وها هو ذا الرجل قد بات يتجنب مواجهة ماضيه¹. وهو إن تحدث عن هذا الماضي. فإنما يفعل ذلك من أجل تغيير طبيعة هذا الماضي أو تلميع ساعات المجد السالفة. ففي حوار طويل نُشر في شهر يناير من سنة 1999². وضع ميزات وخصائصه على أنه رمز تاريخي. ولكن رجل دسائس الكواليس والعمل السري لم يكن مرتاحا في هذا التصنيف. ولأن الزمن قد فعل فعله. فإنه حاول دون توفيق أن يشرح بأن عمليات مارس

¹ لم يفضّل الفقيه البصري بمقابلتي رغم المحاولات العديدة.
² نشرته يومية الاتحاد الاشتراكي. لسان حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية.

1973 جرت دون علمه. وهكذا فإن دخول محمود ورجاله وكذا انطلاق العمليات. كلها أمور حدثت دون علمه. زد على ذلك أنه لم ينتظر الأوقات الضائعة التي وفرها له تقاعده وعزلته ليتحدث عن التاريخ كما يطيب له. وهاهو سنة 1974، في رسالة³ بعث بها إلى عبد الرحيم بوعبيد وعبد الرحمن اليوسفي، والتي حررها في رد فعل على سياسة التسوية الظرفية التي فُرِضَت في الجزائر العاصمة. وهو الأمر الذي كان يعطي انطبعا عما كان سيحدث في مؤتمر الحزب سنة 1975 حيث تم رفض الاختيار الثوري: في هذه الرسالة يتحدى الفقيه البصري الذين عزموا على دفنه بسرعة.

وبخصوص ما وقع في شهر مارس من سنة 1973، كتب الفقيه البصري: "بين الفترتين، دُعيت إلى ليبيا. بعد استئناف العلاقات بين البلدين، في مقابل إغلاق الإذاعة الموجهة إلى المغرب العربي. كان الرفيق آيت قدور يرافقني في هذه الرحلة. وتزامنا مع هذا الحدث، كان الشهيد محمد بنونة قد دعا إلى اجتماع في باريس من أجل البث في عدة مشاكل لها علاقة بالتنظيم العسكري. ولكنني، فيما يخصني أنا شخصا، كان علي أن أتغيب عن هذا الاجتماع نظرا للمشاكل التي كانت تتخبط فيها ليبيا. فيما يخص هذه النقطة بالذات، يمكن للرفيقيين آيت قدور وبنحجي أن يدلّيا بمضمون الاجتماع السابق الذكر وبالتدابير التي اتخذت. عند عودة آيت قدور، أخبرني بعد أن وقع ما وقع بأن محمد بنونة ومجموعة من المناضلين قد عادوا إلى المغرب. وقد عاش الرفاق الخاصاصي ومحمد آيت قدور ومحمد بنحجي هذه الأحداث". ثم يختتم: "إن العمل المسلح، باسم الجبهة، قد اقترح ودخل حيز التنفيذ انطلاقا من باريس. وخطة ثالث مارس حررها محمد بنحجي".

من غير المجدي أن ندفع بالتفسير أبعد من هذا لنرى بأن الأمر هنا يهم تمرينا لمراجعة الأحداث، وبادئ ذي بدء، لم تتوقف برامج راديو ليبيا إلا في صيف سنة 1973، أي بعد موت محمود. وليس إبان حياته. إنها إحدى التنازلات التي انفرعها عبد الرحمن اليوسفي من الفقيه البصري خلال الاجتماع-الحصيلة الذي انعقد في الجزائر العاصمة. وبعد ذلك، لم يكن لاجتماع باريس هدف عسكري وإنما كان له هدف تنظيمي واستراتيجي، وليس هدفا عسكريا. وكفي حضور مشاركين لا يتفاسمون أي صلاحية عسكرية داخل التنظيم للتدليل على ذلك. أما "العمل المسلح"، فإنه لم يتم تصوره في باريس في غياب الفقيه البصري. ولكن في ليبيا، وبحضوره، وأخيرا، كيف يمكن أن نتصور أن الفقيه البصري علم "بعد أن وقع ما وقع" برجوع محمود ورجاله في حين أن هذا الرجوع تم بمساعدة الميد. وهو ساعد الفقيه البصري الأمين في تلك الفترة؟ عندما نعرف ما كان يحس به محمود تجاه الميد. يمكن أن نخمن بسهولة أنه كان سيسريحه إن هو تصرف بمبادرة خاصة منه. وأما الباقي، فليس سوى أمور رُتبت "فيما بعد". وأسست على حقائق مغلوطة، يتم به استنكار عمل اعتبر عملا غير مسؤول.

3 نشرتها لوجورنال (الصحيفة)، عدد 145، يوم 25 نونبر-فاغ دجنبر 2000. لم يعترف العني بالأمر صراحة بالوثيقة. ولكنه كذلك لم ينكر لها. هذا الصمت. وباعتبار مضمون الوثيقة الخطير يحمل خاتم اعتراف ضمني.

ذُهِل أولئك الذين كانوا يعتقدون بأنهم كانوا يقاتلون من أجل مبادئ :
— كيف يسمح الفقيه البصري لنفسه أن ينكر دوره ومسئوليته في حين أن أكثرنا
ما زال حياً؟⁴

منذ ذلك الحين واللغز لا يزال قائماً. وكان حامل اسمه العائلي السيئ الذكر. وزير
الداخلية السابق ادريس البصري. يريد أن يجعل الطنون مادية محسوسة. فدخل
سنة 1984 في مفاوضات انتهت بعد بضع سنوات بعودة المعارض الدائم. إنه
اتصال بواصل ما قام به وسيط مناسب: البشير الفيكيكي. الروح المنبوءة في مؤامرة
1973. والذي أصبح بعد ذلك برلمانياً.

قدر حزب

بالنسبة إلى العديدين. فإن تنبؤ دهبون قد تحقق. فعبد الرحمن اليوسفي. عكس
الفقيه البصري. تأقلم مع شر أخذ في الزوال. مقتنعا بأنه في آخر المطاف سوف
يكون النصر له. وهكذا وفي فبراير من سنة 1998. قيل دعوة الحسن الثاني بأن
يشكل حكومة. ولكن. وكما هو شأن الفقيه البصري. سوف يخصص مجمل طاقته
لإنقاذ المظاهر. التحق بديوانه اليازغي وعجول وأيت قدور وبنحيسى. ومع ذلك. فإن أول
التحولات السياسية وقع قبل ذلك. وهكذا فإن المهدي العلوي قد جُوزي بمنصب سفير.
والخصاصي أصبح برلمانياً. وماسين. عاملاً على اخنيفرة. وهي المدينة التي وضع فيها
قنابل سنة 1973.

منذ إعادة تشكيل الحزب سنة 1975. كان له الوقت الكافي ليتحول ويتغير.
فريح من احترام القصر له بقدر ما خسر من مصداقية عند الجماهير. غير اسم الحزب
فأصبح الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. والتحق وسط الفرحة العارمة إبان المسيرة
الخضراء بالمعارضة الدستورية. وفيما يخص ممارسة السلطة. فإنه لم يعد ينافس
الملكية. ولكنه أصبح ينافس الأحزاب الأخرى. لقد بات جزءاً لا يتجزأ مما كان المهدي بن
بركة يسميه “معارضة صاحب الجلالة”. وأصبح يحاور اليوم أحزاباً كان بالأمرس يعتبرها
في خدمة القصر. إن الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية قد غير شكل عمله. ومن ثمة
فإنه بَصَحى برياطه النضالي مقابل تصور باهت للخلافات السياسية. لقد فشل الاتحاد
الاشتراكي في استئصال الشر من جذوره. وهاهو الآن يحاول أن يعالج آثار هذا الشر.
وهكذا. فإن الحزب تاه وسط تردداته. فالتحق بتوافق سياسي هش. والحزب عندما تسلم
القضايا والشؤون سنة 1998. لم يعد يملك شيئاً من تلك المنظمة الجماهيرية التي
كانت تؤطرها نخبة البلد الفكرية. والتي كانت بالأمرس مصدر فخره واعتزازه. لقد بات
حزباً للأعيان. مرغماً على أن يتعامل مع أوليغارشية التخزن السياسية-الاقتصادية.

4 حوار للمؤلف مع أحمد بنجلون.

بأي هدف؟ في المواجهة المتشنجة بالأمس. حيث كان الدفاع عن الحريات يختلط بالكفاح من أجل بقاء الفرد حيا. كان الرهان لا يقبل أي إبهام أو غموض. والآن. بعد أن أصبح المهم هو إعطاء مضمون حرية يُزعم بأنها ممكنة. تعطلت الآلة. إن الحزب الذي كان يعشق الحرية بدون قيد أو شرط. وذلك لأنه يرفض الحكم المطلق أكثر مما كانت له ثقافة ديمقراطية حقيقية. إن هذا الحزب. ولأنه لم يعرف كيف يرفع خديبات التغيير. فإنه قد ضاع وسط خطابات طائفية بالية.

هذا في الوقت نفسه الذي تعرف فيه الإقطاعية تراجع الانتقادات تجاهها. بدافع من ملك جديد شاب ومرحب. سوف يقود حملة عُبئت لها بقوة وسائل الإعلام. ومن ثمة فهي حملة جميع وائتلاف. ضد الشرور والآلام التي كان الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية قد تطوع من قبل لمحاربتها: البؤس المُستَوطن والامية والتخلف وحرية التعبير وحقوق الإنسان وغيرها.

والحال أنه. وأكثر من أي وقت مضى. ما زال احتكار الخزن وهيمنته. وهو الذي أبقر البلاد في الفقر الاقتصادي والبلالة السياسية بتبذيره للموارد تبذيرا. ما زال عائقا أمام الحداثة التي قد تعطي للمغرب مكانته في الألفية الثالثة.

يبقى الإرث الثوري الثقيل المزعج. لقد تغير الزمن وفقدت القضية من طراوتها وجدهتها. لصالح "أفاق ديمقراطية" أكيد أنها لا تحسبُ الأمور إلا قليلا. ولكنها تورط أقل. وفيما يخص جيل الأطر الجديدة الذي ينعم بحياة لم تعرف تقلبات سنوات الحديد والنار. فإن الثورة أخذت مظاهر إحياء ذكريات حنين متفادمة. توحى لهم ثقة مستقيمة الرأي بواقعية قوية سرعان ما تربط الكفاح من أجل الحرية بصيبانية سياسية. إن تفكيرهم متعب. فهم ينظرون إلى الناجين. الشاهدين على التمزق. في أحسن الأحوال. نظرة تعاطف بمنزج بالتسامح. وفي أسوء الحالات. نظرة اللامبالاة.

إن الفكرة نفسها القائلة بأن رجالا كافحوا في المغرب من أجل بديل للملكية. لا يمكن التفكير فيها ولو تفكيرا سطحيا لا فائدة فيه. ومن ثمة. فإن الحزب تبنى أطروحة تيار ثوري تحرك في استقلالية عن الحزب الذي يبقى متشبثا بدوام الملكية. لقد سمحت التواءات الزمن بهذا النوع من التكيف الذي لا يكلف كثيرا. بيد أنه سنة 1973. كان هذا الطرح يملك من القوة ما كانت تملكه خرافة الملك الطيب الواقع ضحية حاشية سيئة النية. في ذلك العهد. كان الفرق البسيط ضريا من التكتيك. وأما الهدف فكان لا يقبل أي مجادلة. كان يجب القضاء على الملكية لتنظيف المغرب من إدارة متفادمة يتحكم فيها إقطاعيون يساندون الاستعمار الجديد.

تسبب فشل سنة 1973 في الفصل بين تيارين يتميزان بحسب قراءتهما للأحداث. "التيار المغامر" بالنسبة إلى البعض. الذي كان يسارع إلى أن يتميز عر

فشل ثقل مزعج ومورط، و"عمل يُنذر ويحذر" من توجه نحو الراديكالية مستقبلا. بالنسبة إلى البعض الآخر. زادت هذه الازدواجية في تغذية انقسام سياسي سوف يحسن القصر استغلاله وذلك بالتحكم في معارضة أصابها مرض النسيان الذي كان يُشكل مع ذلك النجاة. توجد في هذا التوافق السياسي الذي باركه النسيان مفارقة مذهلة. لما أزعج الحزب الماضي باسم توافق سياسي. من المفروض أن يضع قواعد تناوب نحو الديمقراطية. ألم يُعد الحزب مهتدا بأن يدفن تراثا من الكفاح. يمكنه أن يعطي لهذه التجربة مداها التاريخي الواقعي؟ إلا إن كان الحزب. ودون أن يتجرأ على أن يعترف بالأمر لنفسه هو. قد اختار "التناوب الممنوح" بهدف واحد وهو ضمان بقاء الحزن بعد اختفاء الحسن الثاني. مادام لم يستطع تقديم بديل قابل للحياة والاستمرار؟ إن بتر الذاكرة يبقى عندها الوسيلة الوحيدة لإخفاء الفشل.

قَدْرُ جِيلٍ

إن موت رفاق توفيق. ومن بينهم. إعدام أقرب رفاقه. دهكون وادريس الملباني. سوف يسكن طويلا ذهن الرجل. إن هذا الاختفاء يحمل حداً لجأته هو نفسه. إن إحساسا محتدا هائجا سوف ينتصر على قدرته على المقاومة المعنوية. فخلال لقاء قصير في مقهى بالدار البيضاء. كان توفيق ذا حماس محزن مؤثر. وعينين مبلبلتين حزنتين. كان توفيق يرمز إلى صورة جيل كامل من المناضلين. إن الملحمة المأساوية. ملحمة فشل الاختيار الثوري. قد أورثتهم حاضرا شوّهه الماضي.

وأما المصير الذي يعرف كيف يتعامل بدون رحمة مع المغمورين في التاريخ. فإنه لم يرحم كذلك مستقبلهم.

بعد أن عُفي عن أحمد بنجلون. استقبله عند خروجه من السجن يوم الجمعة 12 دجنبر 1975 أخوه عمر. كان اللقاء قصيرا. فبعد ستة أيام. أي يوم 18 دجنبر مات عمر بنجلون مفتولا أمام باب بيته. ورغم أن أحمد بنجلون لجأ فإنه ظل مصدوما. وعكس آخرين. فإنه لا يجد في فشل الحلم الثوري أي تبرير للهدنة السياسية. ولأنه لم يقبل بنصف انتصار فإنه عاد إلى السجن سنة 1980 و1981 و1983 لـ "يتعامل معه" نفس جلاديه.

وفي نهاية الثمانينيات. غادر الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية وأسس حزب الطليعة الديمقراطية الاشتراكية. والتحق به صديقه في دمشق. البزيد وخالد. بعد أن غادر هذا الأخير تدريجيا التشكيلات السياسية بسبب الغيظ أكثر مما كان بسبب الخلافات السياسية. احتفظ بموقف متحفظ. مترددا فيما يخص الهوية السياسية لكفاحه. في باريس سنة 1995. عشية رجوعه إلى المغرب بعد أزيد من ثلاثين سنة من المنفى. كان لا يزال يُقدم نفسه على أنه مقاوم.

سكن الإصرارُ نفسه الكوار الذي أصبح. بعد أن خرج من السجن سنة 1975. عضوا في المكتب السياسي لمنظمة العمل الديمقراطي الشعبي. بالأمس كما هو شأن اليوم. ما زال يُظهر عَزَمَ ذلك الذي يتبع الطريق الذي خدده له قناعته. بالنسبة إلى البعض. كانت العودة إلى الأمور الواقعية بطيئة وأليمة. انسحبوا من ميدان السياسة بعد تفكير منعزل. تسلل إليه الوعي بأنهم كانوا مثاليين عازمين على الرقي بالشعب المغربي إلى مصير لربما لم يكن هو قدره. إن جربة الفشل الأليمة قد جعلت ذاكرتهم ذاكرة انتقائية. فأخذوا يجتروا تاريخا لم يهضموه جيدا. أصبحت حياتهم مسرحا للظلال تنعكس فوقه أشباح الماضي. وغدت الأحقاد المقدسة مبرراتهم المشتركة. إن تحدثوا فإنما يتحدثون وكلهم شك. يستعملون كلمات مراوغة فيها غيظ صامت أثقلته المرارة. إن ما يستهجنونه هو موضوع فضولي ذاته أكثر مما يستهجنون أسئلتي. وكان هذا الموضوع خيانة دون أن يستطيعوا تفسير أي خيانة هي. وعلى وجه العموم. لا يقدم الحديث والحوار شيئا. ما دام المحاور يبدو عازما على أن لا يكون الأمر سوى تبادل عادي لعبارات المجاملة.

ولكن الأسباب نفسها تؤدي أحيانا إلى نتائج مختلفة. فبالنسبة إلى آيت قدور كذلك. فإن التاريخ لم يتحسن مع مرور السنوات. لقد تكون عنده غيظ دائم. فتحول ناسك الثورة إلى مناضل بالذاكرة. والمفارقة هي أن تعليقاته السخية على هذه الملحمة تَلَزَمَ الصمت فيما يخص المسألة الأساسية: دوره في إدارة التنظيم سنة 1973. فكانت محاولتي للحديث عن تفاصيل معينة نصطدم بتظاهره بأن الأمر يفاجؤه. وعلى العكس من ذلك. كانت شهادته مرافعة لا رحمة فيها ضد الفقيه البصري : اختلاس وخيانة سياسية وولع بالأكاذيب.

وضمن الأقدار التي خُطمت ورُميت في غياهب نسيان التاريخ. هناك مصير الحسين المانوزي الذي ضاع في سجون القصر الملكي. فإضافة إلى كون الحسين المانوزي كان إطارا في الكفاح المسلح. فقد كان أهم مذياعي راديو-ليبيا الذي كان يُشعل النار في الملك وفي القصر. وعندما نعرف أن الحسن الثاني كان يمارس السلطة ممارسة شخصية خاصة. نخمن بسهولة أن الحسين المانوزي كان بالنسبة إليه رضيعا مرموقا. لما تعرف عليه بدار المقر العبد من المناضلين المعتقلين سنة 1973. ألصقت صورته على حيطان أزقة الرباط يوم 13 يوليوز 1975: مطلوب للبحث لأنه هرب ليلة 12-13 يوليوز. كان ضمن الهاربين أيضا المقدم (ليوتنو كولونيل) عبابو. أخ قائد الانقلاب. والمساعد (أدجودان) عفا. والقبطان الشلاط والمرشح لرتبة ضابط (أسبيران) مزريق. وكذا الإخوة بوريكات الثلاثة. وهم وجوه معروفة أخرى تواجدت داخل سجون الملك. ولما ألقى القبض ثانية على الجنود. أعدموا وأرسل الأخوة بوريكات إلى السجن-المقبرة تازمامارت الذي لن ينفلتوا منه إلا في دجنبر من سنة 1991. وأما عن الحسين

المانوزي. فليس هناك من خبر. سوف تشير مصادر بوليسية إلى وجوده بالقيادة العليا للدرك الملكي بالرباط من سنة 1975 إلى سنة 1981. وكان إفراغ سجن تازمامارت نهاية سنة 1991 قد ولد الأمل من جديد عند أقربائه : فقد تحدثت مصادر شبه رسمية عن قرب إطلاق سراحه. ثم لاشيء.

وفي مارس من سنة 1998. وبعد تعيين حكومة عبد الرحمن اليوسفي. وعدت "مصادر مرخص لها" بإطلاق سراحه عما قريب. ويوم 15 أكتوبر ظهر اسمه ضمن لائحة للمختفين صُرح بأنهم قد توفوا. إنه اسم أصبح رقما مجهولا. بدون جثة وبدون قبر. وكما هو شأن المهدي بن بركة. فإن آثاره سوف تختفي مع شيخوخة الذين عذبوا في عهد الحسن الثاني.

خاتمة

عدة مرات. كان الصحفي الذي يترجم لي كلام سيدي حمو يقف ليهدئ زوجة مرزوق. جرى الحوار داخل منزل. بعيدا عن أنظار المتطفلين. ولكنه دام أزيد من الساعة الواحدة فأخذ يجلب الجيران الذين حيرهم أمر وجودنا. كان الزوار غير المنتظرين. إما يستفسرون عن الأخبار. وإما يطلبون خدمة ما؛ تضاعف عددهم. وكانت إشاراتهم المستفسرة تعبر في كل مرة فتحة الباب. تزايدت عصبية زوجة مرزوق. بدأ الصحفي يجد صعوبة في تهدئتها. وأما سيدي حمو فواصل حكايته غير مكترث بشيء. وأما مرزوق. وهو الثوري السابق بكلميمة. والذي يستضيف اجتماعنا هذا في بيته. فإنه مدين بحياته لزوجته. فخلال أربع عشرة سنة من السجن الإرادي. استطاعت أن تحافظ على سر كانت حتى بناتها تجهلنه. وتذكر إحداهن بكل بساطة أن أمها كانت تغسل الملابس خلال الليل. وأن خبزة واحدة كانت تختفي بانتظام من الفرن.

فكانت أمها تشرح لها الأمر قائلة:

— إنها خبزة المتسول.

عندما عاد مرزوق إلى سطح الأرض سنة 1987. أجب فتاة ثالثة سماها حياة. بعد أن روى سيدي حمو تعطشي وفضولي خلال اللقاءات الثلاث الطويلة. ودعني ورحل إلى الرباط يوم 31 غشت من سنة 1996. وقال لي:

— في المرة المقبلة. زُرني في تغغير. إنني أسكن منطقة يحبها السياح كثيرا لأن بها الكثير من الأشياء التي يجب اكتشافها.

انتبهت إلى نبرة الاستهزاء التي تتخلل دعوته. غير أنه لم تكن هناك من مرة مقبلة. فقد توفي سيدي حمو بعد ثلاثة أيام من ذلك. يوم ثالث شتنبر من سنة 1996. كان لا يفارق عصاه وجلبابه. إذ كان يعبر بهما عن إحساس عميق بالإهمال. عندما علمت بوفاته. تذكرت ما كان يقوله عنه. سنة 1973. سكان الأطلس :

— إنه يوجد في كل مكان. ولا يوجد في أي مكان.

بعد انصرام ربع قرن على مرور هؤلاء الثوار من هذه الربوع الأطلسية. وجدتني أقتفي مسارهم ثانية. كنت أجهل ما الذي سوف أكتشفه. فاستسلمت لمفاجآت مظهر المنطقة المتواضع البسيط. كان البؤس والكآبة لا يزالان هما نفسهما بدور شك كما كانا في السابق. منذ ذلك الحين، خرب التصحر واحات النخيل التي كانت تحيط في السابق بالدواوير. وأصبحت اليوم تلال تنغير حيث كانت تقفز الغزلان. وهي الطريدة التي كان يفضلها في الماضي موحى أوالحاج، عارية جافة. ولكن هناك مع ذلك تقدم ملحوظ : أنشأت منظمة غير حكومية ألمانية خطا كهربائيا يمتد حتى أميلاجو هناك عزاء آخر. إن صح أنه فعلا عزاء، وهو أن المنطقة أصبحت القيلة المفضلة لهؤلاء المشي في الصحراء وسباق السيارات.

كيف يمكن للمرء أن يفكر دون أن ينتابه الرعب بأن هذه المناطق الخلابة التي تبهير السباح، كانت مسرحاً مأساة سالت فيها دماء ودموع كثيرة؟ إن مرور الزمن الذي لا ينفتح على الذكرى، يكشف حقيقة لم تتغير. إنه شاهد صامت على المأساة التي وقعت هاهنا. في بعض الأماكن، تظهر آثار القتال على حيطان بعض المنازل. وتبدو معنويات الناجين الذين ألتقي بهم داخل هذه المنازل معنويات سالمة. فقد عذبوا وحرّموا من حريتهم وانتزعت منهم ممتلكاتهم. ولكنهم يتبنون أعمالهم الماضية بفخر ويمدحون الشهداء الذين اختفوا مدحا كثيراً.

ومع ذلك، فإن استقبائهم مهما كان حاراً، لا يمكن أن يخفي الحقيقة المرعبة. إن مثالهم الأعلى قد ضاع وسط رجة عالم تصنعه واقعية سياسية لها نبرة الاعتراف بالعجز. إنها أرواح متقززة تنظر نظرة مرعوبة إلى أعداء الأمس وهم يتبادلون أحاديث ملساء منافقة مع أولئك بالذات الذين كانوا يناشدونهم قديماً القيام بالكفاح المسلح. اختلطت عليهم الأمور فلم يعودوا يفهمون شيئاً مما يجري سوى أن هذا الغرام سوف يمدد طويلاً عمر التهميش الذي يعيشونه.

إن مسارات الثورة قد تاهت في اللامبالاة، حاملة معها الذكرى الرهيبة لكفاح يحلم الكثيرون في سرهم أن يعود ثانية في أجواء أرحم. عند الحديث عن محمود، تبتل أعينهم وتختنق أصواتهم. فيصبح لمأساة بؤسهم الحياة فجأة وجه؛ إنه وجه إطار سياسي. كان إضافة إلى هذا مهندساً ينتظره مستقبل زاهر. مهندس تقاسم معهم حياتهم لدرجة أنه وهب حياته لخدمة تحريرهم. إنهم في حدادٍ شجاع نبيل. حدادٌ لن يشعروا به أبداً جاء قائد سياسي آخر.

لنُعطِ الكلمة لذاكرة الماضي، وسوف نرون أن هذه الذاكرة لم تتوقف عن غزو واقع الزمن الحاضر.

السبت ٤ - ٨ - ٢١

الأخ محمد، تحية طيبة وبعد،

أود الجواب على رسالتك المؤرخة به ١٣ - ٢١ - ٢٢ بتفصيل، وحتى

تحرك حيايين غلبنا أبدأ بإعادة كتابة نص رسالتك :

١ - ٢ - ٢١ - ٢٢

- ١- "الحاجة لسياسة بالارتحال معكم بالتعاون التي ترسلونها."
- ٢- "يظهر أن العمل يمتد بهبط، رغم ما تتطلبه المرحلة من العكس."
- ٣- "من موصولات علاقة له بالمسائل جغرافياً وقبلياً ومالياً، الخوف من أن يتغيب في لحظة ويضيع الوقت كله."
- ٤- "بعد استدعاء والتراخي في الارتحال معه، وأنتم تعرفون أن ربط الإتحال على الأقل تقدم ليس مجرد ضرورة بل أن لم يلقح يمكن أن ينقلب للارته، خصوصاً وأن ثمة شبهة للقاء، صلح وإحباطه الشخصي."
- ٥- "كان يوس أن يصل في أقرب وقت من أجله، دراسة خدمية الأولى معه والمطالبة بصلته كما هو، ومعنية الرباط، أو فقير بصفة خاصة، وقد بات من اللازم الأكيد أن هذا الأخير يمكن أن يكون للخدمة قائمة لاكتائفة ونخطة."
- ٦- "يجب أن تكون الأدوات مهيأة بأقصى ما يكون التنظيم والمزج."
- ٧- "بمجرد رجوعه نقرر في اللحظة التي اقترحتسوها للتدرج وكذلك الحاج برسيوش، لكن إلى ذلك الحين الوقت يجب نصله حالاً على الشياطين حان."
- ٨- "بمجرد ما يستأنف الطوارق بالهذه أي سبيل ما تسمى الظروف بأنه متول سيد شد زهير ومعه الخطة والأدوات من أجل إخبار مهمة هناك."
- ٩- "هل من الممكن استعمال شخص خاص بالربطة ولكن ابن الخ الحسنة أن كان لا يزال كما عرفته، يجب تعذيب جماعة منسوبة تستطيع القيام بعملية مهمة بوجبة كما يجب ما سيصف شبكة الإشتغالات تكون مستعدة التقابل كل ما يمر بذلك الإقليم لاستعداد هذه العملية نفسها."
- ١٠- "إن ترك على الانخراط يتم باسترجاع انعاسه وبناء جهازه الحسنة والمطلوب حالياً سيكون قلقة لا شيل لها، لنا ما نطلبه معم ضياع الوقت."
- ١١- "ومن جفتي فهناك آفاقاً مهمة تتطلب التفرغ ومعنى هذا أن تكفوا عن استشارتي حتى في الجزئيات..."
- ١٢- "يجب استغلال سوق الجزائر إلى أقصى حد في النقاش مع الأطر الجزائرية، بمسيرة رميوسى صاعد على لقاء الأستاذ جليل مزيان."
- ١٣- "يجب العمل على ذلك! كل واحد لا بما يحسنه فقط واللف من استعمال سياسة التفتة مكان محنة التنظيم من أجل اشاعة التنازل فقط."

أعتقد أن هذه الرسالة ، والتي لم أتسلمها إلا يوم 21 - 2 - 71 م. أي عندما كنت في نجا ، لها من الحقيقة والمضمون ما يتطلب تجددها من المراسل صريح لإزالة كل لبس . وهذا جوابي على نقاشكما في 4 إلى 23 أقره يومه يومه للقاء في القنصلية :

1- إن الإلتصال مع عائش ، في نجا بك ، لا يحل المراسل التنظيمية هنا . هنا ما أقدمه ، طلبنا بمقتضى سوعه جديد مع عبد السلام الذي جاء ~~من~~ في رسالة لك والمطروحة يوم 12 - 2 - 71 ، وكل هذا الطلب به من جوابه . ومضى هذا الأمر لم يتم لحد الآن ما سبق وأن كثرناه في أعمار يتناخصر إقامته بجماعة ببا ويطلب تتسلم منك العلاقات مع المغرب . وذلك كخضرة نحو جنودك من فرنسا منذ بداية العمل . وبذلك تتعطل الأعمال ! انتظارا لسجودك بباريس حتى تتأمره حالما بنفسك .

2- إن العمل بمقتضى فعلا بسيط ، رغم ما تتطلبه المرحلة من العكس . وذلك ليس هنا فقط ولكن أيضا في فرنسا وغيرها . وإن ذلك را جع لشكل تنظيمينا ؟ ~~بالتالي~~ أما من جاء بنا فحسبنا تعرض في هذه النقطة من موقع بن حرسه وعبد السلام ، وأما من جاء به التنظيم بصفة خاصة فإن العمل بمقتضى بسيط في الظروف العادية ، بدتيرا ما يتعسر . فكيف له أن يمتثل للبرية التي تتطلبها الأوضاع العارضة . إن الحقيقة المرة هي أننا لا نستطيع - ما به منا كل شكلنا الحالي - أن نشارك بفرقة الأحداث ونستفيد من المميزات التي يعيها مبعوثنا سنة 66 .

3- في سوعه بن حرسى : لم يكن عندي عنوانه كما كان لنا مقره في نجا في ما هم جيران وبعثته لي مرتين بالتوازي جهات طلبته منك . وكان في المرة الأولى فخرنا ضمونا قسما . وبحسبه توصلي به كلفني أحد الإثنان لييس في إليه . وكان له ذلك يوم 28 - 6 . وبعد يومين من التحويل بالمرتب ، فأخلفت الحدود والطلبات ووقفت التخليص ولكن في نجا والجزائر . إلى المغرب . ما استغرق التأخير المذكور مدة طويلة ليكون جاء هذا للسنة يوم 8 - 8 . وليس منا البطل وأجما إليه . وإنما إلى عوامل إدارية وقرارات متخذة من طرف الدولتين . (في هذه الأثناء ، لأن مبعوثنا في فرنسا ومنا نستظر رجوعه محمد بن العربي كان في نجا وهو الذي كلف بالإتصال بوسيلة لإخبار من يدعو به من محمد . كما أن الإحصاء ~~هو~~ آخر من تركم إليه لا تعادل معصم . ذهب في حيولة تبي بعض المنى ولم أكمل بذلك إلا بعد عيابه ، ولم يرجع من رحلته إلا يوم 10 - 8)

4- في هذه الأثناء ، أجي عندما كنت أنتظر أن يسافر الآخ إلى بن حرسى ، جاءته رسالة منك تترقب لنا فيها موعدا مع عبد السلام ليوم 10 - 8 . ولم تصل رسالة لك إلا يوم 8 - 8 . فكان يوم 10 - 8 لم يعد مستحبا للإتصال ولم يبق إلا يوم 13 - 8 ، في هذه الأثناء وصل محمد والتحق الشياخ

ورأيت أن نقطعت إسمائهم، أي لقد انقطعت علاقتهم بالاسم
ونحننا من يساعدهم عبور الحدود، كما فقدت إسمائهم للأسلحة، إلى عبد السلام،
لذلك قررت أن أتصل به عن الإتحال بين سورسنا سوتنا والإتحال مع عبد السلام
نظرا لأهمية هذا الإتحال، ونفرا لأنني لم أجد استوني إلا على مراسل واحد
لذلك بعثت هذا الأتي يوم ٩-١٠ من رزديا بالحيوان والنعوة والمعلومات
لأننا جيل قديم عبد السلام لإنشائه ما عليه السيد هذا الموضوع - ولهذا
السبب أخبرتك بدخول الشيباني وأبنيه (وسنته أنوي تأخير قدوم
عبد السلام بهمة أسبوعين - هذا ما بلغته للمراسل) - إنه ليس
مصحح أنه تسمع لنا إسمائهم أخرى دون هؤلاء لعبور الحدود، والحيد
يعرف ذلك.

ويوم ١٥-٦-٧ أقفلت الحدود، وبعد هذا التاريخ أصبحت منطلقة وحيدة
جاءت لوضع لوضعية جديدة، من حضرات الجول وتغير لما أن طرقات المغرب
أصبحت مستقلة بالبراجيات، وهاجنا المراسل لا يتوفر على ورقة تعريفية
مطوية وليست إقامته بالبراجية، فرجع من الحدود وقررت عدم بعثه
في تلك الظروف وطلبت منك يوم ١٢-٦-٧ أن تقدم لنا الموضع لذلك وجهته
هذا الأتي يوم ١٤-٦-٧ عندئذ سوسم، في انتظار إسمائهم جديدة للإتحال
بعد السلام، ونظرا لفرغي تأخير كثيرة الزووم من المغرب وسحب جواز السفر
لكل الدار، سيقم إلى المغرب في السبأ آخر، فته كل ما جينا منا ولم يذهب في
سببته إلا أخيرا حيث ذهب لعبور الحدود بطريقة سرية، وكان هذا في
نهاية يوليو/يوم ٢٠-٧-١٩٧٠.

نظرا لكل هذا فإني أعتزب لعبارة "التراخي في الإتحال مع عبد السلام"،
وأردنا لفظة وصفا، إنني كنت جدي حارما على أن تدخل تعديلا على
مفصلنا منا وطلبته الإتحال لتصله معي تليطونيا مرارا من الحانني
والسيد وبحثته أنتل معتمدا أنك سوسم، منذ يوم ١٥-٦-٧ في الشرق كما
جاء في إحدى رسائلنا، حقيقة أن عدم الإتحال قد يغلبه إلى حارمة الخطر
مما يمكن أن نلقة رأيناها حاليا، أن ذلك ليس حاف على ذلك حاولت
الإتحال بك مباشرة للإتحال معك على صلة جديدة بالنسبة لعبد السلام
والله في الأعلى ستن نكيفه بسرعة تتركنا مع الوضع الساتم من ١٥-٦-٧
فإن المسألة كثيرة ما تعنيك لأن أسد الإتحال أو بعد منهم يعتبرونها
غير جديرة بالإهتمام، نظرا لعدم الإتحال من الإتحالات نحن في غنى من ذلك
لأنه لا تبرز شيء.

٥- إنني أدرك كما قلت لغزوة الإتحال مع عبد السلام لذلك طلبت منك
تجديد الموضع، إما الإسمائهم التي تتحدث عنها بعد فقدان إسمائهم
الشيباني وأبنائه، وذلك لا وسود له، وقد انتظرت مدة ١٥ أيام
قبل أن أترك الإسماء الشيباني من جديد وهي الآن في مكانة استطلاعية
ورجاء الحيد.

٦- إنني أعرف "الأداة" المهمة، بالنسبة للمراق الذين رجحوا من
المغرب بعد الإتحالات فإني حال في الإتحال طر والإتحال

بالإضافة إلى تجميع السياسيين منهم قد رما قنا الباقون في الشرق،
 وهم جميعا منا فلو ان اسمي من "الأدلة" أما بالنسبة للإخوان
 الذين سلموا وأصحاب العصور فإن استثنائنا الآن في التعليم والإسلام فإن
 الأمر مختلف عندهم ما بين "ممل وطني" و"تحريريتي" ما بين مجموع
 في العمل ورغبة في الاستقامة... وأحسن رصف المستطيرح إطلاقه
 عليهم هو "Anarches" - ليس بمازلاء الناس منا فلو ان ما دام
 الحقيقة هو الرابطة، وأسلوب الترفيع سائد وعقلية السواد
 كامنة من نخاعهم وما إلى ذلك من روايتي سيجع الإقطاع... إن كانت
 الضرورة تقتضي التعامل مع هؤلاء الإخوان فلهذا كجوده، ولم يقدم
 نوع من المنفعة بأمانة واستقامة صادق لم يصبح أحد منا ضليعا،
 إنني في الحقيقة تربية جمعة لتكوين منا فلو ان اشتداد في الميدان المسلح
 على أساس أن تتقلب العقل قد جعل رأسا على عقبه وأن تتطهر لمقاومة
 اللطافة المحقة... وبعد هذان المجهولتان فليست هناك "أدلة"
 أخرى يمكن استحداث منها ذلك. وإن كان هناك سبب لإثبات هذا
 الموضوع فإن ربي توضيحه لأنهم لم أدركه.

٧- بعد أن وعدتنا أن زهير تم النصية سيحضر معي الدنا صلي في موضع
 الأمل والدار البيضاء والساحل، لم يحضر النصية معي شيئا في الموضع،
 أما زهير فلم تغيب عنه: إن كان المقصود هو أن يتكلم زهير بجمعة
 الدار البيضاء فهو أحسن على لأنا صوفي أن ننتهت واعتنا لنا سنحرفها
 في عملية الأمل والريفة وهذا ليس أكثر.

٨- لم يجمع الحاج بالشيء في قط، فلهذا كان عندكم نبأ هالفا لذلك! في موضع
 التبريت إن لم يتم بصرمة منسحق المرحمة.

٩- أجه أخ المحسن مرفي بالرائية منذ أمس، وقد جئت المحسن في طلبه
 أسد الأشتام من الداعة ليقلقه بإدته مع سماء ويتبر المحسن مرفي
 موبوك وأونكر في جدي
 أما البجامة التي ستقدم بجمعة وحيدة كما تخبر بها فليست هناك سوء
 البجامة التي تعرفها في الرشق الذي قد حرا من الشرق وإباقون فيه،
 وسنستطيع فيها هذه البجامة إن أنته أخبرتنا بجمع المسة لنفسر
 عدد الأزد ونوعيتهم وما يتلقاه المرفي من تربية في أصحاب
 أما بالنسبة لشبكة الاستخبارات ما في السعي بواسطة شبكة الميدي
 أبا. أشيبا في العلم أن النظم ~~هتة~~ استخباراتيا إلى حد ما ليرائه
 لا يمكننا أن نحمل بالشبكة تكون ممتعة التقاط كل ما يمر به ذلك الإقليم
 لأن هنا يتطبع بناء تشخيصها حكما لا يحذف بسرعة وقد انقلبت نفسها
 إن فكرة "الضبط على البهائم" ومع في هذه الحالة محال ذلك فديرة
 الخزي - لأن ما لدينا من إمكانيات، وليس هنا قط، هو وما تحقق
 هذا المشاعر.

١٥ - حقاً ان النخام تعرض لهرقة عنيفة في جهازه وهو يتساقط مع السوت
 لتبارك الحماة . وعدم تحررنا في هذا السوت بالسات فلهذه لا تظهر بل
 تخاسب عليها .. بمانا مواجبه وكيفية . انتطرت مكافئتك على احرمن
 البير . في السوت الذي كنته ارفعيه لا كثر في ربيته ان تعطانا الإشارة
 لننتطرت بشكل مثلي ومنصف معك . بالنسبة لوليامي الرقائ في ان
 مرور الأحداث الأخيرة اما انغنا ونحن ما جزية عن القيام بمواجبهنا
 خلفه صدمة ائمنه من الصدمة التي تترتبها فينا حيلة ! اعتقال رقائنا
 بسنة ٢٥ . ومن المؤكد ان المطلوب ليس هو عدم ضياع الوقت فقط
 ولكن إعادة تنقيح الوضع من جديد وبسرعة وتحقيق الخطوات الدورية
 بسرعة من أجل بداية العمل . بل يجب ان يبدأ العمل . ان الذي يقول بنسا
 وبسنة العمل حالياً هو السلاح والعلاقة مع الداخل . لهذا يجب التعجيل
 بحصة ليبدا لتزودنا بالسلاح . واستعداد الرقائ في الشرق واعطائنا
 سرعنا جديدا مع عبد السلام .

١١ - اننا من احرمن اننا على تنفرد بحصة أهم مما تقوم به في باريس
 وقد لما تحتك كعدد من الرقائ في هذا الموضوع مرة مراته وسه يكون
 من الأوليه اننا يمدد لك تكليل من الإهتمام بالجزئيات والتشغرن
 للمهام القيادية الفعلية . لكن من جهتي ومن جهة باقي أطراف التنظيم
 نستعمل مظهرين الى طرح الجزئيات معك ما دمته مستمرا على كل صغر
 وبسيرة . وان راجعته للمواضيع التي طرحتها عليك بجزئياتها فستري
 اننا مرتبطة بك .

١٢ - لقد لايتك في هذا الموضوع في الرسالة السابقة .

لا - ارجو ان تشير في موضوع الى المناهج أو الممارسات التي استعملت فيها
 " حصة التتبع كحصة التنظيم من أجل إشاعة التناؤل غلط حصة يتضح
 لي ذلك . اننا في موضوع التناؤل فلا نلج من اننا طيه احدا . لا سيما اننا
 مكشفا به . وكما اننا لموا اننا انفسه جوائبه الضعف والنقصان عننا
 ولا نلج الى الجوائبه الموجبة . أو تحدثت عن استورة كتحليل ليفهم ان
 انما انما المقصود هو تعامل مع عبد الله . فذلك من باب الإستيعاب حصة استيعاب
 من معلوماته ولا نلج قرارى بناءا من معلومات حصة حصة وليس من جهل .

انفتح فرصة الرد على هذا الرسالة لأتي بعدا من المسار فجميع كمنه دائما
 ارفعيه في سنا تحتها معك سائيا من توضيح جوائبه اراها من التواتر العاتقة
 تنطهينها ونظريا أسلوبيا وتعامل .
 ان الامتات ١٥ - ٢ وما نتج عنها من وضع ناخبي كتحول معركة الإذنة فاعلة
 الممثلة . وممثل من اننا زمام المبادرة والاستعداد من ضمن الحكم ليست
 هي اول مرة نلج فيها متفرجين على الأحداث التي تظهر المظهر . ان نلجنا
 في دستور راجع لمشاكل تنظيمنا :

- فنياسة القيادة الرمزية الجماعية التي تعطي أضعاف ما يمكن أن تعطيها قيادة شخصي واحد مهما بلغتة بقرينة وطاقتة على العمل الذي المنجبه . وهذا الشكل من القيادة للحرية المسماة نسبة أو لقيادة الشعوب هو الشكل الصحيح والعلمي وما عداه إنما هو مخالف لمسير التطور والتاريخ ومنهجه الشعب .

إن المناضلين بمختلف ميولهم يطالبون بتحقيق هذه الخطوة وقد نصحت الظروف لتحقيقها في أقرب وقت بشكل منطقي وبما لتزام وليست بتوزيع المهام والمسؤوليات والقدرات بالمسيرين من العمل الشاق الذي أظهر من خطورته والمتاع كل التي يلقاها . وما تخطيط اليسار المطرئين في تناقضاته إلا نتيجة مثل هذه الأساليب ، التي تخلف جميعا من التزامات الفارغة والمتساهلة ، لم أقصد تطبيقه أسلوبا إلا نتجا به إلى سقراط ، إذ لم تعلم الثورة بالإنشابات محامال تروممكن ، وإنما لأقصد بناء جهاز قيادي مرتزي مستقر على التخطيط والتنسيق والتوجيه من الكفاءات المخلصة المستنيرة .

- فنياسة البرنامج السياسي الذي يميزت بأهداف الحرمة ويشكل بديلا مقنعاً لبرنامج ميسر للثقلية الحكم الإقطاعي القائم وبديلا أيضا لبرنامج الأحرار السياسية المعارضة التي لم تتطور مع الأحداث . برنامج يسويه المناضلين ويسوون مع مادة الشرائع أو عائلي لإشارة الكاد صبح ونفسية المتوسطة ضد الحكم . وصوت فقيه نا المهدوي بن برمة من المطالبة بالبرنامج في " الاختيار الثوري " موقفا غير صحيح ، إن رفض الطلب بالبرنامج أو السكون منه لا يخلو شيء وإنما ينبغي العمل السواء الأخطي في الإطارات ويترك الحرمة ناقصة من أدوات قوية لمواجعة الحكم . ولا يمتن الإمتداد نقط على الشعور أو الخطر إلا مستياء ولا حتى الإرادة إذ أن هذا كله لا يشكل مضمونا مبدع أو شعارة إنما تقدمه المبادئ في برنامج تتجهده الحرمة بتعصبية كبدية ، وتسمى بوعدها ، هو سبب استئثار الخط والتفكير ضد الحكم للتحصيل بنهاية .

- فنياسة التخطيط الثوري الصلب ببناء حيز السياسي والعسكري : لا يمكن لمن يهادف نفسه على وجاهد الناس أن يدعي أن ما لديه هو تنظيمها سياسيا ثوريا جليا . ثلاث تنظيمينا ما هو ببرنامج ثوري ولا هو بصلب ، ليست بتنظيمنا سياسيا ثوريا ، لأن لهذه العبارة مدلول طبقي وما ينتج عنه من إيديولوجية الطبقة الكادئة التي شكل تنظيم لهايتها التي تحققت التوفيق السياسي وتعبئة الطبقة وتحقيقه استعمال السلطة بالإنقاذة المسلحة أو الحرب الشعبية .

أما الكبحان العسكري فيا اعتقالات لا تبين أن انقلابية المستقلين من الفلاسفة وهذه نسبة تعلمه الوضع الإقطاعي والإحتياجي في الصحيح للبلاد وتجعل من اختيار الحرب الشعبية الطويلة النفس

٦
 أفتيا وا محييا ، مع أن الشكل الذي تلج عليه الإخوان في البداية لظهور
 سمسبه مواخر الشرقة وجلسات المحكمة على أنه غير إيماني ، وعلى أن
 المسؤولين كان لابد من كون شكل العمل المطلوب منطقي لتحقيقه . أما ما
 تبني بهما بدت علاقات فعدة من المناهضين لأحيد ورلهم وسط
 انجساقهم المظريية ، وهو الموجود بالخارج ، والمبدأ الأساسي من حرب
 التحرير الشعبية يلعبن في ذلك . وهذا الشرط يتوفر حاليا وتنظيميا
 في الأقطار ، هذا هو الأصل الذي يبرق دوماً أمامنا ويبيح الإسكانية
 الوحيية التي تتعرض مبدئيا على الشروط العنصرية . ولذلك هو أن لا
 يكون هذا الذي من تنظيمينا " كورة ماء حايون " هو أيضا محاربا
 بالنسبة للكثير من " الإسكانيات " .

٧
 فيما باستراتيجية سياسية وعسكرية واضحة المعالم : إن ما يربطنا
 هو اتفاق عام وهو بذلك خاص . إن صوته إشارة هنا الموضوع مع
 المناهضين والمسؤولين من بيننا تنبئ حبالا حادا باختلاف المفاهيم .
 وليس الفرع هو توجيه المفاهيم فحسبه وإنما تنويع الاتجاه السياسي
 والاتجاه العسكري على الموضوع باستراتيجية محددة يلتزم بها الكل
 ويعمل على تحقيقها . تدلج جميعا وتوحدنا وتعمل حدة
 للموضي الفكرية والتنظيمية وتقطع الطريق عن استعفاء الدائ
 وتتردد المناهضين غدا في ميدان المعرفة بفتحنا بين قمر كلام .
 وفي هذا الصدد فإن الإعتناء على أنزاد منفردين ليقوموا بوضع
 ما تحتاج إليه الحركة من برامج وتخطيطات قد سورت وأظهر لنا من
 جملة ما أظهر أن المنتج يكون دائما غير كاف ودون المطلوب ،
 لذلك يجب استبعاد طريقة العمل الجماعي وبشكل سنظم من أيعا . بشرط
 أن يكون ما يخطط إله حيز التطبيق وأن لا يعلق به في رق من الزحف .

٨
 أما ما شتم به اليوم نظرا لمرأهنا وأسا لينا فليس من الممكن أن نعتبر
 بداية العمل الثوري ولا حرب التحرير الشعبية " وإنما هو أشعان نارها ،
 بعضنا أنا بعضنا هو إثار الأعداء وتزعم القوة المنظمة والشعبية
 تسير نتائج العملية لصالح طبقتهما هو بالكل لن تكون هذه القوة من
 القوة الشعبية بل ما سته بعض الشروط لم تتوفر ومنها التغلب على
 السلوا قديم التي تسمى بالجماعة إلى بعضهما من اللدزم تهيئه تحقيق
 هذه الشروط سجد ما تنطلق العملية في الجبال . فقط في هذه الحالة
 يمكن أن نعتبر أن العمل الذي نحن مقبلين عليه هو بداية شعل نار
 الثورة أو حرب التحرير الشعبية ، وإذا ذلك يكون نسوي شعل نار
 اللثة وتسمية أحدى الدفقات المستفيدة من السيطرة على اللثة
 وهذا الإحتمال له حضوره كثيرة ليجد . أما سنو وان نجحت في
 الحجة فحتم على الاستمرار وهذا واجبنا - وإن ننسى بشكلنا الحالي
 فإننا نعمل نسوي على تعويض حكم ما سم بهما قد يكون أمسه منه .
 فأن حريتنا قائم على الولاء للخطم من مختلف مستعريا تها
 يدل من أن تقوم على الارتباط بالعقائد والتنظيمية والإختيار

المرحوم المقنع ، وقائمة على سلسلة من الأساليب المتدرجة ، فلهذا من
روايبه المبتدع الإقطاعي ، وإنما على استعداد إلى أن نمرها بتفصيل
في غير هذا المكان . وإن كنا يلتزم بما يحلو لنا تردده في ما شئنا
من اعتماد التحليل العلمي فحيث علمنا عند تقديرنا لوضع من الأوضاع
ووضع خطة من الخطط أن ننتقل من الواقع إلى ما يمكن ،
نبرأ من التحليل يبقى سدنا وجه واستطورة وفي أسس الأحوال على
تتبعه به مرتكزا ، صاد منا نستعمل الصنيع المحفوظة نرددها كما هي ،
كما هي البنزلات السيارية ، تكون في أسس الأحوال متارة على إبراز
الهدف عامة ودرجة تقريبية ، وأخيرا من هنا ترك الغالطات
تروج بين صفوفنا بل وإتارتها .

لست أسأل هنا أعياء مسا معك بنصوص نظرية ، إذا لم مره " الجملة
الشريفة " من الأبرار والمؤلف ، وإنما هي بعض الملاحظات التي أراها أساسية
بل ومنها المبدئية طلبته إلى اجتماع طرحها في إطاره بعد انتهائه
مرحلة الشرق وقبل أن نعتمد على مرحلة المشرق سنة ١٩٠٦ م . نبرأ ذلك
لم يحدث ، وإرضاء عليك بكل وضوح بناء على إقتناعي بأن التخليص
الشريفي المحقق هو إلى حد كبير " لا نغضاط أعين " و " طاعة حديدية " .
فإنه أيقنا متغير درجة تسع بنقل الأفكار والإبداع في تيار مزدوج
من القيمة إلى القاعدة ومن القاعدة إلى القيمة وهذه إحدى الظلمات
الاولية ليكون التخليص فليجبه فعلية للطبيعة الكونية يعينه واقعه
ويعينه في زمنه ويعينه مثاله . . .

لنعم نمرى محاولة للتعلم أو النقد الغير المسؤول ، وإنما قصدنا
إثارة عدد من المتطلبات الضرورية التي لا مجال التماسك لتجبه
حقيقتها والتي وما لها جبه المناهضين ويطلبون إلحاح تحقيقها .

وأخيرا فإن إتارتنا لكل هذه المواضيع ليس وليد تفاهل أنفسنا
أو ما ظننا ، نتيجة أسلوبه رسالتك - إذا كانت تتعد بهما
الشريفة ، أو أن كنت ترى أنها المسؤول عليه " البطل في الكل " و
" الشرايف " في رجب ديد تعال " وعدم الخزم والعزيمة " - فإشها
أرفق الرسالة عبارات وصححت لأن ليس لكل هذا العمل من
الواقعي والمؤتمدية ، مع علمي بأن النقد ضرورة تعليمية وتربوية ،
ضرورية لإصلاح وتحسين . ليس المسؤول صريحي . وإنما شكل
التخليص وأسلوبه - ، وإنما اختارت إستعمال الترميز التي
تجسدها رسالتك لإثارة هذه المواضيع معك .

أعلم أن تتصنع من كل ما جاء في هذه الرسالة وتوليها ما تستحقه
من متابعة إذا أنها تحتها على بعض متطلبات التخليص الضرورية ،
فإن من الممكن أن تصلك في المغرب أو في أي مكان آخر . وإن ستول
الحقيقة المرة بكل بساطة ووضوح ، بلا لبس وإيهام ، طريقة من أجد

طريق المتوفيين وحل المشاكل ورائي مقتنعا بانها من الاساليب
البحرية للحا طلبة المسؤوبين والمنا فليين ومما حير الحركته تبين هدية
السريرة وصدق اقولها.

كتبته من نسخة من هذه الرسالة قبل 10 ايام سلمتها معلقة
الى عبد الرحمن بن ابي اسامة ابن ابراهيم سيمها لك - غير ان ابراهيم
سافر دون اخذها. وكلفت الرسالة من العاجلة في انشطار ان ياخذها
بناني معه ان كان سيحضر من باريس. ونظرا لجهلي هل اخذها
بقا به معه ام لا وحتى لا نقتسم فرصة ه سفر الاكرم عبد الرحمن
فياخذها مني تحتها.

جرد الأحداث

1952

نونبر: ألقى الملك محمد الخامس خطاب العرش ونادى "بالتحريض السياسي الشامل والفوري للمغرب".
دجنبر: اضطرابات في المدن. اعتقال زعماء وطنيين. من بينهم المهدي بنبركة.

1953

20 غشت: خلع محمد الخامس. ونفيه هو وأسرته إلى جزيرة كورسيكا أولا، ثم إلى مدغشقر. تنصيب ابن عرفة سلطانا على المغرب.

1954

5 أكتوبر: إطلاق سراح معتقلين وطنيين. من بينهم بنبركة. كانوا قد اعتقلوا منذ سنتين.
9 دجنبر: قبول حزب الاستقلال التفاوض مع فرنسا، ولكنه طالب بعودة محمد الخامس.
26 دجنبر: قبول محمد الخامس لخطة التفاوض الفرنسية.

1955

14 يوليوز: انفجار قنبلة بالسوق المركزي بالدار البيضاء وملتقى الطرق بمرس السلطان.
غشت: اجتماع حزب الاستقلال بمريد.
20 غشت: مذابح بوادي زم. بداية عمل جيش التحرير الوطني بالريف.
22-27 غشت: مناظرة إيكس ليبيان بين فرنسا والوطنيين المغاربة. من بينهم المهدي بنبركة.
12 شتنبر: وصول محمد الخامس إلى فرنسا.
فأخ أكتوبر: عزل ابن عرفة.

6 نونبر: افتتاح المفاوضات بسيل سان كلو بين بعثة مغربية والحكومة الفرنسية.
16 نونبر: رجوع محمد الخامس إلى المغرب.
20 نونبر: حصيلة ضحايا 6000 عملية ما بين سنتي 1955 و1956: 710 قتيل.
من بينهم 103 أوروبي. و2000 جريح. من بينهم 460 أوروبي. سرقة أسلحة من ترسانات أمريكية.
2-4 دجنبر: أول مؤتمر استثنائي لحزب الاستقلال الذي أحدث سنة 1944. طالب بتنصيب هيئة استشارية مغربية إلى جانب الملك بعد الاستقلال.
7 دجنبر: أول حكومة مغربية يرأسها السيد البكاي. تضم 21 عضوا من بينهم 10 من حزب الاستقلال. و6 من الحزب الديمقراطي للاستقلال للحسن الوزاني. و6 أعضاء مستقلين.

1956

يناير: اجتماع القيادة الجزائرية-المغربية لجيش التحرير الوطني بمديد.
2 مارس: توقيع الإعلان المشترك للاستقلال بمديد والذي يلغي معاهدة الحماية.
7 أبريل: الإعلان المغربي الأسباني الذي يلغي مقتضيات الحماية على المنطقة الشمالية. سفر محمد الخامس إلى أسبانيا.
ماي: نزول جيش التحرير الوطني إلى الجنوب.
14 ماي: إنشاء القوات المسلحة الملكية التي ضمت جزءاً من جيش التحرير الوطني.
يونيو: اغتيال عباس مسعدي في الريف. وهو وطني مناهض لحزب الاستقلال. نسبت العملية إلى حزب الاستقلال.
يوليو: تراجع جيش التحرير الوطني منطقة الجنوب أمام زحف القوات الفرنسية. غشيت اضطرابات في الأطلس المتوسط والريف مناهضة لحزب الاستقلال. استقال القائد أيوسي. وهو أحد مستشاري الملك الثلاثة وبرتبة وزير. ثم جمع في قسبة تادلة 1400 رجل من رجال القايدي أوبيهي. عامل إقليم تافيلالت. الذي انشق عن الحكومة. لم يحسم محمد الخامس في الأمر ووسع مجالات نفوذه. اعتقل قادة الثوار.
23 أكتوبر: تحويل اتجاه الطائرة التي كانت تقل بنبلا وخمسة من مرافقيه من رؤساء المقاومة الجزائرية. كانوا قادمين من المغرب إلى تونس.
27 أكتوبر: تشكيل حكومة البكاي الثانية بعد الأحداث الخطيرة التي عرفتھا مدينة مكناس. تكونت الحكومة من 17 وزيرا. كلهم من حزب الاستقلال والمستقلين.
7 نونبر: إنشاء لجنة استشارية بظهير يعينها الملك باقتراح من الأحزاب السياسية والهيئات والتجمعات المهنية التي انتخب المهدي بنبركة رئيسا لها.
20 دجنبر: قضية قناة السويس. فقد أنزلت القوات الفرنسية والبريطانية بقناة

السويس عندما أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميمها. ثم أُوقف زحفُهما بعد تدخل سياسي-دبلوماسي من قِبَل الروس والأمريكان.

1957

16 أبريل: استقالة 9 وزراء من الاستقاليين جُمعت عنها أزمة وزارية. ثم حُلّت الحكومة.

الصيف: أعلن بنبركة انطلاق أشغال طريق الوحدة.

9 يوليوز: المولى الحسن يصبح وليا للعهد بموجب ظهير ملكي.

23 نونبر: استولى 1500 رجل من رجال جيش التحرير الوطني بقيادة الكولونيل بن حمو، و قبيلة آيت باعمران، على مواقع إسبانية ودخلوا ثغر إفني. دجنبر: رُسُو بوارج بحرية حربية إسبانية قرب أغادير، ووصول إمدادات عسكرية قادمة من جزر الكناري إلى الثغر. وقصف إسباني لجيش التحرير الوطني.

1958

يناير: معارك بإفني بين جيش التحرير الوطني والقوات الأسبانية، وضرب عنيف لجيش التحرير الوطني. والقوات الفرنسية تدخل درعة وعطار بموريتانية.

18 فبراير: مواجهة بين 3000 رجل من رجال جيش التحرير الوطني منطقة الجنوب والقوات الفرنسية بفور ترانكي، قرب بير موغراين. والقوتان الفرنسية والأسبانية تتحالفان وتشنان عملية المزلاج، التي دفعت في ظرف أسبوع واحد جيش التحرير إلى التراجع.

28 فبراير: حملة علال الفاسي من أجل إلحاق الصحراء المغربية بالتراب المغربي. مارس: حاصرت كتائب تابعة للقوات المسلحة الملكية إفني وشكلت حاجزا بين جيش التحرير الوطني والجيوش الأسبانية.

7 أبريل: أزمة حكومية، واستقالة وزراء حزب الاستقلال، وحل حكومة البكاي الثانية.

10 أبريل: استولت الجيوش المغربية، بقيادة الكومندان أوفقي، وهو مقرب من الملك، على إقليم طرفاية الذي كان حتى ذلك العهد تابعا للأسبان.

27 أبريل: مؤتمر الأحزاب الوطنية للدول المغاربية بطنجة.

8 ماي: الميثاق الملكي حول الحريات العامة، والوعد بالدستور.

12 ماي: تشكيل حكومة أغلبية أعضائها من حزب الاستقلال يرأسها السيد بلافيج.

غشت: عمر بنجلون، كاتب عام للاتحاد الوطني لطلبة المغرب.

20 غشت: خطاب محمد البصري أمام محمد الخامس باسم المقاومة، داخل بناية المشور بالرباط.

غشت: إجلاء آخر المواقع الفرنسية بالجنوب.
 شتنبر: انتفاضة الريف أمام هيمنة حزب الاستقلال. بداية محاكمة عدي أوبيهي والقائد لحسن اليوسفي.
 8 أكتوبر: تقديم استقالة عبد الرحيم بوعبيد، وزير الاقتصاد ونائب رئيس المجلس. مما عجل بظهور أزمة وزارية دامت شهرين اثنين.
 أكتوبر: البيان الأول للحركة الشعبية بزعامة أحرضان، عامل مدينة الرباط، وآخرين. التحق بعض القياد بالجليل وأعلنوا صراحة مناهضتهم لحزب الاستقلال.
 8 نونبر: انطلاق أشغال الجمع الاستشاري بخطابين، واحد لحمد الخامس والآخر للمهدي بنبركة.
 21 نونبر: عمليات اغتيال بالخميسات (قتيل واحد و48 جريح) وبالشرق (6 قتلى وأزيد من 60 جريحا)، مواجهات في تازة بين المنشقين والقوات المسلحة. اتهم حزب الاستقلال الحركة الشعبية.
 22-25 نونبر: صدور ظهير الحريات العامة. استقال عبد الرحيم بوعبيد من حكومة بلافريج.
 6 دجنبر: استقالة حكومة بلافريج.
 23 دجنبر: تشكيل حكومة عبد الرحيم بوعبيد، وتضم 14 عضوا. نزاعات داخل حزب الاستقلال. الحزب الشيوعي المغربي ويسار حزب الاستقلال يناديان بملكية دستورية على وجه الاستعجال.
 27 دجنبر: محاكمة عدي أوبيهي (حكم عليه بالإعدام، ثم عُفي عنه ولكنه سيموت داخل السجن).

1959

8 يناير: استقبل محمد الخامس بعثة من قبائل الريف. استمرت الاضطرابات في الريف وقمعتها القوات المسلحة قمعا عنيفا.
 يناير: أحداث ريو دو أورو بين القوات المسلحة الملكية وقبائل الركيبات: إرسال التعزيزات.
 يناير: مشاكل داخل حزب الاستقلال: وجّه المهدي بنبركة خطابا إلى اللجنة التنفيذية زاد الوضع تأزما. طردَ علال الفاسسي سبعة مسيرين يساريين من الحزب، من بينهم المهدي بنبركة وعبد الرحيم بوعبيد.
 19 يناير: تعيين علال الفاسسي رئيسا للمجلس الدستوري.
 فاخ ماي: الاتحاد المغربي (عضو في يسار حزب الاستقلال) للشغل يضم 700000

منخرط. ففرض نفسه على أنه أهم قوة سياسية نقابية في البلد.
4 يونيو: أزمة داخل الحكومة. ثم قَدِّمت الحكومة استقالتها. ونادى حزب الاستقلال بالدستور.

غشت: المؤتمر الرابع للاتحاد الوطني لطلبة المغرب بأغادير: طالب بإجلاء القوات الفرنسية والأمريكية. اختطاف جيش التحرير الوطني لنائب قنصل فرنسا ببوعرفة. احتلال مواقع عسكرية بحسي زرزور.

6-21 شتنبر: الانشقاق النهائي لحزب الاستقلال بعد أزمة حادة دامت 18 شهرا. وتشكيل الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

16 شتنبر: إطلاق سراح الكولونيل ميلودي. رئيس جيش التحرير الوطني منطقة زمور الذي كان قد التحق بالجبل يوم 19 أكتوبر احتجاجا على اعتقال أحرضان والدكتور الخطيب.

22 شتنبر: تعليق المحكمة الابتدائية بالدار البيضاء للحزب الشيوعي المغربي.

11 نونبر: المؤتمر الأول للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالدار البيضاء.

16 نونبر: اغتيال عبد العزيز بن ادريس. أحد قادة حزب الاستقلال.

28-30 نونبر: أزمة وزارية: طلب حزب الاستقلال حل حكومة عبد الله إبراهيم.

15 دجنبر: اعتقال محمد البصري وعبد الرحمن اليوسفي بالدار البيضاء بتهمة "التآمر على ولي العهد. والمس بشخص الملك. والتحريض على المس بالأمن الداخلي للدولة. وأعمال تخل بالنظام العام. والمس بأمن الدولة". فقد طالبا بأن تكون الحكومة مسؤولة أمام الشعب ونداء بتصرفات قوات الأمن. أوقفت جريدة التحرير التي كان الأول مديرها والثاني رئيس تحريرها. رفض عبد الرحيم بوعبيد أن يستقيل.

25 دجنبر: إدانة محمد البصري. وإطلاق سراح عبد الرحمن اليوسفي مؤقتا يوم 30. دخل المهدي بنبركة في أول منفى له دام سنتين اثنتين. سافر عبد الرحيم بوعبيد إلى القاهرة. التقى هناك مسيري جيش التحرير الوطني الجزائري.

1960

9 فبراير: حل الحزب الشيوعي المغربي عن طريق القضاء.

12 فبراير: توقيع اتفاقية إجلاء القواعد العسكرية الأمريكية.

22 فبراير: اعتقالات جديدة داخل صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. استقالة مستشار العرش. الفقيه بلعربي العلوي تعبيرا عن احتجاجه. إضراب عام للاتحاد المغربي للشغل.

29 فبراير: دمر زلزال أغادير المدينة: العديد من الضحايا.

مارس: إنشاء الاتحاد العام للشغالين بالمغرب. وهو نقابة تابعة لحزب الاستقلال. رغم

احتجاجات الاتحاد المغربي للشغل والحكومة. حل جيش التحرير الوطني.

12-18 مارس: إيفينار. تابع لرضى اكديرة. صديق ولي العهد ومستشاره. يهاجم حكومة عبد الله إبراهيم ويؤكد الطابع الملكي للبلاط.

19 مارس: البشير بن التهامي. قايد بني ملال. والقايد السابق بن حمو يلتحقان بالجبال بعد اغتيال عميد شرطة والهجوم على ثلاثة مواقع عسكرية. التحق بالجبل كذلك قائدان بمجازان آخران. اعتقلوا بعد شهر واحد. مثل أمام المحكمة 81 متهما بدأت المحاكمة في شهر ماي. حكم واحد بالإعدام. حوّل إلى السجن 15 سنة انتفاضة قبيلة مسفيوة بنواحي مراكش.

19 أبريل: إلغاء الوضع المؤقت لطنجة التي التحقت بالتراب الوطني.

فاخ ماي: استعراض كبير للاتحاد المغربي للشغل بالدار البيضاء.

8 ماي: هيمنة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية على الانتخابات الأولى لغرفة التجارة.

20 ماي: إلغاء حكومة عبد الله إبراهيم. عوّضت يوم 27 بحكومة يرأسها مباشرة محمد الخامس. نائبه هو مولاي الحسن.

28 ماي: حجز عدد جريدة لوموند (العالم). كان يضم حوارا مع المهدي بنبركة. يتحدث عن "ترميم وقائي". تحدث مجلة لئونوفيل أوبسيفاتور (الملاحظ الجديد) عن "انقلاب على النظام الملكي".

29 ماي: أول الانتخابات الجماعية والبلدية. نجاح الاتحاد الوطني للقوات الشعبية في المدن الكبرى. انهزام كبار زعماء الاستقلال.

30 ماي: الأمر بعدم وجود وجه لمحاكمة اليوسفي في قضية دجنبر 1959. إطلاق سراح البصري والعفو عنه يوم 5 يونيو. إطلاق سراح 71 شخصا آخر. وتقليص مدة الحبس بالنسبة إلى 193 سجينا.

18 يونيو- 2 يوليو: ظهور التنظيم الجماعي والبلدي: عارضه الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

12 يوليو: تعيين أوفقيز الذي أصبح كولونيل. على رأس هيئة الشرطة. وعُين سابقه الغزاوي. على رأس المكتب الشريف للفوسفات.

6 شتنبر: انعقاد المجلس الوطني الاستثنائي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية حول موضوع إجلاء الجيوش الأجنبية.

13 أكتوبر: توقيع اتفاقية إجلاء الجيوش الفرنسية ابتداء من 2 مارس 1961.

25 أكتوبر: سلسلة أحداث على الحدود مع الجيوش الفرنسية. مرتبطة بحرب الجزائر.

8 نونبر: اكتشاف مخزون من الأسلحة. الذي ربما كان موجها للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. داخل أكياس لوز بيناء الدار البيضاء. اعتقال 60 من رجال المقاومة والاتحاد الوطني للقوات الشعبية. حواجز على الطرق. تزايد المراقبة. منع مغادرة المغرب بدور

إذن: حجز جرائد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، واستفسار زعمائها المتواجدين بالمغرب.

21-23 نونبر: عصيان شعبي بالعرائش: 4 قتلى، والعديد من الجرحى، و300 معتقل. دجنبر: محاكمة الطليعة، تابع للاتحاد المغربي للشغل.

1961

7 يناير: اغتيال بلحاج بوبو بالدار البيضاء.
26 فبراير: وفاة محمد الخامس بعد إجراءاته عملية جراحية.
3 مارس: اعتلاء الحسن الثاني رسمياً العرش. طلب سابق لأوانه بإجلاء القواعد الفرنسية. الإجراء تم تدريجياً من أبريل إلى شتنبر. حكومة الائتلاف الوطني باستثناء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. اتفاق مع الجزائر على إرجاع المناطق التابعة للتراب المغربي بعد استقلال الجزائر.

ماي: مساندة المغرب للمجموعة الشعبية للثورة الجزائرية.
2 يونيو: حكومة جديدة يرأسها الحسن الثاني. بمشاركة حزب الاستقلال.
10 يونيو: نداء حزب الاستقلال بإنشاء دستور.
27 يونيو: جدل حول موريتانيا التي يعتبرها المغرب جزء من ترابه، والتي تريدها فرنسا مستقلة.

20 غشت: إنشاء المكتب الوطني للمقاومة.
فاخ أكتوبر: إجلاء آخر قاعدة فرنسية، قاعدة مراكش.
نونبر: مظاهرات من أجل إطلاق سراح بنبلا: مبادرة رسمية من المغرب نحو فرنسا.

1962

17 يناير: مؤتمر حزب الاستقلال.
3 مارس: وقف إطلاق النار بالجزائر.
22 مارس: جمع عام للمجموعة الشعبية للثورة الجزائرية بالرباط. بعد وصول بنبلا ورفاقه.
25-27 يونيو: المؤتمر الثاني للاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالدار البيضاء حضره 2000 مشارك. رجوع بنبركة بهذه المناسبة. توتر مع الاتحاد المغربي للشغل الذي نشب باستقلالية العمل النقابي.
شتنبر: إعلان استقلال الجزائر.
7 شتنبر: عمليات تفجير بمطبعة جرائد الاتحاد المغربي للشغل والاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

5 نونبر: انطلاق الحملة الاستفتاءية. حُطِّبَ راديكالية. تساءلَ الاتحادُ المغربي للشغل إن كانت الملكية فوق القانون. أُطلق حزب الاستقلال، الذي كان لا يزال في الحكومة. برنامج مساواة اقتصادية. لقاءات جماهيرية للاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي يعتبر أن الدستور "منوح"، والذي نادى. صحيفة الحزب الشيوعي المغربي والاتحاد المغربي للشغل. بالمقاطعة. أيد الفكرة حزب الاستقلال والحركة الشعبية والمستقلون. حملة خاصة للحسن الثاني. محاولة اغتيال المهدي بنبركة.

7 دجنبر: مصادقة 3.7 مليون ناخب على الدستور الأول (4.6 ناخب مسجل من بين 6 ملايين ناخب مفترض): 80.10 % صوتوا بنعم.

دجنبر: سفر الملك إلى الجزائر.

1963

4 يناير: غادر الحكومة الوزراء الثلاثة التابعون لحزب الاستقلال (علال الفاسي وبوستانة والدويري) نظرا لخلاف مع رضى اكديرة الذي نُعت "بالحاجب الكبير". انتقادات للحكم المطلق للملك. حكومة جديدة يترأسها الملك. واكديرة وزير الداخلية. وأحضران وزير الدفاع.

6 فبراير: وفاة عبد الكريم الخطابي بالقاهرة.

مارس: المنشقون الموريتانيون بزعامة فال ولد عمير (وزير دولة) يغادرون المغرب ويلتحقون بموريتانيا.

12 أبريل: إنشاء رضى اكديرة للتحالف. سُمي جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية FDIC. مع الحركة الشعبية والمستقلين الأحرار والحزب الديمقراطي الدستوري.

17 ماي: أولى الانتخابات التشريعية داخل 144 دائرة. من بين 4.8 مليون ناخب مسجل. صوّت 3.4 مليون ناخب. أي بنسبة مشاركة بلغت 78.3% و1.3 مليون ناخب لم يشاركوا. حصلت جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية على 33% من الأصوات المعبر عنها. وفازت بـ69 مقعدا من بين 144. ولكن وزراء الجبهة انهزموا. حصل حزب الاستقلال على 30% من الأصوات وعلى 41 مقعدا، والاتحاد الوطني للقوات الشعبية على 22.3% من الأصوات و28 مقعدا. رغم راديكالية المعركة والتركيز على أهم المدن الكبرى. حصل غير المنتمين سياسيا. المقربون من القصر على 14.5 من الأصوات وعلى 6 مقاعد. طعن حزب الاستقلال في النتائج: اعتُقل نوابه و5 من نواب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. ألغيت 7 مقاعد.

5 يونيو: تعديل وزاري: لم يعد اكديرة وزيرا للداخلية. عوضه عبد الرحمن الخطيب. أحداث حد كورت في منطقة الغرب بين جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية وحزب الاستقلال: قتيلا اثنان و4 جرحى واعتقال 48 شخصا. حُكِمَ على مثل جبهة الدفاع

عن المؤسسات الدستورية بالحبس 10 سنوات. وُضعت المنطقة في حالة حصار. اعتقال 5 شخصيات من حزب الاستقلال من بينهم 4 منتخبين من منطقة الغرب: إلغاء الانتخابات التشريعية لعلال الفاسي. 200 لجوء إلى القضاء. 7 قتلى من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. مئات الجرحى. العديد من الاعتقالات. العديد من الدعاوى القضائية المتعلقة بالانتخابات. رفض الدعوى الثانية للحزب الشيوعي المغربي لرفع الحظر عنه.

16 يوليوز: اعتقال حوالي مائة شخصية ومنتخب من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية عند اجتماعهم بالدار البيضاء بتهمة التآمر. قُطعت الطرق ووسائل الاتصال التي تربط المغرب بالجزائر.

19 يوليوز: قاطع اليسار الانتخابات الجماعية التي فازت بها جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية. كما كان شأن الانتخابات المهنية الموالية (8 في المجموع. حتى نهاية السنة).

30 يوليوز: المؤتمر الثامن للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي كان حميد برادة كاتبه العام في حالة فرار.

غشت: إطلاق سراح 61 معتقلا من آلاف المعتقلين في صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. بقي 103 معتقلين في السجن. ظهور جرائد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية من جديد بعد منعها. فتح الحدود من جديد مع الجزائر.

6 شتنبر: أصبح أوفقيير جنرالا.

13 شتنبر-2 نونبر: حرب الرمال مع الجزائر. أحداث على الحدود ناجمة عن مشاكل داخلية (المغرب يتهم الجزائر بمساندة الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. والجزائر تتهم المغرب بتشجيع انشقاق آيت احمد في القبائل) وعن مشكل الحدود الذي لم يجد حلا.

18 شتنبر: طالب علال الفاسي بإلغاء الانتخابات قائلا: "مع كل الاحترام الذي علينا أن نعبر عنه إزاء الملكية، فإن النظام الحالي غير مشروع لأنه مناف للدستور".

8 أكتوبر: غارات مغربية داخل التراب الجزائري.

13 أكتوبر: حصلت جبهة الدفاع عن المؤسسات الديمقراطية على أغلبية واسعة في الغرفة الثانية: 107 مقاعد من بين 140.

18 أكتوبر: هجوم الجيش الجزائري على موقع إيش.

24 أكتوبر: اتفق الطرفان على وساطة منظمة الوحدة الأفريقية. قطع المغرب علاقاته الدبلوماسية مع كوبا واستدعى سفيره بدمشق والقاهرة.

25 أكتوبر: فتح مسطرة في حق المهدي بنبركة وحميد برادة أمام المحكمة العسكرية بالرباط.

30 أكتوبر: الاتفاق الأول حول وقف إطلاق النار. هجوم الجيش الجزائري على فيكيك ليلا.

- 2 نونبر: وقف النار النهائي. اتفاقية بين الحسن الثاني وبنبلا بياماكو.
 9 نونبر: حُكم على بنبركة بالإعدام غيابيا. وإلغاء انتخابه بالرباط.
 13 نونبر: حكومة جديدة برئاسة أحمد باحنيني (للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات.
 أصبح هناك وزير أول). اكديرة وزير الخارجية.
 18 نونبر: تولية البرلمان الجديد.
 19 نونبر: العفو عن 158 شخصا نُكِّل بهم يوم 27 مارس 1958 وإعادة الاعتبار
 إليهم.
 17 دجنبر: إجلاء آخر القواعد الأمريكية.

1964

- 10 يناير-مارس: إضراب عام للطلبة. مظاهرات بالثانويات.
 فبراير: إعادة ربط العلاقات الدبلوماسية المغربية الجزائرية.
 16 مارس: محاكمة 85 متهما من بين 102. 11 حكما بالإعدام من بينها 8 غيابيا.
 و3 مَثَلُوا أمام قفص الاتهام (البصري وعمر بنجلون وميمون الدويري).
 12 أبريل: إنشاء اكديرة للحزب الاشتراكي الديمقراطي. أحد مكونات جبهة الدفاع عن
 المؤسسات الدستورية.
 13 أبريل: التحاق الكولونيل بن حمو. مقاوم سابق في جيش التحرير الوطني منطقة
 الجنوب وعامل سابق على إقليم الناضور. بالجزائر.
 13-2 يونيو: اصطدامات في بوبكر على الحدود الجزائرية. العثور على مخازن أسلحة
 ببركان. اعتقال 6 أشخاص مسلحين بالحدود. وزير الداخلية يتحدث في بلاغ عن
 "عصابات مسلحة تسربت من الشرق ومدرية في الجزائر". اصطدامات في مناطق
 بركان وملوية والأطلس المتوسط.
 3 يونيو: الحكم بالإعدام على 6 أشخاص بحكمة مكناس.
 10 يونيو: 18 حكما بالإعدام.
 7-15 يونيو: عمليات شيخ العرب بالدار البيضاء. قتل رجال الشرطة، 7 قتلى.
 9 يونيو: اصطدامات على الحدود الجزائرية المغربية بين القوات المساعدة و20 رجلا من
 رجال بن حمو الذي اعتُقل. 5 قتلى و6 جرحى في صفوف القوات المسلحة. 4 قتلى
 في صفوف الملتحقين بالجبال بهضبة بني يزناسن. 13 سجيناً.
 يونيو: تقديم الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. بمساندة حزب الاستقلال. ملتئم الرقابة
 ضد الحكومة أمام البرلمان: نقاش حول الفساد. اصطدامات جديدة على الحدود مع الجزائر.
 22 يونيو: إدانة 6 متسربين من الجزائر بوجدة بالأس بأمم الدولة.
 3 يوليو: حُكمَان اثنان بالإعدام في محاكمة مكناس.

5 غشت: العفو عن المدانين السياسيين في "مؤامرة يوليوز": الفقيه البصري وعمر بنجلون وميمون الدويري.
7 غشت: وفاة شيخ العرب بالدار البيضاء.
20 غشت: تعديل داخل حكومة باحنيني. نظرا لإنشاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي.
أصبح الجنرال أوفقيير وزيرا للداخلية.
4-7 شتنبر: المؤتمر التاسع للاتحاد الوطني لطلبة المغرب الذي طالب بتنظيم انتخابات تشريعية.
14 شتنبر: اعتقال م. الحلوي. رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. إضرابات وإغلاق العديد من المؤسسات المدرسية.
نوبنر: عودة أعمال المسلسل المغاربي. منع المكافح. تابع للحزب الشيوعي المغربي السابق. بعثة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى الذكرى العاشرة للثورة الجزائرية. وساطة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بين بنبلا وآيت احمد.

1965

16 فبراير: المؤتمر السابع لحزب الاستقلال.
22-25 مارس: حركة احتجاج بالمدارس والجامعات اندلعت في الدار البيضاء بسبب مشكل تعليمي. ثم تحولت إلى هيجان شعبي. مظاهرات ومجازر على مدى يومين. قمع عنيف من قبل الجيش. العديد من الضحايا.
20-21 أبريل: استقبل الملك زعماء الأحزاب ووجه إليهم مذكرة وطلب منهم جوابا كتابيا.
30 أبريل: أعلن خطاب ملكي العفو عن المعتقلين السياسيين التابعين للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. إطلاق سراح الحلوي وثلاثة من المحكوم عليهم بالإعدام سنة 1964.

فاخ ماي: مظاهرات عمالية.

3 ماي: قدمت الصحف الحوار بين الملك والأحزاب على أنه بحث عن حكومة اتحاد وطني. طلب من بنبركة. الموجود في الخارج. أن ينضم إليها.
يونيو: انقلاب في الجزائر. أطاح بومدين بنبلا.
7 يونيو: إعلان خطاب ملكي لحالة الاستثناء. حل البرلمان. وأوقف العمل بالدستور.
8 يونيو: حكومة تتكون من 23 عضوا. يرأسها الملك.
29 أكتوبر: اختطاف المهدي بنبركة. رئيس منظمة القارات الثلاث. بباريس واغتياله. إضرابات ومظاهرات طلابية. احتداد الاحتجاجات. أزمة دبلوماسية مع فرنسا.
13-14 نونبر: إعلان الاتحاد المغربي للشغل عن إضراب عام.

1966

- 26 يناير: اضطرابات في المدارس والجامعات.
فبراير: خلال مؤتمر صحفي، اتهم الجنرال دوجول الجنرال أوفقيير باغتيال بنبركة. رفض الملك إدانة أوفقيير: جُميد العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا (ولكن دون قطيعة دبلوماسية رسمية).
فبراير: بدرب الكبير بالدار البيضاء، قتلُ شرطيّين وكوماندان بالقوات المسلحة الملكية عند قيامهم بتفتيش منزل الكوماندان بوشعيب.
15 مارس: اعتقال عمر بنجلون ثم مثوله أمام وكيل الملك بالدار البيضاء.
21 ماي: غادر الفقيه البصري المغرب.

1967

- 15 فبراير: اعتقال مناضلين من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.
3 مارس: طرح المغرب مشكل الصحراء أمام أنظار منظمة الأمم المتحدة.
14 مارس: استقالة أحرسان، وزير الدفاع الوطني.
15 مارس: حكومة جديدة يرأسها ادريس محمدي. وأوفقيير دائما وزيرا للداخلية.
17 أبريل: المحاكمة الثانية في قضية بنبركة. سلم الكولونيل الدليمي نفسه.
يونيو: حرب السنة أيام في الشرق الأوسط. اعتقال المحجوب بن الصديق. الكاتب العام للاتحاد المغربي للشغل. والحكم عليه بالسجن 18 شهرا.
18 غشت: أصبح محمد بنهيمة وزيرا أولا إبان التعديل الوزاري الثالث خلال السنة.
21 شتنبر: إطلاق سراح عمر بنجلون.

1968

- غشت: تطبيع العلاقات المغربية الفرنسية بعد سنتين من جميدها. إطلاق سراح المحجوب بن الصديق بعد سنتين من الحبس.
2 أكتوبر: علي يعتة يُنشئ حزب التحرير والاشتراكية (الحزب الشيوعي المغربي سابقا).
أكتوبر: إعلان الانتخابات البلدية والجماعية التي أعلن حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية مقاطعتها نظرا لعدم حياد الإدارة.

1969

- 4 يناير: قررت إسبانيا إعادة تراب إفني إلى المغرب.
2 فبراير: حُكِّم محكمة مراكش على علي يعتة بالسجن شهرين اثنين. اضطرابات

في المدارس والجامعات. اضطرابات داخل أوساط المجتمع.
 أبريل: تجديد فترة المنتخبين الجماعيين والبلديين للمرة الثانية (فقد انتخبوا سنة 1963 لثلاث سنوات. ثم مُدّدت فترة انتخابهم ثلاث سنوات أخرى).
 19 أبريل: مذكرة من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية إلى الحكومة.
 30 يونيو: الاستعادة الفعلية لثغر إفني. سافر الحسن الثاني إلى مدريد.
 18 غشت: حكم محكمة الرباط على ثلاثة مسيرين للحزب الشيوعي المغربي سابقا، ومنهم علي يعة، بالحبس 10 أشهر: رفع دعوى قضائية ضد حزب التحرير والاشتراكية بتهمة إعادة تشكيل جمعية حلها القضاء.
 شتنبر: اعتقالات داخل صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.
 فاتح شتنبر: انقلاب في ليبيا. أعلنت جماعة "الضباط الأحرار" تشكيلها لمجلس للثورة.
 3 أكتوبر: انتخابات بلدية وجماعية بدون مشاركة الاتحاد المغربي للشغل والاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب الاستقلال. تعبيرا منهم عن عدم "تأييدهم لتزوير الانتخابات". 4.7 مليون ناخب: المحايدون، 82.70%: الحركة الشعبية، 12.7%: حزب الاستقلال، 4%: الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، 0.50%.
 6 أكتوبر: أقال الحسن الثاني م. بنهيمه ليصبح وزير الفلاحة؛ وعوضه ب م. العراقي كرئيس للوزراء. وهو عضو سابق في حزب الاستقلال.
 اعتقال أعضاء من حزب الاستقلال. أزمة داخل جريدة العلم. حبس مديرين لجريدتين تابعتين لحزب الاستقلال. الوطن والعلم، لأنهما كتبا بأن "السيادة للشعب".

1970

29 يناير: اعتقال سعيد بونعيلات (محمد أجار) وأحمد بنجلون بمدريد.
 15 فبراير: تسليم أسبانيا لسعيد بونعيلات وأحمد بنجلون للمغرب. تدخل الحبيب بورقيبة لصالحهما.
 فبراير: سافر الحسن الثاني إلى فرنسا.
 25 مارس: تعديل وزاري؛ الجنرال إدريس بنعمر يصبح وزيرا للمواصلات السلكية واللاسلكية، والجنرال مزيان وزيرا للدفاع؛ والكولونيل بولجيمز رئيسا للدرك الملكي.
 ماي: التقى الحسن الثاني بومدين بوجدة.
 8 يونيو: زيارة م. ولد دادة، رئيس موريتانيا التي استعادت استقلالها منذ زمن قصير: نهاية الخلاف المغربي الموريتاني، معاهدة الصداقة والتضامن وحسن الجوار.
 8 يوليو: نهاية حالة الاستثناء التي دامت 5 سنوات. دستور جديد. قاطعته المعارضة بكاملها وأعلنت المصادقة عليه بنسبة 98.70 % من 4.8 مليون ناخب مسجل.

و1.3% من الأصوات الراضية. يحدد هذا الدستور غرفة واحدة ويعزز الصلاحيات الخوّلة للملك.

14-17 يوليو: حسب جريدة لوموند (العالم)، عُثر في جبال الأطلس عن بقايا طائرة محملة بالسلاح الخفيف: 8 جثث، 17 رجلاً من رجال التنظيم يطلقون النار على رجال الشرطة. اعتقال رئيس الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، م. الخصاصي.
22 يوليو: أنشأ الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وحزب الاستقلال الكتلة الوطنية. وهي جبهة معارضة.

21-28 غشت: انتخابات تشريعية قاطعها حزب الاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية. عدد كبير من الممتنعين في المدن (59.93% بفاس). صلاحيات البرلمان أصبحت محدودة مقارنة مع صلاحيات سنة 1963. 159 نائباً مستقلاً، 8 من حزب الاستقلال. 1 من الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. تعديل وزاري جديد.
شتنبر: انقلاب في سوريا. اعتلى حافظ الأسد السلطة.

16 نونبر: اختطاف محمد اليازغي. نداء ملكي للحوار داخل وسط التعليم حيث كانت الإضرابات متواصلة.

28 نونبر- 3 دجنبر: مجابهة بحد كورت في منطقة الغرب حيث عارض فلاحون بيع الأراضي الفلاحية إلى ملاكين عقارين كبار: 5 قتلى، 6 جرحى. 10 ضمن صفوف القوات المساعدة. أحداث أولاد خليفة.
وفاة جمال عبد الناصر.

أعلنت المحكمة العسكرية بالرباط عدم اختصاصها في محاكمة 71 شخصاً من بينهم سعيد بونعيلات وأحمد بنجلون.

1971

يناير: إغلاق مؤسسات تعليمية، وإضرابات طلابية، وطرّد أطباء متدربين.
14 يناير: الإعلان الرسمي عن مؤامرة دُبّرت من الخارج، وعُهد بالقضية للمحكمة الجهوية بمراكش.

18 يناير: بلاغ الكتلة بخصوص محاكمة مراكش.

29 يناير: سافر أوفقيير إلى الجزائر في مهمة خاصة.

فاخ مارس: عودة العلاقات الدبلوماسية مع سوريا.

17 ماي: مظاهرات طلابية بالرباط تضامناً مع الماثلين أمام محكمة مراكش.

14-24 يونيو: بداية محاكمة مراكش: 193 مدان من بينهم 30 غيابياً، بتهمة المس بأمن الدولة ومحاولة قلب النظام. 50 محامياً يرأسهم عبد الرحيم بوعبيد. منع صحف المعارضة. طرد مراسل جريدة لوموند بالرباط. إضراب عام للطلبة. ودخول

بعضهم في إضراب عن الطعام.

15 يونيو: أوفقيز يزور مرة أخرى الجزائر.

29 يونيو: تساؤل في قبة البرلمان: "لماذا سعيد بونعيلات الذي كافح من أجل الاستقلال يوجد داخل السجن؟ ما هي الأسباب التي دفعته إلى فعل ما يُنسب إليه؟"

10 يوليو: محاولة انقلاب عسكري بالصخوريات إبان عيد الشباب الثاني والأربعين: 100 قتيل ضمنهم وزير السياحة، وسفراء مغاربة وأجانب و4 جنرالات و3 كولونيلات ورئيس المجلس الأعلى للقضاء وموظفين سامين وأطباء. 200 جريح. هجوم على مقر الإذاعة والتلفزة الوطنية وبعض الوزارات: إعلان جمهورية. قطع العلاقات الدبلوماسية مع ليبيا التي أيدت الانقلاب. تخويل كل السلطات للجنرال أوفقيز. 158 قتيل في صفوف المهاجمين.

13 يوليو: إعدام 10 جنرالات وكوماندات وكولونيلات رميا بالرصاص أمام كاميرات التلفزة بدون محاكمة.

5 غشت: اعتبرت الكتلة أن هذا الانقلاب يدل على "فشل السلطة الفردية". وطالبت بمؤسسات جديدة وانتخابات تشريعية.

6 غشت: تعيين كريم العمراني، رجل أعمال، وزيرا أولا.

28 غشت: الحكم في قضية مراکش: 49 حكما بالإعدام، 121 حكما بالمؤبد.

20 شتنبر-5 نونبر: أضرب 6000 عامل بمناجم اخريكة. تعزيز قطاع الضرائب. ضرائب على الفلاحة. احتجاجات على توزيع الأراضي.

أكتوبر: انتفاضة في الصحراء ضد التواجد الأسباني.

2 نونبر: اعتقال عدة وزراء وموظفين سامين بتهمة الارتشاء.

21 نونبر: استئثار الملك المعارضة.

28 نونبر: سَنَ 48 معتقلا سياسيا إضرابا عن الطعام.

1972

27 يناير: اعتقالات في صفوف الحزب الشيوعي المغربي سابقا والاتحاد الوطني للقوات الشعبية والاتحاد الوطني للمهندسين واليسار الجديد (أبراهام السرفاتي وع. اللعبي) وفي صفوف التلاميذ والطلبة. إضرابات التلاميذ والطلبة. مظاهرات احتجاج جماهيرية في فرنسا.

29 يناير: اعتقال بعض أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وعضو في تحرير جريدة الحُرر (تابع للاتحاد الوطني للقوات الشعبية). إطلاق سراح 13 عضوا من أعضاء الاتحاد الوطني للقوات الشعبية.

31 يناير: انطلاق محاكمة 1033 من صغار مدبري انقلاب الصخوريات أمام المحكمة

الدائمة للقوات المسلحة الملكية بالقنيطرة.

17 فبراير: أعلن الملك انطلاق مشروع دستور ثالث. رفضته الكتلة.

29 فبراير: حكم محكمة القنيطرة: 1007 براءة. عقوبات حبسية تتراوح ما بين سنة واحدة و20 سنة. 3 أحكام بالسجن المؤبد. وجه الضباط المدانون رسالة عفو إلى الملك.

فاخ مارس: استفتاء دستوري: شارك فيه 92.96% من بين 4.8 مليون مسجل. رغم مقاطعة المعارضة. 98.76% صوتوا بنعم. بعض التعديلات بالنسبة إلى دستور سنة 1970 السابق. مُدِّد بعض التمديد مجال القانون. سُلِّطَ أوسع للوزير الأول.

21 مارس: محاكمة 33 متهما من الحزب الشيوعي المغربي سابقا بمراكش بتهمة تشكيل حزب ممنوع (حزب التحرير والاشتراكية. منذ سنة 1969).

12 أبريل: رفض الكتلة المشاركة في حكومة الاتحاد الوطني.

15 يونيو: معاهدة إفران بين المغرب والجزائر.

26 يوليو: سافر الحسن الثاني في رحلة خاصة إلى فرنسا. استقبله الرئيس بومبيدو الذي خلف الجنرال دوغول.

30 يوليو: انشقاق في صفوف الاتحاد الوطني للقوات الشعبية: إنشاء مجموعة بالرباط التفت حول عبد الرحيم بوعبيد. وأخرى بالدار البيضاء التفت حول عبد الله إبراهيم والمحبوب بن الصديق من الاتحاد المغربي للشغل.

اعتقال محمد اليازغي.

اغتيال المناضي. أهم شهود الاتهام في محاكمة مراكش. بأزميز.

16 غشت: هاجمت طائرات مطاردة مغربية، في أجواء تطوان، الطائرة التي كانت نقل الحسّين الثاني عند عودته من رحلة إلى فرنسا وإسبانيا. حطت الطائرة بمطار الرباط الذي أطلق عليه النار. العديد من القتلى والجرحى. موت أوفقيير في الليل.

16-21 غشت: استعادة التحكم في الجيش الذي أصبح تحت السلطة المباشرة للملك وكذا وزارة الدفاع التي ألغيت. إعادة تنظيم مصالح الأمن.

19 غشت: سلمت إنجلترا إلى المغرب ضابطي القوات المسلحة الجوية. أمقران والكويرة. اللذين كانا قد حطا بجبل طارق.

17 أكتوبر: مَثَّلَ 220 عسكري (14 ضابطا و166 ضابط صف و44 جنديا) أمام المحكمة الدائمة للقوات المسلحة الملكية بالقنيطرة. بعد الهجوم على الطائرة الملكية. اتهم أمقران والجنرالين الدليمي وبالعربي.

أكتوبر: برامج إذاعة لببيا التي وصفتها جريدة لوموند بالمعادية للملكية.

3 نونبر: أصبح أحمد عصمان. مدير الكتابة الخاصة للملك. وزيرا أولا. كل أحزاب المعارضة. بما فيها الحزب الديمقراطي الدستوري لم. الخطيب رفضت اقتراح الملك. أصبحت الجسور مقطوعة بين الملك والأحزاب.

7 نونبر: حكم المحكمة العسكرية بالقنيطرة: 11 حكما بالإعدام، من بينهم أمقران والكوييرة. 43 حكما بالسجن. 177 حكما بالبراءة. مراجعة محاكمة متمردي الصخيرات في اتجاه التشديد. عفو ملكي على 6 من عساكر مآمرتَي 1963 و1971 الذين كانوا قد طلبوا العفو.

الحد بظهير ملكي من حقوق الجمعيات وحرية التجمع وحرية الصحافة.
15-16 نونبر: حدث وزير الداخلية، في بلاغ، عن "مجموعة من الأشرار الذين ينشرون الرعب في عين السفاح" قرب أحفير في الشرق.
محاكمة 33 عضوا من أعضاء حزب التحرير والاشتراكية سابقا بمراكش ومجموعتين من الأطر الشبابية اليسارية (أسيدون وبلافريج واللعبى) بتهمة التآمر على الأمن الداخلي للدولة.
29 دجنبر: عملية اغتيال دهكون للوردي. الهجوم على حارسين من رجال الأمن بوجدة.

1973

8-12 يناير: اعتقال بعض مسيري الاتحاد الوطني لطلبة المغرب.
13 يناير: تنفيذ حكم الإعدام (14) في المدانين في قضية انقلاب 16 غشت 1972، ومن بينهم أمقران والكوييرة.
14 يناير: توصل عمر بنجلون ومحمد اليازغي (الذي جرح جرحا خطيرا) برسالتين ملغومتين. اعتقال عمر الخطابي في عيادته بالقنيطرة.
24 يناير 1973: منع الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، توقيف منح الطلبة المضربين.
إرسال بعض خريجي التعليم العالي إلى التجنيد العسكري الإجباري.
مارس: ظهير تأميم 250 000 هكتار من الأراضي الفلاحية.
2-3 مارس: الهجوم على موقع مولاي بوعزة. انفجار قنبلتين يدويتين بالقنيطرة. ووضع قنبلتين بالدار البيضاء، وقنبلتين بالرباط.
5 مارس: 7 قتلى في صفوف قوات الأمن. وفاة محمد بنونة.
9-13 مارس: اعتقال عمر بنجلون، مدير جريدة الحُر وعدة محامين آخرين وأساتذة مسؤولين في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. انتقادات رسمية للبيبا. تعيين قياد جدد على إقليم بني ملال.
14 مارس: أعلن بلاغ وزارة الداخلية أن ثلاثة من مهاجمي الأطلس قد ماتوا، و11 اعتُقلوا، وحجز أسلحة.
حجز جرائد المعارضة.
16-19 مارس: بلاغ للاتحاد الوطني للقوات الشعبية يدين حملة الاعتقالات (300 على الأقل).

20 مارس: إلقاء قنبلتين بالناضور على مقر الشرطة ومقر العمالة حسب بلاغات رسمية.

21 مارس: إلقاء قنابل بوجدة على العمالة والمحكمة ونيابة التعليم والبلدية (بلاغات رسمية). حُذث بلاغٌ لوزير الداخلية عن "اعتقالات في إطار البحث التمهيدي الذي فُتح على إثر الأحداث التي عرفها الأطلس في الأسابيع الأخيرة" وعن "عمليات المسح" بكلميمة وتنغير. أعلن وزير الداخلية أن مجموعات أخرى من المتمردين تدرت في ليبيا قد تكون على أهبة الاستعداد لعبور الحدود الجزائرية: "إن طرق عبورهم والمتواطئين معهم وأسماء قادتهم وأهدافهم قد باتت معروفة على إثر الاستنتاجات". أُدينَت نقابة التلاميذ. حل وزير الداخلية بخنيفرة.

22 مارس: أكد الاتحاد الوطني للقوات الشعبية اعتقال 3 محامين. بالقاضي والحلو وبناني. وهم أعضاء في اللجنة المركزية. وصرح بأنه حزب مشروع.

24 مارس: بلاغ من وزير الداخلية أعلن فيه حل عصابات مسلحة واكتشاف منظمة مخربة مهمة. اعتقال عمر دهكون. قدمه وزير الداخلية على أنه المسؤول عن خلايا الاتحاد الوطني للقوات الشعبية بالرباط والدار البيضاء. اعتقال محمد بوجبهة بوجدة. وهو مسؤول بالاتحاد المغربي للشغل و3 مدرسين.

3 أبريل: مرسوم للوزير الأول يعلق الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. فرع الرباط. وشُمعت مقراته لأنها "استعملت كغطاء لأعمال سرية تخريبية وغير مشروعة الغرض منها هو المس بمؤسسات المملكة". بلاغ لوزارة الإعلام يدين مؤامرة مصدرها الخارج. حُجز جواز سفر عبد الرحيم بوعبيد عند عودته من رحلة إلى فرنسا. إعلان ملكي أمام المجلس الوطني للمقاومة. بلاغ جديد. طويل جدا. لوزارة الداخلية. يَذكر اغتيال المناضلي في يوليوز 1972، والهجوم في دجنبر 1972 على الوادي ومحاولات زرع متمردين في جبال خنيفرة وأحفير في يوليوز 1972. اعتقالات بمنطقة سوس.

28 أبريل: تعديل قانون الحريات العامة.

8 ماي: وفاة إبراهيم التيزنيتي، المعروف بالنمري.

25 يونيو-30 غشت: محاكمة 157 متهما في أحداث مارس بالمحكمة الدائمة للقوات المسلحة الملكية بالقبيطرة (من بينهم 8 عسكريين). 137 منهم يتهددهم الحكم بالإعدام. و17 بالمؤبد. و7 متابعون بحيازة السلاح. صرح 12 منهم منذ الوهلة الأولى أن الاعترافات انتزعت منهم بواسطة التعذيب. احتجاجات في فرنسا. محامون مغاربة. بينهم جزائريون. مُنعوا من المرافعة. 100 محامي مغربي. من بينهم 64 عينوا في إطار المساعدة القضائية.

27 يوليوز: اغتيال مواطن مغربي. أحمد بوشليخي. بأوسلو. من قبل كومونندو إسرائيلي.

30 يوليو: محاكمة جماعات يسارية بالدار البيضاء بتهمة المس بأمن الدولة (إلى
الأمام وبلفريج): 80 مدانا من بينهم 25 في حالة فرار. اعتقلوا ما بين 10 و 17
مارس 1972: 38 حكما بالحبس ما بين 25 سنة و سنتين. 14 حكما بالبراءة.
غشت: حُكم على أبراهام السرفاتي بالمؤبد غيابيا.
27 غشت: قدم علي يعة حزبا جديدا: حزب التقدم والاشتراكية.
30 غشت: النطق بالحكم في قضية أحداث 3 مارس: 16 حكما بالإعدام، 15 حكما
بالسجن المؤبد. 49 حكما بالحبس مع الأشغال الشاقة. 7 أحكام موقوفة التنفيذ. بعض
الحكوم عليهم بالبراءة. كما هو شأن المحامون الأعضاء المسيرون في الاتحاد الوطني للقوات
الشعبية. ومن بينهم عمر بنجلون. سيُعتقلون من جديد بتهمة أخرى: سوف تُعاد محاكمتهم
بعد مضي 6 أشهر. اندهشت جريدة لوموند لغياب تسامح النظام. هذا في حين. تضيف
الجريدة. أن "الحسن الثاني كان يعطي الانطباع بأنه يريد طي الصفحة".
شتنبر: لقاء جديد بأغادير بين الحسن الثاني وبومدين وولد دادة.
20 أكتوبر: انتفاضة الفلاحين بتاسولطانات في منطقة مراكش.
فاخ نونبر: تنفيذ حكم الإعدام في 15 من بين 16 محكوما عليه بالإعدام. من بينهم
دهكون.

تواريخ أخرى بعد 1973

18-28 يناير 1974: محاكمة جديدة للمدانيين في أحداث مارس 1973 بالمحكمة
العسكرية: 6 أحكام بالإعدام. 3 أحكام بالسجن المؤبد. 4 أحكام بالحبس 30 سنة.
نُعت الفقيه البصري ب"المحرض الخطير"، الذي حاول عدة مرات قلب النظام.
27 غشت 1974: إطلاق سراح عمر بنجلون و6 من المسؤولين عن الاتحاد الوطني
لللوات الشعبية. سبق الحكم ببراءتهم سنة 1973 ثم أعيد اعتقالهم.
الترخيص لحزب التقدم والاشتراكية لعلي يعة. تطبيق الحكم بالإعدام في 7 من
المدانين في قضية مارس 1973. في المجموع. نُفذ حكم الإعدام في 22 محكوما
عليه بالإعدام.
17 شتنبر 1974: لجوء المغرب إلى محكمة لاهاي للنظر في قضية الصحراء.
10-12 يناير 1975: المؤتمر الاستثنائي للاتحاد الوطني للقوات الشعبية الذي
أصبح الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية. تخلص عن الاختيار الثوري بالنصريح بكونه
مستعدا للمشاركة في الحكومة.
5 أكتوبر 1975: المسيرة الخضراء.
14 نونبر 1975: اتفاقية ثلاثية الأطراف. المغرب وأسبانيا وموريتانيا. حول اقتسام
الصحراء.

- 12 دجنبر 1975: العفو عن أحمد بنجلون.
- 18 دجنبر 1975: اغتيال عمر بنجلون أمام بيته بالدار البيضاء من قبل جماعة من الإسلاميين: كان ينتقد المسلسل الانتخابي المزمع تنظيمه وكان يريد الذهاب بعيدا في قضية الصحراء. كان ينادي بحرب شعبية.
- 3 يونيو: انتخابات تشريعية جديدة.
- أحداث العيون: 37 قتيلا و82 جريحا و900 حالة اعتقال. قمع قبائل الركيبات.
- فاسخ مارس 1977: انظم 4 مسيرين من المعارضة إلى الحكومة كوزراء دولة بدون حقائب لمساندة مسلسل استرجاع الصحراء. من بينهم عبد الرحيم بوعبيد.
- مواصلة المسلسل الانتخابي.
- 7 مارس 1977: قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر على إثر قضية الصحراء.
- 9 غشت 1979: على إثر انسحاب موريتانيا، ضم المغرب الصحراء الغربية.
- 25 يناير 1983: موت الدليمي.
- أبريل 1998: حكومة التناوب.
- 23 يوليوز 1999: موت الحسن الثاني.

ثَبَّتْ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي وَرَدَتْ فِي هَذَا الْكِتَابِ

عباس، واسمه الحقيقي مبارك بودركة : صديق دهبكون في الطفولة. وعضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. سوف يجنده دهبكون سنة 1971 ليسير خلية سرية من خلايا التنظيم بالرباط. لجأ في آخر لحظة من موجة الاعتقالات التي شهدتها شهر مارس من سنة 1973. واستطاع الهروب إلى خارج البلد. هو إلى حدود شهر يونيو من سنة 2001. كان لا يزال يعيش في فرنسا.

العشعاشي محمد : رئيس خلية محاربة العاملين على قلب النظام التابعة للمخابرات المغربية. يشرف على التسرب إلى حركات المعارضة. ويشرف كذلك على "الاستنطاقات" التي تجري داخل مراكز الاعتقال السرية. وقد اعتبرته الاعتقالات التي أتت بعد فوات الأوان والتي نشرها عميل للمخابرات في شهر يونيو من سنة 2001. عضوا نشيطا خلال اختطاف المهدي بن بركة واغتياله في باريس سنة 1965.

أكوليز أحمد، المعروف بشيخ العرب : مقاوم منذ سنة 1954. لجأ من التصفيات التي تَلَتْ تَفْكِيكَ جيش التحرير الوطني ابتداءً من سنة 1956 ليعيش منذ ذلك الحين في السرية. وسنة 1963. لجأ إلى الجزائر فراراً من موجة القمع التي اجتاحت المغرب. عاد سرا إلى المغرب رفقة الفرشي في شهر أبريل من سنة 1964. ومات في اشتباك في مدينة الدار البيضاء سنة 1964.

آيت أحمد الحسين : رمز تاريخي من رموز جبهة التحرير الوطني الجزائرية. قاد انتفاضة في منطقة القبائل سنة 1963. أسكتت القوات النظامية انتفاضة الحسين آيت أحمد واعتقلته قبل أن يركب طريق المنفى. عاد إلى الجزائر سنة 1989 ليتأصل بها جبهة القوى الاشتراكية.

آيت عمي لحسن، المعروف بالحاج : لجأ إلى الجزائر حيث التحق بالتنظيم وذلك كي يتابع تدريباً عسكرياً في سوريا. وعند نهاية سنة 1969. التحق بصفوف الجبهة من أجل تحرير فلسطين. لجأ من مجازر أيلول الأسود. وأصبح واحداً من الأطر الثورية التي رافقت محمود إلى المغرب سنة 1973. اعتقل بتالسينت في شهر ماي من سنة 1973 مع با العمراني. في الوقت الذي كانا يستعدان فيه لعبور الحدود الجزائرية. حُكِمَ عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم بالقيبطرة في فاتح شهر نونبر من سنة 1973.

آيت المودن محمد : مقاوم منذ سنة 1954. ثم عضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. لجأ من موجات الاعتقال التي جرفت سنة 1969 بمراكش الحبيب الفرقاني ورفاقه. لاذ بالسرية في الدار البيضاء. اعتقل إبان تفكيك شبكة الحسين

المنوذي سنة 1970. حُكِمَ عليه بالمؤبد. وعُفي عنه سنة 1980. إلى حدود شهر يونيو من سنة 2001 كان لا يزال يعيش بمدينة أغادير.

آيت قدور محمد، المعروف ببولوجية : طالب قديم بالأكاديمية العسكرية بكناس. غادر الجيش سنة 1956 ليتابع تكوينه في الهندسة المدنية. عضو الاتحاد الوطني للقوات الشعبية منذ إنشائه. اعتقل سنة 1964 ثم أفرج عنه. حُكِمَ عليه غيابيا لتورطه في الانقلاب الثاني (1972). بدأ أحد مسيري التنظيم النشيطين حتى سنة 1973. وحتى حدود شهر يونيو من سنة 2001. كان رئيس ديوان بوزارة السكنى التي يسيرها اليازغي.

آيت زايد الحسين، المعروف بعبد السلام : عضو في التنظيم تَكُون في سوريا. عاد إلى المغرب سنة 1970. رجل اتصال الخلايا السرية بالأطلس الكبير. اعتقل بعد اشتباك يوم 10 مارس من سنة 1973 قرب تنغير. حُكِمَ عليه بالإعدام. فكان المعضب الخامس عشر من بين الذين نُفذَ فيهم الإعدام بالقنيطرة في فاخ نونبر من سنة 1973.

عجول العربي : عضو نشيط في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. ثم في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. أصبح نهاية الستينيات ممثل نقابة الطلبة بفرنسا. وجه رزين ومتمكّن. ولكنه وجه حاسم داخل إدارة التنظيم. حُكِمَ عليه غيابيا سنة 1973. عُفي عنه سنة 1980. وعاد إلى المغرب. كاتب الدولة في البريد من سنة 1989 حتى سنة 2000. انتخب عضوا في المكتب السياسي للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية سنة 2001.

العلوي سليمان، المعروف بمولاي عمر، المعروف بمنصور : من مواليد بني ملاب (تاديفوست). عضو سابق في جيش التحرير الوطني. هو من بين أهم أطر التنظيم العسكرية. سواء في الجزائر أم في سوريا أم في ليبيا. درّب عددا من المناضلين على الكفاح المسلح. عاد مع محمود سنة 1973. ومات إلى جانبه يوم 5 مارس من سنة 1973.

أمقران محمد : عقيد (كولونيل) في القوات المسلحة. أحد منظمي انقلاب سنة 1972. حُكِمَ عليه بالإعدام. ونُفذَ فيه الحكم يوم 13 يناير من سنة 1973. **أسكور محمد، المعروف بكاسترو :** طالب تم تجنيده في الجزائر تَكُون في سوريا قبل أن يدخل سرا إلى المغرب سنة 1970 مع مجموعة اليزيد. تراجع إلى الجزائر وانضم إلى المجموعة الصغيرة المقربة من محمود والتي دخلت المغرب سنة 1973. شارك في عملية مولاي بوعزة قبل أن يموت في المعركة يوم 6 ماي من سنة 1973. **الباعمراني، واسمه الحقيقي برو امبارك بن أحمد :** مقاوم سابق في جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. أصبح ضابط صف في القوات المسلحة

الملكية قبل أن يلجأ إلى الجزائر. تلقى تكويناً عسكرياً في الجزائر وسوريا. وفي سنة 1973. كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتُقل بتالسينت في شهر ماي من سنة 1973 مع آيت عمي. في الوقت الذي كانا يستعدان فيه لعبور الحدود الجزائرية. وحُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاح نونبر من سنة 1973.

برو : مقاوم سابق ورفيق أوفقيير في الفوج. أصبح قائد السلطة في سلا. هرب من موجة القمع سنة 1963 ولجأ إلى الجزائر. وفي المنفى. تكلف بتسيير معسكر أوواطا حتى إغلاقه سنة 1964.

البصري محمد، المعروف بالفقيه : مقاوم سابق وإطار في الإتحاد الوطني للقوان الشعبية. اعتُقل وحُكم عليه بالإعدام سنة 1963. عُفي عنه وأُطلق سراحه سنة 1965. بقي في المنفى منذ سنة 1966. حيث نظم وسير التنظيم. حُكم عليه بالإعدام غيابيا سنة 1971 و1973. توفي سنة 2003.

بنحمو محمد : قائد جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. أصبح ضابطا في صفوف القوات المسلحة الملكية ابتداءً من سنة 1959. وفي سنة 1963. فر من القوات المسلحة الملكية ولجأ إلى الجزائر فتبعه العديد من ضباط الصف. شارك في تأسيس معسكرات للتدريب في الجزائر.

بن بركة المهدي : عضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية ورئيس سابق للمجلس الوطني الاستشاري. فرض نفسه على أنه وجهٌ ذو نزعة دولية يعمل على التقريب بين الحركات التحريرية. اختُطف في باريس في شهر أكتوبر من سنة 1965 واغتيل بها.

بنبلا أحمد : مسير جبهة التحرير الوطني وأول رئيس للجمهورية الجزائرية (1962-1965).

بنيحي محمد، المعروف بالحامي : مسير الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. تم تجنيده في الجزائر. تلقى عدة تدريبات عسكرية في الجزائر وسوريا قبل أن يدخل سرا إلى المغرب سنة 1970 مع مجموعة اليزيد. تراجع إلى الجزائر. وحُكم عليه غيابيا خلال محاكمة مراكش. عضو مسير للتنظيم حتى شهر غشت من سنة 1973. عُفي عنه في الثمانينيات. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ملحق صحافي للوزير الأول عبد الرحمن اليوسفي. وهو حاليا نائب مرلماني.

بنجلون أحمد، المعروف بعبد المومن : أخ عمر بنجلون ومسير للاتحاد الوطني لطلبة المغرب. أصبح أحد قادة التنظيم في سوريا. اعتُقل بمدريد مع سعيد بونعيلات في شهر يناير من سنة 1970. حُوكِم وأدين في محاكمة مراكش. عُفي عنه في الثمانينيات. وعاد ثانية إلى الحياة السياسية بصفته محاميا وصحفي

وعضوا مسيرا لحزب الطليعة الديمقراطي الاشتراكي. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مدينة الرباط.

بنجلون عمر : مسير نقابي وعضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، اغتيل يوم 18 دجنبر من سنة 1975.

بنسعيد محمد إد : قائد تاريخي لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب. حُكم عليه بالإعدام غيابيا سنة 1963. عاد من المنفى في الثمانينيات وأسس منظمة العمل الديمقراطي الشعبي. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش بمدينة الدار البيضاء.

بنسليمان حسني : لواء (جنرال) بالدرك، عامل سابق على خنيفرة. **بوعبيد عبد الرحيم** : عضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، وزير سابق، وكتب عام للحزب انطلاقا من سنة 1975 . توفي في 8 يناير من سنة 1992.

بوبكر إدريس : قائد تاريخي لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، ورفيق مقرب من النمرى، أصبح رائدا (كوماندا) في القوات المسلحة الملكية في الستينيات. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في الرباط.

بومعزة البشير : عضو جبهة التحرير الوطني الجزائرية، أصبح وزير الاقتصاد في حكومة بنبلا (1962-1965)، قبل أن يلجأ إلى المنفى سنة 1966. عين رئيسا للمجلس سنة 1968، وأقيل من مهامه سنة 2001.

بومدين الهواري : وزير الدفاع الجزائري، وصل إلى السلطة بعد انقلاب سنة 1965، توفي في يوم 29 من شهر دجنبر سنة 1978.

بونعيلات سعيد، واسمه الحقيقي محمد أجار : وُلد سنة 1920 بتافراوت، مقاومٌ إبان الحماية. حُكم عليه ثلاث مرات بالإعدام، منها مرتان تحت حكم الحسن الثاني. حُول آخرُ حكم بالإعدام لتورطه في "مؤامرة 69" إلى عفو. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش بسوق السبت قرب بني ملال.

بوستة عبد الغني، المعروف بعمر : أصله من مراكش، وهو مناضل في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تابع دراسته في مدينة غرونوبل نهاية الستينيات في الوقت نفسه الذي كان يدرس بها العربي العجول والطبيب بناني وإبراهيم أوشلح. لما نال دبلوم مهندس عاد إلى المغرب، وعُين مدير سدود جنوب المغرب. وابتداءً من سنة 1973، غادر المغرب والتحق بليبيا، توفي في باريس سنة 1998.

بوزيان، واسمه الحقيقي حسن الترغيشيت : مقدم سابق في آسفي، لجأ إلى الجزائر، وتابع تكوينه عسكريا في الجزائر وسوريا. وسنة 1969، التحق بنواحي مراكش مع العثماني وشوجار والفرشني. لجأ في آخر لحظة من الاعتقالات التي قضت

على التنظيم. ولجأ إلى الجزائر. وسنة 1973. كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتُقل في تونسيت يوم 9 أبريل من سنة 1973 مع العثماني في شهر ماي من سنة 1973. حُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم يوم فاتح نونبر من سنة 1973 بالقيظرة.

بوراس، واسمه الحقيقي بوراس الفيكيكي، المعروف بـ "الأعور": وجه تاريخي من وجوه جيش التحرير الوطني. وعضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يعيش في مدينة الرباط.

ابراهيم، واسمه الكامل ابراهيم أوصلح، المعروف بأحمد بنونة : أصله من سلا. وهو مناضل في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، تابع دراسته في غرونوبل نهاية الستينيات في الوقت نفسه الذي كان يدرس بها العربي العجول والطيب بناني وعبد الغني بوسنة. حاصل على دبلوم في الجيولوجيا من نانسي. وأصبح ابتداءً من سنة 1971، مسؤولاً عن التنظيم في ليبيا. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يعيش في باريس.

الشلواطي محمد : عقيد (كولونيل) وعامل على مدينة وجدة. ساهم في انقلاب الصخيرات سنة 1971. أُعدم يوم 13 يوليوز من سنة 1971.

شجار عبد الرحمن : عضو شبكات شيخ العرب. وهو مدرس بأسفي. تابع تكويننا عسكريا بسوريا قبل أن يدخل سرا إلى المغرب صحبة الفرشي والعثماني وبوزيان. وُشئ به ابراهيم المناضي. فاعتُقل سنة 1969 وحُكِم عليه محكمة مراكش. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يعيش في المغرب.

دحمان، سعيد : من مواليد تنغير. من قدماء المقاومين المقربين من سيدي حمو. وهو من بين الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب سنة 1973. اعتُقل يوم 20 أبريل من سنة 1973 بتاغلافت. حُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقيظرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

دهكون، عمر، المعروف بـ زهير : من مواليد أغادير. مناضل سري انطلاقاً من بداية الستينيات. التحق بصفوف التنظيم ليتابع تدريباً عسكرياً بالجزائر ثم بسوريا. قائد الخلايا السرية بالرباط والدار البيضاء. اعتُقل وحُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم في القنيظرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الدليمي أحمد : عقيد (كولونيل). ورئيس المخابرات ابتداءً من سنة 1971. مات في ظروف لم توضح بعد. يوم 25 يناير من سنة 1983 بمراكش.

الدراعيا أحمد : رئيس الأمن الجزائري منذ سنة 1965 والساعد الأيمن ليومدين.

الفرشني، واسمه الحقيقي عمر الناصر : أصله من مراكش. وهو مقاوم سابق هرب من المغرب سنة 1960 لينجو في آخر لحظة من رجال الدرك الذين جاءوا لاعتقاله. تتبع عدة تكوينات وساهم في أخرى في الجزائر ثم في سوريا. دخل المغرب مرتين سنة 1964 مع شيخ العرب ثم سنة 1969 مع العثماني وبوزيان وشوجار. وكان كل مرة ينجو من مطارديه. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يعيش في الدار البيضاء.

الهوني عبد المومن : عضو في جماعة "الضباط الأحرار" الذين وصلوا إلى السلطة في ليبيا سنة 1969. فرض نفسه على أنه الرجل الثاني في الحكومة جامعا بين وظيفتي وزير الشؤون الخارجية والخبرات المضادة. دخل المنفى سنة 1975 في القاهرة قبل أن يُعَيَّن في شهر شتنبر من سنة 2000. مثلاً دائماً للبيبا في الجامعة العربية.

المالكي عبد الله، المعروف بالختار : حفيد سيدي حمو. تكون في الجزائر ثم في سوريا. اعتقل في مدريد في شهر يناير من سنة 1970. رُحِلَ إلى دمشق. عاد إلى المغرب مع محمود سنة 1973. وهو من بين الناجين القليلين. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يعيش في الدار البيضاء.

الميد، واسمه الحقيقي أحمد خير : أصله من فيكيك. وهو مقاوم سابق اتصل به بوراس من أجل تسريب بعض مناضلي التنظيم الذين تكونوا في سوريا. سراً إلى المغرب. حُكِمَ عليه غيابياً. وابتداءً من سنة 1970. علا شأنه داخل منظمة التنظيم. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يعيش في نواحي باريس.

المهتدي محمد : عضو في شبكة دهكون. تكون في سوريا. اعتقل في شهر مارس من سنة 1973. حُكِمَ عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم 27 غشت من سنة 1974.

الوالي مصطفى : مناضل في صفوف الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. التحق بصفوف التنظيم وتكون في ليبيا. أسس البوليزاريو في شهر ماي من سنة 1973. مات في المعركة يوم 9 يونيو من سنة 1976. خلال عملية هجوم على نواكشوت. **اليازغي محمد :** إطار في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. حوكم سنة 1970 بمراكش وسنة 1973 بالقنيطرة لتواطئه مع التنظيم. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001. وزير السكنى.

فريكس، ويدعى أيضا نافا العطا أو منصور، واسمه الحقيقي عبد الله بن محزون : أصله من تيزنيت. تابع تدريباً عسكرياً في الجزائر ثم في سوريا. عاد إلى المغرب مع مجموعة محمود سنة 1973. جُرح خلال الاشتباك الذي ذهب بحياتي محمود وسليمان العلوي. حُكِمَ عليه بالإعدام. ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الفاسي علال: زعيم الاستقلال ومؤسس حزب الاستقلال. توفي سنة 1974.

الفرقاني محمد، المعروف بالحبيب الغياي : إطار في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية وقائد الخلايا السرية في منطقة مراكش. اعتقل في شهر دجنبر من سنة 1969 وأدين. عُفي عنه في الثمانينيات. وأصبح نائبا برلمانيا على المحمدية. وهو حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في المحمدية.

الادريسي توفيق : مُقرب من دهكون. محامي التكوين. عضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب. تابع تدريباً عسكرياً في سوريا. وعند عودته إلى البلد. اعتقل وأدين. أطلق سراحه. وسرعان ما اعتقل ثانية سنة 1973. وهو حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال في هيئة الدار البيضاء.

الجزار، واسمه الحقيقي موحى أو موح نايت باري : من مواليد بني ملال. وهو ضابط صف سابق في صفوف القوات المسلحة الملكية. رحل إلى الجزائر سنة 1963. والتحق بمعسكرات التدريب في الجزائر ثم سوريا. عاد مع مجموعة محمود سنة 1973. اعتقل مع دحمان سعيد قرب تاغلافت يوم 20 أبريل من سنة 1973. حُكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر 1973.

الجبلي عبد السلام : قائد تاريخي لجيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب وعضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية. عرف المنفى ابتداءً من سنة 1960. وهو حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مراكش.

جبيهة عمر : طبيب رئيس بمستشفى قصر السوق (الراشدية حاليا) في شهر مارس من سنة 1973. وقف على وصول جثتي محمود وسليمان العلوي. وهو حتى شهر يونيو من سنة 2001، يزاول بمدينة الدار البيضاء.

الجدائني مصطفى، المعروف بعمر : مقرب من دهكون. أستاذ بالثانوي. تكون في سوريا قبل أن يصبح قائد خلية سرية بوجدة. اعتقل في شهر مارس من سنة 1973 وحُكِم عليه بالإعدام. نُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاتح نونبر من سنة 1973.

الخضار الحسين، المعروف بجلول : أصله من الرباط. مقاوم سابق. عضو القيادة العليا لجيش التحرير الوطني في المنفى. شارك في تنظيم التنظيم بالجزائر. مات بوهران سنة 1981.

خالد، أو حسن إبراهيم، واسمه الحقيقي محمد التوزاني : طالب وعضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب والاتحاد الوطني للقوات الشعبية. استقر في المشرق. وتابع تكويناً في الأكاديمية العسكرية السورية قبل أن يشارك في التنظيم العسكري للتنظيم في سوريا ثم في ليبيا والجزائر. وحتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في باريس.

الخطابي عبد الكريم : وجه تاريخي من وجوه المقاومة. نظم سنة 1921 تمرداً وأعلن الجمهورية الريفية. صمد طيلة أربع سنوات في وجه الجيشين الاستعماريين الفرنسي والأسباني. وهُزِمَ في آخر المطاف ورحل إلى جزيرة لارينيو. مات في المنفى بالقاهرة يوم 6 فبراير من سنة 1963.

الخطابي عمر : ابن أخ عبد الكريم الخطابي. وُلِدَ سنة 1926. على متن الباخرة التي كانت راحلةً بعمه إلى المنفى. مدير مصحة بالقيظرة. اعتُقِلَ سنة 1973 بعد الاكتشاف المتأخر لتواطئه مع العقيد (الكولونيل) أمقران والفضية البصري. وحتى شهر يونيو من سنة 2001. ما زال يزاوِل مهنته في القنيطرة.

اللوذي حدو : قائد خلايا سرية للتنظيم في كلميمة. هرب إلى الجزائر سنة 1973. عاد إلى المغرب نهاية السبعينيات. توفي بالرباط سنة 1997.

محمود، واسمه الحقيقي محمد بنونة : من مواليد مدينة الرباط. وهو مسير للاخاد الوطني لطلبة المغرب وعضو في الاخاد الوطني للقوات الشعبية. أصبح انطلاقاً من سنة 1968 أحد أهم مسيري التنظيم. دخل إلى المغرب سرا مع عدد من الأطر المنتقاة. مات في المعركة يوم 5 من شهر مارس سنة 1973.

المانوزي إبراهيم، المعروف بالقائد ماو : أصله من تافراوت. وهو ضابط سابق في جيش التحرير الوطني. أصبح خليفة ثم قائداً (كومندان) بالقوات المسلحة الملكية. اتهم بالتواطؤ مع منفذي عملية الصخيرات. فأعدم في شهر يوليوز من سنة 1971.

المانوزي الحسين، المعروف بخليل أو أبو علي : ابن أخ إبراهيم المانوزي. عضو في الاخاد الوطني لطلبة المغرب. تلقى تدريباً عسكرياً بسوريا قبل أن يعود إلى المغرب ويكوّن خلية سرية بالدار البيضاء. لجأ من الاعتقالات التي قضت على شبكته. فالتحق بليبيا حيث أشرف على تزويد الخلايا السرية بالمغرب بالسلاح. اختطف بتونس يوم 29 أكتوبر من سنة 1972. واعتُبر مختفياً منذ ذلك الحين.

ماسين عبد الرحمن : قائد إحدى خلايا التنظيم بخنيفرة. اعتُقِلَ وحوكِم وأدين. عُفي عنه سنة 1980. وانتُخب مستشاراً جماعياً سنة 1992. وأصبح البرلماني الممثل لمدينة اخنيفرة منذ سنة 1997.

المدبوح محمد : جندي سابق بالجيش الاستعماري. وزير البريد. وعامل على مدينة الدار البيضاء. أصبح هذا العقيد (كولونيل) رئيس الأمن المقرب من القصر الملكي. ساهم في تنظيم انقلاب الصخيرات العسكري يوم 10 يوليوز من سنة 1971. قُتل خلال العملية.

الملياني إدريس : مقرب من دهكون. مدرس بالثانوي. كان يسير خلية سرية للتنظيم. اعتُقِلَ في شهر مارس من سنة 1973. وحكِم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم 27 غشت من سنة 1974.

ملوك الشافعي، المعروف بأبي علي : إطار في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، وأصل تدريبه العسكري في سوريا. وعند عودته إلى المغرب، اعتقل وحوكم وأدين. وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001، أمين مال جريدة الاتحاد الاشتراكي بالدار البيضاء.

مرزوق الحسن : عضو خلية سرية للتنظيم بكلميمة، لجأ طيلة 14 سنة من البوليس وذلك باختبائه تحت بيته. ظهر ثانية بعد عفو سنة 1987. مات في حادث في يوليو من سنة 2001.

النجار، ويدعى كذلك الخيرانى أو موسى، واسمه الحقيقي رشيد الزين: أحد قدماء جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، التحق بالقوات المسلحة الملكية حيث أصبح رقيباً أولاً، هرب إلى الجزائر سنة 1963 مع الناصري. تَكون في الجزائر ثم سوريا، اعتقل في مدريد في شهر يناير من سنة 1970 ورحل إلى دمشق. وعند عودته إلى المغرب مع محمود سنة 1973، كان ضمن الناجين القليلين، وهو. حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في مدينة الرباط.

الناصرى، واسمه الحقيقي الحسين الادريسي بن صلاح : من مواليد بني ملال، وهو من قدماء جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب، أصبح ضابط صف في القوات المسلحة الملكية. هرب من المغرب سنة 1963 مع النجار ليلتحق بصفوف الثوار في الجزائر ثم سوريا. وسنة 1973، كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتقل وحُكم عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاخ نونبر من سنة 1973.

الناصرى فاضل : إطار بالاتحاد الوطني لطلبة المغرب تكون في سوريا، وهو مدير لمدرسة حرة وكان رجل الاتصال بين خلايا الأطلس وخلايا الدار البيضاء والرباط. اعتقل سنة 1971 وأدين سنة 1973. عُفي عنه سنة 1981، وهو مازال يعيش في مدينة الدار البيضاء حتى شهر يونيو من سنة 2001.

النمرى عبد الله أو التيزنيتي، إبراهيم : أهم وجوه جيش التحرير الوطني-منطقة الجنوب؛ أصبح. خلال سنوات المنفى في سوريا والجزائر عضوا نشيطا في القيادة العليا لجيش التحرير الوطني بالمنفى. عاد سرا إلى المغرب سنة 1971، ومات في المعركة يوم 8 ماي 1973.

العثماني، واسمه الحقيقي محمد بوشاكوك : رقيب سابق في القوات المسلحة الملكية، لجأ إلى الجزائر حيث تلقى تدريب عسكري في الجزائر ثم سوريا. التحق بنواحي مراكش سنة 1969 مع بوزيان وشوجار والفرشي. لجأ في آخر لحظة من الاعتقالات التي قضت على التنظيم. ولجأ إلى الجزائر. وسنة 1973، كان ضمن الأطر التي رافقت محمود إلى المغرب. اعتقل بتونيفيت مع بوزيان يوم 9 أبريل

من سنة 1973. حُكِمَ عليه بالإعدام ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاخ نونبر من سنة 1973.

أوفقيير محمد : لواء (جنرال) ووزير الداخلية. كان في الوقت نفسه يتحكم في القيادة العليا للجيش وفي مصالح الخابرات. مات مقتولا بالقصر الملكي في الليلة ما بين 16 و 17 غشت من سنة 1972. بعد اكتشاف تواطئه في الانقلاب الثاني سنة 1972.

أوالحاج موحى، واسمه الحقيقي أمحزون : من أعيان مدينة اخنيفرة. ينحدر من سلالة من الملاكين المحليين. أصبح، بفضل قرابة الزواج، صهر الملك الحسن الثاني. الممول الرئيسي للنمري منذ تسريه. استقبل وأوى خمسة من القادة الثوريين الذين دخلوا البلاد مع محمود سنة 1973. اعتُقل يوم 4 مارس. ثم حُكِمَ عليه بالإعدام. ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة يوم فاخ نونبر من سنة 1973.

أمدة محمد : من مواليد اخنيفرة. عنصر سابق في القوات المساعدة. تدريب في سوريا قبل أن يعود إلى المغرب سنة 1969. اختبأ في الرباط حتى سنة 1971. استقر في الجبال بناوحي مدينة اخنيفرة ابتداءً من سنة 1971. لجأ من اعتقالات مارس سنة 1973. ولجأ إلى الجزائر حيث توفي سنة 1980.

ساعة، واسمه الحقيقي محمد بن عبد الحق بنعمارة : عضو سابق في المقاومة. أصله من فيكيك. أصبح بعد الاستقلال مساعد قائد الحزن بكلميمة. اعتُقل في سنة 1960 لحيازته السلاح. غادر السجن سنة 1965. وابتداءً من سنة 1971، أصبح قائد خلايا التنظيم السرية بفيكيك المسؤولة عن عبور الحدود الجزائرية-المغربية. هرب من موجة القمع سنة 1973. حوكم غيابيا. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في الدار البيضاء.

صبري، المعروف بهو شي مين، واسمه الحقيقي محمد بن الحسين : طالب تم تجنيده في الجزائر. تكون في سوريا قبل أن يدخل البلاد سرا سنة 1970 رفقة مجموعة اليزيد. تراجع إلى الجزائر وهو ضمن المجموعة الصغيرة المقرية من محمود التي دخلت المغرب سنة 1973. شارك في عميلة مولاي بوعزة قبل أن يُعتقل يوم 9 ماي من سنة 1973. حُكِمَ عليه بالإعدام. ونُفذ فيه الحكم بالقنيطرة في فاخ نونبر من سنة 1973.

ساهر، واسمه الحقيقي العربي الفيكيكي : مقاوم سابق. وعضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية. صُهر مفتش الشرطة سهيل رمسيس. طلب منه محمود أن يتكلف بربط الاتصال مع بعض الخلايا السرية بالمغرب. توفي بالدار البيضاء سنة 1977.

سباطة عبد الفتاح، المعروف بعباس : مقاوم سابق، عضو في الاتحاد الوطني للقوات الشعبية، حُكِمَ عليه بالإعدام غيابيا سنة 1959 وسنة 1963. شارك حتى سنة 1967 في جُنْدِ أطر لحساب التنظيم. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال رئيس المجموعة الحضرية للرباط.

الصغير، واسمه الحقيقي محمد بالقاضي : أصله من بني ملال، تم تجنيده في الجزائر حيث تلقى تدريباً عسكرياً قبل أن يلتحق بسوريا. اعتُقِلَ في مدريد في شهر يناير من سنة 1970. رُحِلَ أخيراً إلى دمشق. عاد إلى المغرب مع محمود سنة 1973. كان ضمن الناجين القليلين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في ليبيا.

سي إبراهيم، واسمه الحقيقي محمد نايت الهاشمي : صُهِرَ حسين الخضار، وحفيد سيدي حمو، تكون في الجزائر ثم في سوريا. اعتُقِلَ في مدريد في شهر يناير من سنة 1970. رُحِلَ إلى دمشق. عاد إلى المغرب مع محمود سنة 1973. كان ضمن الناجين القليلين. وهو، حتى شهر يونيو من سنة 2001، ما زال يعيش في وهران.

سيدي حمو عبد العليم : وجه من الوجوه المناهضة للاستعمار، وسبق في هذا الشيخ لِسِنَنَ طويلة أحد معالم الحركة الثورية السرية في الأطلس. نجا من اعتقالات مارس من سنة 1973، توفي في تنغير في شهر شتنبر من سنة 1997.

التانوتي محمد : حارس شخصي للملك حتى سنة 1962، ثم ضابط مسؤول عن مراقبة المراكز الحدودية حتى سنة 1970، وهو تاريخ اعتقاله. قضى عقوبة حبسه عشر سنوات، ما زال يعيش في الدار البيضاء حتى شهر يونيو من سنة 2001.

اليزيد البركة : طالب وعضو في الاتحاد الوطني لطلبة المغرب والاتحاد الوطني للقوات الشعبية. تابع تكويناً عسكرياً في الجزائر قبل أن يساهم في تنظيم التنظيم بسوريا. عاد إلى المغرب سرا عدة مرات. اعتُقِلَ في شهر شتنبر من سنة 1970 وأدانته محكمة مراكش. ما زال يعيش في الدار البيضاء حتى شهر يونيو من سنة 2001.

اليوسفي عبد الرحمن : مقاوم سابق، عضو مؤسس للاتحاد الوطني للقوات الشعبية، ثم كاتب عام للاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية ابتداء من سنة 1992. ما زال يزال حتى شهر يونيو من سنة 2001 وظيفته وزير أول.

الفهرست

5	توطئة
11	فجر الأبطال وانطلاقة جيل (1953-1963)
12	النمري، المتמרّد
15	سيدي حمو، متمرّد الأطلس
18	تسرّب إلى جهاز الدولة
19	اختبار القوة
21	عملية المسح والتنحية
23	اعتقال عبد الرحمن اليوسفي والفقير البصري
24	الناجون من تصفية جيش التحرير الوطني
27	محمود، المثقف المناضل
31	دهكون، المناضل النشيط
41	الاختيار الثوري (1963-1968)
41	”سوف تطوى الصفحة“
43	مؤامرة يوليو سنة 1963
47	تشبّت المعارضة
48	حرب الرمال
50	الطمع في الفوز بزعامة ثورة
51	شيخ العرب، الرجل الذي لا يمكن القبض عليه
53	اعتقالات
56	من الراعي الشاب إلى المهندس المناضل
57	داعي المصلحة العليا للدولة
59	الحزب الثوري

61 من تازة إلى معسكرات دمشق
65 من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب إلى الكفاح المسلح
67 الذين حملوا المشعل ثانية

71 **التنظيم (1969-1970)**
71 طائرة شارتر المحملة بالمناضلين
73 وصبة المهدي
75 معسكر الزيداني
78 حرب الفرق الخاصة الفلسطينية
80 عين البيضاء، يوليو 1969
83 تسريبات
85 الهروب
87 مستقبل مكتوب سلفا
88 الفخ
89 الأربعاء 31 دجنبر 1969، دار المقرري
80 الخميس 29 يناير 1970، اعتقالات مدريد
92 الشتات
93 الاثنين 16 فبراير 1970، الكاب 1، الدار البيضاء
97 الكفاح النهائي
99 الجبهة الثانية
102 قتال المواقع الخلفية
104 معطى سياسي جديد

107 **صدي الأيام الموالية التي خيبت الآمال (1971-1972)**
107 مجندون جدد
109 الاثنين 14 يونيو 1971، المحكمة الجهوية بمراكش
113 الثورة الليبية
115 السبت 10 يوليو 1971، الصخيرات
117 الأحد 11 يوليو 1971، باريس
120 الجمعة 17 شتنبر 1971، محاكمة مراكش

121	النقد الذاتي
124	المواقع المتقدمة: وهران
127	تلاق وتلاحم في الأطلس
128	أومدة، المتهور
130	موحي أو الحاج، الفيودالي صاحب النفوذ
132	راديو ليبيا
134	الدبلوماسية الموازية
136	الإذاعة الليبية
137	اعتقال فاضل الناصري

139	الفيضان (1972)
139	قدمات إعدادية النهضة
142	الكومندو البحري
143	القيادة العليا الثورية
145	المؤامرة المزدوجة الزناد
149	الأربعاء 16 غشت من سنة 1972
150	الإدارة برأسين
151	أكتوبر 1972: تدريب في ليبيا
153	نقل الأسلحة
155	المطاردة

157	كواليس الثورة (1972-1973)
157	الشبكة الحضرية
159	تجسس مضاد أو مؤامرة؟
160	السلاح، المزيد من السلاح
161	الرجوع إلى الجزائر
163	اجتماع باريس: نهاية سنة 1972
165	طرابلس، نونبر سنة 1972
169	ساعة الاختيار
172	السبت 20 يناير من سنة 1973، طريق مكناس

177	الأطلس (1973)
177	السبت 27 يناير
179	كلمية
181	تاديفوست
183	تنغير
184	اخنيفرة
185	السبت 10 فبراير
187	في انتظار الشفق
188	الثلاثاء 27 فبراير

193	ثورة أم انقلاب؟
193	الجزائر العاصمة. رأس الجسر المؤدي إلى الثورة
195	الأحد 25 فبراير

199	مارس 1973
199	الخميس فايج مارس 1973
200	الجمعة 2 مارس. اخنيفرة
201	السبت 3 مارس. أملاكو
204	الأحد 4 مارس. أملاكو
205	الاثنين 5 مارس. فيكيك
206	استشهاد ثوري
208	نيران المنحدر
210	الثلاثاء 6 مارس. سونتات
212	الجمعة 9 مارس. تنغير

215	النضال اليأس
215	الثورة البتيمة
216	الخميس 22 مارس. الدار البيضاء
217	السبت 24 مارس. مطار الجزائر العاصمة

219	تاغيغاشت
220	معاناة الفشل
222	استشهاد رجل رفض الخضوع
223	شريف الأطلس
225	العودة إلى بني ملال
226	ماي 1973، اللقاء في بني ملال

229	ثمن الهزيمة
229	خيار تندوف
230	الخميس 2 غشت 1973، الجزائر العاصمة
232	إجهاض ثورة
234	في غياهب النسيان
236	الاثنين 25 يونيو 1973، محكمة القنيطرة
238	السجن المركزي بالقنيطرة
240	الناجون

249	أقدار
250	قدر أمة
251	قدر قائد
253	قدر حزب
255	قدر جيل
257	خاتمة

259	رسالة من محمود إلى الفقيه البصري
------------	---

269	التسلسل الزمني للأحداث
------------	-------------------------------

289	ثبت بالأسماء التي وردت في هذا الكتاب
------------	---

المهدي بنونة

ابن محمد بنونة (المعروف بمحمود).

متخصص في الأنثروبولوجيا.

خريج جامعة لوزان ومعهد الدراسات السياسية بباريس.

يقطن حاليا في سويسرا ويعمل بها.



يعرض هذا الكتاب وقائع أحداث عرفها تاريخ المغرب الحديث. يسردها المهدي بنونة بوفاء وأمانة، قدر المستطاع. أبطالها رجالٌ كان يحذوهم أملٌ بتحقيق الثورة في المغرب. ولكن قليلون هم أولئك الذين يعرفون هذه الأحداث معرفة جيدة. فهي تظهر مسار حياة وتروي كذلك موت العديد من الأبطال المجهولين الذين قاوموا الاستبداد من أجل تحقيق كرامة الإنسان وحرية. تلك الكرامة والحربة التي دفع محمد بنونة وإخوانه في الكفاح حياتهم ثمناً لهما.

لقد انتهت هذه المغامرة نهاية مأساوية أطلق عليها باحتشام "أحداث مارس 73". إنها صفحة طمسها للتاريخ الرسمي وحرقها، بيد أنها أحداث تاريخية لا غنى عن معرفة حقيقتها، سيما وأنها مفتاح من مفاتيح فهم الواقع السياسي الراهن. فالشعوب يجب أن تعلم كيف تشكلت وما هو المعنى العميق لتضحياتها وآمالها.

«يُعتبر نشر هذا المؤلف حدثاً في حد ذاته، ذلك أن الحديث علانية، بالمغرب، حول العمليات العسكرية لفريق مغربي ثائر، على النظام القائم بالمغرب، كان إلى زمن قريب ضمن المحظورات. [...]»

لقد أعطانا المهدي بنونة، وهو ابن محمد بنونة المناضل التقدمي، المهندس ذو التكوين الألماني، الذي اختار، حسب قناعاته العميقة، أن يغير المنكر بالسلاح، فقتل خلال الأحداث، أعطانا المهدي بنونة، الباحث الأنثروبولوجي بسويسرا، درساً في المعالجة النقدية لماضٍ مؤلم. فعلاقاته السلالية وتعاطفه مع دهبكون وسيدي حمو والنمري، ورفاقهم، لم ينتج، لا الحقد ولا التحامل ولا التمجيد، بل مقارنة موضوعية، أنقذت من الضياع ذاكرة، كان الخوف والتسلط يدفعانها إلى فضاءات الصمت والنسيان.»

مصطفى بوعزيز

ISBN : 9954-419-29-2



9 789954 419298